مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ

لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ

يُوسُف القَرَضَاوِي

المجلد الثاني والخمسون

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ ـ ٢٠٢٢م

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ

لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ

يُوسُف القَرَضَاوِي

المِحْوَرُ الخَامِسُ

القُرآن وعلومه وتفسيره

١٠٠ تفسير جزء تبارك

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

بسم الله الرحمن الرحيم

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

مَوْسُوعَةُ الأَعْمَالِ الكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الإِمَامِ
يُوسُفَ القَرَضَاوِي

غير مرخصة للطباعة

المحور الخـامس

القرآن وعلومه وتفسيره

١٠٠

تفسير
جــزء تــبــارك

الإمـام يوسف القرضاوي

نسخة مجانية

من الدستور الإلهي للبشرية

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ١، ٢].

﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ١ ـ ٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١ ـ ١٠].

غير مرخص للطباعة
نسخة مجانية

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن عثمان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**خيرُكم مَن تعلَّمَ القرآن وعلَّمه**». رواه البخاري.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رجلٌ من الأنصار يجلس إلى النبيِّ ﷺ، فيسمع من النبيِّ ﷺ الحديث فيُعجبه ولا يحفظه، فشكا ذلك إلى النبيِّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنِّي أسمع منك الحديث فيُعجبني ولا أحفظه. فقال رسول الله ﷺ: «**استعنْ بيمينِكَ**»، وأومأ بيده للخطِّ. رواه الترمذي.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**يُقال لصاحبِ القرآن: اقرأْ، وارْقَ، ورَتِّلْ كما كنت تُرَتِّلُ في الدنيا، فإنَّ منزلتَكَ عند آخرِ آيةٍ تقرؤها**». رواه أحمد وأبوداود والترمذي.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا عبدَ الله، لا تكنْ مثلَ فلانٍ كان يقوم الليل، فترك قيام الليل**». متفق عليه.

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، وأصلي وأسلم على خير من قرأ القرآن، وفقهه، وعمل به، بل كان النموذج الأول لتطبيقه، والداعية الأول لآياته، محمدٍ ﷺ، وعلى آله وصحبه، ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ها قد أعان الله، وأتممت ما وعدتكم به من تفسير الجزء التاسع والعشرين (جزء تبارك)، بعد أن وفَّقني سبحانه وتعالى لإتمام تفسير الجزء الثلاثين (جزء عم).

وكما ذكرت في مقدِّمة تفسير (جزء عمَّ)، فصِلتي بالقرآن بدأت مع سِنِي عمري الأولى، فقد حفظت القرآن وجودته وأنا دون العاشرة، في كُتَّاب الشيخ حامد أبو زويل في قريتنا الكبيرة (صفط تراب)، من قرى مديرية الغربية بمصر، ومنذ ذلك الوقت وأنا قرين القرآن وملازمه، قارئًا له، ومتدبرًا لمعانيه، وإمامًا يؤمُّ النَّاس به في الصلوات، خصوصًا في صلاة التراويح، وخطيبًا حول موضوعاته، ومؤلفًا يجد القارئ في كتبي جميعًا آيات القرآن مبثوثة في كل صفحة من صفحاتها.

QaradawiBooks.com

صاحبت القرآن أكثر من سبعين عامًا، وكان محور دروسي ومحاضراتي وكتبي وخطبي وفتاواي الَّتي نشرت بعضًا منها في أربعة مجلدات كبيرة.

ولقد ألَّفت في مختلف فنون الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي، في العقيدة والتفسير والحديث والتصوف والتاريخ والدراسات الإسلامية المعاصرة وهي كثيرة.

وقد قاربت مؤلفاتي على مائتي كتاب بين الكبير والمتوسط والصغير، وتعددت موضوعاتها بين الفقه والفكر، وما يخاطب العقل، وما يسمو بالروح، ألَّفت في موضوعات القرآن مثل: «الصبر في القرآن»، و«العقل والعلم في القرآن»، وفي علومه: «كيف نتعامل مع القرآن»، غير أنَّ الحنين أن أنضم إلى قافلة مفسري القرآن، وأن أؤلِّف في تفسير القرآن ظلَّ يراودني الفينة بعد الفينة.

أَمَمْتُ النَّاسَ ما يقارب «نصف قرن» في قطر في صلاة التراويح، وكنت ألقي درسًا بعد الركعات الأربع الأولى عن بعض الآيات الَّتي قرأتها، وكنت قد أعرت إلى الجزائر عامًا، وهناك كان لي درس أسبوعي، فسرت فيه سورة يوسف كاملة، لكن للأسف لم ينشط أحد لجمعها، وبعد عودتي إلى قطر اقترح عليَّ بعض الإخوة أن يكون لي درس تفسير أسبوعي في مسجد عمر بن الخطاب وأن أبدأ بسورة الرعد، ونشطت بعد ذلك لتفسير إبراهيم والحجر، وهي جميعًا مطبوعة.

لقد كان من أكبر أمنياتي أن أتوجه لكتابة تفسير مختصر للقرآن الكريم، وعزمت على ذلك، وأعلنت هذا الأمل المتجدد، ودعوت الله أن يحقِّقه لي، ليكون حاشية في مصحف قطر، بخط الخطاط المتقن عبيدة البنكي السوري، وبدأت بتفسير سورة الفاتحة وسورة النبأ، لكنِّي وجدت أنَّ

QaradawiBooks.com

ما يجول في خاطري من معاني القرآن يأبى أن يتقيد بحاشية مطبوعة على المصحف، فخرجت عن هذه الخطة إلى الكتابة المسترسلة، على طريقتي في التأليف الَّتي اعتدتها منذ كتابي الأول: «الحلال والحرام في الإسلام».

ووفق الله فأتممت تفسير جزء عم، وهأنذا قد أتم الله عليَّ تفسير جزء تبارك، وأسأل الله أن يبارك في الوقت والجهد لأتم ما أؤمله من تفسير كتابه.

وهذا جزء تبارك بين أيديكم، وقد قدمتُ ـ على طريقتي في تفسير جزء عم ـ لكل سورة بذكر أهم مقاصدها، ثمَّ أفسر سائرها، جزءًا جزءًا، وآية آية، جاعلًا اهتمامي الأول أنْ أفسر القرآن بالقرآن، ثمَّ بالسنة الصحيحة، جامعًا بين العقل والنقل، والرواية والدراية، مستعينًا أولًا بالتأمل، ثمَّ بقراءة التفاسير المهمة والاقتباس منها، ولن يعدم القارئ فيه فائدة، وسيجد فيه الخطيب والمحاضر والمدرس والداعية زادًا نافعًا.

وسيجد القارئ لتفسيرنا آراء لن يجدها في غيره من كتبنا، على سبيل المثال لا الحصر: رأيُنا في «الجنِّ» في آخر سورة الجنِّ، ورأيُنا عن مكيَّة بعض الآيات ومدنيتها خلافًا لسورها.

أسأل الله تبارك أنْ يكرمنا بالقرآن وينفعنا بالقرآن، ويجعله حجة لنا لا علينا.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧، ١٢٨].

الفقير إلى عفو ربه

يوسف القرضاوي

الدوحة ٢١ من جمادى الأولى ١٤٣٦هـ

الموافق ١٢ من مارس ٢٠١٥م

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الجُزْءُ التَّاسِعُ والعِشْرُونَ

تفسير سورة الملك

هذه سورة الملك أو سورة تبارك، وتسمَّى: المُنْجية، والواقية، وهي أولى سور الجزء التاسع والعشرين للقرآن الكريم، كما جزَّأه المسلمون بفكرهم وإرادتهم، دون توقيف أو توجيه قرآني أو نبويٍّ؛ ولذا نجد على هذه التجزئة والترْبِيع بعض المآخذ، فأحيانًا ينتهي الجزء قبل أن ينتهي الكلام الَّذي يؤدي معنى مكتملًا، وذلك كما في نهاية جزء ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ [آل عمران: ٩٣] وهو الجزء الرابع، الَّذي انتهى بآية: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ ...﴾ إلى آخر الآية الَّتي تقول: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ٢٣]. وهنا انتهى الجزء الرابع، وبدأ الجزء الخامس بقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ...﴾ إلى آخر الآية [النساء: ٢٤]. فهذه تكملة للمحرَّمات المذكورة في الآية السابقة، ومع هذا فُصلت عن الجزء السابق، وكنا نودُّ لو لم يقعوا في ذلك.

وكثيرًا ما يقع ذلك في تربيع الأحزاب، حيث قُسِّم القرآن ثلاثين جزءًا، وقُسم كلُّ جزء إلى حزبين، وقُسم كلُّ حزب إلى أربعة أرباع، تراعي التقسيم الكمِّي فقط، وإن أُهملتْ المعاني، كما نجد في سورة

QaradawiBooks.com

«المؤمنون»، حيث بدأ الربع الثاني بقوله تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٦]. وهذه الآية تحكي كلمات الكفَّار المشركين، الَّذين يستبعدون الحياة الآخرة، الَّتي كان الرسل يوعدونهم بها.

وقد وجدت بعض التفاسير لهذا الجزء «تبارك» خاصَّة، كتفسير الشيخ عبد القادر المغربي، نزيل دمشق، الَّذي خصَّ جزء «تبارك» بتفسيره رحمه الله تعالى.

ويتميَّز هذا الجزء بأنَّ سوره كلَّها مكيَّة، كما يتميَّز الجزء الثامن والعشرون قبله (جزء قد سمع) أنَّ كلَّ سوره مدنيَّة، وأمَّا جزء «عمَّ»، فإنَّه كلَّه مكيٌّ، إلَّا سورة البيِّنة والنصر.

بداية تفسير السورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾.

السور الَّتي افتتحت بالثناء على الله:

بدأت السورة بالثَّناء على الله عز وجل، كما بدأت سورٌ عدَّة بالثناء عليه سبحانه، وتأكيد تمجيده وتعظيمه، وهذا من مقاصد القرآن الأصلية.

فأحيانًا يكون الثناء والتمجيد بالحمد، كما في أول سورة في القرآن، وهي سورة «الحمد» أو «الفاتحة»، ومعها أربع سور أخرى بدأت

QaradawiBooks.com

بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾. وهي سورة «الأنعام»: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، وسورة «الكهف»: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾، وسورة «سبأ»: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾، وسورة «فاطر»: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، فهي كلها بدأت بالحمد على ما خلق سبحانه في السماوات والأرض، وما أسبغ من نِعَم ظاهرة وباطنة، وعلى إحكامه للخلق كله، وما أنعم به من أمر وتشريع لصالح خلقه.

وأحيانًا يكون الثناء على الله على وجه التسبيح له، وتنزيهه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، سواء كان هذا التسبيح بصيغة المصدر، كما في قوله تعالى أول «الإسراء»: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

أو بصيغة الماضي، مثل قوله تعالى في أول سورة «الحديد»: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. أو ما جاء في أول سورتي «الحشر» و«الصف»: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾. أو ما جاء بصيغة المضارع مثل أول «الجمعة» و«التغابن»: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾. ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ومنه ما جاء بصيغة الأمر، كما في أول سورة الأعلى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾.

QaradawiBooks.com

وأحيانًا يكون الثناء على الله بصيغة «تبارك»، ومثل ذلك ما جاء بهذه الصيغة الَّتي بدأت بها سورة «الملك»، وبدأت بها قبلُ سورة «الفرقان»، وتكرَّرتْ في هذه السورة وفي غيرها، فذُكرتْ في القرآن تسع مرات، في قوله تعالى في أول الفرقان: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ١، ٢]. وقال ﷻ بعد ذلك بآيات: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان: ١٠]. وفي أواخر السورة: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]. كما ذكرت في سورة «الأعراف»: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وفي سورة «المؤمنون»: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]. وفي سورة «غافر»: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤]. وفي سورة «الزخرف»: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥]. وفي سورة «الرحمن»: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

فهذه كلها آيات تبيِّن وتؤكِّد الثناء على رب العالمين، وتمجِّده وتعظِّمه؛ لأنَّه الخالق العظيم، الَّذي كل ما في هذا الكون الكبير، بأرضه وسمائه، وعلويِّه وسفليِّه، بكائناته ومخلوقاته، خلق الخلق وشرع الشرع. فعظمة خلقه، وسموُّ تشريعاته تدلُّ على العظمة والكبرياء والجبروت، وسَعَة المِلك والمُلك: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

QaradawiBooks.com

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

ونبدأ بقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾.

معنى ﴿تَبَٰرَكَ﴾:

تبارك: تفاعل من البركة، وهي: النماء والزيادة، حسيَّةً كانت أو معنويَّة.

كما تطلق على كثرة الخير ودوامه، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]. ولذا قال بعضهم: «**تبارك**: دام، فهو الدائم الَّذي لا أوَّل لوجوده، ولا آخر لدوامه»(١).

ونسبتها إلى الله تعالى على المعنى الأول هو الأليق بالمقام، باعتبار تعاليه عمَّا سواه: في ذاته، وفي صفاته، وفي أفعاله، وصيغة التفاعل للمبالغة في ذلك، فإن ما لا يتصور نسبته إليه تعالى من الصيغ، كالتكبر ونحوه، إنَّما تنسب إليه سبحانه باعتبار غاياتها.

أمَّا إذا نظرنا إلى المعنى الثاني، وهو كثرة الخير، فباعتبار كثرة ما يفيض منه تعالى على مخلوقاته مِن أنواع الخيرات والبركات، وازديادها شيئًا فشيئًا، وآنًا فآنًا، بحسب حدوثها، أو حدوث متعلقاتها، ولاستقلالها بالدلالة على غاية الكمال، وإنبائها على نهاية التعظيم؛ ولهذا لم يجُزْ استعمالها في حقِّ غيره سبحانه، ولا استعمال غيرها من الصيغ في حقه تبارك وتعالى، فلا يقال: **تبارك. إلَّا على الله** ﷻ. وإسنادها إلى الموصول ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ للاستشهاد بما في حيز الصلة على تحقُّق مضمونها.

---

(١) تفسير القرطبي (٢٠٥/١٨)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

QaradawiBooks.com

إثبات قدرت الله التامَّة وتصرُّفه الكامل:

﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ ليس المقصود بهذه الصيغة لمن يقرأ كلام العرب، ويفهمه كما يفهمونه دون تقعُّر ولا تشدُّق: إثبات «يد» لله تعالى، ولا نفيها عنه، إنَّما المقصود هو إثبات قدرته التامَّة، وتصرُّفه الكامل، واستيلائه المطلق على كل شيء، بحيث لا ينازعه منازع، ولا يشاركه مشارك، فمعنى «**تبارك**»: أي تعالى، وتعاظم بالذات عن كلِّ ما سواه، ذاتًا وصفة وفعلًا، الَّذي بقبضة قدرته التصرف الكلي في كلِّ الأمور.

﴿ٱلْمُلْكُ﴾: المُلك ـ بضم الميم ـ فوق المِلْك، والله سبحانه له السماوات والأرض وما بينهما مِلكًا، ومُلكًا، فالله هو الخالق، وهو المالك، وهو الملك الأعلى فوق الجميع، يؤتي الملكَ من يشاء، وينزعه ممَّن يشاء، ويعِزُّ من يشاء، ويذل من يشاء. وقد قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

والذين ادَّعَوا المُلك في الدنيا ملكُهم ناقص مكانًا وزمانًا وحالًا، فهم يملكون جزءًا معينًا من الأرض، ملكيَّةً ضعيفة محدودة، لا تصل إلى أعماق القلوب، وكثيرًا ما يتمرَّد عليهم متمرِّدون.. وفي زمان معيَّن، ثمَّ لا بدَّ أن ينتقلوا عنه بالموت، أو ينتقل عنهم بالانقلاب، كما قال المأمون عند موته: يا من لا يزول مُلكه، ارْحمْ من قد زال مُلكه[1]!

---

(١) إحياء علوم الدين (٤٨١/٤)، نشر دار المعرفة، بيروت.

نسخة مجانية غير مخصصة للطباعة
QaradawiBooks.com

وحالهم في هذا المُلْك حال الخائف من خصومه أن يتَّفِقوا عليه، أو من أتباعه أن يتغيَّروا عليه، ومن عوادي الزمن أنْ تفتك به.

ومُلكهم إنَّما هو في قطعة معيَّنة من الأرض، فما لهم شِرْك في السماوات، بخلاف مُلك الله تعالى، الَّذي بيده المُلك الَّذي يشمل ملك السماوات والأرض وكل شيء، كما قال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣].

ثم إن مُلك بني آدم في الدنيا وحدها، وما لهم في الآخرة من شيء، فهي مُلك لله تعالى وحده، كما قال سبحانه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: ٥٦]. ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]. ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]. وهذا ما تفيده قراءة: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

فهو في هذا اليوم المَلِك، وهو المالك أيضًا، كما تفيده قراءة حفص عن عاصم: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]. وهو ما يفيده قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]. وبهذا تتفق معاني كل القراءات: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]. وقال ﷻ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣].

وقد ادَّعى فرعون لقومه أنَّه ربهم الأعلى، وأنَّه لم يعلم لهم إلهًا غيره، حتَّى أخذه الله نكال الآخرة والأولى، وأغرقه الله ومَن معه جميعًا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

QaradawiBooks.com

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾:

أي: هذا الإلٰه العظيم، الَّذي له هذا المُلك، بالغٌ في القدرة على كل الأشياء، من إنعام وانتقام، يعطي ويمنع، يخفض ويرفع، ويصل ويقطع، فهو المُتفرِّد في ملكه، تعالى وتقدَّسَ.

و«**الشيء**» في نظر النَّاس هو أحد «الأشياء»، وهي الأشياء الماديَّة الحسيَّة في الحياة، ممَّا يؤكل ويُشرب، ويلبس ويُصنع، ويُشترى ويباع، ويُلعب به، ويُتصرف فيه. وهو غير الأشخاص من البشر، الَّذين يستخدمون هذه الأشياء، فهم أرقى من هذه الأشياء، باعتبارهم مستخدمين لها، وهي خادمة أو مملوكة لهم.

وهناك عالم ثالث ـ كما يقول الأستاذ مالك بن نبي ـ غير الأشياء والأشخاص، وهو عالم «الأفكار والمفاهيم»، وهذه أرقى في الدرجة.

ولكن «**الشيء**» **الَّذي** يذكره القرآن عادة لا يخضع لهذه التقسيمات، فهو يشمل كلَّ موجود ماديٍّ من «الذرَّة» إلى «المجرَّة»، ويشمل المخلوقات الحسيَّة والمعنويَّة، بل يشمل فيما يشمل الله تبارك وتعالى، كما نجدُ في قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٩].

فاعتبر القرآنُ اللهَ ﷻ شيئًا، بل هو أعظم شيء، وهو خالق كل شيء، وليس كمثله شيء، ولكنَّه لا يدخل فيما ذكرته الآية الكريمة هنا؛ لأنَّها تتحدث عن الأشياء المُمْكنة الصالحة لدخول القُدرة الإلهيَّة عليها، فالقدرة لله سبحانه لا تتعلق بالمستحيلات، كأن يخلق الله تعالى إلهًا مثله، فهذا لا يمكن عقلًا، ولا يكون منه اثنان أبدًا.

QaradawiBooks.com

والخلاصة: أنَّه تعالى المتصرِّف في جميع المخلوقات بما يشاء، لا مُعقِّب لحكمه، ولا يُسأل عمَّا يفعل؛ لقهره، وحكمته، وعدله، يتصرف فيها حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحِكَم البالغة.

خالق الموت والحياة:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾

هذه صفة ثانية لله عَزَّوَجَلَّ الَّذي بيده الملك، أخبر فيها أنَّه سبحانه خلق الموت والحياة، ولو كان الموت عدمًا محْضًا، وفناءً صِرْفًا ـ كما يتصوَّره بعض النَّاس ـ لم يكن صالحًا لأن يُخلقَ، ولهذا استدلَّ بهذه الآية مَن قال بأنَّ الموت أمر وجوديٌّ؛ لأنَّه مخلوق. ومعنى الآية: أنَّه خلق الخلائق من العدم؛ ليبلوهم ويختبرهم: أيهم أحسن عملًا، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]. فسمَّى الحال الأولى، وهي العدم: «موتًا»، وسمَّى هذه النشأة: «حياة»، ولهذا قال الله تعالى تكملة للآية: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

ذكر القرطبي في تفسيره قولَ العلماء: الموت ليس بعدم محض، ولا فناء صرف، وإنَّما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته، وحيلولة بينهما، وتبدل حال، وانتقال من دار إلى دار، والحياة عكس ذلك(١).

وعمر بن عبد العزيز يقول: إنَّما خُلقتم للأبد، وإنَّما تنتقلون بالموت من دار إلى دار(٢).

---

(١) تفسير القرطبي (٢٠٦/١٨).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٣٤)، وأبو نعيم في الحلية (٢٧٨/٥) مطوَّلًا، من خطب عمر بن عبد العزيز.

QaradawiBooks.com

ويقول الشاعر:

وما المـــوتُ إلَّا رِحْلــةٌ، غير أنَّه   من المنزلِ الفاني إلى المنزلِ الباقي(١)

وهذه الآية شـــروع في تفصيل بعض أحكام المُلـــك، الَّذي أثبتته لله الآيةُ الســـابقة، وآثـــار القدرة، وبيـــان ابتنائهمـــا على قوانيـــن الحكم والمصالح، واستتباعهما لغايات جليلة.

وإنَّما قدَّمَ المـــوت على الحياة، مع أنَّه في العـــادة تذكر الحياة قبل الموت لوجوه نوجزها ممَّا ذكره الإمام الرازي:

أوَّلها: ما قاله مقاتل: أنَّه يعني بالموت حالة النطفة والعلقة والمضغة، الَّتي عليها الإنسان أول ما خُلق، ثمَّ انتقل إلى حالة نفخ الروح فيه، وهنا بدأت الحياة الحقيقية.

ثانيها: ما جاء عن ابن عبَّاس أنَّه يريد الموت في الدنيا، والحياة في الآخـــرة، والله تعالى يقـــول: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. فهي الحياة الحقَّة.

ثالثها: أنَّ أيام الموت هي أيام الدنيا، وهي منقضية، وأمَّا أيام الآخرة فهي أيام الحياة، وهي متأخرة، فلما كانت أيام الموت متقدمة على أيام الحياة، لا جرم قدَّمَ الله ذكرَ الموت على ذكر الحياة.

رابعها: أنَّ أقوى النَّاس داعيًـــا إلى العمل مَن نصَب موتَه بين عينَيْه، فقُدِّم؛ لأنَّه فيما يرجع إلى الغرض المَسوق له الآية أهمُّ(٢).

(١) من شعر أبي العتاهية. انظر: الإعجاز والإيجاز للثعالبي صـ ١٥١، نشر مكتبة القرآن، القاهرة.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب للرازي (٣٠/٥٧٩، ٥٨٠)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ.

QaradawiBooks.com

وقدَّم الإمام القرطبي وجهين آخرين:

أحدهما: قدَّم الموت على الحياة؛ لأنَّ الموت إلى القهر أقرب.

ثانيهما: قدَّمه لأنَّه أقدم؛ ذلك أنَّ الأشياء في الابتداء كانت في حكم الموت، كالنطفة والتراب ونحوهما(١).

وقال الإمام سفيان بن عيينة: لولا ثلاث ما طأطأ ابن آدم رأسه: الفقر والمرض والموت، وإنَّه على ذلك لوَثَّاب(٢).

والحياة كما قال الرازي: «هي الأصل في النِّعم، ولولاها لم يتنعَّم أحدٌ في الدُّنيا، وهي الأصل أيضًا في نِعَم الآخرة، ولولاها لم يثبت الثواب الدائم. والموت أيضًا نعمة؛ لأنَّه هو الَّذي يُقرِّب المؤمنَ من ثواب الله تعالى في الآخرة، ويُريحه من متاعب الدنيا، وهو الفاصل بين حال التكليف وحال المُجازاة»(٣).

الحكمة من خلق الموت والحياة: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾:

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: أي ليمتحنكم ويختبركم، والابتلاء هو الامتحان والاختبار والتجربة، ليعلم حقيقة ما عند المُكلف، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]. ﴿لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

والله تعالى لا يخفى عليه حالُ عباده، ويعلم سرَّهم ونجواهم، وإنَّما يعاملهم معاملة المختبِر؛ ليجزيَهم على ما عملوا بالفعل، لا على ما علِمه منهم.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٠٦/١٨).

(٢) (٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢٧٧/٧).

(٣) التفسير الكبير للرازي (٥٨٠/٣٠).

نسخة مجانية غير مخصصة للطباعة
QaradawiBooks.com

والمهم أنَّه سبحانه يبتليهم ويختبرهم، أو يعاملهم معاملة المختبر، ليعلم في الواقع المُحَسّ: أيُّهم أحسن عملًا، أي خيرٌ وأفضلُ عملًا، ولم يقل: أكثرُ عملًا، أو أطولُ عملًا؛ لأنَّ الأعمال عند الله لا تقاس بالكمِّ، فالعبرة بالكيْف لا بالكم، وكم من عمل في حجم الجبال، لا يزن عند الله جناح بعوضة! وكم من عمل يستغرق زمنًا طويلًا، ولكن لا قيمة له عند الله؛ لأنَّه خلا من النية الخالصة، ومن الإخلاص لله تعالى، فلا عبرة به.

إظهار الفرق بين الحسن والأحسن:

وقد تكرَّر في القرآن هذا التعبير: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، كما في سورة هود: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]. وفي سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

وكأنَّ الامتحان المذكور في هذه الآيات، ليُظهر السِّباقُ الفرقَ بين المُحسن والأحْسن، وليس بين المحسن والمُسيء، وكأنَّ المسيءَ غيرُ داخل، أو غيرُ معنيٍّ به في هذا السِّباق، إنَّما المعنيُّ حقًّا، والمُهتمُّ به صدقًا: المُحسن، والأحسن عملًا.

وهذا ما يلحظه من يتلو القرآن بتدبُّر وإمعان، فهو يهتمُّ بالأوائل والنجباء والسابقين، أكثر من غيرهم، ويفتح لهم كل الأبواب، ويزيح من طريقهم كل العقبات.

فهو يُعنَى دائمًا بالذي هو أحسن عملًا، كما يُعنى أبدًا بـ ﴿ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وقد تكررت مرارًا في كتاب الله تعالى، انظر إلى قوله ﷻ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]. على معنى أنَّه إذا كانت هناك طريقتان للجدال أو الحوار:

QaradawiBooks.com

طريقة حسنة جيدة، وطريقة أحسن منها وأجود، فإنَّ المطلوب هو اختيار الطريقة الأجود الأحسن.

ويقول القرآن صراحةً في ذلك: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت: ٣٤]. ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]. فالمطلوب من المؤمن: الدفعُ دائمًا بالطريقة الَّتي هي أحسن وأفضل. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢، الإسراء: ٣٤]. فمن يتَّجِر بمال اليتيم يجب أن يختار له أحسن الطرق، وأفضل الوسائل لاستثماره.

وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ [الإسراء: ٥٣]. وهذا تبليغٌ عام لكل البشر، أن يختاروا القول بالطريقة الَّتي هي أحسن، ليُرغِموا أنف الشيطان، الَّذي لا يريد لهم إلَّا الشر والسوء فيما بينهم.

ويقول ﷻ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥]. وقال تعالى: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]. فإذا كان ما يطلبه الله من العباد ما بين حَسَنٍ وأحْسَن، فالمحبوب لله أبدًا هو الأحسن.

فهذه هي تعليمات القرآن وتوجيهاته، تدعو إلى اتِّباع أحسن المناهج، وأفضل الطرق للتعامل مع النَّاس، ومع الله، ولا ينبغي للمسلم أن ينزل من الأحسن إلى الحسن ما استطاع ذلك؛ لأن شأنه دومًا الحرص على ما يحب

QaradawiBooks.com

الله تعالى، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**فإذا سألتم اللهَ فسلوه الفردوسَ؛ فإنَّه أوسطُ الجنَّة، وأعلى الجنَّة، وفوقَه عرشُ الرحمن، ومنه تفجَّرُ أنهارُ الجنَّة**»[1].

فليس من شأن المؤمن أن يطلب دخول الجنَّة من ربه في آخر فوجٍ (دفعة)؛ فإنه يسأل كريمًا، بل أكرم الأكرمين، فليسأل ربه الفردوس الأعلى.

معنى ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾:

بهذه الفاصلة أتمَّ الله الآية الكريمة: **وهو العزيز**: أي العظيم المنيع الجناب، الغالب الَّذي يُغْلَبُ ولا يُقهر.

الغفور: لمن تاب إليه وأناب، بعدما عصاه، وخالف أمره. أي: وإن كان تعالى عزيزًا، فإنه يغفر ويرحم، ويصفح ويتجاوز.

ونرى القرآن دائمًا يضع هذه الصيغ بحيث تتكامل فيما بينها وتتوازن، ليُصلح من شأن العباد، ويهديَهم إلى أكمل طرق الرشاد.

خلق السماوات السبع الطباق:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾

هذه الصفة الثالثة لله سبحانه، صاحب المُلك، الَّذي خلق الموت والحياة؛ ليبلُوَ النَّاس أيهم أحسن عملًا، الَّذي خلق سبع سماواتٍ طباقًا.

السماوات: جمع سماء، وهي في اللغة: ما يقابل الأرض، وسماء كل شيء أعلاه، وهي كل ما علا الإنسان فأظله، كالسحاب والمطر، كما قال تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢].

---

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

﴿طِبَاقًا﴾: أي طبقة بعد طبقة، وهل هنَّ متصلات؟ بمعنى: أنهنَّ علويات، بعضهن على بعض، أو منفصلات بينهن خلاء؟

قال العلَّامة ابن كثير: فيه قولان، أصحهما الثاني، كما دلَّ على ذلك حديث الإسراء، وغيره(١).

وذكر الزمخشري في «الكشَّاف» في ﴿طِبَاقًا﴾ ثلاثة أوجه:

أوَّلها: طباقًا أي: مَطابَقَة بعضها فوق بعض، من طابَق النعلَ، إذا خصفها طبَقًا على طبق، وهذا وصفٌ بالمصدر.

ثانيها: أن يكون التقدير ذات طِباق.

وثالثها: أن يكون التقدير: طُوبقت طِبَاقًا(٢).

فالسماوات السبع طباق، بعضها فوق بعض كما جاء في سورة نوح: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]. وقد جعل الله ﷻ السماوات السبع طباقًا، أي: جعل بعضها فوق بعض بتتابع، كثوب فوقه ثوب آخر، وهكذا إلى سبعة أثواب، أو مثل كُرات متداخلاتٍ، فالكرة الوسطى فوقها كرة أخرى حولها، وهكذا إلى سبع كرات، كل كرة تاليةٍ تحيط بالكرة الداخلة فيها، وبَيْنَ كل واحدة وأخرى أبعاد واسعة.

وقد دلَّت الآيات القرآنية على أنَّ كلَّ سماء لها أمرها الخاص بها، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٧٦/٨)، تحقيق سامي بن محمد سلامة، نشر دار طيبة، ط ٢، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

(٢) الكشاف للزمخشري (٥٧٦/٤)، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ.

QaradawiBooks.com

وهذه السماوات تدلُّ على كمال علم الله تعالى، وتمام قدرته سبحانه، من عدة وجوه:

أولها: أنَّها بقيت في جو الهواء معلقة بلا عماد، ولا سلسلة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]. وهذا يدل على أنَّها ليس لها عمد مطلقًا، أو على أن لها عَمَدًا، ولكنها لا تُرى.

ثانيها: من حيث إنَّ كلَّ واحدة منها اختُصَّتْ بمقدار معيَّن، مع جواز ما هو أزيد منه وأنقص.

ثالثها: أنَّه خصَّ كل واحد منها بحركة خاصة، مقدَّرة بقدر معين من السرعة أو البطء إلى جهة معينة.

رابعها: كونها في ذواتها مخلوقة محدَثة، وكل ذلك يدل على استنادها إلى عالم قادر، كامل العلم، تامِّ القدرة، وهو الله تبارك وتعالى.

وقد صرَّح القرآن الكريم بعدد السماوات، وأنَّها سبع، في سبع آيات من سبع سور، وهي:

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]. ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]. ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]. ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣]. ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥].

وهي في هذه المواضع كلها ذُكرتْ تصريحًا بلفظ: «**سَبْع سَمَاوَاتٍ**» أو «**السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ**»، وقد ذُكرتْ بغير ذلك التصريح في موضعين:

QaradawiBooks.com

﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٧].
﴿ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ﴾ [النبأ: ١٢].

نفي التباين والتناقض في خلق السماوات:

﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ...﴾

ما أروع وما أجمل هذه الجملة في هذا السياق! إنَّه أحسن وأعذب تعقيب على هذا الخلق، خلْق السماوات السبع طباقًا.

والمعنى: ما ترى في خلق الرحمن جل جلاله من اعوجاج، ولا تناقض، ولا تباين، بل هي سبعة مستوية، دالة على خالقها سبحانه، ليس فيها اختلاف ولا تنافر، ولا مخالفة ولا نقص، ولا عيب ولا خلل.

﴿مِن تَفَٰوُتٖ﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿مِنْ تَفَوُّتٍ﴾، وقرأها عاصم والباقون ﴿مِن تَفَٰوُتٖ﴾[1].

قال الفرَّاء: وهما بمنزلة واحدة، مثل: «تظهُّر وتظاهُر»، و«تفهُّم وتفاهُم».

وحقيقة التفاوت: عدم التناسب، كأنَّ بعض الشيء يفوت بعضه ولا يلائمه؛ ولذا قال مفسِّرو السلف: من اختلاف وعيب، يقول الناظر: لو كان كذا لكان أحسن.

وقال آخرون: التفاوت: الفطور، بدليل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ أي: من فروج وصدوع، وشقوق وفتوق وخروق. وكل هذا من ألفاظهم. ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ [ق: ٦]. أي: ما لها من شقوق وعيوب.

(١) السبعة في القراءات صـ ٦٤٤، تحقيق شوقي ضيف، نشر دار المعارف، مصر، ط ٢، ١٤٠٠هـ.

QaradawiBooks.com

قال القفَّال: ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ في الدلالة على حكمة صانعها، وأنَّه لم يخلقها عبثًا[١].

الخطاب في قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ﴾ إمّا للرسول، أو لكل مخاطب، وكذلك في الخطابات المكررة بعد ذلك: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾، ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ بيَّن لنا أننا لا نرى في هذه السماوات من تفاوت ولا عيب، وإنَّما قال: ﴿فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، بدلًا عن ضمير الغائب (فيها)؛ تعظيمًا لخلقهن، وتنبيهًا على سبب سلامتهن من التفاوت، وهو أنَّها ﴿خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، وأنَّها بباهر قدرته، وبالغ علمه، فهو الَّذي يخلق مثل هذا الخلق المتناسب.

الأمر بتقليب النظر في السماوات:

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾

الأمر للرسول الكريم، ولكلِّ مخاطَب: أن يُقلِّب البصر ويَرجعه في السماوات العلا.

﴿كَرَّتَيْنِ﴾: في موضع المصدر؛ لأنَّ معناه: رجعتين، أي مرَّة بعد أخرى، وإنَّما أمر بالنظر مرتين؛ لأنَّ الإنسان إذا نظر في الشيء مرَّة واحدة لا يرى عيبَه ما لم ينظر إليه مرَّة أخرى، فأخبر تعالى: أنَّه وإنْ نظر في السماء مرتين، لا يرى فيها عيبًا، بل يتحيَّر بالنظر إليها، فذلك قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: خاشعًا صاغرًا متباعِدًا أن

(١) تفسير الرازي (٣٠/٥٨٢).

QaradawiBooks.com

يرى شيئًا من ذلك، والمراد بـ ﴿كَرَّتَيۡنِ﴾ هنا: التكثير، كما في «لبَّيْك وسَعْدَيْكَ»، أي رجعة بعد رجعة، وإن كثُرت. والدليل على ذلك: ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ وذلك دليل على كثرة النظر.

يقال: «خَسَأْتُ الكلبَ» أي: أبعدتُه وطردته، و«خَسَأَ الكلبُ بنفسه» يتعدَّى ولا يتعدَّى، ومنه: ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾.

وقال ابن عبَّاس: الخاسئ الَّذي لم يرَ ما يهوى[١].

والمراد: بعيدًا محرومًا من إصابة ما التمسه من العيب والخلل، كأنَّه يُطْرد عن ذلك طردًا بالصَّغار والقَمَاءة.

﴿وَهُوَ حَسِيرٞ﴾: أي قد بلغ الغاية في الإعياء، فهو «فعيل» بمعنى «فاعل»، من «الحُسُور» الَّذي هو الإعياء، ويجوز أن يكون «مفعولًا» من «حَسَرَه بُعْدُ الشيء»، وهو معنى قول ابن عبَّاس. ومنه قول الشاعر:

من مدَّ طرْفًا إلى ما فَوْقَ غَايَتِهِ ... ارتدَّ خَسْآنَ منه الطَرْفُ قَدْ حُسِرا[٢]

قال ابن كثير: «ومعنى الآية: أنَّك لو كرَّرت البصر، مهما كرَّرت، لانقلب إليك، أي: لرجع إليك البصرُ ﴿خَاسِئٗا﴾ عن أن يرى عيبًا أو خللًا، ﴿وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ أي: كليلٌ بطول المعاودة، وكثرة المراجعة، وقد انقطع من الإعياء مِن كثرة التكرُّر، ولا يرى نقصًا»[٣].

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/٢١٠).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٨/٢١٠).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/١٧٧).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

كمال خلق السماوات وتزيين السماء الدنيا بالكواكب:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾

ولمَّا نفى سبحانه عن السماوات النقص في خلقها، بيَّن كمالها وزينتها من جهة أخرى، فقال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾. والمصابيح: جمع مصباح، وهو السراج، الَّذي سمَّى القرآن به الشمس: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣]. وهي الكواكب الَّتي وُضعتْ فيها، مِن السيارات والثوابت.

وهذه إحدى الآيات الثلاث، الَّتي تحدَّثت عن السماء الدنيا في القرآن.

أولاهنَّ: في سورة الصَّافات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦].

والثانية: في سورة فصِّلت: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

والثالثة: هذه الَّتي في الملك.

وكأنَّ القرآن يشير بهذه الآيات إلى أنَّ المصابيح أو الكواكب أو النجوم هي من خصائص السماء الدنيا، الَّتي نعيش فيها، وكأن السماوات الأخرى خالية من هذه المصابيح.

﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾: الضمير يعود إلى المصابيح؛ لأنَّ السماوات ليستْ هي الَّتي ترجم الشياطين، إنَّما ترجمها الشُّهب الَّتي تصدر من الكواكب، كما جاء في أول سورة الصافات: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ

QaradawiBooks.com

﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ ـ ١٠].

قال قتادة: إنَّما خلق اللهُ هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدَى بها، فمن يتأوَّل منها غير ذلك، فقد قال برأيه، وأخطأ حظَّه، وأضاع نصيبَه، وتكلَّف ما لا علم له به[1].

وتصدير الجملة بالقسم المدلول عليه بقوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ لإبراز كمال الاعتناء بمضمونها، أي: وبالله تعالى، لقد زيَّنَّا أقرب السماوات إلى الأرض (السماء الدنيا)، ودائمًا يعبر القرآن عن جانب الحُسن والجمال الَّذي في السماء، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ۝ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٦، ١٧].

والكلام في هذه الآية على السماء الدنيا، أي: السماء القريبة من الأرض، ومن أجزائها المجموعة الشمسيَّة، وهذه المجموعة أو المجرَّة جزء من ملايين المجموعات أو المجرَّات، الَّتي تنتسب إلى مجموعتنا أو مجرتنا الَّتي ننتسب نحن إليها، المعروفة بـ «سكَّة التبَّانة» أو «درب التبَّانة»؛ لأنَّ النجوم فيها أشبه بالتِّبْن المُثَار في سكِّة من يذْرُون القمح، ليظهروا منه الحَبَّ، ويفصلوه من التِّبْن، فيتناثر التِّبن في الطريق، بما لا يمكن وصفه ولا حصره.

ويبدو أن مجرَّة «سكة التبَّانة» وما بعدها من مجرَّات معروفة كلُّها تدخل في السماء الدنيا المذكورة هنا، أمَّا المجرَّات الأخرى، فعلمها عند ربِّي: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

(١) رواه الطبري في جامع البيان (٥٠٨/٢٣)، تحقيق أحمد محمد شاكر، نشر دار التربية والتراث، مكة المكرمة.

QaradawiBooks.com

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾: أي أعددنا وهيَّأنا لهؤلاء في الآخرة ـ بعد الإحراق في الدنيا بالشُّهب ـ أشدَّ الحريق، يقال: سُعِرَت النارُ فهي مَسْعُورَةٌ وَسَعِيرٌ، مثل مقتولةٍ وقتيلٍ.

السماء في علوم الفلك:

وقد تحدَّث أخونا العلَّامة الدكتور زغلول النجار في جزء «السماء في القرآن الكريم» من موسوعته العلمية: «من آيات الإعجاز العلميِّ في القرآن الكريم»، عن موضوع: السماء في علم الفلك، فقال:

«وفي زمنِ تفجيرِ المعارفِ العلمية، والتطورِ المُذهل للوسائل التِّقَنيَّة الَّذي نعيشه: لم يستطع الإنسان إدراكَ سوى جزءٍ صغير من السماء الدنيا، ولم يتجاوز إدراكُه لذلك الجزء حدودَ ١٠٪ ممَّا فيه..!

يقدِّر علماءُ الفلك قُطْرَ الجزء المُدْرك من الكون بأكثرَ من أربعةٍ وعشرين بليونًا من السنين الضوئيَّة (٢٤ بليون X ٩,٥ مليون مليون كيلو متر)، وهذا الجزء من السماء الدنيا دائمُ الاتِّساع إلى نهاية لا يعلمها إلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبسرعات لا يمكن للإنسان اللحاق بها؛ وذلك لأنَّ سرعة تَباعُد بعض المَجرّات عنَّا وعن بعضها بعضًا: تقترب من ثلاثة أرباع سرعة الضوءِ، المقدَّرةِ بنحو الثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية، وهذا الجزء المُدْرَك من الكون مبْنيٌّ بدقَّة بالغة، على وتيرة واحدة، تبدأ بتجمُّعات فلكيَّة حول النجوم، كمجموعتنا الشمسيَّة الَّتي تضمُّ بالإضافة إلى الشمس عددًا من الكواكب والكويكبات، والأقمار والمذنَّبات، الَّتي تدور في مَدارات مُحدَّدة حول الشمس، وتنطوي أمثالُ هذه المجموعة الشمسيَّة بملايين الملايين في مجموعات أكبر تُعرَف باسم «المجرَّات»، وتكوِّن عشراتٌ من المجرات المتقاربة ما يُعرف باسم «المجموعة

QaradawiBooks.com

المحليَّـــة»، وتلتقي المجـرَّات ومجموعاتها المحلية فيما يُعرف باســم «الحشود المجرِّيَّة»، وتنطوي تلك في تجمُّعات محليَّة للحشود المجرِّية، ثمَّ في حشـــود مجرِّية عُظمَى، ثمَّ في تجمُّعات محليَّة للحشود المَجَرِّيَّة العُظمى، إلى ما هو أكبر من ذلك، حتَّى نهاية لا يعلمها إلَّا الله سبحانه وتعالى»[١].

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۞ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۞ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۞ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ۞ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۞ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۞ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۞ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۞ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الآيات: ٦ ـ ١٥].

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾

قُدِّم الخبر للدلالة على أنَّ المبتدأ في الجملة ـ وهو: عذاب جهنَّم ـ مقصورٌ على هؤلاء الَّذين كفروا بربهم.

والكفر: هو التغطية على الحقيقة، فرغم وضوح الأمر في العقل، وفي الفطرة، وفي دلائل الكـــون، نرى هؤلاء كفروا بربهم. وقال هنا: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ ليدل على مدى جحودهم لنعمِه، وتمردهم عليه، فهو ربُّهم، أي: مالكهم وســيدهم، وصاحب نعمِه المتواترة عليهم، وهو الَّذي يعلِّمهم ويهديهم، ويرقِّيهم في مدارج الكمال، منذ بداية خلقهم إلى ما شاء الله.

---

(١) انظر: موسوعة الإعجاز العلمي للدكتور زغلول النجار (السماء) (٢٧٩/١)، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

QaradawiBooks.com

فلا عجبَ أن يكون لهؤلاء المتمرِّدين على خالقهم ومُربِّيهم ومُوَالِيهم بنعمِه: عذابُ جهنم، وهو عذابٌ أليم، وعذاب مُهين، وعذاب غليظ، وعذاب عظيم، كما بيّن القرآن الكريم في سائر آياته وسوره، واكتفَى هنا بقول: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: بئس المآل والمنقلب، فليس هناك مصير يؤول إليه الإنسان أسوأ من جهنَّم: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ﴾

أي: إذا طُرح هؤلاء الَّذين كفروا بربهم في جهنَّم.

ونجد القرآن يُصوِّر جهنَّم كأنَّها تنتظرهم بما فيها من غيظ وغضب عليهم، فيسمعون لها شهيقًا، قيل: ما الشهيق؟ قالوا: أقْبح ما يكون من صوت الحمير.

وقال ابن عبَّاس: الشهيقُ لجهنمَّ عند إلقاء الكفَّار فيها، تشهق إليهم شِهْقَة البَغْلة للشَّعِير، ثمَّ تزفرُ زفْرة لا يبقى أحدٌ إلا خاف[1].

والشهيق في الصدر، والزفير في الحلق، وقد قال تعالى في سورة هود: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦].

﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ أي: تغلي غليانًا شديدًا، ومنه قول حسَّان[2]:

تَرَكْتُمْ قِدْرَكُمْ لا شيءَ فِيهَا وقِدْرُ القَوْمِ حَامِيَةٌ تَفورُ

وقال ابن عبَّاس: تَغْلِي بهم على المَرَاجِل، وهذا من شدَّة لهب النَّار من شدَّة الغضب[3]، كما تقول: فلان يفور غيظًا.

(١) تفسير القرطبي (١٨/٢١١).
(٢) البيت في ديوانه صـ ١١٧، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.
(٣) تفسير القرطبي (١٨/٢١٢).

QaradawiBooks.com

وقال مجاهد: تفور بهم كما يفور الحَبُّ القليل في الماء الكثير[١].

وقال الليث: كلُّ شـيءٍ جاش فقد فـار، وهو فوْر القِـدْرِ والدخانِ والغضبِ والماءِ من العين[٢].

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾

وصف القرآن لجهنَّـم وتفاعلها مع داخليها من الشـياطين والكفرة بربهم، يوحي إلـى القارئ أنَّها حيَّة عاقلـة، وكأنَّها تعرف هؤلاء ومدى ما اقترفـوه من إثم، وما ارتكبـوه من عدوان، فهل وهبها الله شـيئًا من الحياة، أم أنَّ التصوير الفني للقرآن العظيم هو الَّذي يُشـعرك أن جهنَّم معك أيها المؤمن على هؤلاء المكذبين المعتدين على المؤمنين؟!

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾: ﴿تَمَيَّزُ﴾: أصلُـه تتميَّـز. أي: تكاد ينفصل بعضها عن بعض، من شدَّة غيظها عليهم، وحنقِها بهم.

صوَّر هذه النَّار بصـورة مخلوق رهيب عابس مُكفَهِـرِّ الوجه يَغْلي صدرُه حقدًا وغيظًا على فريسته.

توبيخ خزنةِ جهنَّم للذين كفروا بربهم:

﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾

سؤال الخزَنة هنا على وجه التوبيخ والتقريع؛ ليزدادوا عذابًا وحَسْـرةً وندامةً: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾: ألم يجئ إليكم أيُّ رسول في الدنيا ينذركم هذا اليوم حتَّى تحذروا؟

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٣٦/٨)، نشر دار الفكر، بيروت.

(٢) تفسير الرازي (٥٨٦/٣٠).

QaradawiBooks.com

﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ﴾ أنذرنا وخوَّفَنا، وقد جمعوا بين حرف الجواب ونفس الجواب مبالغةً في الاعتراف بمجيء النذير، وتحسُّرًا على ما فاتهم من السعادة لو صَدَّقوا ذلك النذير، وتمهيدًا لبيان ما وقع منهم من التفريط والندم والاغتمام على ذلك، أي: قال كلُّ فوج منهم: قد جاءنا نذير، وتلا علينا ما نزل الله تعالى عليه من الآيات. ﴿فَكَذَّبۡنَا﴾ ذلك النذير، ﴿وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ على أحدٍ ﴿مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ﴾ يا معشر الرسل ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾، اعترفوا بتكذيب الرسل.

والله تعالى في أكثر من آية يذكر عدله في خلقه، وأنَّه لا يعذِّب أحدًا إلَّا بعد قيام الحُجَّة عليه، وإرسال الرسل إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]. وهكذا شهدوا على أنفسهم بالأمر، وندموا حين لا تنفع الندامة.

إقرارهم بعدم الانتفاع بما منحهم الله من وسائل العلم:

﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾

أي: لو كانت لنا عقول ننتفع بها، أو كنا نسمع ما أنزل الله من الحق، لما كُنَّا على ما كُنَّا عليه، من الكفر بالله، والاغترار به، ولكن لم يكن لنا فهمٌ نعِي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقلٌ يرشدنا إلى اتِّباعهم.

قال ابن عبَّاس: لو كنا نسمع الهدى أو نعقله، أو لو كنا نسمع سماع

QaradawiBooks.com

من يعي ويفكِّر، أو نعقل عقل من يميِّز وينظر[١]. ودلَّ هذا على أنَّ الكافر لم يُعطَ من العقل شيئًا.

﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾

أجل، اعترفوا صاغرين بذنبهم، ووحَّده هنا وأفرده؛ لأنَّ المراد به الذنب الأكبر، وهو تكذيبهم الرسل، وهو الذنب الَّذي وراءه كلُّ شرٍّ. أو الذنب هاهنا بمعنى الجمع، والمراد: فاعترفوا بذنوبهم، كما يقال: «خرج عطاءُ الناس» أي: أعطِيَتُهم.

﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾: أي فبُعدًا لهم من رحمة الله تعالى؛ لأن رحمته قريب من المحسنين، وليس قربها من الَّذين أساؤُوا كل الإساءة.

روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي البَخْتَري قال: أخبرني مَن سمعه مِن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**لن يهلِك الناسُ حتَّى يُعذِروا من أنفسهم**»[٢].

نهج القرآن في ذكر الوعد بعد الوعيد:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾

على نهج القرآن، في ذكر الوعد بعد الوعيد، والجنَّة بعد النار، وقرْن الترغيب بالترهيب، جاءت هذه الآية الكريمة، تفوح منها الرِّيحُ الطيِّبة، والوعد الكريم من الربِّ الحليم، العزيز الكريم، الغفور الرحيم.

(١) تفسير القرطبي (١٨/٢١٢).

(٢) رواه أحمد (١٨٢٨٩)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في الملاحم (٤٣٤٧)، عمَّن سمع رسول الله ﷺ.

وقد روي «يعذروا» بفتح الياء وضمِّها مع كسر الذال، ومعناهما واحد: أي تكثر ذنوبهم فيستحقُّوا العقوبة. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر مادة (ع. ذ. ر).

QaradawiBooks.com

تؤكد الآيةُ بحرف «إنَّ» الجملةَ الاسـميَّة عن هؤلاء الَّذين ذكرتهم بعد الَّذين كفروا بربهم، وفُتحتْ لهم أبواب جهنم، مستقبلة لهم بغيظها وفورانها وشهيقها، فإذا بالآية تتحدث من مُنطلق آخر، وهو منطلق لا ينبغي أن يغيب عن قلب الإنسان المؤمن، العارف بربه، وبسَعَة رحمته، وعظَمَة عفوه.

فاقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ هؤلاء عرفوا الله حقَّ معرفته، فخشُوه وخافوه بالغيب، والخشية من تمام العلم والمعرفة، كما قال تعالــى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]. وكذلك نرى الطفل الَّذي لا يعرف حرَّ النار، لا يخشاها حتَّى تلسعه.

والنبي ﷺ أشـار إلى صـدره في خطـاب له إلى أصحابـه، وقال: «**التقوى هاهنا**». كرَّرها ثلاثًا[1]. يشير إلى أنَّ التقوى الحقيقيَّة في القلب؛ لأنَّ أُسَّ التقوى هو خشـية الله، ومكانها القلب، ويشير القرآن إلى ذلك فيقول: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

ويقول ابن كثير: «يقول تعالى مخبِرًا عمَّن يخاف مَقامَ ربِّه فيما بينه وبينه إذا كان غائبًا عن النَّاس، فينكفُّ عن المعاصي، ويقوم بالطاعات، حيث لا يراه أحد إلَّا الله تعالى، بأنَّه له مغفرة وأجرٌ كبير، أي: يُكَفَّر عنه ذنوبُه، ويُجازى بالثواب الجزيل، كما ثبت في الصحيحين: «**سبعةٌ يُظِلُّهم الله تعالى في ظلِّ عَرْشِـه يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظلُّه**». فذكر منهم: «**ورجل دعته امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ، فقال: إنِّي أخـاف الله، ورجلٌ تصدَّق بصدقة فأخفاها، حتَّى لا تعلم شمالُه ما تنفقُ يمينُه**»[2]»[3].

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٧٢٧)، عن أبي هريرة.
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.
(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/١٧٩).

QaradawiBooks.com

قال ابن عطيَّة في تفسير قوله تعالى: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾: «يحتمل معنيين:

أحدهما: بالغَيْبِ الَّــذي أُخبروا به من الحشــر والصراط والميزان، والجنَّة والنار، فآمنوا بذلك، وخشُوا ربَّهم فيه. ونحا إلى هذا قتادة.

والمعنى الثاني: أنَّهم يخشون ربَّهم إذا غابوا عن أعين النَّاس، أي في خلواتهم.. فالمعنى: يعملون بحسب الخشية في صلاتهم وعباداتهم وانفرادهم.

فالاحتمال الأول: مدْحٌ بالإخلاص والإيمان، والثاني: مدحٌ بالأعمال الصَّالحة في الخلوات، وذلك أحرى أن يعملوها علانية»(١).

وقال العلَّامة أبو السُّعود في تفسير ﴿يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾: «أي: يخافون عذابه غائبًا عنهم، أو غائبين عنه، أو عن أعيــن النَّاس، أو بما خفي منهم، وهو قلوبهم، لهم مغفرة عظيمة لذنوبهم، وأجر كبير لا يُقَادَر قدرُه»(٢).

علمه سبحانه بالسر والجهر:

﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

الآية تســاوي بين السِّــرِّ والجهر، بالنســبة إلى علمــه تعالى، كما قال ﷻ: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]. فكل أمرهم مكشــوف تمام الكشف لله تعالى، كما قال سبحانه على لسان إبراهيم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨].

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (٣٤٠/٥)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي الســعود (٦/٩)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.

QaradawiBooks.com

وعن ابن عبَّاس قال: نزلت في المشركين، كانوا ينالون من النبي ﷺ، فيوحى إلى نبيِّه بذلك، فيخبرهم، فقال بعضهم لبعض: أسرُّوا قولَكم، أي: لا تتكلموا جهرةً؛ كيلا يسمعَكم ربُّ محمَّد[1]! وغفلوا أنَّ الله يعلم سرَّهم ونجواهم، فهو: ﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧].

وتقديم السرِّ على الجهر للإيذان بافتضاحهم، ووقوع ما يحذرونه من أوَّل الأمر، والمبالغة في بيان شمول علمه المحيط لجميع المعلومات، كأنَّ علمه تعالى بما يسِرُّونه أقدَرُ منه بما يجهرون به، مع كونهما في الحقيقة على السَّوِيَّة، فإنَّ علمَه تعالى بمعلوماتِه ليس بطريق حصولِ صُوَرها، بل وجودُ كل شيءٍ في نفسِه عِلْمٌ بالنسبة إليه تعالى، أو لأن مرتبةَ السرِّ متقدِّمةٌ على مرتبةِ الجهر؛ إذ ما من شيء يُجهَر به، إلَّا وهو أو مبادِئُه مضمرٌ في القلب، يتعلَّق به الإسرار غالبًا، فتعلُّق علمه تعالى بحالته الأولى، متقدِّم على تعلقه بحالته الثانية، كما يُقرِّره أبو السُّعُود[2].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

ذات الصدور: ما فيها، كما يسمَّى ولد المرأة، وهو جنين: ذا بطنِها.

والجملة تعليلٌ لما قبلها، وتقريرٌ له، وفي صيغة «الفعيل»، وتحلية الصدور بلام الاستغراق، ووصف الضمائر بصاحبتها، من الجزالة ما لا غاية وراءه، كأنَّه قيل: إنَّه مبالِغ في الإحاطة بمُضمَرات جميع النَّاس، وأسرارِهم الخفيَّة المستكنَّة في صدورهم، بحيث لا تكاد تفارقها أصلًا، فكيف يخفى عليه ما تُسِرُّونه وتجهرون به؟

(١) الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي (٣٥٨/٩)، تحقيق الإمام ابن عاشور، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/٩).

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

ويجوز أن يراد «بذات الصدور»: القلوب الَّتي في الصدور، والمعنى: أنَّه عليم بالقلوب وأحوالها، فلا يخفى عليه سرٌّ من أسرارها.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾

﴿أَلَا﴾: الهمزة للاستفهام الإنكاري المفيد للنفي، و«لا» للنفي، ونفي النفي يُقرِّرُ الإثبات. والمراد: أنَّه يُعلَم قطعًا.

يقول الإمام القرطبي: «يعني: ألا يعلمُ السرَّ مَنْ خلَقَ السرَّ؟ يقول: أنا خلقتُ السرَّ في القلب، أفلا أكونُ عالمًا بما في قلوب العباد؟!

وقال أهل المعاني: إن شئتَ جعلتَ «مَنْ» اسمًا للخالق جلَّ وعزَّ، ويكون المعنى: ألا يعلم الخالقُ خلقَه.

وإن شئتَ جعلته اسمًا للمخلوق، والمعنى: ألا يعلم اللهُ مخلوقه وما انطبع عليه. ولا بدَّ أن يكون الخالق عالمًا بما خلقه وما يخلقُه.

قال ابن المسيّب: بينما رجلٌ واقف بالليل في شجرٍ كثير، وقد عصفَتِ الريحُ، فوقعَ في نفْس الرجل: أترى اللهُ يعلم ما يسقط من هذا الورق؟ فنودي من جانب الغَيْضة بصوت عظيم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

وقال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني: من أسماء صفات الذات ما هو للعِلْم:

منها: «العليم»، ومعناه تعميم جميع المعلومات.

ومنها: «الخبير»، ويختصُّ بأن يعلم ما يكون قبل أن يكون.

ومنها: «الحكيم»، ويختصُّ بأن يعلم دقائقَ الأوصاف.

QaradawiBooks.com

ومنها: «الشـــهيد»، ويختص بأن يعلم الغائبَ والحاضر، ومعناه: أنَّه لا يغيب عنه شيء.

ومنها: «الحافظ»، ويختصُّ بأنَّه لا ينسى.

ومنها: «المُحصي»، ويختصُّ بأنَّه لا تشـغله الكثرة عن العلم، مثل ضوء النور، واشتداد الريح، وتساقط الأوراق، فيعلم عند ذلك عددَ أجزاء الحركات في كلِّ ورقـة. وكيف لا يعلم وهو الَّذي يخلـق؟! وقد قال: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[1]»[2].

تفسير ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾:

اللطيف: الفاعل للأشياء اللطيفة، الَّتي تخفى كيفيَّة عملها على أكثر الفاعلين، ولهذا يقال: إنَّ لُطف الله بعباده عجيب، ويراد به دقائق تدبيره لعباده وفيهم.

والخبير: هــو صاحب الخبرة بكلِّ شــيء، وهو يختــصُّ بأن يعلم ما يكون قبل أن يكون.

والإســـلاميُّون عامَّة يجيبون العلمانيين الَّذين يســألونهم مُتحدِّين لهم: كيف يعلم الله الَّذي أنـزل كتابًا منذ ألف وأربعمائة سنة ما يجري في عالم اليوم، بما لا يخطر على بال أحد في ذلك الزمان؟ يجيبونهم في ثقة المؤمن، وإيمان الواثق، بأن من يؤمــن بالله ﷻ، وبأنه خالقُ هذا الكون، وما فيه من إنســان، وبارئــه ومصوِّره، يؤمــن أيضًا بأنَّه

(١) انظر: الأسماء والصفات للبيهقي (٢٩٣/١)، تحقيق عبد الله بن محمد الحاشدي، نشر مكتبة السوادي، جدة، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

(٢) تفسير القرطبي (٢١٤/١٨).

QaradawiBooks.com

سبحانه يعلم كل ما يحتاج إليه الكون، وما يفتقر إليه الإنسان؛ لأنَّ الخالق دائمًا يعلم كل ما يحتاج إليه المخلوق، ويوفره له: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

تذليل الأرض وتسخيرها للإنسان:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾

ما سبق في سورة «الملك» كان يتحدَّث عن السماوات وما فيها، وما يُضيئها، وما تتعرَّض له من الشياطين المردة، وما تَرْجم به أولئك الشياطين، وما أُعِدَّ لهم وللكافرين المكذِّبين من عذاب أليم، وذكر القرآن في مقابل هؤلاء: الَّذين يخشون ربَّهم بالغيب، وما وعدهم به من المغفرة الواسعة، وأعدَّه لهم من الأجر العظيم، إلخ.

ولم يتحدَّث عمَّا يقابل السماء ـ وهي السقف المحفوظ ـ وهو الأرض الَّتي خلقها الله للأنام، وجعلها مهادًا وبساطًا وفَرْشًا، وهيَّأها للمخاليق المكلَّفين، ليعمُروها ويعبدوا الله فيها، ويقيموا خلافته عليها، وهو ما جاء في هذه الآية الكريمة بقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ يعدِّد الله نعمه على عباده، ليعرفوها ويذكروها، ويشكروا نعمة الله عليها، فقد ذكَّرهم بنعمه عليهم، في تسخيره لهم الأرض، وتذليله إيَّاها لهم، بأن جعلها قارَّة ساكنة، لا تميد ولا تضْطرب، بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السُّبل، وما يَسَّرَ فيها من المنافع، ومواضع الزروع والثمار.

وأول نعَمِه عليهم: أنَّه جعلها لهم ذلولًا، أي: سهلةً منقادة يسيرون عليها، فرُغْم ضخامة الأرض بالنسبة لحجم الإنسان وقدراته، فهي

QaradawiBooks.com

مطْواعة منقادة له، كما سَخَّر الله الأنعامَ من الجمل والثور وفحل الجاموس، على كِبَر حجمها، يُسَخِّرها الشيخ الكبير، ويُسيِّرها الطفل الصغير، فتتهيّأ له، وتنقاد بسهولة، كما ذكر الله ذلك بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۞ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۞ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ ـ ٧٣].

ومعنى «الذلول»: المنقاد الَّذي يذِلُّ لك. والمصدر: الذِّلُّ (بالكسر)، وهو اللِّين والانقياد، و«الذَّلول»: «فعول» بمعنى «مفعول»، أي مذلول، فهي كركوب وحلوب بمعنى مركوب ومحلوب. يقال: ذلول، بيِّن الذِّل بكسر الذال، ويقال: بيِّن الذُّل بضم الذال.

أي: لم يجعل الأرض بحيث يمتنع المشي فيها بالحزونة والغلظة.

وقيل: يثبتها بالجبالِ؛ لئلا تزول بأهلها، ولو كانت تتكفَّأ متمايلةً، لما كانت منقادةً لنا.

وقيل: أشار إلى التمكُّن من الزرع والغرس، وشقِّ العيون والأنهار، وحفر الآبار.

ولا شك أن هذه كلها من آثار رحمة الله ببني الإنسان، الَّذي هيَّأ لهم هذه الأرض، وجعلها لهم ذلولًا.

الأمر بالمشي في الأرض والأكل من رزق الله:

﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾

قال الإمام الرازي: «الأمر هنا أمر إباحة، وكذا القول في قوله: ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾»(١).

(١) تفسير الرازي (٣٠/٥٩١).

QaradawiBooks.com

وأنا أخالف إمامنا الرازي هنا، وأرى أنَّ الأمر هنا على أصله في القرآن، وهو إفادة الوجوب، ولكنَّه حسَب تعبير الإمام الشاطبي في موافقاته: واجب بالكلِّ، مباح بالجزء.

فالأمر للأمَّة كلِّها الَّتي جعل الله لها الأرض ذلولًا، يوجب عليها وجوبًا كليًّا أن نمشي في مناكب الأرض، ولا يجوز أن يهملَ هذا الأمر الإلهيّ القرآنيّ، باعتباره أمر إباحة، فلا يخْطُوَ فيها أحد ليمشي في منكب الأرض، ويأكلَ من رزق الله.

كذلك لا يجوز لعامَّة النَّاس أن يتركوا الأكل ممَّا رزقهم الله في الأرض، بناء على أنَّ الأمر للإباحة؛ لأنَّ الجميع مأمورون أمر وجوب عام بالأكل من رزق الله، ولا يجوز ترك الأكل تعبُّدًا أو تزهُّدًا أو تقشُّفًا، حتَّى يصاب بالمرض والقعود، بل الأمر أمر وجوب للكل، وإن كانت الإباحة للبعض في جزئيات معينة، فيها تفصيلات واحتمالات.

و«المناكب» هنا قد اختلف فيها المُفسِّرون، فقيل: مناكبها: أطرافها، وهي الجبال. وقيل: مناكبها: جوانبها وهي النواحي، وقيل: طرُقها وفِجاجها.

وأرى أنَّ هذه كلَّها تدخل في مناكب الأرض، فكما أن للرجل منكبين عن جانبيه، فللأرض مناكب، ينبغي للناس أن يمشوا فيها، وهذا المشي في الأصل واجب كلِّيٌّ، فمن مشى في مناكب الأرض، الَّتي يَسَّرها الله له، استحقَّ أن يشارك في ثمارها، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾. رتَّب الأكل من الرزق على المشي في الأرض، فمن تقاعس وتماوت، ولم يمشِ في الأرض لم يستحقَّ أن يأكل من رزق الله، ومن مشى وسعى في المناكب أكل من رزقه سبحانه.

QaradawiBooks.com

والسَّـعيُ في السـبب لا ينافي التوكُّلَ، كما ذكر الإمـام أحمد عن عمر بن الخطاب، أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لو أنَّكم تتوكَّلون على الله حقَّ توكُّله، لرزقكم كما يرزق الطيرَ، تغدو خِماصًا وتروح بِطانًا**»(١).

فأثبت لها رَواحًا وغدوًّا لطلب الرزق، مـع توكُّلها على الله تعالى، وهو المُسخِّر المُسبِّب(٢).

ختام قصَّة الإنسان:

﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾

النُّشُور هو: الحياة بعد الموت، وهو المرجع والمآب، كأنَّه يقول: إنَّ الَّذي خلق السماء لا تفاوتَ فيها، وجعل الأرض ذلولًا منقادةً لكم، قادرٌ على أن ينشركم، كما خلقكم أولَ مرَّة، فإليه المرجع بعد البعث، لا إلى غيره، فبالغوا في شكر نعمه وآلائه.

وهذا هو ختام الآية وختام قصَّة الإنسان، أنَّه مسافر إلى ربه، فمنه بدأ وإليه ينتهي. يقول سبحانه: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۞ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۞ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۞ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۞ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۞ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧ ـ ٢٢].

تهديد الكفَّار بعذاب الدنيا:

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۞ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۞ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

---

(١) رواه أحمد (٢٠٥)، وقال مخرِّجوه: إسـناده قوي. والترمذي (٢٣٤٤)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٤١٦٤)، كلاهما في الزهد.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١٧٩/٨).

QaradawiBooks.com

فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ۞ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ۞ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ١٦ - ٢١].

هذه الأسئلة من الله تعالى إلى بعض عباده المتمرِّدين عليه، والمكذِّبين لرسله، وهي أيضًا من لطفه سبحانه ورحمته بخلقه، فإنه قادر على تعذيبهم بسبب كفر بعضهم به، وإشراكهم معه غيره في العبادة، وهو مع هذا يحلم ويصفح، ويُؤَجِّل ولا يُعَجِّل، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ [فاطر: ٤٥]. وقال في سورة أخرى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]. وقال هنا: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ أي: تذهب وتجيء وتضطرب.

تخويفهم من عذاب الخسف:

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾

بعد أن بيَّن الله تعالى في الآية السابقة أنَّه ينبغي أن يكون مكثكم في الأرض، وأكلكم من رزقه، مكثَ من يعلم أنَّ مرجعه إلى الله، وأكل من يوقن أن مصيره إلى الله، والمراد: تحذيرهم من الكفر والمعاصي في السر والجهر، ثمَّ إنَّه تعالى بيَّن أنَّ بقاءهم مع هذه السلامة في الأرض، إنَّما كان بفضل الله ورحمته، وأنَّه لو شاء لقلب الأمر عليهم، ولأمطر عليهم من سحاب القهر مطرَ الآفات.

QaradawiBooks.com

وتقريرًا لهذا المعنى جاءت الآية الَّتي تفسره: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ...﴾ الآية. ونظيرها من القرآن قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥]. وقال تعالى في شأن ظالمي الأمم وما أخذهم الله بـه: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ مثل قوم لوط، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ مثل ثمود، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ مثل قارون، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ مثـل فرعون وقومه، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

هل الله سبحانه في السماء؟

والآية تخاطب المشركين، وتُهدِّدهم بعذاب مَنْ في السماء، فمَنْ هو؟

قال بعضهم: المـراد جبريل عليه السلام، الَّـذي هو في السَّـماء، وينـزل بالوحي منها إلى الأرض.

ولكن هذا ـ وإن كان مقبولًا في المعنى ـ ليس هو القول الأوجه.

وقال الأكثرون: بل هو الله تبارك وتعالـى. ولكن اعترُض عليهم بأنَّ هذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها باتفاق المسلمين؛ لأنَّ كون الله تعالى في السماء «يقتضي أن تكون محيطة به من جميع الجوانب، فيكون أصغر من السـماء؛ لأنَّ المحاطَ به أصغرُ من المحيط، فيكون أصغر من السـماء، والسـماء أصغر من العرش بكثير، فيكون الله تعالى ـ وحاشاه سبحانه ـ شيئًا حقيرًا بالنسبة إلى العرش، الَّذي هو جزء من خلقه، وذلك باتِّفاق أهل الإسـلام باطل؛ لأنَّـه تعالى قـال: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢]. فهي له مِلكًا ومُلكًا، يملكها بكل ما فيها ومن فيها، فلو كان في السماء، لوجب أن يكون مالكًا لنفسه وهذا مُحَال.

QaradawiBooks.com

بل هي واجبة التأويل عن ظاهرها، فما تأويلها؟

وفيه وجوه:

أوَّلها: أن يكون المراد من الآية: تقدير أن يكون: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أأمنتم عذابه، وذلك لأنَّ عادة الله تعالى جارية، بأنَّه إنَّما ينزل البلاء على من يُكذِّب به، ويُكذِّب برسله، من السماء، فالسماء موضع عذابه تعالى، كما أنَّها موضع نزول رحمته ونعمته.

وثانيها: قال أبو مسلم: كانت العرب مُقرِّين بوجود الإله، لكنَّهم كانوا يعتقدون أنَّه في السماء، على وَفْق قول المشبِّهة، فكأنَّه تعالى قال لهم: أتأمنون من قد أقررتم بأنَّه في السماء، واعترفتم له بالقدرة على ما يشاء أن يخسف بكم الأرض؟

وثالثها: تقدير الآية: من في السماء سلطانه وملكه وقدرته. والغرض من ذكر السماء تفخيم سلطان الله، وتعظيم قدرته، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]. فإنَّ الشيء الواحد لا يكون دفعة واحدة في مكانين، فوجب أن يكون المراد من كونه في السماوات وفي الأرض: نفاذ أمره وقدرته، وجريان مشيئته في السماوات وفي الأرض، فكذا هنا» اهـ من تفسير الفخر الرازي[١].

ومعنى ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾: تَضْطرب ذهابًا وإيابًا، على خلاف ما هي عليه الآن من السكينة والاطمئنان. فالله تعالى يُحرِّك الأرض عند الخسف بهم، حتَّى تضطرب وتتحرك، فتعلو عليهم، وهم يُخسَفون فيها، والأرض فوقهم تمور، فتلقيهم إلى أسفل سافلين.

(١) تفسير الرازي (٥٩٢/٣٠) بتصرُّف.

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

تخويف الكفَّار بعذاب الريح:

﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾

خوَّفهم في الآية السابقة من عقوبة الخسْف، وخَوَّفهم في هذه الآية من عقوبة الريح الَّتي فيها حجارة وحصباء ترجمهم بالحجارة المُهلِكة، كما أرسل على قوم لوط، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٨]. وهكذا توعَّدهم هاهنا بقوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي: كيف يكون إنذاري وعاقبة من تخلف عنه، وكذَّب به؟

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي كذَّب الَّذين من قبل هؤلاء من الأمم السابقة، والقرون الخالية، كقوم نوح وعاد وأضرابهم، ممَّن قال الله لنا فيهم: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾

أي: كيف كان إنكاري عليهم، ومعاقبتي لهم؟ أي: هو عظيم شديد أليم. وهذه الصيغة الاستفهامية للمبالغة في التهويل، أي: كان على كيفيَّة لا يحيط بها الوصف، ومثلُها الصيغة الَّتي قبلها: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾.

«قال الواحدي: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري وتغييري، أليس وَجَدوا العذاب حقًّا؟

وقال أبو مسلم: النكير: عقابُ المُنْكِر، وإنَّما سقط «الياء» من

QaradawiBooks.com

«نذيري»، ومن «نكيري» حتَّى تكون مشـابهة لـرؤوس الآي المتقدِّمة عليها والمتأخِّرة عنها[١].

هذا، وقد خوَّف الله تعالى الكفَّار ـ بعدما خوَّفهم بالتهديد ـ بالمثال والبرهان.

فأمَّا بالمثال: فيما جرى على الأمم السابقة من أنواع العقوبات.

وأمَّا البرهان: فهو أنَّه تعالى ذكر ما يدلُّ على كمال قدرته، ومتى ثبت ذلك، ثبت كونه تعالى قـادرًا على إيصال جميع أنـواع العذاب إليهم، وذلك البرهان من وجوه»[٢]، بيَّنَتْها الآيات القادمة من السورة.

بسط الطيور أجنحتها وقبضها في جو السماء:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾

«﴿صَافَّاتٍ﴾ أي: باسـطات أجنحتهـنَّ فـي الجـو عنـد طيرانها، ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أي: ويضممنها إذا ضربْن بها جنوبهنَّ.

فإن قيل: لمَ قال: ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ولم يقل: وقابضات؟

قلنا: لأنَّ الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مدُّ الأطراف وبسطها، وأمّا القبض فطارئ على البسط، للاستظهار به على التحرك، فجيء بما هو طارئ غير أصلي بلفـظ الفعل، على معنى أنهنَّ صافات، ويكون منهن القبض تارة بعد تارة، كما يكون من السابح»[٣].

---

(١) وقد أثبت الياءين فـي الوصل دون الوقف ورش عن نافع، وأثبتهمـا وقفًا ووصلًا يعقوب الحضرمي، انظر: النشـر في القراءات العشـر لابن الجزري (٢/٣٨٩)، تحقيق علي محمد الضباع، نشر المطبعة التجارية الكبرى.

(٢) تفسير الرازي (٣٠/٥٩٣).

(٣) تفسير الرازي (٣٠/٥٩٣).

نسخة مجانية غير مخصصة للطباعة
QaradawiBooks.com

ثم قال تعالى: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ وذلك لأنَّها مع ثقلها، وضخامة أجسامها، لم يكن بقاؤها في جو الهواء إلَّا بإمساك الله تعالى وحفظه.

قال ابن كثير في تفسير ﴿صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾: «أي: تارة يصففْنَ أجنحتهنَّ في الهواء، وتارة تجمع جناحًا وتنشر جناحًا.

﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ﴾ أي: في الجو، ﴿إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ أي: بما سخَّر لهنَّ من الهواء، وأعطاهن من القوة، من رحمته ولطفه.

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۢ بَصِيرٌ﴾ أي: بما يصلح كل شيء من مخلوقاته.

وهذه كقوله تعالى في سورة النحل: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩]»[(١)].

الفرق بين: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾، و﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾:

ذكر الرازي هنا سؤالًا عن الفرق بين هذه الآية: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾، وآية النحل: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾، وأجاب عنه فقال: ذكر في النَّحل أنَّ الطير مسخَّرات في جوِّ السماء، فلا جرم كان إمساكها هناك مَحْض الإلهيَّة، وذكر هاهنا أنهنَّ صافَّات وقابضات، فكان إلهامُها إلى كيفيَّة البسط والقبض على الوجه المطابق للمنفعة من رحمة الرحمن[(٢)].

﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ أي: ما يمسكهنَّ في الجوِّ إلَّا الرحمن بما سخر لهنَّ في الهواء من رحمته ولطفه.

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۢ بَصِيرٌ﴾ أي: بما يُصلح كلَّ شيءٍ من مخلوقاته.

---

(١) تفسير ابن كثير (١٨٠/٨).

(٢) تفسير الرازي (٥٩٣/٣٠).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ليس للكافرين من دون الله من ولي ولا ناصر ولا رازق:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾

يقول ابن كثير: «يقول تعالى للمشركين الَّذين عبدوا معه غيره، يبتغون عندهم نصرًا ورزقًا منكِرًا عليهم فيما اعتقدوه، ومخبرًا لهم أنَّه لا يحصل لهم ما أمَّلوه، فقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ...﴾ الآية. أي: ليس لكم من دونه من وليٍّ ولا واق، ولا ناصر لكم غيره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾.

ثمَّ قال ﷻ: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ أي: من هذا الَّذي إذا قطع اللهُ عنكم رزقه يرزقكم بعده؟ أي: لا أحد يعطي ويمنع، ويخلق ويرزق، ويدافع وينصر، إلَّا الله ﷻ وحده لا شريك له، أي: وهم يعلمون ذلك، ومع هذا يعبدون غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ أي: استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم. ﴿فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ أي: في معاندة واستكبار، ونفور على إدبارهم عن الحقِّ لا يسمعون له، ولا يتبعونه»[1].

وللرازي في تفسير هذه الآيات كلامٌ بليغ جميل، يحسُن بنا أن ننقله هنا، قال:

اعلمْ أنَّ الكافرين كانوا يمتنعون عن الإيمان، ولا يلتفتون إلى دعوة الرسول ﷺ، وكان تعويلهم على شيئين:

---

(١) تفسير ابن كثير (١٨١/٨).

QaradawiBooks.com

أحدهما: القوَّة الَّتي كانت حاصلة لهم بسبب مالِهم وجندهم.

والثاني: أنَّهم كانوا يقولون: هذه الأوثان توصل إلينا جميع الخيرات، وتدفع عنا كل الآفات.

وقد أبطل الله عليهم كل واحد من هذين الوجهين.

أمَّا الأول: فبقوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، وهذا نسق على قوله: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، والمعنى: أم من يشار إليه من المجموع، ويقال: هذا الَّذي هو جند لكم ينصركم من دون الله إن أرسل عذابه عليكم؟

ثم قال: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾، أي: من الشيطان، يغرهم بأن العذاب لا ينزل بهم.

أمَّا الثاني: فهو قوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾.

والمعنى: من الَّذي يرزقكم من آلهتكم إنْ أمسك الله الرزق عنكم؟ وهذا أيضًا ممَّا لا ينكره ذو عقل، وهو أنَّه تعالى لو أمسك أسباب الرزق، كالمطر والنبات وغيرهما، لَمَا وُجِدَ رازق سواه، فعند وضوح هذا الأمر قال تعالى: ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ والمراد: أصرُّوا وتشدَّدوا مع وضوح الحق، ﴿فِى عُتُوٍّ﴾ أي: في تمرُّد وتكبُّر ﴿وَنُفُورٍ﴾، أي: تباعد عن الحق، وإعراض عنه، فالعتو بسبب حرصهم على الدنيا، وهو إشارة إلى فساد القوَّة العملية، والنفور بسبب جهلهم، وهذا إشارة إلى فساد القوَّة النظريَّة[1].

---

(١) تفسير الرازي (٣٠/٥٩٤).

QaradawiBooks.com

التباين الشديد بين الكافر والمؤمن:

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٢ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٢٣ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

قال ابن كثير في تفسير الآية: «هذا مَثَلٌ ضربَه الله للمؤمن والكافر، فالكافرُ مثله فيما هو فيه: كمَثَل من يمشي مُكِبًّا على وجهه، أي يمشي منحنيًا لا مستويًا، ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ أي: لا يدري أين يسلك؟ ولا كيف يذهب؟ بل تائهٌ حائرٌ ضالٌّ، أهذا أهدى ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾ أي: منتصبَ القامة، ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: على طريق واضح بيّنٍ، وهو في نفسه مستقيمٌ، وطريقه مستقيمةٌ، هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة، فالمؤمن يُحشر يمشي سويًّا على صراط مستقيمٍ مُفْضٍ به إلى الجنَّة الفيحاء.

وأمَّا الكافر فإنه يُحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنَّم: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٢ ـ ٢٦]»[١]. وأزواجهم أي: أشباههم.

وأورد ابن كثير هنا حديث الإمام أحمد عن أنس بن مالك يقول: قيل: يا رسول الله، كيف يُحشر النَّاس على وجوههم؟ فقال:

---

(١) تفسير ابن كثير (١٨١/٨).

QaradawiBooks.com

«**أليس الَّذي أمشاهم على أرجُلِهم قادرًا على أن يُمْشِيهم على وجوههم؟**»[١].
وهذا الحديث مخرَّج في الصحيحين بسند آخر عن أنسٍ نحوه[٢].

وقال الفخر الرازي: «واعلم أنَّه تعالى لمَّا وصفهم بالعتو والنفور، نبَّه على ما يدلُّ على قبح هذين الوصفين، فقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾:

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الواحدي: أكبَّ مطاوعُ كبَّه. يقال: كَببْتُه فأكبَّ، ونظيره: قَشَعَتِ الريحُ السحابَ فأقْشَعَ. قال صاحب «الكشَّاف»: ليس الأمر كذلك، وما جاء شيء من بناء أفعل مطاوعًا، بل قولك: «أكبَّ» معناه: دخل في الكبِّ وصار ذا كبٍّ، وكذلك أقشع السحابُ: دخل في القَشْع، و«أنْفَضَ» أي: دخل في النَّفْض، وهو نفْض الوعاء. فصار عبارة عن الفقر، و(أَلْام): دخل في اللَّوْم. وأمَّا مطاوع (كبَّ) و(قَشَع) فهو: انكبَّ وانقشع.

المسألة الثانية: ذكروا في تفسير قوله: ﴿يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ وجوهًا:

أحدها: معناه أنَّ الَّذي يمشي في مكان غير مستوٍ، بل فيه ارتفاع وانخفاض، فيعثر كلَّ ساعة، ويخرُّ على وجهه مكبًّا، فحاله نقيضُ حالِ من يمشي سويًّا، أي: قائمًا سالمًا من العثور والخرور.

وثانيها: أنَّ المتعسف الَّذي يمشي هكذا وهكذا على الجهالة والحَيْرة، لا يكون كمن يمشي إلى جهة معلومة مع العلم واليقين.

(١) رواه أحمد (١٢٧٠٨)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح.
(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧٦٠)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٨٠٦).

QaradawiBooks.com

وثالثها: أنَّ الأعمى الَّذي لا يهتدي إلى الطريق فيتعسَّف، ولا يزال ينكبُّ على وجهه، لا يكون كالرجل السويِّ الصحيح البصر، الماشي في الطريق المعلوم.

ثم اختلفوا، فمنهم من قال: هذا حكاية حالِ الكافر في الآخرة. قال قتادة: الكافر أكبَّ على معاصي الله، فحشره الله يوم القيامة على وجهه، والمؤمن كان على الدِّين الواضح، فحشره الله تعالى على الطريق السويِّ يومَ القيامة. وقال آخرون: بل هذا حكاية حال المؤمن والكافر والعالم والجاهل في الدنيا»(١).

إنشاء النَّاس في الأرض وإمدادهم بنعم السمع والأبصار والأفئدة:

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

قال ابن كثير: «﴿أَنشَأَكُمْ﴾ أي: ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي: العقول والإدراك، ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: قلَّما تستعملون هذه القوى الَّتي أنعم الله بها عليكم، في طاعته، وامتثال أوامره، وترك زواجره»(٢).

وقال الرازي: «اعلم أنَّه تعالى لما أورد البرهان أولًا من حال سائر الحيوانات، وهو وقوف الطير في الهواء، أورد البرهان بعده من أحوال النَّاس، وهو هذه الآية، وذكر من عجائب ما فيه حال السمع والبصر والفؤاد، ولقد تقدَّم شرح أحوال هذه الأمور الثلاثة في هذا الكتاب مرارًا، فلا فائدة في الإعادة.

(١) تفسير الرازي (٣٠/٥٩٤، ٥٩٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/١٨٢).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

واعلمْ أنَّ في ذكرها هاهنا تنبيهًا على دقيقة لطيفةٍ، كأنَّه تعالى قال: أعطيتكم هذه الإعطاءات الثلاثة، مع ما فيها من القوى الشريفة، لكنَّكم ضيَّعتموها، فلم تقبلوا ما سمعتموه، ولا اعتبرتم بما أبصرتموه، ولا تأمَّلتم في عاقبة ما عقلتموه، فكأنَّكم ضيَّعتم هذه النعم، وأفسدتم هذه المواهب؛ فلهذا قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، وذلك لأنَّ شكر نعمة الله تعالى هو أن يصرف تلك النعمة إلى وجهِ رضاه، وأنتم لما صرفتم السمع والبصر والعقل، لا إلى طلب مرضاته، فأنتم ما شكرتم نعمته البتَّة»[1].

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

وبعد أنَّ ذكر الفخر الرازي البرهانَيْن السابقَيْن من حال بعض الحيوانات في وقوف الطير في الهواء، وأحوال كثير من النَّاس من أمدادهم بوسائل العلم والإدراك وتضييع هذه النعم، وصرفها في غير ما خُلِقت له؛ ذكر البرهان الثالث، فقال: «**البرهان الثالث**: قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

اعلمْ أنَّه تعالى استدلَّ بأحوال الحيوانات أولًا، ثمَّ بصفات الإنسان ثانيًا، وهي السمع والبصر والعقل، ثمَّ بحدوث ذاته ثالثًا، وهو قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

واحتجَّ المتكلِّمون بهذه الآية على أنَّ الإنسان ليس هو الجوهر المُجرَّد عن التَّحيُّز والكميَّة ـ على ما يقوله الفلاسفة وجماعة من المسلمين ـ لأنَّه قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فبيَّن أنَّه ذرأ الإنسان في الأرض، وهذا يقتضي كون الإنسان متحيِّزًا جسمًا.

---

(١) تفسير الرازي (٣٠/٥٩٥).

QaradawiBooks.com

واعلمْ أنَّ الشروع في هذه الدلائل إنَّما كان لبيان صحَّة الحشر والنشر، ليثبت ما ادَّعاه من الابتلاء في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾، ثمَّ لأجل إثبات هذا المطلوب، ذكر وجوهًا من الدلائل على كمال قدرته، ثمَّ ختمها بقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

ولمَّا كانت القدرة على الخلق ابتداءً توجب القدرة على الإعادة، لا جرم قال بعده: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فبيَّن بهذا أنَّ جميع ما تقدَّم ذكره من الدلائل إنَّما كان لإثبات هذا المطلوب»[1].

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾: «أي: بثَّكم ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها، مع اختلاف ألسنتكم في لغاتكم وألوانكم، وحُلاكم وأشكالكم وصوركم، ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: تجمعون بعد هذا التفرُّق والشتات، يجمعكم كما فرَّقكم ويعيدكم كما بدأكم»[2].

استبعاد الكافرين للبعث:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

ثم قال سبحانه مخبرًا عن الكفَّار المنكرين للمعاد المستبعدين وقوعه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟ أي: متى يقع هذا الَّذي تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرق؟

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يعلم وقت ذلك على التَّعيين إلَّا الله تبارك وتعالى، لكنَّه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة، فاحذروه.

---

(١) تفسير الرازي (٥٩٦/٣٠).

(٢) تفسير ابن كثير (١٨٢/٨).

QaradawiBooks.com

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ محذِّرٌ من غضبِه تعالى، واضح التحذير. أي: وإنَّما عليَّ البلاغ، وقد أدَّيته إليكم.

وقال الرازي: «واعلمْ أنَّه تعالى لمَّا أمر محمَّدًا ﷺ بأنْ يخوِّفهم بعذاب الله، حكى عن الكُفَّار شيئين:

أحدهما: أنَّهم طالبوه بتعيين الوقت، وهو قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال أبو مسلم: إنَّه تعالى قال: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ بلفظ المستقبل، فهذا يحتمل ما يوجد من الكفَّار من هذا القول في المستقبل، ويحتمل الماضي، والتقدير: فكانوا يقولون: متى هذا الوعد؟

المسألة الثانية: لعلهم كانوا يقولون ذلك على سبيل السخرية، ولعلهم كانوا يقولونها إيهامًا للضعفة: أنَّه لمَّا لمْ يتعجلْ، فلا أصل له.

المسألة الثالثة: الوعد المسؤول عنه ما هو؟

فيه وجهان:

أحدهما: أنَّه القيامة.

والثاني: أنَّه مطلق العذاب، وفائدة هذا الاختلاف تظهر بعد ذلك إن شاء الله.

ثمَّ أجاب الله عن هذا السؤال بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

والمراد أنَّ العلمَ بالوقوع غيرُ العلم بوقت الوقوع، فالعلم الأول

QaradawiBooks.com

حاصل عندي، وهو كافٍ في الإنذار والتحذير، أمَّا العلم الثاني فليس إلَّا لله، ولا حاجة في كوني نذيرًا مُبيِّنًا إليه»[١].

غير مرخصة للطباعة

حال الكافرين عند نـزول العذاب:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾

(زُلْفَى) اسـم مصدر من فعل «أزْلَفَه» أي: قرَّبه. فهـي بمعنى قُرْبًا، وأريد بهذا المصدر اسم الفاعل مبالغة، أي: قريبًا، كما تقول: هذا رجلٌ عَدْل، أي: عادل. أي: العذاب الدنيـوي أو الأخروي أو ما يعمُّهما قريبًا منهم ومحيطًا بهم.

قال الفخر الرازي: «ثمَّ إنَّه تعالى بيَّن حالهم عند نـزول ذلك الوعد، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وفيه مسائل:

المسـألة الأولى: قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ الضمير للوعد، والزلفة: القرب. والتقدير: فلمَّا رأوه قُربًا، ويحتمل أنَّه لما اشتدَّ قربه، جعل كأنَّه في نفس القرب. وقال الحسـن: معاينةً، وهذا معنى، وليس بتفسـير؛ وذلك لأنَّ ما قرُب من الإنسان رآه معاينة.

المسـألة الثانية: قوله: ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قـال ابن عبَّاس: اسـودَّتْ، وعَلَتْها الكآبة والقَتَرة. وقال الزجاج: تبيَّن فيها السوء، وأصل السوء القُبح، والسيئة ضدُّ الحسنة، يقال: ساء الشيء يسوء فهو سيِّئ إذا قَبُح، وسِـيء يُسـاء: إذا قُبِح، وهو فعـل لازم ومتعدٍّ، فمعنى سـيئت وجوههم قبُحتْ بأنَّ علَّتها الكآبة، وغشيها الكسـوف والقَتَرة وكلَحُوا، وصارت وجوههم كوجه من يُقاد إلى القتل.

(١) تفسير الرازي (٥٩٦/٣٠).

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

المسألة الثالثة: اعلمْ أنَّ قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ إخبارٌ عن الماضي، فمن حمل الوعد في قوله:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ على مُطلق العذاب، سهُل تفسير الآية على قوله. فلهذا قال أبو مسلم في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ يعني: أنَّه لمَّا أتاهم عذاب الله المُهلِك لهم، كالَّذي نزل بعادٍ وثمود؛ سِيئت وجوههم عند قُربه منهم.

وأمَّا من فسَّر ذلك الوعد بالقيامة، كان قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ معناه: فمتى ما رأوه زُلْفة، وذلك لأنَّ قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ إخبار عن الماضي، وأحوال القيامة مستقبلة لا ماضية، فوجب تفسير اللفظ بما قلناه.

قال مقاتل: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ أي: لمَّا رأوا العذاب في الآخرةِ قريبًا.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال بعضهم: القائلون هم الزبانية. وقال آخرون: بل يقول بعضُهم لبعض ذلك.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿تَدَّعُونَ﴾ وجوه:

أحدها: قال الفرَّاء: يريد ﴿تَدَّعُونَ﴾ من الدعاء، أي: تطلبون وتستعجلون به، وتدْعون وتدَّعون واحد في اللغة، مثل: تذْكرون وتذَّكرون، وتدْخرون وتدَّخرون.

وثانيها: أنَّه من الدَّعْوَى، معناه: هذا الَّذي كنتم تُبطِلونه، أي: تدَّعُون أنَّه باطل لا يأتيكم، أو هذا الَّذي كنتم بسببه تدَّعون أنَّكم لا تبعثون.

وثالثها: أن يكون هذا استفهامًا على سبيل الإنكار، والمعنى: أهذا الَّذي تدَّعون؟ لا بل كنتم تدعون عدمه.

QaradawiBooks.com

المســألة الثالثة: قرأ يعقوب الحضرمي «تدْعُون» خفيفةً، من الدعاء، وقرأ السبعة ﴿تَدَّعُونَ﴾ مثقلة من الادِّعاء»[1].

وقال ابن كثير في تفســير ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: «أي: لمَّا قامتِ القيامة، وشاهدها الكفار، ورأَوا أنَّ الأمر كان قريبًا؛ لأنَّ كل ما هو آتٍ قريب، وإن طال زمنه، فلما وقع ما كذَّبوا به ساءهم ذلك، لِمَا يعلمون ما لهم هناك من الشــر، أي: فأحاط بهم ذلك، وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ۝ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الزمر: ٤٧، ٤٨]. ولهذا يُقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي: تستعجلون»[2].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٨ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٩ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾

﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: أي: انظروا وتدبــروا وأخبروني ﴿إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ﴾ أي: من المؤمنين، بعذابه الَّذي تطلبون وتتمنون، ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ أي: أحسن إلينا وأكرمنا بالخير والنصــر. ﴿فَمَن يُجِيرُ﴾ يحمي ويحفظ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؟!

أي: إنَّنا ـ مع إيماننا ـ بين الخوف والرجاء، فمَنْ يُجيركم من العذاب مع كفركم هذا؟

(١) تفسير الرازي (٣٠/٥٩٦، ٥٩٧).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/١٨٢).

QaradawiBooks.com

قال ابن كثير في بيان هذه الآيات: «يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمَّد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: خلِّصُوا أنفسكم، فإنه لا مُنقذ لكم من الله إلَّا التوبة والإنابة، والرجوع إلى دينه، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنَّوْن لنا من العذاب والنَّكال، فسواء عذَّبَنا اللهُ أو رحِمنا، فلا مناصَ لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: آمنَّا بربِّ العالمين، الرحمن الرحيم، وعليه توكلنا في جميع أمورنا، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]. ولهذا قال: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: منَّا ومنكم، ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة؟!

ثم قال تعالى إظهارًا للرحمة في خلقه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: ذاهبًا في الأرض إلى أسفل، فلا ينال بالفؤوس الحداد، ولا السواعد الشِّداد.

والغائر: عكس النابع؛ ولهذا قال: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ أي: نابع سائح جارٍ على وجه الأرض. أي: لا يقدر على ذلك إلَّا الله، تبارك وتعالى، فمن فضله وكرمه أن أنْبَعَ لكم المياه، وأجراها في سائر أقطار الأرض، بحسَب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة، فلله الحمد والمنَّة»[1].

وقال الرازي في تفسيره الكبير: «اعلمْ أنَّ هذا الجواب هو من النوع الثاني، ممَّا قاله الكفَّار لمحمَّد ﷺ حين خوَّفهم بعذاب الله.

---

(١) تفسير ابن كثير (١٨٣/٨).

QaradawiBooks.com

يُرْوَى أنَّ كفَّار مكَّة كانوا يَدْعُون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]. وقال ﷻ: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢]. ثمَّ إنَّه تعالى أجاب عن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: هو هذه الآية، والمعنى: قُلْ لهم: إنَّ الله تعالى سواء أهلكني بالإماتة، أو رحمني بتأخير الأجل، فأيُّ راحة لكم في ذلك؟ وأيُّ منفعة لكم فيه؟ ومن الَّذي يجيركم من عذاب الله إذا نزل بكم؟ أتظنُّون أنَّ الأصنام تُجِيركم أو غيرها؟ فإذا علمتم أن لا مجير لكم، فهلَّا تمسكتم بما يخلصكم من العذاب، وهو العلم بالتوحيد والنبوَّة والبعث؟

الوجه الثاني: في الجواب قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ والمعنى: أنَّه الرحمن، آمنَّا به، وعليه توكَّلنا، فيعلم أنَّه لا يقبل دعاءكم، وأنتم أهل الكفر والعناد في حقِّنا، مع أنَّا آمنَّا به، وعليه توكَّلنا، ولم نكفر به كما كفرتم، ثمَّ قال: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لا على غيره، كما فعلتم أنتم، حيث توكَّلتم على رجالكم وأموالكم.

وقرئ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ على المخاطبة، وقرئ بـ «الياء»، ليكون على وَفْق قوله: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

واعلمْ أنَّه لما ذكر أنَّه يجب أن يتوكَّل عليه لا على غيره، ذكر الدليل عليه، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾.

والمقصود أن يجعلهم مُقرِّين ببعض نعمه؛ ليريَهم قُبح ما هم عليه من الكفر، أي: أخبروني إن صار ماؤكم ذاهبًا في الأرض، فمن يأتيكم بماء مَعين؟ فلا بدَّ وأن يقولوا: لا أحد إلَّا الله. فيُقال لهم حينئذ: فلِمَ تجعلون من لا يقدر على شيء أصلًا شريكًا له في المعبوديَّة؟

QaradawiBooks.com

وهو كقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨، ٦٩].

وقوله: ﴿غَوْرًا﴾ أي: غائرًا ذاهبًا في الأرض، يُقال: غار الماءُ يغور غورًا، إذا نضَبَ وذهب في الأرض، والغَوْر ههنا بمعنى: الغائر، سُمِّيَ بالمصدر، كما يقال: رجل عَدْل ورِضًا.

والمَعين: الظاهر الَّذي تراه العيون، فهو «مفعول» من العين كـ «مبيع». وقيل: المعين: الجاري من العيون، من الإمعان في الجري، كأنَّه قيل: مُمْعِن في الجري، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم»[1].

* * *

(١) تفسير الرازي (٣٠/٥٩٧).

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

تفسير سورة القلم

ملامح حول السورة:

سورة القلم، هي سورة مكيَّة بالإجماع، وموضوعها وأسلوبها يشهدان بذلك، وآيُها ثنتان وخمسون، بل كل سور هذا الجزء «التاسع والعشرين» مكيَّة، ولا يُستثنى منه شيء، وقد استثنى بعضهم آيات من بعض سوره، ولكن استثناء الآيات من السور قضية قلَّما تثبت. ومن المعروف ـ أيضًا ـ أنَّ الجزء الثامن والعشرين (جزء قد سمع) كلُّ سُوَره مدنيَّة.

وقد كُنَّا نقرأ في المصاحف القديمة: أنَّ سورة القلم نزلت بعد سورة العلق، وهذا يعني أنَّها السورة الثانية في ترتيب النزول، بعد ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

ومن يقرأ السورة لا يمكن أن ينشرح لهذا أبدًا؛ لأنَّ السورة تتحدَّث عن معركة دائرة بين الرسول ﷺ وبين المجتمع الوثني، الَّذي رفض دعوته، وأعلن الحرب عليه وعليها، فلا يمكن أن تكون نزلت بعد الآيات الخمس الأولى من القرآن: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۞ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۞ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

والذي يظهر لمن يقرأ سورة القلم: أنَّها سورة تخوض معركة ضد الوثنيَّة الجاهليَّة العربيَّة، وممثِّليها ودعاتها والمدافعين عنها، وهم كثير من أصحاب المال والجاه، وهم الَّذين واجهتهم السورة بمثل قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ۝ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم ٨ ـ ١٥]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يدلُّ على أنَّ هناك سورًا ذُكِرَ فيها آيات تتحدَّث عن قصصٍ من قصصِ الأوَّلين، حتَّى يقولوا قولهم هذا.

سورة تدافع عن محمَّد ﷺ:

سورة القلم فيها دفاعٌ عن رسول الله ﷺ، ومواجهة لأعدائه، وتهديد لهم، كما في آخر السورة: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾. وكلمة «ذرني» تعني: دعْني لهؤلاء، وهذه العبارة تكرَّرت في هذا الجزء أكثر من مرَّة، ففي سورة المزمِّل يقول الله تعالى: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١١ ـ ١٣]. وفي سورة المدَّثر يقول تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١١ ـ ١٦].

فهذه السورة الَّتي تُبرِق وتُرعِد، وتُرغي وتُزبِد، تدلُّ على أنَّ المعركة كانت حامية الوطيس، وأنَّ المشركين كانوا وقت نزولها قد بدؤوا يواجهون الدعوة في حَمْلة ظالمة من الأكاذيب والاتِّهامات الباطلة لمحمد ﷺ.

QaradawiBooks.com

ولذلك دعاه الله تعالى إلى الصبر في أكثر من سورة من هذا الجزء، فقال تعالى في سورة المزمل: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ [المزمل: ١٠]. وقال في سورة المعارج: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۞ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۞ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ [المعارج: ٥ ـ ٧]. وقال في سورة الإنسان: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ [الإنسان: ٢٤].

وهنا في سورة القلم يقول الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ [القلم: ٤٨]. أي: اصبر على قومك، ولا تستعجل لهم، لا تكن كصاحب الحوت يونس عليه السلام، وهذا يدلُّ على أنَّ المعركة شديدة الاشتعال، وأنَّ عليه أن يصبر ويثبُت على دعوته، ولا يبالي بهؤلاء، وسيدافع الله عنه، لذا قال له: ذرْني وهؤلاء، شأني وشأنهم.

بداية تفسير السورة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢
وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾

﴿نٓ﴾ بدأت السورة بحرف النون، وهو من الحروف المقطعة، الَّتي يبدأ بها كثيرٌ من السور المكية والمدنية.

والقرآن الكريم أحيانًا يذكر حرفًا واحدًا فقط في أول السورة، مثل: ﴿قٓ﴾ و﴿صٓ﴾ و﴿نٓ﴾، وأحيانًا حرفين مثل: ﴿طه﴾، و﴿يسٓ﴾، و﴿طسٓ﴾ و﴿حمٓ﴾. وأحيانًا يذكر القرآن ثلاثة حروف مثل: ﴿الٓمٓ﴾،

QaradawiBooks.com

و﴿الٓر﴾، و﴿طسٓمٓ﴾. وأحيانًا أربعة حروف مثل: ﴿الٓمٓصٓ﴾، و﴿الٓمٓر﴾. وأحيانًا خمسة حروف مثل: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾، و﴿حمٓ ۞ عٓسٓقٓ﴾، هذه كلها حروف مقطعة بُدئتْ بها بعض سور القرآن الكريم.

وليست ﴿طه﴾ ولا ﴿يسٓ﴾ من أسماء النبي ﷺ كما يظن بعض النَّاس، وإنَّما هما حرفان، مثل ﴿طسٓ﴾ تمامًا، مجرَّد حرفين (الياء والسين)، و(الطاء والهاء)، كلها حروف.

الراجح في الحروف المقطعة:

اختلفت أقوال العلماء في هذه الحروف المقطَّعة، وأرجح الأقوال أنَّها: إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، فهذا القرآن الَّذي يتكوَّن من هذه الأحرف العربية الَّتي تنطقون بها هو الَّذي أعجزكم، ولم تستطيعوا أن تأتوا بمثله، ولا بعَشْر سُور من مثله، ولا بسورة من مثله، مع أن هذا القرآن مُكوَّن من هذه الحروف، الَّتي تستخدمونها في لغتكم وكلامكم وخطبكم وأشعاركم.

ولكن يبقى شيء يقول فيه العلماء: الله أعلم بمراده. مثلًا: لماذا اختار لسورة حرفًا، ولسورة أخرى حرفين، ولسورة ثالثة ثلاثة أحرف، ولسورة رابعة أربعة، ولسورة خامسة خمسَة، ولماذا كانت هذه ﴿قٓ﴾ ولم تكن ﴿صٓ﴾؟ أو العكس؟ المهم سيظل هناك قدر نعجَز عنه ونقول فيه: الله أعلم بمراده.

القسم بالقلم والكتابة:

﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾: القلم هو الأداة الَّتي يكتب بها النَّاس، وهو الَّذي تنتقل به العلوم والآداب، والثقافات والمعارف، من جيل إلى آخر، ومن أمَّة إلى أخرى. والظاهر: أنَّه جنس القلم، أداة الكتابة المعروفة، عظَّمه الله تعالى حين أقسم به في هذه السورة من كتابه.

QaradawiBooks.com

ولله تعالى وحده أن يقسم بما شاء من خلقه؛ ليدلهم على ما فيه من مزايا وفوائد، قد يغفل عنها الكثيرون، وقسمه بالقلم هنا تأكيد لما جاء به أول سورة أنزلت على محمَّد من القرآن. وهو قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

ففي هذه السورة «ن» قسم منه تعالى، وتنبيه لخلقه على قيمة ما أنعم به عليهم من نعمة الكتابة، الَّتي ينال بها العلم والمعرفة، ولولاه ما انتقلت معارف الأمم والأجيال بعضها إلى بعض.

﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أقسم الله بالقلم، وإذا أقسم الله بشيء فذلك لينبهنا إلى أهميته وخطورته في حياتنا في ديننا وفي دنيانا. قالوا: وأقسم الله بالقلم، لما فيه من البيان بالكتابة، كما أنعم باللسان لما فيه من البيان بالنطق، ولهذا قالوا: القَلَمُ أحدُ اللسانين. قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣، ٤]. وقال أبو الفتح البُسْتي يفضل القلم على السيف[1]:

إذا أقسمَ الأبطالُ يومًا بسَيْفِهم ... وعدُّوه ممَّا يُكسِبُ المجدَ والكرمْ

كفى قلمَ الكُتَّاب عِزًّا ورفعةً ... مدى الدَّهرِ أنَّ اللهَ أقسمَ بالقلمْ

وللشعراء أبياتٌ كثيرة في تفضيل القلم على السيف، وإن كان أبو تمَّام يقول:

السيفُ أصدقُ إنباءً من الكُتُبِ[2]!

(١) انظر: أحسن ما سمعت صـ ٢٥، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

(٢) البيت في ديوانه (٤٠/١)، تحقيق محمد عبده عزام، نشر دار المعارف، القاهرة، ط ٥. وهو من بائيته الشهيرة التي قالها في فتح عَمُّوريَّة.

QaradawiBooks.com

وأهمُّ علم يكتبه هذا القلم هو القرآن الكريم، أعظم وأفضل وأزكى ما يتعلَّم البشر وما يُعلِّمونه للنَّاس؛ لأنَّه يمثِّل علم الله تبارك وتعالى، ولذلك روى البخاري عن عثمان مرفوعًا: «**خيرُكم مَن تعلَّمَ القرآن وعلَّمه**»[(١)].

ولهذا ردَّ القرآن على المشركين الَّذين زعموا أنَّ القرآن الَّذي أنزل على رسول الله ﷺ: إنَّما هو ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ فرد القرآن آمرًا إيَّاه أن: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٥، ٦].

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ هنا تشير إلى تسطير الوحي وحفظه في السطور، كما حُفِظ في الصدور؛ لأنَّ العلماء قالوا: غالبًا ما تقترن الحروف المقطعة في القرآن بذكر القرآن أو ما يدل عليه، فممَّا سطره القلم: الوحي، انتقل إلينا القرآن بواسطة القلم، وانتقلت إلينا علوم الأمم بواسطة القلم، عن طريق الكتابة، لذلك يقولون: العلم صيد والكتابة قيد، ورُوِي في بعض الأحاديث: أن رجلًا قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، أسمع منك ثمَّ أنسى. فقال له النبيُّ ﷺ: «**استَعِنْ بيَمِينك**». وأوْمَأ بيده إلى الخط[(٢)]، يعني: اكتب ما تسمع. كما قال بعض السلف[(٣)]:

العلمُ صيدٌ والكتابةُ قَيْدُه ... قَيِّد صيودَك بالحبالِ الواثقةْ
فمن الحماقة أن تصيدَ غزالةً ... وتَفُكُّها بين الخلائقِ طالِقةْ

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٧).

(٢) رواه الترمذي في العلم (٢٦٦٦)، وضعَّفه، والبزار (٨٩٨٩)، والطبراني في الأوسط (٨٠١)، وضعَّفه الألباني في الجامع الصغير (١٨٢٤)، عن أبي هريرة.

(٣) هو الإمام مالك، كما في إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين (٥/٤)، نشر دار الفكر، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

فاربط العلم وقيّده بالكتاب وبالقلم. ومن الدلائل على أهمية القلم: أن أول آيات نـزلت من القرآن العظيم ذكرت القلم: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]، وهذا دليل على أهمية القلم.

الآن نرى القلم تطـوَّر، القلم صار مطبعــة، فالمطبعة الآن هي قلم العصر، والمطبعة تطوَّرت وأصبحت شـيئًا هائلًا، هــذا كله قلم، ليس ضروريًّا أنَّ القلم هو ما كنَّا نكتب به قديمًا في اللوح في «الكُتَّاب» قلم من «البُوص»، هذا كان قلم الزمن الماضـي، لكنَّه تطور فصار قلمًا من الرصاص، ثمَّ قلم من «الكوبيـا»، ثمَّ قلمَ حبرٍ، ثمَّ صار مطبعة، ثمَّ صار شبكة اتصالات معلوماتية هائلة، كل هذا قلم، وحينما يقسم الله بالقلم، يقسم بأدوات نقل المعرفة من النَّاس بعضهم إلى بعض، هذا كله داخل في هذا القسم، ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾: إشارة إلى أنَّ الَّذين يكتبون بالقلم يكتبون في سطور، فهم يكتبونه كتابة منتظمة في سور وآيات.

والضمير (واو الجميع) في قوله: ﴿يَسْطُرُونَ﴾ مفهوم من ذكر القلم وما يوحي به من كاتبين مختصين بالكتابة به، وبدون ذلك لا فائدة للقلم.

و«مـا» فـي قولـه: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾: موصولـة أو مصدريَّـة. أي: ومسطوراتهم، أو: وسَطْرهم. ويراد به: كلُّ من يسطر. وهم أصحاب القلم المدلول عليهم بذكره.

وأحسـب أنَّ القلم المعروف للنَّـاس هو المراد في هــذه الفترة الأولى من الوحي، حيث لم يَشِـع القلمُ بالمعانــي الأخرى، ولكن مفهومه يتضمنها.

QaradawiBooks.com

اتّهامات المشركين للنبي ﷺ:

﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾

كان من الحملة الظالمة القاسية الجائرة الَّتي حملها المشركون على محمَّد ﷺ: أنَّهم اتَّهموه بعدَّة اتِّهامات، اتَّهموه بالجنون، وبالسحر، فقالوا عنه: إنَّه ساحر، وما جاء به سحر. كما حكى الله عن أحد المشركين: ﴿فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤]. وأحيانًا يقولون عنه: إنَّه كاهن. وأحيانًا يقولون: شاعر. كما في قول الله في أواخر سورة الحاقة: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢]، وأحيانًا يخلطون بين الأقوال، وينتقلون من تهمة إلى تهمة، ولا يثبُتون على شيء؛ لأنَّه لا دليل لديهم على ما يقولون، كما قال الله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ﴾ [الأنبياء: ٥].

فكان ممَّا اتَّهموه به: «الجنون»، وقد أورد القرآن بعض أقوالهم في هذا، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾ [الصَّافات: ٣٦]، ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الحجر: ٦، ٧].

التهمة بالجنون تهمة قديمة:

وتهمة الجنون تهمة قديمة، اتُّهم بها سائر الرسل، من عهد سيدنا نوح: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ [المؤمنون: ٢٥]. ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ﴾ [القمر: ٩]. وكذلك اتَّهم فرعون سيدنا موسى بالجنون، ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الشعراء: ٢٧]. ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ﴾ [الذاريات: ٣٨، ٣٩]. فالتهمة قديمة، قال الله تعالى:

QaradawiBooks.com

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۞ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

فالتهمة بالجنون قديمة، ولذلك لا يُستغرَب أن يَتَّهم المشركون محمَّدًا ﷺ بأنَّه مجنون، وقد ورد أنَّ النبيَّ ﷺ كان يعرض دعوته على قبائل العرب في موسم الحج، ويقول لهم: «**هل لكم في كلمة تدين لكم بها العرب، وتؤدِّي العجم إليكم بها الجزية؟**». قالوا: ما هي؟ قال: «**لا إله إلَّا الله**»(١). فيذهب عمه أبو لهب ويقول لهذه القبائل: لا تسمعوا له، إنَّه مجنون يهذي، فيردون على أبي لهب قائلين: قد عرفنا ذلك حينما ذكر كسرى بن هُرْمُز(٢).

أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يردَّ عن رسوله الكريم، الَّذي اصطفاه من خلقه، وختم به رسله، وأنزل إليه أعظم كتبه، وأرسله بالرسالة الجامعة الشاملة الخاتمة، لترد التهم الباطلة الَّتي يلصقها به المشركون المكذِّبون، وهي أبعد شيء عنه، وهو أبعد شيء عنها، ومنها هذه التُّهمة الباطلة (تهمة الجنون)، فقال تعالى في سورة الطور: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الآية: ٢٩].

وفي هذه السورة ـ ويبدو أنَّها من أوائل ما أنزل الله على رسوله ـ يقول تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ أي: لستَ ـ ولله الحمد ـ بمجنون، كما يقول الجهَلة من قومك، المكذِّبون بما جئتهم به من الهدى والحق المبين، فنسبوك إلى الجنون.

---

(١) زاد المعاد لابن القيم (١٤٠/٣)، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢٧، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٣٥٠/٤)، نشر دار هجر، القاهرة، ط ١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

QaradawiBooks.com

والباء في قوله: ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ للمُصاحَبة، أي: ما أنت وقد صحبتك نعمةُ ربِّك بمجنون، ولكنك في فَضْل كبير، ونعمة عُظْمى، وعلمٍ من الله جليل، علَّمك به ما لا يعلمون.

وهذه الجملة جواب القسم، وهي منفية.

والنعمة هنا: الرحمة والنبوَّة الَّتي ينكرونها عليه. ويحتمل ثانيًا: أنَّ النعمة هاهنا قَسَمٌ آخر، تقديره: ما أنت ونعمة ربك مجنون؛ لأنَّ الواو والباء من حروف القسم.

والتعرض لوصف الربوبية المُنْبِئة عن التبليغ إلى مدارج الكمال، مع الإضافة إلى ضميره عليه الصلاة والسلام، لتشريفه والإنذار بأنَّه تعالى يتم نعمته عليه، ويبلِّغه من العلو إلى غاية لا غاية وراءها. والمراد: تنزيهُه عمَّا كانوا ينسبون إليه من الجنون، حَسَدًا وعداوةً ومكابرةً، مع جزمِهم بأنَّه ﷺ في غاية الغاياتِ القاصيةِ، ونهاية النهاياتِ النائيةِ من حَصانةِ العقلِ ورَزَانَةِ الرأيِ.

دعوة القرآن إلى التفكر:

والقرآن دعا هؤلاء المشركين، في أكثر من موضع في القرآن، إلى أن ينظروا في هذا الكلام الساذج الغبي الجاهل، الَّذي لا يعتمد على منطق، ولا عقل، ولا علم، ولا واقع، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]. أي: أطلب منكم شيئًا واحدًا، وهو: أن تتركوا العِناد والعصبيَّة، والكِبْر والحسد، وهذه الآفات النفسيَّة، و﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾، أي: مخلصين في طلب الحقيقة، ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾، يعني

QaradawiBooks.com

يجلس كل واحد منكم مع صديق له، أو يجلس وحده، ويفكر بعيدًا عمَّا يسمِّيه علماء النفس: «العقل الجمعي»؛ لأنَّهم إذا جلسوا بعضهم مع بعض، فسوف يجامل بعضهم بعضًا، ويخاف بعضهم من بعض، ويعمل بعضهم حسابًا لبعض، لا، دعوا هذا التأثُّر المتبادل، وليفكر كل واحد منكم وحده، أو مع صاحب له، ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾.

وفي سورة الأعراف يقول: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤]، وكيف يكون هذا مجنونًا؟ هذا الَّذي يأتي بهذا الكلام الرائع المنير المشرق الفصيح البليغ، الَّذي يتضمَّن جواهر الحكم، وجوامع الكلم، وكنوز المعارف، وثوابت التاريخ، وروائع التوجيه، وفواضل التشريع! فكيف يأتي المجنون بالقرآن هذا؟

نفى الله تعالى عن رسوله ﷺ هذا الجنون فقال: ﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۞ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، لا يمكن أن يكون ما أنعم الله به عليك من الوحي والهداية، هو سبب جنونك، كيف تكون نعمة الله عليك، ونور الله لك، دليلًا على الجنون؟! هذا استدلال على الشيء بنقيضه.

أجر النَّبي الكثير المستمر:

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾

أي: إنَّ لك يا محمَّد أجرًا وثوابًا على ما تقوم به، أجرًا لا ينقطع، أجرًا مستمرًّا، فلا تثنيك هذه التهم الباطلة، وهذه الاختلاقات الكاذبة، وهذه الأقوال المفتراة عليك، لا تثنيك، ولا تثبِّطك؛ لأن هذا كله يزيد في أجرك، وأجرك أجر ممتد.

QaradawiBooks.com

فكل العلماء، وكل الدعاة، وكل المرشدين، وكلُّ من يعمل خيرًا في هذه الأمة إلى يوم القيامة: أجره محسوب للنبي ﷺ؛ لأنَّه هو الَّذي هداهم من ضلالة، وهو الَّذي علَّمهم من جهالة، وهو الَّذي هداهم الصراط المستقيم، وهو الَّذي أخرجهم من الظلمات إلى النور، وقد قال ﷺ: «**مَنْ سنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة، فله أجرُها، وأجر من عمل بها، من غير أن يَنقُص من أجورهم شيءٌ**»[1]. فأيُّ أجر يَقْدُر أجر محمَّد ﷺ أو يدانيه؟! هيهات.

وأجره ﷺ ممتدٌّ إلى أن تقوم الساعة، ما دام هذا الإسلام منتشِرًا في الأرض، يهدي به الله الكثير من النَّاس، ويدخل النَّاس في دين الله أفواجًا، ونرى فيه الصلحاء والأخيار والأبرار، تصدر عنهم العلوم النافعة، والأفكار النَّيِّرة، والحكم الصائبة، وعمل الصالحات، واجتناب السيِّئات، كل هذا يصبُّ في النهاية في ميزانه ﷺ، ولذلك قال له: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: بل لك الأجر العظيم، والثواب الجزيل، الَّذي لا ينقطع ولا يبيد، على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق، وصبرك على أذاهم. أي: لك أجر بمقابلة مُقاساتك ألوان الشدائد من جهتهم، وتحمُّلِك أعباء الرسالة. والمعنى: إن هذا الأَجْر لا يقادَر قدرُه.

ومعنى ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع؛ كقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]. وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦]. أي: غير مقطوع عنهم.

وقيل: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير محسوب، لأن كل محسوب محصور، فهو معد لأن يُمن به، وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. وقيل: غير ممنون: غير مُكدَّر بالمَنِّ والأذى.

(١) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٧)، وأحمد (١٩١٧٤)، عن جرير بن عبد الله.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

صاحب الخُلُق العظيم:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

هذا ثناءٌ عظيم من ربِّ العالمين، الَّذي خلق محمَّدًا وصوَّره، ومدحه بهذه المدحة الكبرى، حين وصفه بهذا الوصف الَّذي لا يُقادَر قَدْره، ولا يصل مخلوق إلى ما يدانيه، هذا أعظم ما مدح الله به محمَّدًا ﷺ، فلم يقل له: إنك كثير الصلاة، أو كثير الصيام، لا، وإنَّما مدحه وأثنى عليه بعظمة الخُلق، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

لو قال هذا أستاذ لتلميذه، أو أب لابنه، أو قائد لجُنديِّه، أو شيخ لمريده، لقلنا له: ما أعظم ما أثني به عليك! فكيف وقائل هذا هو الله تبارك وتعالى، وقاله في محكم كتابه الَّذي لا ينسخه ناسخ، ولا يعطله معطِّل، ولا يلغيه ملغٍ، بل هو الحقُّ الَّذي لا يعتريه بطلان، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، فعِظَم هذا الخُلُق لا يُدرِك شَأْوَه أحدٌ من الخلق، ولهذا تحمَّل معهم ما لا يكاد يتحمَّلُه البشر.

وفي صحيح مسلم: أنَّ أمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها سألها سعد بن هشام بن عامر عن خُلُقه ﷺ، فقالت: ألست تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قالت: فإنَّ خُلُق نبيِّ الله ﷺ كان القرآن(١).

وقد ذكر العلَّامة ابن كثير في تفسيره تكرُّر هذا عن عائشة لأكثر من سائل، فقال:

«وقال الإمام أحمد: حدَّثنا أسودُ، حدَّثنا شَرِيك، عن قَيْس بن وهب،

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦) (١٣٩)، وأحمد (٢٤٢٦٩).

QaradawiBooks.com

عن رجلٍ من بني سُوَاءة[١] قال: سألتُ عائشةَ عن خُلُق رسول الله ﷺ، فقالت: أما تقرأُ القرآن؟! ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. قال: قلتُ: حدِّثيني عن ذاك. قالت: صنعتُ له طعامًا، وصنعتْ له حفصةُ طعامًا، فقلتُ لجاريتي: اذهبي فإنْ جاءت هي بالطعام فوضعتْه قبلُ فاطرحي الطعام! قالت: فجاءت بالطعام. قالت: فألقت الجارية، فوقعت القصعة فانكسرت ـ وكان نِطَعٌ[٢] ـ قالت: فجمعه رسول الله وقال: «**اقتَصُّوا** ـ أو: اقتصِّي. شكَّ أسود ـ **ظرفًا مكان ظَرْفِكِ**». قالت: فما قال شيئًا[٣].

وقال ابن جرير: حدَّثنا عُبَيْد بن آدمَ بن أبي إياس، حدَّثنا أبي، حدَّثنا المباركُ بن فضالة، عن الحسن، عن سعد بن هشام: قال: أتيتُ عائشةَ أمَّ المؤمنين، فقلتُ لها: أخبريني بخُلُق النبيِّ ﷺ. فقالت: كان خُلُقه القرآن. أما تقرأ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٤]؟! وقد روى أبو داود والنسائي من حديث الحسن نحوه[٥].

وقال ابن جرير: حدَّثني يونس، أنبأنا ابنُ وهب، وأخبرني معاوية بن صالح، عن أبي الزاهريَّة، عن جُبَيْر بن نُفَيْر قال: حججتُ، فدخلتُ على عائشة رضي الله عنها، فسألتها عن خُلُق رسول الله ﷺ. فقالت: كان خُلُق رسول الله ﷺ القرآن[٦]. وهكذا رواه أحمد، عن عبد الرحمن بن مهديٍّ[٧].

---

(١) في المطبوعة التي بين أيدينا من ابن كثير: سواد. والمثبت الصواب.

(٢) النِّطَع: بساط من جلد. وكان هنا تامَّة، أي: وجد نطع.

(٣) رواه أحمد (٢٤٨٠٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف.

(٤) رواه الطبري في تفسيره (٢٣/٥٢٩)، وأحمد (٢٤٦٠١)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح.

(٥) رواه أبو داود (١٣٥٢)، والنسائي (١٦٥١)، كلاهما في قيام الليل، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (١٢٢٣).

(٦) رواه الطبري في التفسير (٢٣/٥٢٩).

(٧) رواه أحمد (٢٥٥٤٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح.

QaradawiBooks.com

ورواه النسائي في التفسير، عن إسحاق بن منصور، عن عبد الرحمن بن مهديٍّ، عن معاوية بن صالح، به[(١)].

ومعنى هذا: أنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ صار امتثالُ القرآن أمرًا ونهيًا سجيةً له، وَخُلُقًا تَطَبَّعَه، وترك طَبْعَه الجِبِلِّي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، ومن أراد أن يعرف خُلُق محمَّد ﷺ فلْيقرأ القرآن، كلُّ ما في القرآن من دعوةٍ إلى الحقِّ والخير، والجمال والصدق، والأمانة والثبات، والشجاعة والحياء، وكل فضائل الحقِّ والخير، من الأخلاق الربانيَّة، والأخلاق الإنسانيَّة.

الأخلاق الربانيَّة، مثل: التوبة إلى الله، والرجاء في رحمة الله، والخشية من عذاب الله، والتوكُّل على الله، والشكر لنعمة الله، والصبر على ابتلاء الله، والحياء من الله، واليقين بما عند الله، والإخلاص لله، إلخ.

والأخلاق الإنسانيَّة، وهي الَّتي يتعامل بها الإنسان مع النَّاس مثل: الصدق، والأمانة، والسخاء، والشجاعة، والتواضع، والعفَّة، وحبِّ الخير، والمعاونة على البرِّ والتقوى، إلخ.

وكلٌّ من الأخلاق الربانيَّة والأخلاق الإنسانيَّة، تتجسَّد أعلى ما تكون، وأظهر ما تكون، وأقوى ما تكون، في محمَّد ﷺ، فهو المثل الأعلى الَّذي يمثِّل الكمالَ الإنسانيَّ.

الكمال الإنسانيُّ تجسَّد في هذا الرسول ﷺ، وهو أخذ من الرسل من قبله، فقد ذكر الله له مجموعة من الرسل ثمَّ قال له: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠]، اقْتدِ بهدي النبيِّين والمرسلين السابقين، فاقتبس منهم أفضل ما عندهم، ولذلك تجمَّعت فيه أخلاق النبوَّات جميعًا، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾.

---

(١) رواه النسائي في الكبرى في التفسير (١١٠٧٣).

QaradawiBooks.com

هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة، والصفح والحِلم، وكلِّ خلق جميل، كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: خدمتُ رسولَ الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أفٍّ. قطُّ، ولا قال لشيء فعلتُه: لم فعلتَه؟ ولا لشيءٍ لمْ أفعلْه: ألا فعلتَه! وكان ﷺ أحسن النَّاس خُلُقًا، ولا مسِستُ خزًّا ولا حريرًا ولا شيئًا كان ألين من كفِّ رسول الله ﷺ، ولا شمِمْتُ مسكًا ولا عِطْرًا كان أطيب من عَرَق رسول الله ﷺ[1].

قال الإمام أحمد: حدَّثنا عبد الرزاق، حدَّثنا مَعْمَر، عن الزُّهْري، عن عُرْوة، عن عائشة قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادمًا له قطُّ، ولا امرأةً، ولا ضرب بيده شيئًا قطُّ، إلَّا أن يجاهد في سبيل الله. ولا خُيِّر بين شيئَيْن قط، إلَّا كان أحبُّهما إليه أيسرَهما، حتَّى يكون إثمًا، فإذا كان إثمًا كان أبعدَ النَّاس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيءٍ يؤتى إليه، إلَّا أن تُنتَهك حرمات الله، فيكون هو ينتقم لله ﷻ[2].

وقال الإمام أحمد: حدَّثنا سعيدُ بن منصور، حدَّثنا عبد العزيز بن محمد، عن محمَّد ابن عَجْلان، عن القعقاع بن حَكِيم، عن أبي صالحٍ، عن أبي هُرَيرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّما بُعِثْتُ لأتمِّم صالحَ الأخلاق**»[3]. تفرَّد به»[4].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصوم (١٩٧٣)، ومسلم في الفضائل (٢٣٠٩).

(٢) رواه أحمد (٢٥٩٥٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأصل الحديث في الصحيحين: رواه البخاري في المناقب (٣٥٦٠)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، بنحوه.

(٣) رواه أحمد (٨٩٥٢)، وقال مخرِّجوه: صحيح. والبخاري في الأدب المفرد في حسن الخلق (٢٧٣)، والحاكم في تواريخ المتقدمين (٢/٦١٣)، وقال: على شرط مسلم. ووافقه الذهبي، عن أبي هريرة.

(٤) تفسير ابن كثير (٤/٢٣٨٥) بتصرف.

QaradawiBooks.com

وقد اعترف بعظمة أخلاقـه ﷺ كلُّ من عرفه، حتَّـى أعداؤه، حتَّى المشركون أنفسهم، كانوا يسمُّونه قبل الإسلام: «الأمين»، وبعد الإسلام كانوا يُودِعون عنده الودائع النفيسة، الَّتي يخشون عليها الضياع والسرقة، من كان عنده جواهر أو أشياء ثمينة يخشى عليها، يضعها عند محمَّد ﷺ، ودائع أو أمـوال أو نقود أو جواهـر أو حلي، أيُّ شـيء يخافون عليه يضعونه عند محمَّد ﷺ، هو يدعوهـم، وهم يرفضون دعوته، ومع ذلك لا يشكُّ أحد منهم في أمانته.

ولذلك حينما هاجر النبي ﷺ خلَّف بعده عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وأمره أن يرد الودائع إلى أهلها، لم يقل محمَّد ﷺ هؤلاء أخرجوني من بلـدي واضطروني للهجـرة، وآذونـي وعذَّبوني، فلا علـيَّ أن آخذ أموالهم، لا، بـل ردَّ إليهـم ودائعهم كاملـة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]. وهو القائل: «**أدِّ الأمانةَ إلى مَن ائتمنك، ولا تخُنْ من خانك**»[(١)].

الأخلاق العظيمة تظهر في مثـل هذه الأوقات، في الشـدائد، كما حدث من شـجاعته في غزوة حنين، حين قامت جماعـة هوازن بعمل كمينٍ للمسلمين، اسـتطاعوا به أن يفرقوا جمعَ المسلمين، ويثيروا فيهم البلبلة، وفرَّ الكثير منهم عن رسـول الله ﷺ، ولكنَّه ﷺ بقي ثابتًا يقول: «**أنا النَّبيُّ لا كذِبْ أنا ابنُ عبدِ المطَّلِبْ**»[(٢)]

---

(١) رواه أبو داود (٣٥٣٥)، والترمذي (١٢٦٤)، وقال: حسن غريب. كلاهما في البيوع، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٢٣)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليـه: رواه البخاري (٢٨٦٤)، ومسـلم (١٧٧٦)، كلاهما في الجهاد والسـير، عن البراء بن عازب.

QaradawiBooks.com

ولمَّا قيل لبعض الصحابة: قد فررتم عن رسول الله ﷺ، وأنتم أصحابه! قال البراء: إنِّي لأشهد على رسول الله ﷺ ما فرَّ يومئذ[١]. صحيح فرَّ بعضُنا، ولكنَّه ﷺ لم يفرَّ.

وتظهر أخلاقه مع الأعداء، فلما جاءه اليمان وابنه حذيفة في غزوة بدر، وهم أقل عددًا وعُدَّة من المشركين، وكانا قد عاهدا المشركين ألَّا يحاربوا مع رسول الله، فقال النبيُّ ﷺ لهما: «**انصرفا، نَفِي لهم بعهدهم، ونستعينُ الله عليهم**»[٢]. أي: كونوا على عهدكما معهم، ما دمتما قد عاهدتماهم، ولا تنضمُّوا إليَّ.

حتى مع هؤلاء المحاربين يتعامل بهذه الأخلاق!

أخلاقه ﷺ أخلاقٌ ثابتة، أخلاقٌ عظيمة، والمهم أنَّه يضع كل شيء في موضعه، الشدَّة في موضعها، واللين في موضعه، وهذه مهمة الأخلاق الفاضلة العليا، وليس أن تستعمل اللِّين مع من لا يستحق اللين، فأحيانًا الشدَّة تكون هي الخلق العظيم، كما فعل ﷺ مع بني قريظة، فقد كانت بنو قريظة تستحق أن تُضرب ضربة قاضية، حتَّى لا تقوم لها قائمة مرَّة أخرى.

فكان النبي ﷺ يضع العفوَ في موضعه، ويضع العقاب في موضعه، قال أبو الطيِّب المتنبِّي:

ووضْعُ النَّدَى في موضعِ السَّيْف بالعُلا ... مُضرٌّ كوضعِ السَّيْفِ في موضعِ النَّدَى[٣]

لا بدَّ أن يوضع كلُّ شيء في موضعه، فأخلاق النبي ﷺ كانت أخلاقًا عظيمة، ولا يمكن أن يكون صاحب الخلق العظيم مجنونًا أبدًا.

(١) جزء من الحديث السابق.

(٢) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٧)، وأحمد (٢٣٣٥٤)، عن حذيفة بن اليمان.

(٣) ديوانه صـ ٣٧٢، نشر دار بيروت، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

هل يعرف أحد للمجنون تصرُّفًا؟ هو يخرف ويقول ما لا يعرف، يعني مرَّة هكذا، ومرة هكذا، مرَّة تصيب، ومرة تخيب، إنَّما صاحب الخُلق العظيم، الثابت على الفضيلة، الَّذي يضع كل شيء في موضعه لا يمكن أن يكون مجنونًا، ولذلك قال في هذا السياق: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾.

ولذلك جعله الله أُسوة للبشر كل البشر، من كان يرجو الله واليوم الآخر: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٢١]، أسوة لكلِّ واحد: للشاب، للزوج، زوج الواحدة، وزوج الأكثر من الواحدة، للأب، للجد، للمسالم، للمحارب، للتاجر، للرئيس، للمحكوم والحاكم، للغني والفقير، للمنتصر وللمنهزم.

كل إنسان يجد أُسوة في سيرة هذا الرسول، وفي أخلاق هذا الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، وقد قال ﷺ: «**إنَّما بُعثتُ لأُتمِّم صالح الأخلاق**»(١). فالأخلاق ومكارمها في تمامها وكمالها في رسالة محمَّد ﷺ نظريًّا، وفي سيرته عمليًّا.

كلام الإمام القرطبي في معنى الخلق العظيم:

نقل القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾: «عن علي رضي الله عنه قال: الخُلق العظيم هو أدب القرآن.

وقيل: هو رفقُه بأمَّته وإكرامه إيَّاهم.

وقال قتادة: هو ما كان يأتمر به من أمر الله، وينتهي عنه ممَّا نهى الله عنه.

(١) سبق تخريجه صـ٨٢.

QaradawiBooks.com

وقيل: أي إنَّك على طبْع كريم. قال الماوردي: وهو الظاهر»[(١)].

ثم قال: «وحقيقة الخُلُق في اللغة: هو ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب. يُسمَّى خُلُقًا؛ لأنَّه يصير كالخِلقة فيه. وأمَّا ما طُبع عليه من الأدب فهو الخِيم (بالكسر)، أي: السَّجيَّة والطبيعة، لا واحد له من لفظه. وخِيم: اسم جبل. فيكون الخُلُق الطبعَ المتكلَّف. والخِيمُ الطبعَ الغريزي.

وقد أوضح الأعشى ذلك في شعره فقال[(٢)]:

وإِذا ذو الفُضول ضنَّ على المو لى وعادت لخِيمِها الأخلاقُ

أي: رجعت الأخلاق إلى طبائعها.

قلتُ ـ أي القرطبي ـ: ما ذكرتُه عن عائشة في صحيح مسلم أصحُّ الأقوال. وسئلت أيضًا عن خلقه ﷺ، فقرأت: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] إلى عشر آيات[(٣)]. ولم يُذكر خُلُق محمود، إلَّا وكان للنبي ﷺ منه الحظُّ الأوفر.

وقال الجُنيْد: سُمِّي خُلُقه عظيمًا؛ لأنَّه لم تكن له همَّة سوى الله تعالى.

وقيل: سمِّي خُلُقه عظيمًا لاجتماع مكارم الأخلاق فيه، يدل عليه قوله عليه السلام: «**إنَّ الله بعثني لأتمِّم مكارم الأخلاق**»[(٤)].

(١) تفسير القرطبي (٢٢٧/١٨)، وانظر: النكت والعيون للماوردي (٦١/٦)، تحقيق السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) البيت في ديوانه (٢١٣/١)، رقم القصيدة (٣٢)، تحقيق د. محمد حسين، نشر مكتبة الآداب، القاهرة.

(٣) رواه النسائي في الكبرى في السهو (١١٢٨٧)، والحاكم في التفسير (٣٩٢/٢)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

(٤) رواه البزار (٨٩٤٩)، وتمام في الفوائد (٢٧٦)، والقضاعي في الشهاب (١١٦٥)، والبيهقي في الشهادات (١٩١/١٠)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٥)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وقيل: لأنَّه امتثل تأديب الله تعالى إيَّـاه بقوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقد رُوِيَ عنه ﷺ أنَّه قال: «**أدَّبني ربِّي تأديبًا حسـنًا، إذ قال:** ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، **فلما قَبِلتُ ذلك منه قال:** ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾»[١].

الثانية: روى الترمذي، عن أبي ذر قال: قال رسـول الله ﷺ: «**اتَّق اللهَ حيثما كنتَ، وأتْبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالقْ النَّاس بخُلُق حَسَن**»[٢]. قال: حديثٌ حسن صحيح.

وعن أبي الدرداء أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**ما شيءٌ أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُقٍ حَسَـن، وإنَّ الله تعالى ليُبغض الفاحشَ البذيء**»[٣]. قال: حديث حسن صحيح.

وعنه قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**ما من شـيءٍ يُوضعُ في الميزان أثقل من حُسْن الخُلُق، وإنَّ صاحبَ حُسْن الخُلُق ليبلغ به درجةَ صاحبِ الصلاة والصوم**»[٤]. قال: حديث غريب من هذا الوجه.

---

(١) انظر: النهاية في غريـب الحديث والأثر لابـن الأثير (٤/١)، تحقيق طاهـر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، نشـر المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩ ـ ١٣٩٩هـ. وقال ابن تيمية: المعنى صحيح لكـن لا يعرف له إسـناد ثابت. ومجمـوع الفتـاوى (٣٧٥/١٨)، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

(٢) رواه الترمذي في البر والصلة (١٩٨٧)، وأحمد (٢١٥٣٦)، وقال مخرِّجوه: حسن لغيره. وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٩٧).

(٣) رواه الترمذي في البر والصلة (٢٠٠٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٦٤)، وصحَّحه الألباني في الأدب المفرد (٣٦١).

(٤) رواه الترمذي في البر والصلة (٢٠٠٣)، وأحمد (٢٧٤٩٦)، وقال مخرِّجوه: إسـناده صحيح. وأبو داود في الأدب (٤٧٩٩).

QaradawiBooks.com

وعن أبي هُرَيرة قال: سُئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخل النَّاس الجنَّة؟ فقال: «**تقوى الله، وحُسن الخُلُق**». وسئل عن أكثر ما يُدخل النَّاسَ النارَ؟ فقال: «**الفمُ والفرْج**»[1]. قال: هذا حديثٌ صحيحٌ غريب.

وعن عبد الله بن المبارك أنَّه وصف حُسن الخُلق، فقال: هو بَسْط الوجه، وبَذْل المعروف، وكفُّ الأذى[2].

وعن جابر: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ من أحبِّكم إليَّ، وأقربِكم منِّي مجلسًا يوم القيامة: أحسنكم أخلاقًا**». قال: «**وإنَّ أبغضَكم إليَّ وأبعدَكم مني مجلسًا يوم القيامة: الثرثارون، والمتشدِّقون، والمتفَيْهِقون**». قالوا: يا رسولَ الله، قد علمنا الثَّرثارون، والمتَشدِّقون، فما المتفيهقون؟ قال: «**المتكبِّرون**». قال: وفي الباب عن أبي هُرَيرة وهذا حديث حسن غريب[3]»[4].

المسائل الثلاث للإمام الرازي في الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾:

ذكر الإمام الرازي في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ مسائل ثلاثًا لها دلالتها:

المسألة الأولى: قال فيها: «اعلمْ أنَّ هذا كالتفسير لِمَا تقدَّم من قوله: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾، وتعريفٌ لمن رماه بالجنون بأنَّ ذلك كذِبٌ وخطأ؛ وذلك

(١) رواه الترمذي في البر والصلة (٢٠٠٤)، وأحمد (٩٦٩٦)، وقال مخرِّجوه: حسن. وحسنه الألباني في الصحيحة (٩٧٧)، عن أبي هريرة.
(٢) رواه الترمذي في البر والصلة (٢٠٠٥).
(٣) رواه الترمذي في البر والصلة (٢٠١٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب.
(٤) تفسير القرطبي (١٨/٢٢٧، ٢٢٨).

QaradawiBooks.com

لأنَّ الأخلاق الحميدة والأفعال المرْضِيَّة كانت ظاهرةً منه، ومن كان موصوفًا بتلك الأخلاق والأفعال، لم يجُز إضافة الجنون إليه؛ لأنَّ أخلاق المجانين سيِّئة، ولمَّا كانت أخلاقه الحميدة كاملة، لا جرم وَصَفَها الله بأنَّها عظيمة، ولهذا قال: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]. أي: لست متكلِّفًا فيما يظهر لكم من أخلاقي؛ لأنَّ المتكلِّف لا يدوم أمرُه طويلًا، بل يرجع إلى الطبع.

وقال آخرون: إنَّما وُصِف خُلُقه بأنَّه عظيم؛ وذلك لأنَّه تعالى قال له: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وهذا الهدى الَّذي أمر الله تعالى محمَّدًا بالاقتداء به، ليس هو معرفة الله؛ لأنَّ ذلك تقليد، وهو غير لائق بالرسول، وليس هو الشرائع؛ لأنَّ شريعته مخالفة لشرائعهم. فتعيَّن أن يكون المراد منه أمره عليه الصلاة والسلام، بأن يقتدي بكلِّ واحدٍ من الأنبياء المتقدِّمين، فيما اختُصَّ به من الخُلُق الكريم، فكأنَّ كلَّ واحد منهم كان مختصًّا بنوعٍ واحد، فلمَّا أُمِرَ محمَّد ﷺ بأنَّ يقتدي بالكلِّ، فكأنَّه أُمِر بمجموع ما كان متفرِّقًا فيهم، ولما كان ذلك درجة عالية لم تتيسَّر لأحدٍ من الأنبياء قبله، لا جرم وصف الله خُلُقه بأنَّه عظيم.

وفيه دقيقة أخرى وهي قوله: ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وكلمة «على» للاستعلاء، فدلَّ اللفظ على أنَّه مستعلٍ على هذه الأخلاق، ومستولٍ عليها، وأنَّه بالنسبة إلى هذه الأخلاق الجميلة، كالمَوْلَى بالنسبة إلى العبد، وكالأمير بالنسبة إلى المأمور.

المسألة الثانية: الخُلُق: مَلَكة نفسانيَّة، يسهل على المتَّصف بها الإتيان بالأفعال الجميلة. واعلمْ أنَّ الإتيان بالأفعال الجميلة غير، وسهولة الإتيان بها غير، فالحالة الَّتي باعتبارها تحصل تلك السهولة هي الخُلُق.

QaradawiBooks.com

ويدخل في حسن الخُلُق التَّحرُّز من الشحِّ والبخل والغضب، والتشديد في المعاملات، والتحبُّب إلى النَّاس بالقول والفعل، وترك التقاطع والهجران، والتساهل في العقود كالبيع وغيره، والتسمُّح بما يلزم من حقوق من له نسب، أو كان صهرًا له، وحصل له حقٌّ آخر».

كما بيَّن الرازي أن «الخُلُق هو الأمر الَّذي باعتباره يكون الإتيان بالأفعال الجميلة سهلًا، فلمَّا كانت الرُّوح القُدسيَّة الَّتي له عليه السلام شديدةَ الاستعداد للمعارف الإلهيَّة الحَقَّة، وعديمة الاستعداد لقبول العقائد الباطلة، كانت تلك السهولة حاصلة في قبول المعارف الحقَّة، فلا يبعد تسمية تلك السهولة بالخُلُق.

المسألة الثالثة: أنَّ الله تعالى وصف ما يرجع إلى قوَّته النظريَّة بأنَّه عظيم، فقال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]. ووصف ما يرجع إلى قوته العملية بأنَّه عظيم، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، فلم يبقَ للإنسان بعد هاتين القوَّتين شيء، فدلَّ مجموع هاتين الآيتين على أن رُوحَه فيما بين الأرواح البشريَّة، كانت عظيمة عالية الدرجة، كأنَّها لقوَّتها وشدَّةِ كمالها كانت من جنس أرواح الملائكة»(١).

من المفتون الضالُّ؟

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۞ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۞ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾:

أي: فستعلم يا محمد، وسيعلم مخالفوك ومُكذِّبوك: مَن المفتون الضَّال

(١) تفسير الفخر الرازي (٣٠/٦٠١، ٦٠٢).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

منك ومنهم. وهذا كقوله تعالى: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٦]. وكقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤].

قال ابن جريج: قال ابن عبَّاس في هذه الآية: ستعلم ويعلمون يوم القيامة[١].

قال ابن كثير: «ومعنى المفتون ظاهر، أي: الَّذي قد افتُتن عن الحقِّ وضلَّ عنه، وإنَّما دخلت الباء في قوله: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ لتدلَّ على تضمين الفعل في قوله: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾ وتقديره: فستعلم ويعلمون. أو: فستخبُر ويخبُرُون بأيِّكم المفتون. والله أعلم»[٢].

والباء هنا في نظرهم: زائدة. والمراد: أيُّكم المفتون؟!

وبعضهم قال: بل هي أصليَّة، والمَفْتُونُ بمعنى الفتنة، وهو مصدر على وزن المفعول. ويكون معناه: الفُتُون. كما قالوا: ما لفلانٍ معقول ولا مجلود. أي: لا عقل ولا جلادة.

وقال الفرَّاء: الباء بمعنى «في»، أي: فستبصر ويبصرون في أيِّ الفريقين المجنون[٣]؟ أبالفِرقة الَّتي أنت فيها من المؤمنين، أم بالفرقة الأخرى؟ قالوا: ومعظم السورة نزلت في الوليد بن المغيرة وأبي جهل.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾

الجملة تعليلٌ لما ينبئُ عنهُ ما قبلَهُ، من ظهورِ جنونِهم واختلال عقولهم، بحيثُ لا يَخْفى على أحد، وتأكيدٌ لما فيهِ من الوعدِ والوعيدِ،

(١) تفسير ابن كثير (١٩٠/٨).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) معاني القرآن للفراء (١٧٣/٣)، تحقيق أحمد يوسف النجاتي وآخرين، ط١، نشر دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر.

QaradawiBooks.com

أي: هُو أَعْلَمُ ـ سبحانه ـ بِمَن ضَلَّ عن سبيله، وصراطه المستقيم، المُؤدِّي إلى سعادةِ الدارين، وهامَ في تيهِ الضلالِ، متوجِّهًا إلى ما يفضي به إلى الشقاوةِ الأبديةِ. وهذا هُو المجنونُ الَّذي لا يفرقُ بين النفعِ والضرر، بل يحسبُ الضر نفعًا فيُؤثِرهُ، والنفعَ ضررًا فيهجُرهُ.

﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ الَّذين سلكوا طريق الهداية إليه، الفائزينَ بكلِّ مطلوبٍ، الناجين عن كل محذور، وهم العقلاءُ والمراجيح (أي: راجحو العقول)، فيجزِي كلًّا من الفريقينِ حسبَ ما يستحقُّهُ من العقابِ والثوابِ.

وإعادةُ عبارة «هو أعلمُ» لزيادةِ التقريرِ. فهو يعلم تعالى أيُّ الفريقين منكم ومنهم هو المهتدي، ويعلم الحزب الضالَّ عن الحقِّ.

التحذير من طاعة المكذّبين ومصانعتهم:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ٩ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ١٤ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾

هذا شوط من أشواط السورة في مخاطبة الكفار، وتحديد المواقف منهم، وقد بدأت هنا بحرف «الفاء»، لترتيبِ النهْيِ على ما يُنبئ عنهُ ما قبلَه من اهتدائه ﷺ وضلالِهم، أو على جميعِ ما فُصِّل من أوَّلِ السورة، وهذا تهييجٌ وإلهابٌ للتصميمِ على مُعَاصاتِهِم (أي: مخالفتهم، وعصيانهم)، أيْ: دُمْ على ما أنت عليه من عدمِ طاعتِهِم، وتَصَلَّبْ في ذَلك.

QaradawiBooks.com

وهكذا نجد موقف القرآن في غاية الوضوح في النهي عن ممايلة المشركين، وكانوا يدعونه إلى أن يكفَّ عنهم ليكفُّوا عنه، فبيَّن الله تعالى أن ممايلتهم كفر. وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۞ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥]. وكثيرًا ما كانوا يدعونه إلى التنازل عن دينه، والرجوع إلى دين آبائهم. والقرآن بيِّنٌ في ذلك، ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، فالقرآن منهجه في غاية البيان والتجلِّي في ذلك، فحملته على هؤلاء المكذِّبين حملة عاتية، لا تخمد جَذْوتها، ولا تخفُّ حرارتها، ولا ينقطع تيارها.

وفي المرسلات من هذا الجزء التاسع والعشرين (جزء تبارك) ترديد لهذه الآية الكريمة مرات ومرات: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

وفي سورة الشعراء ذكرَ تكذيب هؤلاء الكفرة للمرسلين، فقد ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، و﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، و﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، و﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، و﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، كذَّبوا المرسلين، وقد جاؤوهم بالسلطان المبين، وأقاموا عليهم الحجة والبراهين، فما استجابوا لربهم وما يتضرعون.

وهؤلاء المكذِّبون الجدد من قريش ومن العرب يقلِّدون هؤلاء، ويحاولون بجهلهم أن يضمُّوا المؤمنين إلى معسكر كفرهم، والله تعالى يقول لرسوله محذِّرًا ومبصِّرًا: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، هؤلاء يكذبون بآيات الله، ويكذبون بآلاء الله، كما قال في سورة الرحمن: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقد وصفهم في هذه الآيات بإضافة الضلال إلى التكذيب، فجمعوا بين الاثنين، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٥١].

QaradawiBooks.com

وقال في آخر السورة: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ [الواقعة: ٩٢، ٩٣].

غير مرخصة للطباعة

عاقبة المكذبين:

وحذَّر القرآن في عدد من الآيات المخاطَبين أن ينزل بهم ما نزل بالمكذبين، فقال: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]. وقال: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

ويقول ابن كثير: كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرعَ المستقيم، والخُلُقَ العظيم، فلا تطع المكذِّبين(١).

وقد وصف الله المشركين في كتابه، فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾ [البروج: ١٩].

﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾

تمنَّوْا وأحبُّوا لو تَرْكَن إلى آلهتهم، وتترك ما أنت عليه من الحق، أو تلين لهم، وهم يلينون لك.

وقال ابن العربي: ذكر المفسِّرون فيها نحو عشرة أقوال، كلُّها دَعاوى على اللغة والمعنى. أمثلها قولهم: ودُّوا لو تكذِّب فيكذبون، ودُّوا لو تكفر فيكفرون(٢).

---

(١) تفسير ابن كثير (١٩٠/٨).

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٣٠٥/٤)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وعقَّب القرطبيُّ بقوله: «كلُّها إن شاء الله تعالى صحيحة على مقتضى اللغة والمعنى، فإنَّ الإدْهان: اللين والمصانعة. وقيل: مجاملة العدوِّ وممايلته. وقيل: المقاربة في الكلام والتليين في القول.

وقال المبرِّد: يقال أَدْهن في دِينه، وداهن في أمره. أي: خان فيه، وأظهر خلاف ما يُضْمِر.

وقال قوم: داهنت بمعنى واريت، وأدهنت بمعنى غَشَشْت. قاله الجوهري[1].

وقال: ﴿فَيُدۡهِنُونَ﴾ فساقه على العطف، ولو جاء به جوابَ النَّهيِ، لقال: فيدهنوا. وإنَّما أراد: إن تمنوا لو فعلت فيفعلون مثلَ فعلك. عطفًا، لا جزاء عليه ولا مكافأة، وإنَّما هو تمثيل وتنظير»[2].

النهي عن طاعة أصناف أخرى من الناس:

﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾

نهاه الله أولًا أن يطيع المكذِّبين له وللقرآن، ثمَّ نهاه أن يطيع أصنافًا من النَّاس، لا يصلحون أن يكونوا من أهل دينه، ولا من رجاله، ولا من الرجال الَّذين يرضون عن الله، ويرضى الله عنهم.

وأول هؤلاء: «كل حلَّاف مَهِين»، فهو معروف بكثرة الحلف، لا يعرف قيمة اليمين بالله العظيم، ولا عقابه الأعلى، فهو مجترئ على الله، غير مُعظِّم له، ولا للحلف به. وذكر المفسرون أفرادًا من مشركي قريش، منهم: الأخنس بن شُرَيق، والأسود بن عبد يَغُوث،

(١) الصحاح للجوهري مادة (د. هـ. ن).
(٢) تفسير القرطبي (١٨/٢٣٠، ٢٣١).

نسخة مجانية غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

وعبد الرحمن بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وكلُّهم مشركون أصرُّوا على الكفر، وماتوا عليه، ولكنَّ القرآن يُسجِّلهم، ويُسَجِّل غيرهم ممن تحقَّقُ فيه هذه الصفات.

والحلَّاف هو: الكثير الحلف، والمَهين: الحقير الوضيع الذليل عند الله، وعند الناس. وهو فَعِيلٌ: من المهانة، بمعنى القِلَّة. وهي هنا: القلة في الرأي والتمييز. أو هو فَعِيلٌ بمعنى مُفْعَلٍ، والمعنى مهان.

وقال ابن عبَّاس: المَهِين: الكاذب. وقال مجاهد: الضعيف القلب(١). وذلك أنَّ الكاذب لضعفه ومهانته يتقي بأَيْمانه الكاذبة، الَّتي يجترئ بها على أسماء الله تعالى، واستعمالها في كل وقت في غير مَحَلِّها.

﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾

همَّاز: صيغة مبالغة من الهمز، وهو صفة لعيبِ الإنسان لآخر، والطعن فيه، وبعضُهم فرَّق بين الهمز واللمز، فقيل: الهمز لليد، واللمز للسان.

وبعضهم جعل الهمز: لمن يعيب أخاه في المجلس، واللمز لمن يعيبه إذا غاب، فهو يمدحهم في وجوههم، ويسلخهم في غيبتهم.

وقال بعضهم بعكس هذا، فالهُمَزة: الَّذي يغتاب بالغَيْبة، واللُّمَزة: الَّذي يغتاب بالوجه. وقال من قال: هما سواء.

وعلى كل حال، فإن كليهما مذموم.

﴿مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾: قيّد المشي والسَّعي بين النَّاس بالنميمة، ليفسد بينهم. يقال: نَمَّ يَنِمُّ نَمًّا ونَمِيمًا ونَميمة، أي: يمشي ويسعى بالفساد، وينقل الحديث لفساد ذات البين، وهي الحالقة.

---

(١) تفسير ابن كثير (١٩١/٨).

QaradawiBooks.com

وفي صحيح مسلم عن حذيفة: أنَّه بلغه أنَّ رجلًا يَنِمُّ الحديث، فقال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يدخل الجنَّةَ نمَّام**»[١]. ومعنى هذا: أنَّ النميمة من الكبائر.

وفي الصحيحين عن ابن عبَّاس، قال: مرَّ النبي ﷺ بحائط من حيطان المدينة، أو مكة، فسمع صوت إنسانَيْن يعذَّبان في قبورهما، فقال النبيُّ ﷺ: «**يُعَذَّبان، وما يُعَذَّبان في كبير**». ثمَّ قال: «**بلى، كان أحدُهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة**»[٢].

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾

منَّاع: صيغة مبالغة في المنع، وهو هنا منع الخير، فهو في صفته على عكس صفة المسلم، فالمسلم فعَّال للخير، بيده أو بلسانه أو بنيته. إسلامه مصدر سلام للناس، كل النَّاس، وإيمانه مصدر أمان لهم، بخلاف الكافر، الَّذي لا يصدر عن كفره خير للبشر. فهو بخيل في إنفاق المال للضعفاء والمحتاجين، والأرامل وأبناء السبيل، وهو لا يكتفي بمنع نفسه من الخير، بل يمنع غيره من ذلك إن استطاع، كما قال تعالى في وصف بعض هؤلاء: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ [النساء: ٣٧].

فهو يمنع ما عليه، وما لديه من الخير، ويجتهد في منع الآخرين من أداء حقوق المستضعفين. وقال ابن عبَّاس: يمنع عن الإسلام ولده وعشيرته. وقال الحسنُ: يقول لهم: من دخل منكم في دِين محمَّد، فلن أنفعه بشيء أبدًا[٣].

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٠٥)، وأحمد (٢٣٣٢٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الوضوء (٢١٦)، ومسلم في الطهارة (٢٩٢).

(٣) تفسير القرطبي (١٨/٢٣٢).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ونقل ابن عطيَّة عن كثير من المفسِّرين: أنَّ الخير هنا المال، فوصفه بالشُّـحِّ، وقال آخرون: بل هو على عمومه في المال والأفعال الصالحة، ومن يُمنع إيمانه وطاعته لله تعالى فقد مُنع الخير. و«المعتدي»: المتجاوز لحدود الأشياء. و«الأثيم»: فعيل من الإثم، بمعنى: آثم، وذلك من حيث أعماله قبيحة تُكْسِب الإثم(١).

وهكذا وصف الله الكافر في سـورة ق، حين قال على لسان قرينه: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ [ق: ٢٤، ٢٥].

«**معتد**»: أي: على النَّاس في حقوقهـم، وحظوظهم بالظلم، متجاوز للحد، كما هو شأن أصحاب الباطل.

﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾

العُتُل: الجافي الشديد في كفره، الشـديد الخصومة بالباطل، الَّذي يَعْتِل الناسَ فيجرُّهم إلى حبـس أو عذاب، مأخوذ من العَتْل وهو الجَرُّ، ومنه قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٤٧].

وفي الصحاح: وعَتَلْت الرجلَ أَعْتِله وأَعْتُلـه إذا جذبته جذبًا عنيفًا. ورجل مِعْتَلٌ (بالكسر).

قال ابن السِّكِّيت: والعُتُلُّ الغليظ الجافي(٢).

وقال عُبَيْد بن عُمَير: العُتُلُّ الأكول الشروب، القوي الشديد، يوضع في الميزان، فلا يزن شَعِيرة(٣).

---

(١) تفسير ابن عطية (٣٤٧/٥).

(٢) الصحاح مادة (ع. ت. ل).

(٣) رواه الطبري في تفسيره (٥٣٦/٢٣).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقال عليٌّ والحسن: العُتُلُّ: الفاحش السيِّئ الخُلُق.

وقال مَعْمر: هو الفاحش اللئيم[(١)].

ويقول ابن عطيَّة: «**والعُتُلُّ**: القوي البِنْيَة، الغليظ الأعضاء، المُصَحَّح، القاسي القلب، البعيدُ الفهم، الأكول الشَّروب، الَّذي هو بالليل جِيفَة، وبالنهار حمار، فكل ما عبَّر به المفسِّرون عنه من خِلال النَّقْص، فمن هذه الَّتي ذَكَرْتُ تَصدُر.

وقد ذكر النقَّاش أنَّ النبيَّ ﷺ: فسَّر «العُتُلَّ» بنحو هذا.

وهذه الصفات كثيرة التلازم، والعَتْل: الدفع بشدة، ومنه العَتَلَة.

قال ابن قُتَيْبة: لا نعلم أنَّ الله وصف أحدًا بما وصف هذا به من العيوب[(٢)].

وقوله: ﴿**بَعۡدَ ذَٰلِكَ**﴾ معناه: بعد ما وصفناه به، فهذا الترتيب إنَّما هو في قول الواصف، لا في حصول تلك الصفات في الموصوف، وإلا فكونه عُتُلًّا، هو قبل كَوْنه صاحب خير يمنعه[(٣)].

وفي «صحيح مسلم» عن حارثة بن وهب سمع النبيَّ ﷺ قال: «**أَلَا أُخْبِرُكم بأهل الجنَّة؟**» قالوا: بلى. قال: «**كلُّ ضعيفٍ متضعِّف، لو أقسم على الله لأبرَّه، ألا أخبركم بأهل النَّار؟**» قالوا بلى. قال: «**كلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظ مستكبر**»[(٤)]. وفي رواية عنه: «**كلُّ جوَّاظٍ زَنيم متكبِّر**»[(٥)].

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/٢٣٣).

(٢) نسبه إلى ابن قتيبة الواحدي في الوسيط (٤/٣٣٦)، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

(٣) تفسير ابن عطية (٥/٣٤٧، ٣٤٨).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٩١٨)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٣).

(٥) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٣) (٤٧).

QaradawiBooks.com

الجوَّاظ: قيل هو: الجَمُوع المَنوع. وقيل الكثير اللَّحْم المُخْتال في مِشْيَته. هكذا نقل القرطبي[١].

والزنيم: الدَّعِيُّ المُلْصق بالقوم، وليس منهم، وهو مروي عن ابن عبَّاس وغيره. قال الشاعر:

زنيمٌ تداعاه الرجالُ زيادةً ... كما زيد في عَرْض الأديمِ الأكارعُ[٢]

وعن ابن جبير: أنَّه الَّذي يُعرَف بالشرِّ، كما تعرف الشاة بزَنَمَتِها[٣].

وقال عكرمة: هو اللئيم الَّذي يعرف بلُؤْمه، كما تعرف الشاة بزَنَمَتها[٤].

وعنه أيضًا وسعيد بن المسيِّب: هو ولد الزِّنَى المُلحَق في النَّسَب بالقوم[٥].

ويشهد لهذا القول: حديث زينب بنت جحش زوجِ النبي ﷺ، قالت: خرج النبيُّ ﷺ يومًا فَزِعًا، مُحمرًّا وجهه، يقول: «**لا إلٰه إلَّا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتِح اليومَ من ردْمِ يأجوجَ ومأجوجَ مثلُ هذه**». وحلَّق بإصبعيه الإبهامِ والَّتي تليها. قالت: فقلتُ: يا رسولَ الله، أنهلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كثُر الخَبَث**»[٦]. رواه البخاري.

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/٢٣٣).

(٢) من شعر حسان بن ثابت، كما في الكامل في اللغة والأدب (٣/١٦٤)، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، نشر دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٣، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

(٣) رواه الطبري في التفسير (٢٣/٥٣٨).

(٤) المصدر السابق (٢٣/٥٤٠).

(٥) البحر المحيط لأبي حيان (١٠/٢٣٩)، تحقيق صدقي محمد جميل، نشر دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

(٦) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٦)، ومسلم في الفتن (٢٨٨٠).

QaradawiBooks.com

وكثرة الخبث: ظهور الزِّنَى وأولاد الزِّنَى، قال القرطبيُّ: كذا فسَّره العلماء[1].

وهذا دليل على ابتعاد الأُمَّة عن طريق العفاف والإحصان والطهارة، الَّذي شرعه القرآن والسُّنَّة، ومضى عليه الصحابة ومن اتَّبعهم بإحسان، فصار الأمر إلى ما صار عليه.

ويحتمل اللفظ: كثرة الشرِّ والفساد، وهو ما ينذر بغضب الله.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

يقول تعالى: هـذا مقابلةُ ما أنعم الله عليه من المـال والبنين، كفَر بآيات الله وأعرض عنها، وزعم أنَّها كذب مأخوذ من أساطير الأولين! كقولـه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]. وقولِه: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ١١ ـ ٣٠]. وأساطير الأولين: أباطيلهـم وتُرَّهاتهـم وخرافاتهـم، وقد كـرَّر القـرآن الكريم موقف المشركين من هذه الأساطير، وزعمهم أن محمَّدًا اكتتبها من أهلها، فهي تملى عليه بكرة وأصيلًا، وردَّ القرآن على هـذه الفِرَى، الَّتي لا أصل لها، ولا فرع يقوم عليها.

(١) تفسير القرطبي (١٨/٢٣٥).

QaradawiBooks.com

وهناك قراءات عشرية وسبعية بهمزتين، أو همزة ممدودة، في قوله: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ وهي تعني الاستفهام، وهو على التوبيخ(١).

وقراءة حفص ومن وافقه على غير الاستفهام على معنى: لأنْ كان ذا مال وبنين، أو بأن كان ذا مال وبنين. و«أن» متعلِّقة بما قبلها. وهذه تتعلَّق بقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ أي: لا تُطِعْ من هَذِه مثالبُه؛ لأنَّه كان متموِّلًا مستظهرًا بالبنينَ. وقولُه تعالَى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ استئنافٌ جارٍ مَجْرَى التَّعليلِ للنَّهي.

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾

الخرطوم هو: الأنف. ونَسِمُهُ، أي: نَكْويه. والكي في أكرم مواضعه «وهو الوجه»، لغاية إهانته وإذلاله. وسَمْتُه وسمًا وسِمَة: إذا أثَّرت فيه بسِمَة وكَيٍّ.

وقال قتادة: سنَسِمه يوم القيامة على أنفه سِمَة، يُعرَف بها يوم القيامة. وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]. فهذه علامة ظاهرة. وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢]. وهذه علامة أخرى ظاهرة. فأفادت هذه الآية علامة ثالثة، وهي الوَسْم على الأنف بالنَّار، وهذا كقوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١]. قاله الكلبيُّ وغيره(٢).

وقال الفرَّاء: وإن كان الخرطوم قد خُصَّ بالسِّمَة، فإنَّه في معنى الوجه؛ لأنَّ بعض الشيء يُعبَّر به عن الكل(٣).

---

(١) انظر تفصيل ذلك في: النشر في القراءات العشر (٣٦٧/١).
(٢) تفسير القرطبي (٢٣٧/١٨).
(٣) معاني القرآن (١٧٤/٣).

نسخة مجانية غير مرخص ببيعها
QaradawiBooks.com

وقال ابن العربي: كان الوسْم في الوجه لذي المعصية قديمًا عند النَّاس، حتَّى إنَّـه رُوِيَ: أنَّ اليهود لما أهملوا رجم الزانـي، اعتاضوا منه بالضرب وتحميم الوجـه[١]، وهذا وضع باطل. ومن الوسـم الصحيـح في الوجه: ما رأى العلماء من تسـويد وجهِ شـاهد الزُّور، علامة على قبح المعصية، وتشديدًا لمن يتعاطاها لغيره، ممَّن يرجى تجنُّبه بما يرجى من عقوبة شاهد الزور وشهرته، فقد كان عزيزًا بقول الحقِّ، وصار مَهِينًا بالمعصية[٢].

وأعظم الإهانة: إهانة الوجه، وكذلك كانت الاستهانة به في طاعة الله سببًا لخير الأبد، والتحريم له على النَّار؛ فإنَّ الله تعالى قد حرم على النَّار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود[٣]، حسب ما ثبت في الصحيح[٤].

واستعمل المضارع المقرون بالسين في قوله: ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ للاستمرار في ثبوت هذا الوَسْم بالعار، أي: سيكون هذا الوصف عارًا عليه إلى يوم القيامة، أو إلى الأمد المديد.

والخرطوم: هو فمُ الفيل، وقد استُعير للفم الَّذي قال عن القرآن: هو أساطير الأوَّلين، تهجينًا له وتحقيرًا.

وبهذه الآية الكريمة، انتهت هذه الحملة القرآنية، الَّتي انتصر فيها القرآن لرسول الله محمَّد ﷺ، ودافع فيها بحق عن سـيرته الناصعة، وعن رسالته الجامعة، ونوَّه فيها بخُلُقه العظيم، وبيَّن فيها مواقف المشـركين الوضيعة، وصفاتهـم المتلوِّنة، وأوضاعهم المُعْوَجة. فهذه الحملـة القرآنية: دفاعٌ عن

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٨١٩)، ومسلم (١٦٩٩)، كلاهما في الحدود، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (٤/٣٠٧).

(٣) جزء من حديث طويل متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٨٠٦)، ومسلم في الإيمان (١٨٢)، عن أبي هريرة.

(٤) تفسير القرطبي (١٨/٢٣٨).

QaradawiBooks.com

الرسول الكريم، وهجوم على خصومه المُبطِلين، وأعدائه الظالمين، الَّذين ضيَّعوا حقًّا بباطل، وعدلًا بظلم، وشعوبًا بأفراد، ولهذا تجد في هذه الحملة وما ماثلها في القرآن من القوَّة والحدة ما تقتضيه حرارتها، وما توجبه مرارتها، ليُحِقَّ الله الحق، ويبطل الباطل، ولوكره المجرمون.

عاقبة الأشحَّاء والأنانيِّين الَّذين يعيشون لأنفسهم:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش، فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة، وأعطاهم من النعمة الجسيمة، ببعثة محمَّد ﷺ إليهم، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ أي: اختبرناهم ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾، أي: اختبرنا كُبراءَ مُشركي مكة، كما اختبرنا من قبلهم، أصحاب البستان المشتمل على أنواع الفواكه والثمار، ويبدو أن أكثره كان من العنب، أعطيناهم أموالًا ليشكُروا لا ليبطَروا، فلما بطروا وعادَوْا محمدًا، ابتليناهم بالجوع والقحط، كما بلونا أهل الجنَّة المعروف خبرها عندهم؛ وذلك أنَّها كانت بأرض اليمن بالقرب منهم.

QaradawiBooks.com

﴿إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾

يعني أنَّهم حلفوا ليقطَعُنَّ ثمار هــذه الجنَّة مصبحين، أي: في طلعة الفجر، فلا بدَّ أن يذهبوا إليها من الليل، ومعنى هذا: أنَّهم تحالفوا فيما بينهم أن يجُذُّوا ثمارها مبتدئين من الليــل ومنتهين مع الصبح، فجمع قطاف بســتان كبير ســماه الله جنة، يحتاج إلى وقت، قبل أن يســتيقظ النَّاس، ويخرجوا لأعمالهم، ولا بدَّ أن يُخْفُوا أمرهم، فلا يعلم بهم فقير ولا سائل، ليتوفَّر ثمرُها عليهم، ولا يتصدَّقوا منها بشيء.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾

لهذه الجملة معنيان: **أولهما**: أي: لا يقولون: إن شاء الله. وتسمية هذا اســتثناء مع أنَّه شــرط، من حيث أن مؤدَّاه مؤدَّى الاستثناء، فإن قولك: لأخرجن إن شاء الله. أو: لا أخرج إلَّا أن يشاء الله. بمعنى واحد.

والمعنى الثاني: لا يستثنون حصة المســاكين والفقراء، وقد قيل: إن أبا هؤلاء الأولاد، كان يفعل ذلك. فخالفوا سُنَّة أبيهم، وأصرُّوا على أن يستأثروا بنعمة الله وحدهم.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾

أي: فطاف على هذه الجنة، الَّتي طابت ثمارها، وحان قطافها، طائف مــن الله رب العالمين: صاعقة محرقــة، أو نائبة نازلــة، أو مَلَك يحمل عقوبة، أو نحو ذلك ممَّا يبتلي الله به عباده، ســلَّطه الله عليهم، وهم في نومهم مستغرقون، لا يعرفون ماذا يجري به قدر الله. فالعبد نائم، والقدر قائم، وعين الله لا يأخذها سِنَةٌ ولا نوم.

QaradawiBooks.com

﴿فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾ «كالليل المُظلِم، أي: احترقت، فصارت كالليل الأسود. والصريم أصله: المنقطع عن غيره. وأطلقَه العرب على الليل لانقطاعِه عن النهار، والمعنى أنَّ الجنَّة صارت محترقةً سوداء كسوادِ الليل. قال ابن عبَّاس: كالرَّماد الأسود. والصَّرِيم: الرماد الأسود بلغة جَذِيمة[1].

وقال الثَّوْري: كالزرع المحصود، فالصريم بمعنى: المصروم، أي: المقطوع ما فيه. وقال الحسن: صُرِم منها الخير. أي: قُطِعَ. فالصريم مفعول أيضًا.

وقال الأخفش: كالصبح انصرم من الليل. وقال المبرِّد: كالنهار فلا شيء فيها. وقال شِمْر: الصريم: الليل. والصريم: النهار. أي ينصرم هذا عن ذاك، وذاك عن هذا»[2].

قال القرطبي في تفسيره: «قلتُ: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ العزم ممَّا يؤاخذ به الإنسانُ؛ لأنَّهم عزموا على أن يفعلوا، فعوقبوا قبل فعلهم. ونظير هذه الآيةِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الحج: ٢٥]. وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتلُ والمقتولُ في النَّار**». قيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «**إنَّه كان حريصًا على قتل صاحبه**»[3]. وقد مضى مبيَّنًا في سورة: آل عمران»[4].

(١) تصحفت في مطبوعة القرطبي التي بين أيدينا إلى: خزيمة، وهي على الصواب في المحرر الوجيز (٣٤٩/٥).

(٢) تفسير القرطبي (٢٤٢/١٨).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٣١)، ومسلم في الفتن (٢٨٨٨)، عن الأحنف بن قيس.

(٤) تفسير القرطبي (٢٤١/١٨، ٢٤٢). وراجع: ما ذكره القرطبي في تفسير آل عمران (٢١٥/٤).

QaradawiBooks.com

﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ۝٢١ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾

أي: نادى بعضهم بعضًا أن: قوموا من الغداة مُبَكِّرين، واذهبوا إلى حرثكم، إن كنتم ناوين قطفه. فالأمر يحتاج إلى سرعة، بلا كسل. ويعنون بالحرث: الثمار والأعناب والزرع. ولذلك قال: ﴿صَٰرِمِينَ﴾؛ لأنَّهم أرادوا قطع الثمار من هذه الأشجار.

فإن قيل: هلَّا قال: «اغدوا إلى حرثكم»! وما معنى «على»؟ قيل: لما كان الغدوُّ إليه ليصرموه ويقطعوه، كان غُدُوًّا عليه، كما تقول: غدا عليهم العدو. ويجوز أن يُضمَّن الغُدُوُّ معنى الإقبال. كقولهم: يُغْدَى عليهم بالجَفْنة ويُرَاح. أي: فأقبلوا على حرثكم باكرين.

﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ۝٢٣ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾

﴿فَٱنطَلَقُواْ﴾ مضوْا بجِدٍّ وسرعة وخِفَّة، ﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ أي: يتسارُّون فيما بينهم، بحيث يسمَع بعضُهم بعضًا، وفأسرَّ بعضهم إلى بعض الكلام، لئلَّا يعلم أحد من الفقراء والمساكين ما عزموا عليه، فالتخافت مأخوذٌ من خَفَت يخفِت، بمعنى: كَتَم.

مضمون هذا التَّسارُر وهذا التخافت: ﴿لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾: لا يدخلنَّها اليوم عليكم أيُّ واحد من المساكين، الَّذين كانوا يلتقطون أرزاقهم، ممَّا تركته المناجل عند الحصاد، فإذا وضع الحصاد على البساط، فكل شيء تبعثر خارج البساط فهو للمساكين، وكذا إذا درسوا كان للمساكين كلُّ شيءٍ انتثر.

هكذا كان حظُّ المساكين في أيام أبي هؤلاء البخلاء الأشحَّاء، فلما صار المال إليهم بالميراث، أُحضِرت أنفسُهم الشُّحَّ.

QaradawiBooks.com

قال القرطبيُّ: قال بعض العلماء: على من حصد زرعًا أو جَدَّ ثمرة أن يواسي منها من حضره. وذلك معنى قوله: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وأنَّه غير الزكاة.

وقال بعضهم: وعليه ترك ما أخطأه الحصَّادون. وكان بعض العُبَّاد يتحرَّوْن أقواتَهم من هذا.

ورُوِيَ أنَّه نُهِيَ عن الحصاد بالليل[1] (وهو ضعيف السند)، فقيل: إنَّه لِمَا ينقطع عن المساكين في ذلك من الرِّفْق. وتأوَّلَ من قال هذا، الآيَةَ الَّتي في سورة (ن والقلم).

وقيل: إنَّما نُهِيَ عن ذلك خشية الحيَّات وهوام الأرض.

قال القرطبي: الأول أصح، والثاني حسن. وإنَّما قلنا الأوَّل أصح؛ لأنَّ العقوبة كانت بسبب ما أرادوه، من منع المساكين، كما ذكر الله تعالى[2].

﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ٢٥ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ٢٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾

«أي: غَدَوْا مُبَكِّرين على جنَّتهم، على حَرْد، أي: قوَّة وشدَّة، أو: وغدوا على جهد، أو: على غضب وغيظ، أو: على نكد، من قولهم: حَارَدَتِ السَّنَة، فلم يكن فيها مطر، وحردت الإبل، فلم يكن فيها لبن، والمعنى: أنَّهم أرادوا أن يُنَكِّدوا على المساكين ويحرموهم وهم قادرون على نفعهم، فغدوا بحالٍ لا يقدرون فيها إلاَّ على النكد والحرمان. وذلك أنَّهم طلبوا حرمان المسكين، فتعجلوا الحرمان والمسكنة.

(١) رواه البيهقي في الزكاة (١٣٣/٤).
(٢) تفسير القرطبي (٢٣٩/١٨، ٢٤٠).

QaradawiBooks.com

أو: وغَدَوا على مُحاردةِ جَنَّتِهِم وذهــابِ خيرِهَا قادرينَ، بدلَ كونِهِم قادرينَ علــى إصابةِ خيرِهَــا ومنافِعِهَا، أي: غَدَوا حاصليــنَ على النكدِ والحرمانِ، مكانَ كونِهِم قادرينَ على الانتفاعِ»(١).

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ٢٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾

فلمَّا رأوا على الحقيقة، قالوا في بديهــةِ رؤيتِهِم: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: تُهنا عن طريقِ جنتِنَــا، وما هذه هي، أو: إنا لضَالُّــون بإضمارنا حرمان المساكين من حقهم.

﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ قالُوها بعد أن اكتشفوا الحقيقة، وأنَّهم أمام أرضهم المحروقة، وأنَّهم ليســوا تائهين، بــل أدركوا أنَّ الله حرمهــم من ثمار أرضهم، بسبب نيَّاتهم السـيئة أن: لا يدخلنها عليهم مسكين. مخالفين ما كان يفعل أبوهم من إشراك هؤلاء المساكين معهم. والخير كل الخير في إشراك النَّاس في الخير، لا في الاسـتئثار به وحدك، وهو فضل الله عليك، ولــولا فضله لم يَبقَ لك شــيء، ولم يثمر لك شــيء. كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ۝ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ۝ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣ ـ ٣٥]. فانظـر إلى قوله: ﴿لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡ﴾، إنَّما عملته يد الله تعالى. كما قال تعالــى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمٗا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ ۝ وَذَلَّلۡنَٰهَا لَهُمۡ فَمِنۡهَا رَكُوبُهُمۡ وَمِنۡهَا يَأۡكُلُونَ ۝ وَلَهُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ ـ ٧٣].

---

(١) تفسـير البيضاوي (٥/٢٣٥)، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

QaradawiBooks.com

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

أوسطهم هنا: خيرهم وأعدلهم وأقربهم إلى الله تعالى، وإلى الفطرة السليمة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. قالوا: الوسط الخيار.

﴿لَوْلَا﴾ كلمة تدلُّ على طلب تحصيل ما بعدها، ويعبِّرون عن معناها بحرف «هلَّا» بتشديد اللام.

قال هذا الأخ الأعدل والأفضل: ألم أقل لكم من قبل: لولا تسبِّحون الله تعالى، وتذكرونه ذكرًا كثيرًا، وتنزهونه عمَّا لا يليق بكماله، وتتوبون إليه من خُبْث نيتكم؟ ويبدو أنَّه كان قال لهم حين عزموا على ما عزموا عليه: اذكروا ربَّكم، وتوبوا إليه من خُبث نيَّتكم، اتركوا هذه العزيمة الخبيثة من فوركم، وسارعوا إلى حسم شرِّها قبل حلول النقمة. فعصوه، فهو الآن يعيد لهم ما قال ويذكرهم به، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾.

﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾. فهنا سبَّحوا الله تعالى ونزَّهوه عن كلِّ ما لا يليق به، واعترفوا على أنفسهم بالظلم، وهذه بداية التوبة الصحيحة، كما قال سيدنا آدم وزوجه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. وكما قال سيدنا يونس حين التقمه الحوت، فنادى في الظلمات: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾

أي: أصبحوا جميعًا وقد استيقظت ضمائرهم، وصَحَت بصائرهم، فصاروا يلوم بعضهم بعضًا، فإنَّ منهم من أشار بذلك، ومنهم من شجَّعه واستصوبه، ومنهم من سكت راضيًا به، ومنهم ـ وهم القليل ـ من أنكره.

QaradawiBooks.com

والقرآن على طريقته يذكر لنا في هـذه المواقف: وجودَ فرد أو أكثر يخالف الكثرة الَّتي أرادت الباطل وصممت عليه.

والحمد لله أنَّ الله تعالى أحياهم بعد مماتهم، وأيقظهم بعد سُباتهم، فنجد هنا أنَّهم في صحوتهم قالوا: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، هنا أقروا بظلم أنفسهم، وظلم المساكين، وقد قال الصالحون: الاعتراف يهدم الاقتراف.

﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾

استعظموا جرمهم ونادوا على أنفسهم بالويْل، فقد كانوا ظالمين متجاوزين لحدود الله، منكرين لحقوق النَّاس، فالمال في الحقيقة مال الله، والإنسان مستخلَف فيه، قالوا: لقد نسينا ربنا، وذكرنا أنفسنا، ونسينا إخواننا وحقوقهم، وذكرنا حقَّنا ومالَنا، وهو مال ربنا، لعل الله يعطينا بدلًا من جنَّتنا ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة: خيرًا وأفضل منها.

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ نحن إلى ربنا الَّذي هو مالك أمرنا، وبارئ أنفسنا، وواهب أرزاقنا، ومُرقِّينا في درجات الكمال، راجون عفوه ورحمته، طالبون خيره ونعمه.

و«إلى» لانتهاء الرغبة، أو لتضمنها معنى الرجوع.

وعن مجاهد قال: تابوا، فأُبْدلوا خيرًا منها[1].

﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾

هكذا يكون عذاب الدنيا، مثلما عذَّبْنا به أصحابَ الجنة، حين بخلوا بثمارها على المساكين، فأرسل الله عليها من العَذاب ما جعلها كالصريم.

(١) تفسير الزمخشري (٥٩٢/٤).

QaradawiBooks.com

ولا شـك أنَّ ما أعدَّه الله لهم في الـدار الآخرة من العـذاب، أكبرُ وأعظم وأشد.

﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾: لو كان عندهم علم يقيني يحملونه في رؤوسهم.

الحق الَّذي منعه أصحاب الجنة:

ثم قيل: إنَّ الحق الَّذي منعه أهل الجَنَّة المساكين، يحتمل أنَّه كان واجبًا عليهم، ويحتمل أنَّه كان تطوعًا. قـال القرطبيُّ: والأول أظهر(١). والله أعلم.

وأنا أقول: بـل هو الصحيـح؛ إذ لا يُنزل اللهُ هـذه النقمة بزرعهم وثمرهم من أجل أمر تطوعي، فلا يعاقب الله على ترك التطوع، بمثل هذه المصائب الكبيرة، ربما لم يكن الواجب معلـوم المقدار كما في الزكاة الإسـلامية، ولكن إشـراكهم فيها بصفة عامة هو المطلوب، فإذا عزموا على الفرار منه بالكلية، فقد استحقُّوا العقاب. والله أعلم.

كما ذكرنا، فإنَّ السورة مكيَّة، بل يبدو من سياق الآيات أنَّها نـزلت في أوائل سني مكة، فبعُد حمْل العذاب في الآية على قتال بدر، أو على ما أصاب أهل مكة من القحط، كما قال بعضهم.

وذكر ابن كثير، أنَّ الحافـظ البيهقي روى حديثًا من طريق جعفر بن محمَّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جدِّه: أن رسول الله ﷺ نهى عن الجَذَاذ باللَّيل، والحصادِ بالليل(٢). ولم يتكلَّم ابن كثير عن مدى قبول الحديث(٣).

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/٢٤٦).

(٢) رواه البيهقي في الزكاة (٤/١٣٣)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٣٩٣).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٨/١٩٧).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

عاقبة المؤمنين المتقين:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٣٤ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۝٣٧ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۝٣٨ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۝٣٩ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾:

بعد أن ذكر الله عاقبة الأشحَّاء والأنانيِّين، الَّذين يعيشون لأنفسهم، وينسون كل من حولهم من الضعفاء والمساكين، وما نزل بهم وبأموالهم من الضياع والفساد، بيَّن ماذا أعد الله لعباده المتقين المؤمنين، الواقفين عند حدوده، من جناتٍ في الآخرة، سماها الله ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ لأن نعيمها ليس كنعيم الدنيا، يخضرُّ ويذبل، ويظهر ويختفي، ويجمل ويتغير، بل هو نعيم مقيم دائم، لا تشوبه شوائب الكفر والتكدير، الَّتي تصيب كل مقيم في الدنيا. فلما ذكر اللهُ حالَ أهل الجنَّة الدنيويَّة، وما أصابهم فيها من النعمة، حين عصوا الله، وخالفوا أمره، بيَّن الله تعالى أن لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة: الجنات الَّتي لا تبيد ولا تزول، ولا ينقضي نعيمها، وهذا النعيم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في الدار الآخرة، فلهم فيها التنعُّمُ الخالصُ عن شائبةِ ما يُنغِّصهُ من الكدوراتِ.

لا مساواة بين المسلمين والمجرمين:

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾

أي: أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء؟ كلا ورب الأرض والسماء؛ ولهذا قال:

QaradawiBooks.com

﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾، أي: كيف تظنُّون ذلك؟

وكان صناديد قريش يرون وفور حظِّهم من الدنيا، وقلة حظوظ المسلمين فيها، فإذا سمعوا بحديث الآخرة، وما وعد الله المؤمنين فيها، قالوا: إن صحَّ أنَّا نُبعَث كما يزعم محمَّد ومن معه، لم يكن حالنا وحالهم، إلَّا مثل ما هِيَ في الدنيا، وإلا لم يزيدوا علينا، ولم يفضُلُونا، وأقصى أمرهم أن يساوونا، فقال:

﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: كالكفار. والجملةُ تقريرٌ لما قبلَها من فوز المتقين بجنات النعيم، ورد لقول الكفرة.

والهمزة للإنكار، والفاء للعطف، والعطف على مقدَّر يقتضيه المقال، أي: فنحيف في الحكم، فنجعل المسلمين كالكافرين، ثمَّ قيل لهم بطريق الالتفات، لتأكيد الرد وتشديده:

﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾: تعجُّبًا من حكمهم، واستبعادًا له، وإيذانًا بأنَّه لا يصدر عن عاقل. فقد وبَّخهم سبحانه، ثمَّ قال: ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ بهذا الحكم الأعوج، كأن أمر الجزاء مفوَّض إليكم، حتَّى تحكموا فيه ما شئتم: أن لكم من الخير ما للمسلمين!

﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ ٣٧ إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾

أي: ألكم كتاب منزل من السماء، فيه تدرسون وتتعلمون: أنَّكم تجدون فيه المطيع لله كالعاصي، وأنَّ الخبيث كالطيِّب؟ تجدون في كتابكم هذا ما تختارون وما تشتهون. فجملة: ﴿إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ معمول لجملة: تدرسون. وإنَّما كُسرت همزة «إنَّ» وكان حقُّها الفتح لأنَّ

QaradawiBooks.com

اللام الَّتي في خبرها علَّقت الفعل «تدرسون» عن العمل، بناء على القاعدة، الَّتي قال فيها ابن مالك:

وكَسَرُوا مِنْ بعدِ فِعْلٍ عُلِّقَا باللامِ كـ «اعْلَمْ إِنَّهُ لَذُو تُقَى»(١)

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾

زاد القرآن التوبيخ، فقال: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ﴾ أي: عهود ومواثيق. ﴿عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: مؤكَّدة. والبالغة: المُؤكَّدة بالله تعالى. أي: أم لكم عهود على الله استوثقتم بها أن يدخلكم الجنة؟

﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾، وكسرت «إن» لدخول اللام في الخبر. وهي من صلة «أيْمان» والموضع النصب، ولكن كسرت لأجل اللَّام، تقول: حلفت إنَّ لك لكذا. وقيل: تمَّ الكلام عند قوله: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، ثمَّ قال: إنَّ لكم لما تحكمون إذًا! أي ليس الأمر كذلك.

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾

تلوينٌ للخطابِ، وتوجيهٌ لهُ إلى الرسولِ ﷺ، بإسقاطهم عن رتبة الخطاب.

أي: سلْ يا محمَّد هؤلاء المتقوّلين عليَّ مبكِّتًا لهم: أيُّهم الكفيل والضامن والقائم بهذا الحكم الخارج عن المعقول، والمستدلِّ على صحته، وهو: أن لهم من الخير ما للمسلمين؟!

(١) انظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٣٥٢/١)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، نشر دار التراث، القاهرة، ط ٢٠، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

QaradawiBooks.com

﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴾

أي: ألهؤلاء النَّاس شهداء يشهدون لهم بما قالوه؟ أو لهم شركاء يصدقونهم فيما زعموه، من دعاوى؟ فليأتوا بشركائهم إن أمكنهم. فهو أمر معناه التعجيز.

وقد نبَّه في هذه الآيات الكريمة على أنْ ليس لهم شيء يُتوهَّم أن يتشبَّثوا به، حتَّى التقليد الَّذي لا يُفلِح من تشبَّثَ بذيله.

أهوال يوم القيامة:

﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾.

تحدثت السورة في مساقات ومقامات شتَّى عن الآخرة، وما يجري فيها، وما ينتظر الناسَ فيها، ولكن لا يدرون حقيقة ما يكون في الآخرة، ولا هوله، ولا فظاعته؛ لأنَّه شيء هائل هائل، أكبر ممَّا يطيقه البشر، وممَّا يتصوره البشر، فأراد الله هنا أن يلفت الأنظار، وينبِّه العقول والقلوب، إلى ما يحمله لهم يوم القيامة، فقال تعالى:

﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾

أي: يوم يشتدُّ الأمر، ويصعب الخَطْب. وكشفُ الساقِ مَثَلٌ في ذلكَ، كنَّى به العرب في شعرهم عن الكرب والشدَّة، وخصوصًا إذا كَشَفَت المُخَدَّراتِ أنِ (الفتيات الَّتي في الخدور) عن سُوقِهِنَّ في الهَرَبِ. قال حاتم الطائي:

أخُو الحربِ إنْ عضَّتْ بهِ الحربُ عَضَّها ... وإنْ شمَّرتْ عنْ ساقِهَا الحربُ شَمَّرا[1]

(١) البيت في ديوانه صـ ٢٢، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقال الراجز كما في «الكامل» للمبرِّد:

قَدْ كَشَـفَتْ عَنْ سَـاقِهَا فَشُـدُّوا وَجَـدَّتِ الْحَرْبُ بِكُـمْ فَجِدُّوا[١]

وَقَالَ راجز آخر، ذكره ابن قتيبة في «غريب الحديث»:

عجبتُ من نفْسِـي ومن إِشْفَاقها ومن طِـرادِ الطَّيْـرِ عـن أَرْزَاقِها
فِي سَـنَةٍ قد كشـفتْ عن ساقِها حمراءَ تَبْرِي اللحمَ عن عُراقها[٢]

وَقَالَ سعد بن مالك، كما في ديوان الحماسة:

كَشَـفَتْ لهـم عـن سَـاقِها وبـدا مـن الشَّـرِّ الصُّـرَاحْ[٣]!

«وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا أسـامة بن زيد، عن عكرمة، عن ابن عبَّاس في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال: عن كربٍ وشدَّة.

أخبرنا ابن جريج عن مجاهد قال: شِـدَّة الأمر وَجْده. وقال مجاهد: قال ابن عبَّاس هي أشد سـاعة في يوم القيامة. وقال أبو عبيدة: إذا اشتد الحرب والأمر قيل: كشف الأمر عن ساقه.

والأصل فيه: أنَّ من وقع في شـيء يحتاج فيه إلى الجِدِّ شـمَّر عن ساقه، فاسـتعير الساق والكشـف عنها في موضع الشـدَّة. وقيل: ساقُ الشـيءِ أصلُه الَّذي به قِوامه، كسـاق الشجرة وسـاق الإنسان. أي يوم يكشف عن أصل الأمر، فتظهر حقائق الأمور وأصلها. وقيل: يكشف عن سـاق جهنَّم. وقيل: عن سـاق العرش. وقيل: يريد وقت اقتراب الأجل

---

(١) البيت لعمير بن ضابئ البرجمي، كما في الكامل (٢٩٨/١).

(٢) غريب الحديث (٢٦٣/١)، تحقيق د. عبد الله الجبوري، نشـر مطبعـة العاني، بغداد، ط١، ١٣٩٧هـ. والبيتان لرؤبة، كما في محاضرات الأدباء (٢١٢/١)، نشر شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

(٣) ديوان الحماسة (٢٦٦/١)، تحقيق عبد الله عسيلان، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٩٨١م.

QaradawiBooks.com

وضعف البدن، أي يكشف المريض عن ساقه ليبصر ضعفه، ويدعوه المؤذِّن إلى الصلاة فلا يمكنه أن يقوم ويخرج»[١].

ووسط هذا الهول الَّذي يعانيه النَّاس يوم الطامَّة الكبرى، ويوم الصَّاخَّة، يقول الله تعالى:

﴿وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾

أصحاب الأجسام الفتيَّة، والظهور القويَّة، يُدعون يوم القيامة إلى السجود، فلا يستطيعون، فقد تصلَّبت هذه الأجسام حتَّى أصبحت لا تقدر على الانحناء.

وهم يُدعَون توبيخًا وتعنيفًا على تركهم السجود لله في الدنيا، وتحسيرًا لهم على تفريطهم في ذلك، ولكنَّهم أعجز ما يكونون عن هذا السجود؛ لزوال القدرة عليه، والتمكُّن منه. وفيه دلالة على أنَّهم يقصدون السجود، فلا يتأتَّى منهم ذلك.

وعن ابن مسعودٍ تُعقَم أصلابُهم، أي: تردُّ عظامًا بلا مفاصل، لا تنثني عند الرفع والخفض[٢]. وفي حديث: «**فيذهب ليسجد فيعود ظهره طَبَقًا واحدًا**»[٣].

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾

أي: ذليلة متواضعة أبصارهم من شدَّة خوفهم، ممَّا أعدَّ لهم من

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/٢٤٨، ٢٤٩) بتصرُّف.

(٢) تفسير الزمخشري (٤/٥٩٥).

(٣) رواه البخاري في التفسير (٤٩١٩)، عن أبي سعيد الخدري. والطبق: العظم الصلب.

نسخة مجانية غير صالحة للطباعة
QaradawiBooks.com

الهوْل. وخصَّت العيون بالذلة؛ لأنَّ ما فــي النفس أول ما يظهر بالعين، و«خاشعة» منصوبة على الحال.

﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ﴾، أي: تغشاهم المهانة والانكسار، وذلك أنَّ المؤمنين يرفعون رؤوسهم ووجوههم أشــدَّ بياضًا من الثلج، وتسودُّ وجوه الكفَّار والمنافقين، حتَّى ترجع أشدَّ سوادًا من النَّار.

﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾

أي: كانوا يُدعون إلى الصلاة في الدنيا، وهم معافون أصحَّاء، قادرون على الإجابة والأداء، فلا يجيبون ولا يلبُّون النداء، على خلاف ما يصنع المؤمنون الصادقون.

وكان الربيع بــن خُثَيم قــد فُلِــج، وكان يهادَى بيــن الرجلين إلى المسجد، فقيل: يا أبا يزيد، لو صليتَ في بيتِكَ لكانت لك رخصة. فقال: مَن سمع: حيَّ على الفلاح، فليُجِبْ ولو حَبْوًا.

وقيل لسعيد بن المسيَّب: إنَّ طارقًا يريد قتلَك فتَغيَّبْ. فقال: أَبِحَيْثُ لا يقدر الله عليَّ؟ فقيل له: اجلــسْ في بيتِكَ. فقال: أســمع: حيَّ على الفلاح، فلا أجيب[1]؟!

وعيد وتهديد للمكذبين:

﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٤ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ٤٥ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٦ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾:

(١) تفسير القرطبي (٢٥١/١٨).

QaradawiBooks.com

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾

يعني القرآن. وهذا تهديد شديد، أي: دعني وإيَّاه، وأنا أعلم به منه، كيف أستدرجه، وأمده في غيِّه، وأُنظره، ثمَّ آخُذه أخذ عزيز مقتدر.

أي: دعني يا محمد، وخلِّ بيني وبينَ من يكذِّب بهذا القرآن، وكِلْه إليَّ، فأنا أكفيك أمره. أي: حسبُكَ في الإيقاع به، والانتقام منه: أن تكِلَ أمرَه إليَّ، وتخلِّي بيني وبينه، فإني عالم بما يستحقُّ من العذاب، ومطيقٌ له، وقادرٌ عليه. والفاء هنا لترتيب الأمر على ما قبلها من أحوالهم المحكمة.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾

أي: وهم لا يشعرون، بل يعتقدون أن ذلك كرامة من الله لهم، وهو في نفس الأمر إهانة لهم. كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

الاستدراج: ترك المعاجلة. وأصله: النقل من حال إلى حال، كالتدرُّج. ومنه قيل: درجة. وهي منزلة بعد منزلة. واستَدرج فلان فلانًا، أي: استخرج ما عنده قليلًا قليلًا. ويقال: دَرَجَه إلى كذا، واستدرجه بمعنى: أدناه منه على التدريج، فتدرَّج هو.

واستدراج الله تعالى للعصاة والمتمرِّدين عليه، معناه: أخذهم على غفلة، وهم لا يعرفون، كما عذَّب الَّذين قُتلوا يوم بدر، وكما عذَّب الكفرة الظالمين من سائر الأمم.

QaradawiBooks.com

وقال سفيان الثَّوْري: نُسبغ عليهم النِّعَم، وننسيهم الشكر[1].

وقال الحسن: كم مستدرَج بالإحسان إليه؟ وكم مفتون بالثناء عليه؟ وكم مغرور بالستر عليه[2]؟!

وقال أبو رَوْقٍ: أيْ: كلَّما أحدثوا خطيئة جدَّدنا لهم نعمة وأنسيناهم الاستغفار.

وقال ابن عبَّاس: سنمكُر بهم.

وقيل: هو أن نأخذهم قليلًا، ولا نُباغِتهم.

هذا ما ذكره الإمام القرطبي عن الأئمة في بيان الاستدراج، وهو واضح قويٌّ[3].

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾

أي: وأُمهلُهم وأُطيل لهم المدة. والمِلَاوة: المُدَّة من الدهر. وأَمْلَى اللهُ له، أي: أطال له. والمَلَوَان: الليل والنهار. وقيل: وأُملي لهم، أي: لا أعاجلهم بالموت. والمعنى واحد.

﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾: مكري بهم مكرٌ قويٌّ، لا يُدرِك سرَّه البشر، وعذابي قويٌّ شديد، فلا يفوتني أحد. كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٧]، فمعنى: متين، أي: عظيم، لمن خالف أمري، وكذَّب رسلي، واجترأ على معصيتي.

(١) رواه أبو طاهر في المخلصيات (١٦١٦)، تحقيق نبيل سعد الدين جرار، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط١، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

(٢) رواه أحمد بن حنبل في الزهد (١٥١٤).

(٣) تفسير القرطبي (١٨/٢٥١).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وفي الصحيحين عن أبي موسى، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**إنَّ الله تعالى ليُملي للظالم، حتَّى إذا أخذه لم يُفْلِتْه**». ثمَّ قرأ: «﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]»[(١)].

﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾

تقدَّم مثل هذا الخطاب في سورة الطور، وهو التفاتة إلى الرسول ليخاطبه ويناجيه، والمعنى في ذلك: أنَّك يا محمَّد تدعوهم إلى الله تبارك وتعالى، بلا أجر تأخذه منهم، بل ترجو ثواب ذلك عند الله تعالى، وهم يكذبون بما جئتهم به، بمجرد الجهل والكفر والعناد.

وخلاصة ذلك: أنَّك لا تكلفهم مالًا، ولا تلتمس منهم ثوابًا على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله تعالى، فهم من غرامة ذلك مُثقَلون؛ لما يشقُّ عليهم من بذل المال. أي: ليس عليهم أدنى كُلفة مالية، كي يدخلوا الإسلام، بل يملكون بمتابعتك على خزائن الأرض في الدنيا، ويُجزَوْن في الآخرة جنات النعيم.

﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾

أم عند هؤلاء المكذِّبين من علم الغيب ومن أموره، الَّتي لا يعرفها أحد، من اللوح المحفوظ، أو المُغيَّبات، ما ينقلونه منه، ويكتبونه، ويسطرونه، ويقولونه للناس، ويحكمون ويستغنون به عنك.

وقيل: أينزل عليهم الوحي بهذا الَّذي يقولون؟

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٦٨٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٣)، عن أبي موسى.

QaradawiBooks.com

وعن ابن عبَّاس: الغيب هنا اللــوح المحفوظ، فهم يكتبون ممَّا فيه، يخاصمونك به، ويكتبون أنَّهم أفضل منكم، وأنَّهم لا يعاقبون(١).

وقيل: ﴿يَكْتُبُونَ﴾ يحكمون لأنفســهم بما يريــدون. يتهكَّم بهم في ذلك ويُسَــخِّفهم ويُؤَنِّبهم بأن أمر الدين والشريعة لا يجوز أن يُؤخَذَ إلَّا عن الغيب من الله، بطريق النبوة والوحي.

تثبيت النَّبي ﷺ وتذكيره بقصة يونس:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾: أمر من الله تعالى لرسوله بالصبر، وقد تكرر في القرآن (١٧) مرَّة.

والصبر لحكم الله هنا: أي: لقضائه الكوني في العالم، وما يجري فيه من سُــنَّةٍ، وما يحكمه من أقضية، وما يتنازعه من مفاجآت، والمطلوب منك أيها الرســول الخاتم، أن تصبــر وتتحمَّل، ولا تجزع أو تســتثقل ما ينــزل بك، فإن ما ينــزل بك كثير، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يونــس: ١٠٩]. فاصبــر يا محمَّد على أذى قومك لك، وتكذيبهم، فإنَّ الله سيحكم لك عليهم، وتكون العاقبة لك، ولأتباعك في الدنيا والآخرة.

(١) تفسير القرطبي (١٨/٢٥٢).

QaradawiBooks.com

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ صاحب الحوت هو يونس عليه السلام، وهو الَّذي سمَّاه الله في سورة الأنبياء: «ذا النون»، فقال: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

وكان قد غاضَب قومه وفارقهم، حين ضاق بهم ولم يصبر عليهم، ولم يكن الله أذن له بفراقهم، فجرى عليه ما جرى، كما فصَّلَت سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ۝ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ۝ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ۝ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ۝ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ۝ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ۝ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٨].

وهو يونس بن متَّى عليه السلام، ذهب مغاضبًا قومه، فكان من أمره ما كان من ركوبه في البحر، والتقام الحوت له، وشرود الحوت به في البحار، وظلمات غمرات اليم، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعليِّ القدير، الَّذي لا يُردُّ ما أنفذه من التقدير، فحينئذ نادى في الظلمات: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فهنا يأمره ربُّه بالصبر على ما حكم به عليه من تبليغ الرسالة، أي: لا تعجلْ، ولا تغاضبْ، فكل شيء له قدره، وله أوانه. وممَّا قدره الله هنا: إمهال قومك، وتأخير نُصرته إيَّاك عليهم.

فنهاه الله هنا عن أن يكون كصاحب الحوت، وهو يونس عليه السلام ﴿إِذۡ نَادَىٰ﴾ ربَّه في بطن الحوت وقد التقمه، بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾، أي:

QaradawiBooks.com

مملوء غيظًا وغمًّا. أي: أحاطَ بـه الغضبُ والغمُّ من كلِّ جهة حتَّى صار كأنَّه محبوس فيهما. والجملة حال من ضمير «نادى» وعليها يدور النهي، لا على النداء؛ لأنَّه أمر مستحسَن. ولذلك لم يُذكَر المنادَى.

أي: لا يكن حالك كحاله حين امتلأ غضبًا على قومه، وضجر من دعوتهـم. أي: لا يوجد منك ما وجـد منه من الضجـر والمغاضبة، فتبتلى ببلائه.

وقال بعضهم: مكظوم: أي: مملوء غمًّا، وقيل: كربًا. والفرق بينهما: أنَّ الغم في القلب، والكرب في الأنفاس. وقيل: مكظوم: محبوس.

وكلها تدل على ضيق الحالة النفسـيَّة، الَّتي كان عليها يونس عليه السلام، كلٌّ يعبر عنها من جهة من الجهات، وما أدَّى إليها إلَّا الضجر والعَجَلة. ولهذا قال الله تعالى لخاتم رسـله محمد: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾

والمؤمنُ دائمًا في رحمةٍ من الله تبارك وتعالى، لا يتخلَّى الله عنه، وإن مَسَّـه ببعض البلاء ليؤدِّبه بلُطْف، ويردَّه إلى بابه، كما فعل مع يونس، حين دعـا في الظلمات: ظلمة الليـل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

و﴿تَدَٰرَكَهُۥ﴾: فعل ماضي. وحسُـن تذكير الفعـل، للفصل بالضمير، ويمكن أن تكون كلمة تداركه: فعل مضـارع حذفت تاؤه. أي: تتداركه، على حكاية الحال الماضية.

QaradawiBooks.com

﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾

أي: لولا هـذه النعمة الربَّانيـة الَّتي اختصَّته وتداركتـه، لنُبذ وتُرك بالعراء، أي: بالأرض الفضاء الواسـعة الخالية من الأشجار، وليس فيها جبل يستر. ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾: مُليمٌ مطرودٌ من الرحمةِ والكرامةِ. ولكنَّه نُبِذ سـقيمًا غير مذموم. كما قال تعالى في سورة الصافات: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۞ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۞ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۞ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [١٤٥ ـ ١٤٨]. وقال تعالى قبلها: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۞ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

أي: فاختاره ربه، واصطفاه، وقَبِل توبته، الَّتي اعترف فيها بالتوحيد لله، والتنـزيـه له، والإقرار بذنبـه، فتداركته نعمة من ربـه، وردَّ إليه الوحيَ، وأرسله إلى من أرسله إليهم، وخلَّد ذكره في العالمين. وجاء خاتم النبيين من بعده يعلن: «**دعوة أخي ذي النون، ما دعا بها مسلم إلَّا استجاب الله له: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]**»(١).

وروى الإمام أحمد في مسنده بسنده عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا: «**لا ينبغي لأحدٍ أن يقول: أنا خيرٌ من يونسَ بن متَّى**»(٢).

ورواه البخاريُّ من حديث سـفيانَ الثوري، وهو في الصحيحين من حديث أبي هُرَيرة.

---

(١) رواه أحمد (١٤٦٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. والترمذي في الدعوات (٣٥٠٥)، والحاكم في الدعاء (٣٨٢/٢)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٨٣)، عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٩٥)، ومسلم في الفضائل (٢٣٧٧)، عن ابن عباس.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

حال الكفَّار مع النبيِّ ﷺ عند سماع القرآن:

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾

«إنْ»: هي المخفَّفة من الثقيلة، ومعنى: ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ﴾ أي: ليغتابونك وينقدونك. والمعنى: إنهم من شدَّة بغضهم وعداوتهم لك: ينظرون إليك شزرًا، ويضمرون لك شرًّا، بحيث يكادون يزلقون قدمك فيوقعونك، من قولهم: نظر إليَّ نظرًا يكاد يصرعني، ويكاد يأكلني. أي: لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله.

وقال ابن عبَّاس ومجاهد وغيرهما: ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾، أي: لينفُذُونك بأبصارهم، أي: يَعِينُونك بأبصارهم. بمعنى يحسدونك لبغضهم إيَّاك، لولا وقاية الله لك، وحمايته إياك منهم.

وفي هذه الآية دليلٌ على أنَّ العينَ إصابتُها وتأثيرها حقٌّ، بأمر الله ﷻ، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة، كما قال ابن كثير[1]، وذكر عدة من الأحاديث.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾: وعادوا إلى ما ذكرته السورة في أولها، من هذا الهوس، الَّذي اعتادوه، وتفوَّهوا به، حيث يزعمون من شدَّة افترائهم وعدوانهم: إن محمَّدًا مجنون. ويستحيل أن يكون المجنون على هذا الخُلق العظيم الَّذي وصف الله به محمَّدًا ﷺ به. فأخلاق المجانين مضطربة غير ثابتة، متناقضة غير متوازنة، غير مفهومة ولا معلَّلة، ولا واضحة ولا موزونة. أمَّا محمَّد فعلى عكس ذلك تمامًا.

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٠١ ـ ٢٠٧).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

رسالة القرآن العالميَّة منذ العهد المكي:

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: القــرآن. ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾. أو: ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: محمَّد ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾. فهو الَّذي يأتي بالقرآن إلى النَّاس، ويبيِّنه للناس، ويتلوه على النَّاس، فليس بعيدًا أن يقال: إنَّه ذكرٌ للعالمين. كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وإن كان الَّذي تطمئن إليه النفس: أنَّ القرآن هو ذكر للعالمين. وهو تأكيد للعلامات الأخرى، الَّتي أثبتت مبكرًا ـ وكلها في القرآن المكي ـ أن هذا الكتاب ذكرٌ وذكرى ورسالة للعالمين.

وكلها أدلَّة ناصعة على أنَّ الله جعل رســالة محمَّد منذ العهد المكي رسالة للعالمين، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقــال تعالــى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال تبــارك وتعالــى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۞ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾ [ص: ٨٧، ٨٨].

والقرآن ذكر. بمعنى: تذكير وتنوير، وهو ذكر بمعنى: مجد وشرف. كما قــال تعالــى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخـرف: ٤٤]. والأول هو الأوضح والأساس.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

تفسير سورة الحاقة

سورة الحاقَّة سورةٌ مكِّيَّة بالإجماع، وهي اثنتان وخمسون آية، حسب مصاحفنا المُرقَّمة، في رواية حفص عن عاصم. وبعض القرَّاء جعلها ثلاثًا وخمسين.

أغراض السورة:

سورة «الحاقَّة» تُعنَى بموضوع واحد، أساسيٍّ مُهم، هو الموضوع الَّذي دلَّ عليه اسمُها. إنَّها تهتمُّ بيوم القيامة، وما يجري فيه من أهوال، وتصنيف وتقسيم النَّاس حين يعرضون على الله سبحانه، لا تخفى منهم خافية.

فهم بين أهل اليمين، الَّذين يُؤْتَوْن كُتبَهم بأيمانهم، فيفرحون ويأنسون، ويقول أحدهم: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ۝ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾، وأهل الشمال الَّذين يُؤْتَوْن كتبَهم بشمائلهم، وتكون مِن وراء ظهورهم، كما دلَّتْ صورة الانشقاق، فيقول أحدهم في حسرة: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ۝ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ۝ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ۝ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٥ ـ ٢٩].

وقد ذكرت السورة في أولها: الَّذين كذَّبوا بالحاقَّة أو بالقارعة، وهي القيامة، من الأُمَم المعاندة، وكيف أهلَكهم الله تعالى، بألوان العذاب

نسخة تجريبية

QaradawiBooks.com

الإلهي، مثل: «ثمود» و«عـــاد» و«فرعون» و«قوم نـــوح»، الَّذين أهلكهم بالطوفان، أو بالماء لمَّا طغى.

كما ذكرت السـورة في أواخرها: رسالة محمد، وعظمة القرآن الَّذي أُنـزل عليه، وتأييد الله له، وأنَّه لو تقوَّل عليه ببعض الأقاويل، لأخذ منه باليمين، ولقطع منه الوتين، فكيف لو افتـرى عليه الكتاب كلَّه؟! ومن هنا يتبيَّن لنا أنَّ القــرآن هو حقُّ اليقين، فلا نملك إلَّا التَّسـبيح لله ربِّ العرش العظيم.

بداية تفسير السورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

من أسماء يوم القيامة:

﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾

﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ اسمٌ مِن أسماء القيامة أو السـاعة، الَّتي اتَّفقَت الرسالات السـماويَّة على وجوب الإيمان بها، ليلقى الناسُ فيها ربَّهم، ويُحاسبوا على أعمالهم، ويُجْزَوْا بها: خيرًا أو شرًّا.

ومن إعجاز هذا القرآن: أن يختار للمعاني الكبيرة، والحقائق العظيمة ألفاظًا هائلةً تليق بها. فاختار للسـاعة وللقيامة هـذه الألفاظ القوية في صوتها وفي صياغتها؛ لتؤْذِنَ بروعة الاسم، وعظمة المُسمَّى، مثلما اختار لفظ: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ و﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ و﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾، بهذه الصيغة المشتملة على المدِّ اللازم المثقَّل، وفـي كلِّ كلمة حرفٌ أو حرفان من حروف الاسـتعلاء والتفخيم السبعة: (خ، ص، ض، غ، ط، ق، ظ). قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ [النازعـات: ٣٤]، ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣]. أشبه بلفظ

QaradawiBooks.com

﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨]، للتعبير عن شدَّة اللصوق بالأرض، والقعود عن الجهاد.

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾

قال علماء النحو: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾، اسم فاعل من حَقَّ يحِقُّ، إذا ثَبَتَ ثبوتًا بيِّنًا، يشهد به الدين والعقل، والعلم والواقع.

و﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾: وهي القيامة أو الساعة ـ كما سبق بيانه ـ أو الحالة الواجبة الوقوع، الثابتة المجيء لا محالة، الَّتي هي آتية لا ريب فيها. من قولهم: حَقَّ يحِقُّ. إذا كان صحيحَ الوجودِ. ومنه قوله: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، أو الَّتي تحِقُّ فيها الأمور الحَقَّة: مِن الحساب، والميزان، وقراءة الصحف، والثواب والعقاب، وغيرها. أو الَّتي تحُقُّ فيها الأمور، أي: تُعرف على حقيقتها، مِن حقَّه يحُقُّه، إذا عرف حقيقته. جعل الفعل لها مجازًا، وهو حقيقة لما فيها من الأمور، أو لمن فيها من أولي العلم. وأيًّا ما كان فحذف الموصوف للإيذان بكمال ظهور اتصافه بهذه الصفة وجريانها مجرى الاسم. «وقال الأزهري: حاقَقْتُه، فحقَقْتُه أَحُقُّه: أي غالبته فغلبته. فالقيامة حاقَّة؛ لأنَّها تحُقُّ كل محاقٍّ في دين الله بالباطل: أي كلَّ مخاصم»[1].

وفي الصِّحاح: وحاقَّه، أي: خاصمه، وادَّعى كل واحد منهما الحق، فإذا غلبه قيل حَقَّه. ويُقال للرجل إذا خاصم في صغار الأشياء: إنَّه لنزقُ الحِقاق. ويقال: ما له فيه حَقٌّ ولا حِقاق. أي خصومة[2].

(١) تهذيب اللغة (٢٤٣/٣)، (باب الحاء والقاف)، تحقيق محمد عوض مرعب، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
(٢) الصحاح مادة (ح. ق. ق).

QaradawiBooks.com

و﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ الأولى: مبتدأ، وخبره الجملة الثانية: ﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾؛ لأنَّ معناها: ما هي؟ واللفظ استفهام. ومعناه: التعظيم والتفخيم لشأنها. نقول: زيدٌ ما زيد؟! على التعظيم لشأنه. وإبهام التعظيم أيضًا ليتخيَّل السامعُ أقصى جهده.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾

مبالغة في هذا المعنى. أي: إنَّ فيها ما لم تدرِه من أهوالها، وتفصيل صفاتها، فالجملة استفهامية أيضًا. أيْ: أيُّ شيءٍ أعْلَمَكَ ما ذلك اليوم؟

والنبي ﷺ، كان عالمًا بالقيامة، ولكن لا علم له بصفتها. فقيل تفخيمًا لشأنها، وتعظيمًا لهولها: وما أدراك ما هي؟ كأنك لستَ تعلمها، ولم تعاينْها! يعني أنَّها في العِظم والشدَّة، بحيث لا يبلغها درايةُ أحدٍ ولا وهْمُه، وكيفما قدَّرْتَ حالها، فهي أعظم من ذلك.

وهي أشبه بقوله تعالى: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١ ـ ٣]، والقارعة هي القيامة. والسياق واحد، والمعنى المراد واحد.

وقال يحيى بن سلام: بلغني أن كلَّ شيء في القرآن: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾. فقد أدراه الله إيَّاه وعلَّمه، وكلُّ شيء قال: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾، فهو ممَّا لم يُعلمه ﷺ(١).

وقال سفيان بن عُيَيْنة: كلُّ شيء قال فيه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾. فإنه أُخبر به، وكلُّ شيء قال فيه: قال: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾. فإنه لم يُخبر به(٢).

(١) النكت والعيون للماوردي (٧٦/٦).
(٢) رواه الطبري في التفسير (٥٧٠/٢٣).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ومَن تتبَّع آيات القرآن تبيَّن له ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾، ثمَّ قال: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧ ـ ١٩]، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ۝ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ [المطففين: ٨، ٩]، ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ [المطففين: ١٩، ٢٠]. وغيرها واضح. وقد ذكرت في القرآن (١٣) ثلاث عشرة مرَّة.

وكما قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾ [الشورى: ١٧]، ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس: ٣]، وقد ذُكرت ثلاث مرات فقط.

عاقبة المكذبين بيوم القيامة:

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾

و«ثمود» و«عاد» من قبائل العرب القديمة الكبيرة، الَّتي بادَتْ ودرَسَتْ آثارُها، ويسمُّونها: العربَ البائدةَ. وقد عُني القرآنُ بذكرهم كثيرًا، باعتبارهم من الأقوام الَّتي كذَّبت بالرسالات السماوية، وقاومت رسل الله، فنزلت بهم عقوبات السماء، فأهلكتهم.

فأمَّا «ثمود» فهم قوم نبيِّ الله صالح، وكانت منازلهم بالحِجْر، بين الشام والحجاز، وهو وادي القرى، ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢].

وأمَّا «عاد»، فهم قوم نبي الله هود، وكانت منازلهم بالأحقاف. والأحقاف: الرمل بين عُمَان إلى حضرموت واليمن كلِّه. وكانوا عربًا ذوي خَلْقٍ وبَسْطَة، ونعيم وسلطان. ذكر الله قصَّتهم وقصَّة ثمود في سور: «الأعراف» و«هود» و«الشعراء»، وغيرها. وأشار إليهم في سورة الفجر، بما

QaradawiBooks.com

يُوحي إلى مدنيتهم المادية: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۞ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۞ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ٩].

فذكر الله سبحانه تكذيب هاتين القبيلتين اللتين تقترب ديارهما من ديار قريش والعرب المكذبين لمحمد ﷺ، ليكون لهم منهما عبرة حين كذَّبوا بالقارعة.

ومن المعروف أنَّ عادًا كانت قبل ثمود؛ ولذلك تذكر قصتها في القرآن قبل ثمود، ولكن قصة ثمود هنا ذُكرت قبل عاد؛ لأنَّ الله تعالى أراد اختصار وإجمال قصَّة ثمود في آية واحدة، فعجَّل بها، ثمَّ أخَّر قصةَ عادٍ لأجل التفصيل فيها، وبيان ما كان من أمرها.

و﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾: هي الَّتي تقرع النَّاس بالأفزاع والأهوال، والسماء بالانشقاق والانفطار، والنجوم بالطمس والانكدار، والأرض والجبال بالدكِّ والنَّسْف. والمراد بها: القيامة أو الساعة، الَّتي هي الحاقّة ذاتها، وإنَّما وضع الظاهر موضع المضمر، فلم يقل: «كذبت ثمود وعاد بها»، ليدلَّ على معنى القَرْع الحاصل في الحاقة؛ ليكون ذلك زيادة في وصف شدَّتها.

ولما ذكرها وفخَّمها، أتبع ذلك بذكر مَن كذَّب بها، وما حلَّ بهم بسبب التكذيب، تذكيرًا لأهل مكة، وتخويفًا لهم من عاقبة تكذيبهم.

نتيجة تكذيب قبيلة ثمود وكيفية إهلاكهم وفظاعته:

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾

تعرَّض القرآن لبيان مصير القبيلة الَّتي كذَّبت بالقارعة وبالقيامة، وبيَّن أن عاقبتها كانت هي الإهلاك من الله تبارك وتعالى، فكيف أهلكهم، وبأيِّ وسيلة؟

QaradawiBooks.com

وهنا بيَّن الله تعالى أنَّه أهلكهم ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾، والطاغية: اسم فاعل من طغى يطغى، إذا جاوز الحدَّ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] ـ ﴿ٱلْجَارِيَةِ﴾، أي السفينة ـ وقوله سبحانه: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]، ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر: ١١].

فالطاغية: هي الواقعة المجاوزة للحدِّ في الشدَّة والقوَّة، فهي وصف لمحذوف، قيل: هو الصيحة المجاوزة للصيحات في الشدَّة والقوَّة، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١].

وقال بعضهم: هي الرجفة، وهذا لا يعتبر قولا ثانيًا، فإنا وجدنا القرآن يعبِّر عما أصاب «ثمود» بالصيحة وبالرجفة كلتيهما، قال تعالى في سورة «هود» في شأن «ثمود»: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [٦٧، ٦٨]، وفي سورة الأعراف قال سبحانه عن ثمود: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [٧٧، ٧٨]. فالرجفة هي الصَّيْحة، والصَّيْحة هي الرَّجْفة، وهما اسمان لمُسمًّى واحد.

نتيجة تكذيب قبيلة عاد وكيفية إهلاكهم وفظاعته:

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾

وإذا كانت «ثمود» أُهلكت بالصيحة وهي الرجفة، فبأيِّ شيء أُهلكتْ عاد؟

هنا فصَّل القرآن فيما أُهلكت به «عاد»، الَّذين ذكر القرآن ما ذكر عن

QaradawiBooks.com

قوَّتهم وبطشـــهم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

ذكر القرآن أنَّهــم أُهلكوا ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، فأمــا الريح: فهي الهواء الَّذي يعرفه النَّاس ويتمايل بهم، كما يتمايل بالأشياء، ومنه الريحُ الطيبة، ومنه الريحُ العاصف.

والصَّرْصَر: الشديدة الصوت، لها صرْصرة. أو الباردة من الصِّرِّ، كأنَّها الَّتي كُرِّر فيها البرد وكثُر، فهي تحرق لشدَّة بردها.

والعاتية: اسم فاعل من العتوِّ، وهو العنف والشدَّة البليغة، ومعناها: أنَّها عتتْ وعنُفتْ على قوم عاد، الَّذين قالوا: مَن أشدُّ منا قوة؟! فأعجزهم الله، وأظهر ضعفهم بأقرب شيء إليهم: الريح، فما قدروا على ردِّها، وما استطاعوا دفعها بحيلة: من استتارٍ ببناء، أو استنادٍ إلى جبل؛ فإنَّها كانت تنـزعهم من مكامنهم وتهلكهم.

المدة الَّتي سخِّرت فيها الريح عليهم:

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾

ماذا فعلت بهم الريحُ الصَّرصر العاتية، وهم أهــل القوَّة الَّتي كانوا يتطاولون بها؟

إنَّ الله القهار أرسلها وسلَّطها عليهم بقدرته وجبروته، فلم يستطيعوا لها دفعًا.

والتَّسخير: استعمال الشيء بالاقتدار. والله تعالى، هو وحده المُسخِّر لكلِّ ما في السماوات وما في الأرض، لا يُعجزه شيء.

QaradawiBooks.com

وقد سخَّر الله تعالى على «عادٍ» المستكبرة في الأرض بغير الحقِّ، الريحَ في هذه المدَّة: ﴿سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾، لتلقِّنهم وتلقِّن مَن بعدهم درسًا لا يجوز ولا يمكن أن يُنسى.

وربَّما ظنَّ ظانٌّ أن هذا العذاب الَّذي نزل بالقوم كان متقطِّعًا أو متفرِّقًا في هذه المدة، فأزال القرآن ذلك التوهُّم والظن بقوله: ﴿حُسُومٗا﴾، أي: متتابعة متتالية، أي هذه الأيام والليالي تتابعت عليهم بالريح المهلكة، فلم يكن فيها فتور ولا انقطاع.

وحُسُوم هنا: جمع حاسم، كـ «شُهُود وقُعُود»، جمع «شاهد وقاعد». ومعنى هذا الحسم في اللُّغة: القطع والاستئصال. وسُمِّي السيف: حُسامًا؛ لأنَّه يحسم العدو عما يريد من بلوغ عداوته. فلما كانت تلك الريح متتابعة، فما سكتت ساعة، ولا لحظة حتَّى أتتْ عليهم، أشبه تتابعها عليهم تتابع فعل الحاسم في إعادة الكي، على الداء مرَّة بعد أخرى، حتَّى ينحسم[1].

تشبيه الهلكى بأعجاز النخل الخاوية:

﴿فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾

أي: فترى أيُّها المخاطَبُ القومَ في هذه الليالي والأيام صرعى: جمع «صريع»، فهم مُصرَّعون صرع الموت، كأنهم أعجاز نخل خاوية، أي: كأنهم أصول نخل خالية الأجواف، لا شيء فيها، والنخل يُؤنَّث ويُذكَّر، قال تعالى في سورة القمر: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ [القمر: ٢٠].

(١) ويمكن أن يكون ﴿حُسُومٗا﴾ مصدرًا كالشُّكور والكُّفور، منتصب بفعل مضمر، والتقدير: يُحسم حسومًا، أي: يستأصل استئصالًا، أو يكون صفة، كقولك: ذات حسوم، أو يكون مفعولًا لأجله، أي: سخَّرها عليهم لاستئصالهم.

QaradawiBooks.com

ثم يحتمل أنَّهم شُبِّهوا بالنخيل الَّتي قُلِعتْ من أصلها، وهو إخبار عن عظيم خلقهم وأجسامهم. وقد ذكر الله في سورة الأعراف قول رسولهم هودٍ لهم: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ﴾ [هود: ٦٩].

ويحتمل أن يكون المراد به: الأصول دون الجذوع، أي: أنَّ الريح قد قطَّعتهم، حتَّى صاروا كأصول النخل خاوية، أي: الريح كانت تدخل أجوافهم فتصرعهم، كالنخلة الخاويةِ الجوفِ.

﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾

فهل تُبصر ـ أيُّها المُخاطَب ـ لهؤلاء الهلكى مِن بقيَّة بقيتْ منهم، فحفظتْ آثارهم، وخلَّدتْ ذكراهم؟

ومعنى كلمة ﴿بَاقِيَةٖ﴾، أي: مِن فِرقة باقية، أو مِن نفْس باقية، أو هل ترى لهم من بقاءٍ أو من أثرٍ، والمراد: أنَّه لم يبْقَ مِن نَسْل أولئك القوم أحدٌ.

وفي سورة «الأحقاف» حكى الله تعالى ما جرى بينهم وبين رسولهم هُود عليه السلام مِن تقاول وجِدال، حين أنذرهم بالأحقاف، وخوَّفهم من عذاب الله أن ينزل بهم، فأعرضوا، ولم يبالوا: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٤ ـ ٢٦].

QaradawiBooks.com

قصَّة فرعونَ وقومَ لوط وما أصابهم من جرَّاء تكذيبهم بالرسل:

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾

بعد أن ذكر الله تعالى قصَّة ثمود وعاد، حدَّثنا عن قصَّة فرعون ومَن قبله والمؤتفكات، كما قال تعالى في سورة الفجر، مُندِّدًا بأصحاب الحضارات المادية، الَّتي لم تُنِرْ ظلماتِ ماديتها برحمانية الله، وإشراق الإيمان بكتبه ورسله، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۞ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۞ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۞ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٠].

ولعلَّ الأوتاد هي الأهرام الَّتي كانوا يفخرون بها، وقد جاء فرعون ومَن كان قبله من أقوام، مثل: قوم لوط، وقوم شعيب من أصحاب مدين، ومن أصحاب الأيكة وغيرهم.

وفي قراءة الكسائي: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قِبَلَهُۥ﴾، بكسر القاف وفتح الباء بعده[1]، أي: ومَن ومعه مِن أشياعه وأنصاره، مِن أمثال هامان وقارون وجنوده، الَّذين قال الله فيهم: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠]. وكل مَن كان مثلَه في العمل، فهو مثلُه في الحكم والجزاء، فالله تعالى لا يُميِّز بين المتماثلَيْن، ولا يُسوِّي بين المختلفَيْن.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾: قُرى قوم لوط، الَّتي حقَّتْ عليها كلمة العذاب، وقال الله فيها: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً

---

(١) وهي قراءة عاصم في رواية أبان، وقراءة أبي عمرو والكسائي كما في الحجة للقراء السبعة (٣١٤/٦)، تحقيق بدر الدين قهوجي وبشير جويجابي، نشر دار المأمون للتراث، دمشق، ط٢، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

QaradawiBooks.com

مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣]. فذكر الله أنَّه أهلكهم بعقوبتَيْن: قَلَبَ القُرى عاليها سافلها، وأمْطرَ الحجارةَ عليهم، وهي الَّتي جاءت في سورة «التوبة»: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠]، وقالت فيها سورة «النجم»: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٣، ٥٤].

قال قتادة: إنَّما سُمِّيت قُرى قوم لوط «مؤتفكات»؛ لأنَّها اؤتفكتْ بهم. أي: انقلبتْ(١).

﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾: أي بالفعلة الخاطئة، وهي التكذيب بما أنزل الله، ومعصية رُسُله، وليستْ الخاطئة هنا من (الخطأ)، فهذا الوزن يدُل على التعمُّد والإثم، ولذا قال تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: ١٦]، وقال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٨].

أخذ الله الشديد لهم:

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾

أي: فعصتْ كلُّ أمَّة رسولها، حين نهوهم عمَّا هُم عليه من الشِّرك، وما كانوا يتعاطونه من القبائح، فعصى قومُ لوطٍ لوطًا، وعصى قومُ فرعون موسى، وهكذا.

ولذا قال ابن كثير: «هذا جنسٌ، أي كلُّ كذَّب رسولَ الله إليه، كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٤]. ومَنْ كذَّب رسولًا مِن رُسل

(١) رواه الطبري في التفسير (٥٧٦/٢٣).

QaradawiBooks.com

الله، فقد كذَّب الجميعَ؛ ولذا قال القرآن في سـورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]»[1]. مع أنَّهم لم يُكذِّبوا إلَّا نوحًا وحده، ولكن عقيدتهم تكذيب إرسـال الله الرسـل من عنده إلى النَّـاس، ولذا قال: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشـعراء: ١٢٣]، ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشـعراء: ١٤١]. وإنَّما جاء إلى كلِّ أمة رسـولٌ واحد؛ ولهذا قـال تعالى هاهنا: ﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةً رَّابِيَةً﴾، أي: عظيمة شديدة أليمة، زائدة في الشِّدَّة على غيرها من الأخذات، وعلى عذاب الأمم، يُقال: ربا الشيءُ يرْبُو، إذا زاد وتضاعف.

قصة نوح مع قومه:

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾

يتحدَّث القرآن الكريم عن فعـل الله تعالى بعباده لمَّا طغى الماء وجاوز حدَّه في الأرض، حين دعا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ربَّه، بعد ألف سـنة إلَّا خمسـين عامًـا: ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ۞ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ۞ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ۞ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ۞ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۞ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: ١٠ ـ ١٥].

يذكِّر الله تعالى عباده بإنجائهم من غرق الطوفان حين قال: ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾، و«الجارية»: السفينة الجارية على وجه الماء، الَّتي أمر الله نوحًا بصناعتها، لينجو فيها هو وأهلـه إلَّا مَن كَفرَ منهم كامرأته وابنه، فمعنى ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ﴾، أي: حملنا آباءكم الَّذين كنتم في أصلابهم.

(١) تفسير ابن كثير (٢١٠/٨) بتصرف.

QaradawiBooks.com

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾

أي: وأبقينا لكم من جنس هذه السفينة ما تركبون على تيار الماء في البحار، و﴿تَذْكِرَةً﴾، أي: عبرة ودلالة على كمال قدرة الصانع، وقوةِ قهْره، وسَعة رحمته. كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١، ٤٢].

وكما جعل الله تعالى في هذه السفينة الجارية تذكرةً دائمة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢]. وكذلك لـ ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾، تعيَها أي: تحفظها، والوعي: أن تحفظ الشيء في نفسك. والإيعاء: أن تحفظه في غير نفسك من وعاء. فقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾، أي: تفهم هذه النعمة وتذكرها أُذُنٌ واعية، أي: حافظة جامعة، عقِلتْ عن ربها، فانتفعت بما سمعت من كتاب الله. وهي تشمل كلَّ مَن كان له سمْع صحيح، وعقل رجيح. وهذا عام فيمن فهم ووعى.

والأذن الواعية: أُذُنٌ من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه، بتذكُّرِه وإشاعته والتفكُّر فيه، ولا تضيِّعُه بترْك العمل به. والتنكير فيها: للدلالة على قِلَّتها، وأنَّ مَن هذا شأنه مع قلَّته تسبَّب لنجاة الجم الغفير وإدامة نسلهم.

وقد ذمَّ القرآن أناسًا يسمعون اللفظة ولا يعونها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١]، ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

QaradawiBooks.com

الحاقَّة ومظاهرها الرهيبة:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴿١٤﴾
فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ﴿١٦﴾ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ
وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴿١٧﴾ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا
مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾
فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ
أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾
وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾
خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ
كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ﴿٣٥﴾
وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة: ١٣ ـ ٣٧].

يقول تعالى في هذه الآيات مُخبرًا عن أهوال يوم القيامة، وأوَّلُ ذلك: نفخةُ الفزع، ثمَّ يعقبها نفخة الصعْق، حتَّى يُصعَقَ مَن في السماوات ومَن في الأرض إلَّا ما شاء الله، ثمَّ بعدها نفخة القيام لربِّ العالمين والبعث والنشور، وهذه النفخة هي الَّتي بدأت بها الآيات.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾

وهي هذه النفخة، وقد أكَّدها هنا بأنَّها واحدة؛ لأنَّ أمر الله لا يُخالَف، ولا يُمانَع، ولا يحتاج إلى تكرار.

﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾

أي: عُلِّقتْ ورُفِعتْ من أماكنها بمُجرَّد القدرة الإلهيَّة، أو بما شاء الله من وسائط وأسباب من الزلازل أو العواصف، كما قال تعالى:

QaradawiBooks.com

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧].

وقال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٤ ـ ٦].

قال ابن كثير في معناها: «أي: فمُدتْ مدَّ الأديم العكاظي، وتبدَّلتِ الأرض غيرَ الأرض»(١).

وقال بعضُهم: رُفعت الأرض والجبال عن موضعهما، فَدُكَّتا وانكسرتا، أي: ضُرب بعضها ببعض حتَّى تندق وترجع مهيلًا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾

أي: فيومئذٍ نزلت النازلة، وقامت القيامة، الَّتي يترقَّبُها النَّاس، كما قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ١ ـ ٣].

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾

هنالك تتغيَّر طبيعة الأكوان، فلا عجب أنَّ السماء تتشقَّق، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [النبأ: ١٩]. فترى الوَهْيَ والضعف أصاب السماء، لتنزل الملائكةُ منها، إلى ما شاء من الأرض، لتُنفِّذ

(١) تفسير ابن كثير (٢١١/٨). الأديم: الجلد، والأديم العكاظي: مَنْسُوبٌ إلى سوق عكاظ، التي كان العرب يجتمعون فيها فيتناشدون ويتفاخرون وكانت فيها وقائع.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

ما أمر الله أن يُنفَّذ بين عباده، فهو وحده اليوم مالك المُلك لا شريك له ولا مُنازع: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾

﴿وَٱلۡمَلَكُ﴾: اسم جنس، أي: الملائكة ﴿عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَا﴾، أي: على جوانبها وأطرافها وأبوابها، وعلى ما استدقَّ من السماء، ينظرون إلى أهل الأرض.

والضمير في ﴿أَرۡجَآئِهَا﴾ يعودُ على السماءِ الجديدة. كما في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. ومفرد أرجاء: رجًا؛ منوَّنًا بوزن «فتًى» ومعناه: جانب.

﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ..﴾ والضمير للخلائق، أي: فوق الخلائق، سواءٌ ماتوا أو يموتون على إثر ذلك، أو يكون هذا بعد الحشر، وهو الأنسب، والله أعلم.

ويجوز أن يعود إلى الحَمَلة الَّذين يحملونه كما قال مقاتل، يعني: أنَّ الحَمَلة يحملون العرش فوق رؤوسهم[(١)] ﴿يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾، أي: يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة، أفراد أو أصناف أو صفوف من الأملاك لا يعلم عددهم إلَّا الله، كما رُوي ذلك عن الضحَّاك[(٢)].

وما المراد بالعرش حينئذٍ؟

قال ابن كثير: «ويُحتَمل أن يكون المراد بهذا: العرشُ العظيم، أو العرش الَّذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء، والله أعلم بالصواب»[(٣)].

(١) تفسير الرازي (٦٢٦/٣٠).
(٢) تفسير الزمخشري (٦٠٢/٤).
(٣) تفسير ابن كثير (٢١٢/٨).

نسخة بناية

QaradawiBooks.com

قلتُ: والأولى أن تكون الإضافة هنا «عرش ربِّك» إشارة إلى أنَّه العرش العظيم.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾

موقف العرض على الله ﷻ:

في هذا اليوم العظيم تُعرضون على الله ـ الَّذي له وحده الحكم في هذا اليوم ـ للحساب والسؤال، كما قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨]. شبَّه ذلك بعرْض السلطانِ العسكرَ ليتعرَّف أحوالَهم. فلا تخفى منهم خافيةٌ مِن قول أو عمل أو سريرة، أو أيِّ حالٍ كانت تخفى في الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]، ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۞ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۞ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ٩ ـ ١١].

وماذا في هذا العرض؟

هنالك تتطاير الصحف، ويقرأ كلُّ امرئٍ منهم كتابه وإنْ كان أمِّيًا، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۞ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]، ويقول تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

هنالك يأخذ الناسُ كتبَهم الَّتي سُجِّلتْ فيها كلُّ أعمالهم في الدنيا، من قولٍ أو فعلٍ، من خيرٍ أو شر، جهرًا كان أو سرًّا، فمنهم مَن يُؤتَى كتابَه بيمينه، ومنهم من يُؤتى كتابَه بشماله، واليمينُ: دليلُ الخيرِ والبركة واليُمن، والشِّمال: دليلُ الشرِّ والقبح والشؤم.

QaradawiBooks.com

وفي ذلك الموقع يكون الحساب وأخذ صحف الأعمال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۞ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۞ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۞ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۞ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧ ـ ١٢].

وهذا الأخير هو الَّذي أُعطيَ كتابه بشماله، فهو يأخذه مِن وراءِ ظهره. وإعطاءُ الكتابِ باليمين دليلٌ على النجاة، كما كان العرب يتفاءلون دومًا باليمين، فهي تبشِّر باليُمن، بخلاف الشمال، فهي دليل المشْأَمة.

وهناك يكون «الميزان» الَّذي يزن اللهُ به أعمالَ العباد: من خير وشرٍّ، وصالح وطالح، كما قال ﷻ: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

ويقول النبيُّ ﷺ: «**إنَّه ليأْتِي الرجلُ العظيمُ السمينُ يوم القيامة، لا يزِنُ عند الله جناحَ بعوضة**»، وقال: «اقرؤوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]»(١).

وقال ﷻ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

أهل اليمين وأهل الشمال:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾

هنا يقسِّم اللهُ النَّاس إلى فئتين أساسيتين: فئة السعداء، وفئة الأشقياء، أهل اليمين، وأهل الشمال.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧٢٩)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٧٨٥)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وفي سورة «الواقعة» قسَّم الله النَّاس إلى فئاتٍ ثلاث: فئتان لأهل السعادة، وفئة واحدة لأهل الشقاء، كما قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ٧ ـ ١٢].

وأشار إلى نحو ذلك في سورة الرحمن، حيث تحدَّث عن أهل جهنَّم: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ۝ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٣ ـ ٤٥]، ثمَّ قال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]. ووصف هاتين الجنَّتين بما وصفهما به ممَّا فيهما من النعيم الأعلى في كلِّ شيء، ثمَّ قال: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. وبعد ذلك قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]. ووصفهما بما يجعلهما دون الجنتين الأوليَيْن، ممَّا يدلُّ على أن أهلَهما دونَ أهل الجنَّتين الأوليَيْن.

فهذا التصنيف لا يقْدح في التقسيم الأساسي الَّذي سجَّله الله تعالى باستمرار للفئتين الكبيرتين: فئة أهل السعادة، وفئة أهل الشقاوة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾، فهو تفصيل لأحكام العرْض، وبيان تفاوت مقام النَّاس فيه، فمَن أخذ كتابه بيمينه، فيقول مُعلنًا ومبتهجًا للناس: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾، يقول ذلك ثقةً بالإسلام، وسرورًا بنجاحه، وتحدُّثًا بنعمة الله عليه؛ لأنَّ اليمين عند العرب من دلائل الفرح، والشمال من دلائل الغمِّ والحزن، قال الشاعر:

أَبِيني! أَفِي يُمْنَى يَدَيْكِ جَعَلْتِني فأَفْرَحَ، أَمْ صَيَّرتِني فِي شِمَالِكِ[1]؟

---

(١) من شعر ابن الدمينة، انظر: الأمالي للزجاجي (١٦٨/١)، تحقيق عبد السلام هارون، نشر دار الجيل، بيروت، ط ٢، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

QaradawiBooks.com

ومعنى ﴿هَآؤُمُ﴾، أي: تعالَوْا، وهَلمُّوا، وخُذوا، وما شابه ذلك.

﴿هَآؤُمُ﴾: «هاء» اسم فعل معناه: «خذ». والميم يدلّ على أنَّ المخاطَب جمع. فالمعنى: تعالَوْا، وهَلمُّوا، وخُذوا كتابي يا مَن تُسرُّون بسروري، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ [الرعد: ٢٣].

والهاء في ﴿كِتَٰبِيَهۡ﴾ للوقف وتُسمَّى هاء السكت، وهي حرف يلحقه العرب بالكلمة إذا أرادوا السكوت بعدها، ثمَّ توسَّعوا وأثبتوه حتَّى مع الوصل، وكذلك في أخواتها: ﴿حِسَابِيَهۡ﴾، ﴿مَالِيَهۡ﴾، ﴿سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾، ومثلها في القارعة: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ﴾ [القارعة: ١٠].

فالقرآن يُعبِّر عن سعادة مَنْ أوتي كتابه بيمينه يوم القيامة، وعن فرحه وسروره بذلك، وأنَّه مِن شِدَّة سروره يقول لكلِّ مَن لقيه: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾؛ لأنَّه يعلم أنَّ الَّذي فيه خيرٌ وحسنات مَحْضة؛ لأنَّه ممَّن يُبدِّل الله سيئاتِهم حسنات، دلَّ ذلك على أنَّه قد بلغ الغاية في السرور، وخصوصًا بين أهله وأقاربه، حتَّى يفرحوا بما ناله من الخير والرحمة.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾

أي: علمت، وإنَّما أُجري الظنُّ مجرى العلم؛ لأنَّ الظنَّ الغالب يُقام مُقام العلم في العادات والأحكام، يقال: أظنُّ ظنًّا كاليقين، أنَّ الأمر كيت وكيت.

أو: كنت أظنُّ أنَّ الله سيُحاسبني ويُؤاخذني بهفواتي، ولكنْ تفضَّل عليَّ بالعفو عنها.

أو المراد: إنِّي ظننتُ في الدنيا أنِّي بسبب الأعمال الَّتي كنتُ أعملها في الدنيا ـ وهي ضئيلة ـ سأصل في القيامة إلى هذه الدرجات، وقد

QaradawiBooks.com

حصلت الآن على اليقين، فيكون الظن على ظاهره؛ لأن أهل الدنيا لا يقطعون بذلك.

على أنَّ القرآن الكريم كثيرًا ما يكتفي بالظنِّ هنا ـ وهو الظنُّ الراجح والغالب ـ ليدلَّ على أن هذا يكفي عند المؤمنين، ليوجِّه قلوبهم، ويُحرِّك عزائمهم، ويجعلهم على مخافةٍ من الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦]، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾

أي: مَرْضيَّة، فاستعمل اسم الفاعل موضع اسم المفعول، على طريقة المجاز العقلي، وذلك من خصائص اللغة، للمبالغة في الوصف. والمعنى: لو كانت العيشة من ذوات العقول، لكانت راضية عن نفسها، وجعل الفعل لها مجازا وهو لصاحبها، وذلك لكونها صافية عن الشوائب، دائمة مقرونة بالتعظيم، أو أنَّها منسوبة إلى الرضا، كالدارع والنابل(١)، والنسبة نسبتان: نسبة بالحروف، ونسبة بالصيغة.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ﴾

أبرز منازل هذا الرضا في هذه العيشة: أنَّه في جنَّة عالية رفيعة المنزلة، قال تعالى في وصفها لعباده: «**أعددْتُ لعباديَ الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ، فاقرؤوا**

(١) الدارع بمعنى ذي الدرع، والنابل بمعنى ذي النبل. وهذان مثالان على استخدام صيغة (فاعل) بمعني النسبة، وكذلك تامر ولابن.

QaradawiBooks.com

إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]»[(١)].

قال ابن كثير: «رفيعةٌ قصورها، حِسَانٌ حُورها، نعيمةٌ دورها، دائمٌ حُبُورها»[(٢)].

وقد ثبت في الصحيح: «**إنَّ في الجنَّة مائة درجة، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض**»[(٣)].

﴿قُطُوفُهَا﴾: جمع قِطْف[(٤)]، وهو الثمار، ودنوها: قرب تناولها لمَن يبتغيها قائمًا، أو قاعدًا، أو مضطجعًا، يدعوها فتدنو منه، وتستجيب له، ولو أحبَّ أن تدنو إلى فمه لدنت: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾

يقول الله سبحانه لهم ذلك، أو تقوله لهم ملائكته، والجمع هنا ـ وإن كان السياق فيما سبق للمفرد ـ ليدلَّ على أنَّ «مَنْ» في قوله تعالي: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾، تتضمَّن معنى الجمع.

والأمر هنا للإباحة والامتنان من الله عليهم أن يأكلوا ويشربوا ويتمتعَّوا بكلِّ ما أنعم الله عليهم في جنَّته، جزاءً بما قدَّموه، وما

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٤)، عن أبي هريرة.
(٢) تفسير ابن كثير (٢١٤/٨).
(٣) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠)، عن أبي هريرة.
(٤) قِطْف ـ بكسر فسكون ـ بمعنى ما يُقْطف، أي يُجْني بسهولة، كذِبح بمعنى ما يذبح؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات: ١٠٧].

QaradawiBooks.com

أسلفوه في دنياهم، فقد حرَّم الله عليهم أشياء كالخمر، وحرَّم الذهب والحرير على الرجال، وحرَّم الأكل والشرب والجماع في شهر رمضان، فلم يعد في الجنَّة من الطيبات شيء محظور، لا على الرجال ولا على النساء.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾: أكلًا مريئًا هنيئًا بما قدَّمتموه من الأعمال الصَّالحة في أيام الدنيا، ﴿ٱلْخَالِيَةِ﴾: أي الماضية، كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ [الأحقاف: ١٧]، ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة: ١٣٤].

يقول الله تعالى لهم هذا الكلام بنفسه، أو تقوله ملائكته لهم، تفضُّلًا عليهم، وامتنانًا وإنعامًا وإحسانًا.

وفي الصحيح المتَّفق عليه، عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**لن يدخل أحدًا عملُه الجنَّة**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**لا، ولا أنا، إلَّا أن يتغمَّدني اللهُ بفضلٍ ورحمة، فسدِّدوا وقارِبوا، ولا يتمَنَّيَنَّ أحدُكم الموت**»(١).

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾

بعد أن تحدَّث القرآن عن موقف فريق السعداء، الَّذين أخذوا كتابهم بأيمانهم، وفرحوا به، وأعلنوا فرحهم على النَّاس، حدَّثنا بعد ذلك عما يقابلهم، وهم فريق الأشقياء، الَّذين أتاهم كتابهم بشمائلهم، والشمال عند العرب ـ كما قلنا ـ تدلُّ على عكس ما تدلُّ عليه اليمين، إنَّها تدلُّ على العسر والشؤْم والخسارة، ولذلك عرفوا مصيرهم بمجرَّد تَسلُّم كتابهم بشمائلهم، وأصابهم من الذلِّ والإحباط ما أصابهم، وعَبَّروا عن ذلك فقالوا، أو قال كلُّ واحد منهم: ﴿يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ﴾، أي: ليتني لم

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المرضى (٥٦٧٣)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨١٦)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

أتلقَّ هذا الكتاب الفاضح المخزي، وما فيه من كفر وتكذيب وسيئات الأخلاق والأعمال. ﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾، أي ولم أدرِ أي شيء حسابيه؛ لأنَّه لا حاصل، ولا طائل له في ذلك الحساب، وإنَّما كلُّه عليه.

﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾

أي: يا ليت المَوْتة الَّتي مِتُّها كانت ﴿ٱلۡقَاضِيَةَ﴾، أي: القاطعة لأمري، فلم أُبعث بعدها، ولم ألقَ ما ألقى، يقول الشاعر:

وَلَوْ أَنَّا إِذَا مِتْنَا تُرِكْنَا ... لَكَانَ الْمَوْتُ رَاحَةَ كُلِّ حَيِّ
وَلَكِنَّا إِذَا مِتْنَا بُعِثْنَا ... وَنُسْأَلُ بعدَه عن كلِّ شيِّ(١)

يتمنَّى كثير ممَّن أهملوا الآخرة، وعصَوا الله ورسوله، أن لو كانت الموتة الأولى هي نهاية الحياة، ولم تكن آخرة، ولا حساب، ولا جزاء، ولكن هذا الباطل الَّذي نفاه الله تعالى؛ لأنَّه ينافي عدل الله تعالى بين عباده في الكون، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ۞ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧، ٢٨].

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾

يقول صاحب الشمال، الَّذي عرف مصيره بمجرَّد أخذه كتابه بشماله: إنَّ الَّذي كان يباهي به، ويستعلي به على الحقِّ، ويكفر به نعمة الله، وما أوتيه من مال أو سلطان، فها هو مالُه، لا يغني عنه شيئًا، ولا يدفع عنه ضرًّا، وها هو جاهه وسلطانه لا يقدِّم له خيرًا.

(١) ينسب إلى علي بن أبي طالب، كما في الفاضل للمبرد صـ ١٣، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٣، ١٤٢١هـ.

QaradawiBooks.com

وكثيرًا ما يبدو بعض هــذا ويظهر للناس في آخر الحياة الدنيا، حين يدنو منهم الموت، فذكروا عن هارون الرشــيد، أنَّه كان يقول عند قرب موته: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾[1]!

وقالوا عــن ابنه المأمون: إنَّــه كان يقول عند موتــه: يا مَن لا يزول ملكه، ارحمْ مَن زال ملكه[2]!

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ أي: زال عني كلُّ ما يبدو للناس من مال ومن بنينَ وأتباعٍ وأنصار، وما كان لي من ملك وســلطان على النَّاس، أو قوَّة حجَّة أجادل بها وأسطو بها على غيري، أو ما كان لي من سلطان على القوى والآلات الَّتي كنت أستعملها بمهارتي وخبرتي، ثمَّ عجزت الآن عن استخدامها، فالحقيقة أنِّي أصبحتُ أضعف وأعجز من أن أتحمل شــيئًا، لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذابَ الله وبأسَــه، بل خَلُصَ الأمر إليَّ وحدي، فلا ناصر ولا معين ولا مجير.

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾

يقول الله تعالى لخزنة النَّار من الملائكة، أن تأخذه أخذًا عنيفا من المحشر، ﴿فَغُلُّوهُ﴾، أي: شدُّوه بالأغلال والقيود، الَّتي تجعل يده إلى عنقه، ثمَّ لا تصلوه ولا تدخلــوه إلَّا إلى الجحيم، وهي النَّار العظيمة، ليكون الجزاء على وَفْق معاصيه وموبقاته، فإنه كان يتعاظم على خلق الله.

(١) العاقبة في ذكر الموت لعبد الحق الإشــبيلي صـ ١٢٨، تحقيق خضر محمد خضر، نشر دار الأقصى، الكويت، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
(٢) إحياء علوم الدين (٤/٤٨١).

QaradawiBooks.com

ثم في السلسلة الطويلة الَّتي طولها سبعون ذراعًا، فأدخلوه فيها، بأن تلفُّوها على جسده، فهو فيما بينها مرهق، لا يستطيع حراكًا، وتقديم السلسلة وحجمها في أول الكلام: للدلالة على الاختصاص والاهتمام بذكر ألوان ممَّا يُعذَّب بها هؤلاء، و﴿ ثُمَّ ﴾، لتفاوت ما بين الغُلِّ والتصلية، وما بينهما وبين السلك في السلسلة من الشدَّة.

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾

بعد الحكم على صاحب الشمال بأن يُخصَّ بتقييده بالأغلال، وتصليته الجحيم، وإدخاله في السلسلة الطويلة: بيَّنَ حيثياتِ هذا الحكم الخطير من الله العلي الكبير، فذكر له أمرين أساسيين:

أولهما: أمر يتعلَّق بعقيدته في الله.

وثانيهما: أمر يتعلَّق بسلوكه مع الناس.

فأمَّا الَّذي يتعلَّق بالعقيدة، فهو تخلِّيه عن الإيمان العظيم، ومَن عاش في الدنيا بلا إيمان، فقد عاش بلا عقل ولا قلب ولا تميُّز، وهؤلاء أجسام بلا أحلام، وأشباح بلا أرواح. مَن عاش بلا إيمان فقَدَ قوَّته العاقلة، الَّتي تؤمن بأنَّه لا بدَّ لهذا الكون من مكوِّن، ولا بدَّ لحركته من مُحرِّك، ولا بدَّ لإبداعاته من مُبدِع، ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

وأمَّا الَّذي يتعلَّق بسلوك صاحب الشمال مع الخلق، فهو متمثِّل في رذيلة الأنانية والشحِّ والبخل على المحتاجين من النَّاس، بحيث لا يطعمهم ولا يحثُّ على طعامهم.

QaradawiBooks.com

ذكر صاحب «الكشَّـاف» فائدتين في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، ودلالتهما علـى عظم الجرم في حرمان المسـاكين: أوَّلهما: عطفه على الكفر، وجعلـه قرينةً له. والثاني: ذكـر الحضِّ دون الفعل، ليُعلمَ أنّ تارك الحضِّ بهذه المنـزلة، فكيف بمَن ترك الفعل[1]؟!

ولكنِّي أريد أن أقول: إنَّ القرآن يريد أن يقـرِّر في هذا المجال هذه الفريضة، الَّتي انفرد القرآن بتعزيزها، وإلزام النَّاس بها منذ العهد المكي، قبل أن تُقرَّرَ وتفصَّل أحكام الزكاة، وبيان أنَّها فريضة عامَّة لكلِّ فرد في المجتمع، سواء كان مالكًا للمال أم غير مالك، فمَن كان مالكًا فعليه أن يمنح المسكين ما لا بدَّ له منه ليحيا ويعيش كما يعيش النَّاس، ومن لم يملك، فعليه فريضة دائمة هو وغيره، وهي الحضُّ على إطعام المسكين.

وقد جاء في القرآنِ المكيِّ ثلاثُ آيات تُلْزِم بهذه الفريضة العامَّة:

أولاها: هذه الآية في سورة الحاقَّة، في بيان موجبات صَلْي الجحيم يوم القيامة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾.

والثانية: قوله تعالى في سورة الفجر، في مخاطبة مجتمع الجاهليَّة: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۞ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الفجر: ١٧، ١٨]. أي: لا يحـضُّ بعضكم بعضًـا على طعام المسـكين، وهـذا من فرط جاهليتكم، الَّتي أنستكم التواصل بينكم، وأن يأخذ القوي بيد الضعيف، ولا ينسى الغنيُّ حقَّ الفقير.

والثالثة: قوله تعالى في سورة الماعون: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۞ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١ ـ ٣].

---

(١) تفسير الزمخشري (٦٠٥/٤).

نسخة مجانية
غير مخصص للطباعة
QaradawiBooks.com

إذا أردتَ أن تعرف الكافر الحقيقيّ، المكـذِّب بالدين وبالإيمان وبجزاء الآخـرة، فذلك يتمثَّل في رجليـن: الَّذي يَـدُعُّ اليتيم، ويدفعه بعنف، لانعدام الرحمة في قلبه، وكأنما هو إنسان لا حقَّ له لمجرَّد يُتْمِه.

والثاني: الَّذي يعيش لنفسه ولمتعته وأهله، ولا يهتمُّ بما يحتاجه الفقراء والمساكين والضعفاء من النَّاس الساغبين المحرومين، مع أن حضَّ الآخرين على إطعامهم ـ وخصوصًا إذا لم يكن ممَّن يملكون شيئًا لمساعدتهم ـ فرضٌ عليهم وعلى أمثالهم جميعًا، ومن أجل هذا فُرضت الجمعيات الخيرية العامة، الَّتي أول ما تقوم به الحضُّ على طعام المسكين.

روى الإمـام أبو عبيد في كتابه «الأموال»، عن أبـي الدرداء، أنَّه قال لامرأته أمِّ الدرداء: يا أمَّ الدرداء، إنَّ للهِ سلسـلةً لم تـزَلْ تغلي بها مراجلُ النار، منذ يومِ خَلَقَ اللهُ جهنَّمَ إلى يوم تُلْقَى في أعناق الناس. وقد نجَّانا الله مِن نصفِها بإيمانِنا بالله العظيم، فحُضِّي على طعام المسكين، يا أمَّ الدرداء.

قال أبو عبيد: أراد أبو الدرداء هذه الآية: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[1].

وهذه الآيات الَّتـي ذكرناها في تقرير فرضيـة الحضِّ على طعام المسـكين، ناطقة بأن المؤمنين يرحمـون ويتراحمـون جميعًا، وأنَّ الكافرين لا يرحمون ولا يتراحمون، لأنَّه تعالى قسَّـم الخلق صنفين، فجعل منهم صنفًا هم أهل اليمين، وصفهم بالإيمان فحسـب، بقوله سـبحانه: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾. وصنفًا منهم هم أهل الشـمال، وصفهم بالكفر بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

---

(١) الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام صـ ٤٣٨، تحقيق محمد خليل هراس، نشر دار الفكر، بيروت.

QaradawiBooks.com

وقال الإمام الرازي: «دلَّتِ الآية على أنَّ الكفَّار يُعاقبون على ترك الصَّلاة والزكاة، وهو المراد من قولنا: إنَّهم مخاطَبون بفروع الشرائع»(١).

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾

أي: ليس لهذا المحروم من الإيمان بالله، ومن الحضِّ على إطعام عباده المساكين، ليس له في الآخرة حميم، أي: قريب يدفع عنه، ويحزن عليه، لأنَّهم يتحامونه ويفرُّون منه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، وقوله تعالى عن أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١].

وذلك أنَّ الآخرة تنقطع فيها الروابط، فكلُّ إنسان لا يُسْأل إلَّا عن نفسه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣]، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٣ ـ ٣٧].

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾

وليس لهذا الكافر حين يدخل الجحيم طعام يأكله ويدخل جوفَه إلَّا من ﴿غِسْلِينٍ﴾، وهو غُسالة أهل النار، وهو ما يسيل منهم من القيح والصديد والدم إذا أصابهم العذاب، فهو يسيل منهم، ويتغذَّون به. نعوذ بالله من حالهم.

---

(١) تفسير الرازي (٣٠/٦٣٢).

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

ثم إنَّ الله تعالى ذكر لمَن يكون هذا الطعام فقال: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾، و﴿ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾: هم الآثمون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٨]، وقال: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: ١٦]. والمراد بالخاطئين هنا: المشركون. فالخاطئة غير المخطئة؛ لأنَّ الخاطئة: هي صاحبة الخطايا، يقال: خطئ الرجل، إذا تعمَّد الذنب. وهؤلاء هم المشركون. وقال بعضهم: يجوز أن يُراد: الَّذين يتخطَّون الحق إلى الباطل، ويتعدَّون حدود الله عز وجل.

القسم على حقِّيَّة القرآن:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٥٢].

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾

الأرجح في هذه الصيغة الَّتي تكرَّرت في القرآن الكريم: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١]، ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد: ١]، إلخ: أن: «لا» هنا نافية للقسم على ظاهرها، كأنَّه قال: «لا أقسم»، يعني: أنَّ الأمر لوضوحه وبيانه يستغني عن القسم.

والمراد بـ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾: ما يُرى وما لا يُرى من مخلوقات الله تعالى، فهو يعمُّ جميع الأشياء على الشمول؛ لأنَّها لا تخرج عن قسمين: مُبْصَر، وغير مُبصَر، فتشمل الخالق والخلق، والدنيا والآخرة،

QaradawiBooks.com

والمكشوفات والمغيَّبات، والأجسام والأرواح، والبشر والملائكة وكذلك الجن، وعالم الشهادة وعالم الغيب، والنعم الظاهرة والنعم الباطنة.

ولا شكَّ أن ما لا نبصره أكثر وأعظم كثيرًا ممَّا نبصره، فالله سبحانه فوق الخلق جميعا، والغيب أفضل من الشهادة، والملائكة أفضل من بني آدم، والروح أعظم من المادة.

وقد أفادتنا العلوم الحديثة باكتشاف كثير من العوالم الظاهرة في هذا الكون، وهي كثيرة جدًّا، عرفناها في عوالم الأفلاك، وفيما يبعُد عنا من هذه العوالم الكبيرة الَّتي فوقنا، ولكنا لم نعرف منها إلَّا القليل جدًّا، والباقي لا نعلمه، حتَّى قالوا: إنا لا نعلم إلَّا ثلاثة بالمائة (٣٪) من عالمنا الَّذي نعيش فيه، وسبعة وتسعون بالمائة (٩٧٪) نجهله تمامًا، وهو ما يسمُّونه بالثقب الأسود.

ولهذا علمنا القرآن أن هذا الكون واسع، ويتَّسع، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

ونقول بعد القيام من الركوع، كما علمنا رسولنا: «**اللهمَّ ربَّنا لك الحمد، ملءَ السماوات، وملءَ الأرض، وملءَ ما شئتَ من شيء بعد، أهل الثناءِ والمجد**»(١).

المقسم عليه القرآنُ قولُ رسولٍ كريم يبلِّغه عن المُرسِل، وهو الله:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

كان عرب الجاهليَّة المستكبرون عن الإيمان بمحمَّد، واتِّباع القرآن الَّذي يتلوه عليهم، وقد تحيَّروا في أمر محمَّد وما جاء به، فمنهم مَن

(١) رواه مسلم في الصلاة (٤٧٧)، وأحمد (١١٨٢٧)، عن أبي سعيد الخدري.

QaradawiBooks.com

يقول: هو ساحر. كالوليد بن المغيرة، ومنهم مَن يقول: هو شاعر. كأبي جهل، ومنهم مَن يقول: هو كاهن. كعقبة بن أبي معيط، ومنهم مَن يقول: جاء بأضغاث أحلام. ومنهم مَن يقول: أساطير الأوَّلين اكْتتبها محمد، ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، ومنهم مَن يُلخِّص تلك الحيرة والتخبُّط في كلمة واحدة: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤].

وقد ردَّ القرآن هذه الدعاوى والأكاذيب كلَّها، فليس القرآن واحدة منها، إنَّما هو كلام الله المنزل على محمَّد من ربِّه، ليس له إلَّا أن يحفظه ويبيِّنه للناس: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۞ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۞ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٤ ـ ٦]، ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۞ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۞ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٥ ـ ٧].

وفي هذه السورة كان القسم بالأشياء كلِّها: ما يُرى منها وما لا يُرى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۞ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

ومعنى ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾، أي: إيمانًا قليلًا تؤمنون. ومعنى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، أي: تذكُّرًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا تتذكَّرون. على أنَّ القلة بمعنى النفي، أي: لا تؤمنون، ولا تتذكَّرون أصلًا.

QaradawiBooks.com

قيل: ذُكِرَ «الإيمانُ» مع نفي الشاعريَّة، و«التذكُّر» مع نفي الكهانة؛ لأنَّ عدمَ مشابهةِ القرآنِ الشعرَ أمرٌ بيِّنٌ لا ينكره إلَّا مُعاند، بخلاف مُبَاينتِه للكهانةِ، فإنَّها تتوقَّف على تذكُّر أحواله ﷺ، ومعاني القرآن المنافية لطريقة الكَهَنَةِ ومعاني أقوالهم.

الرسول الكريم في سورة الحاقَّة والتكوير:

والرسول الكريم هنا هو محمَّد ﷺ، وليس جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، على خلاف ما جاءت به سورة «التكوير»، وفيها أقسم الله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾ [التكوير: ١٧ ـ ٢٢]. فالواضح أنَّ المراد بالرسول الكريم هنا هو جبريل، كما يدلُّ سياق الآيات ومفهومها، وقد قال في السورة عن محمَّد ﷺ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾.

وأمَّا السياق في سورة الحاقَّة، فهو يتحدَّث عن محمد، بدليل ما بعده، فيقول سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾. وهذا أمر بيِّن لكلِّ مَن تأمله، فلم يقُل أحد عن جبريل: إنَّه شاعر أو كاهن.

القرآن كلام ربِّ العالمين:

وممَّا لا ريب في أنَّ القرآن هو كلام ربِّ العالمين، هو صاحبه وهو مُنزله، وليس لمحمد فيه إلَّا التلقِّي والبيان، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦].

وجبريل هو الروح الأمين، الَّذي نزل به من السماوات العلا على قلب محمد: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥].

QaradawiBooks.com

ومحمد هو الَّـذي وعاه وتَـلاه، وأظهره للخلق، ودعَـا النَّاس إلى الإيمان بـه، فهو الحُجَّة الأولـى، والمعجزة الكبـرى لنبوَّته، والبرهان والآيـة العظمـى على صـدق رسـالته: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

تأكيد وبيان لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، أي: إن هذا الرسول يقول هذا القـرآن، أي يقرؤه ويتلـوه وينطق به، وهـو تنزيل من ربِّ العالمين، نـزله الله سـبحانه من فوق سبع سـماوات، عن طريق الروح الأمين، وهو ما تكرَّر في القرآن في عدَّة سور بصيغة: «نـزل تنزيلًا» أو «أنـزل إنـزالًا»، فقال سبحانه في سـورة آل عمران: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣].

وقال في سورة المائدة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وفي سـورة الأنعام: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وفي سورة الأعراف: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف: ٣].

وفي سورة يوسف: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

وفي سورة الرعد: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ١].

وفي سورة إبراهيم: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

وفي سورة النحل: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

وفي سورة يس: ﴿يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [يس: ١ ـ ٥].

وفي سورة الزمر: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ١ ـ ٣].

وفي سورة غافر: ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر: ١، ٢].

وفي سورة فصلت: ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ١، ٢].

وفي أول سورة الدخان: ﴿حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ١ ـ ٣].

وفي أوائل سورتي الجاثية والأحقاف: ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجاثية: ١، ٢]، إلى غير ذلك من السور والآيات.

جزاء المفترين على الله عز وجل:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾

﴿تَقَوَّلَ﴾: افترى قولًا من عندِ نفسِه ونسَبه إلينا. وسَمَّى الافتراء: تقوُّلًا؛

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

لأنَّه قول مُتكلَّـف، والأقوال المفتراة: أقاويل؛ تحقيـرًا لها، كأنَّها جمع أُقْوُولة، من القول، كالأضاحيك جمع أُضحُوكة.

﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾، أي: بالقوة والقدرة، وعبَّر عنها باليمين؛ لأن قوَّة كل شيء في يمينه، كما قال الشمَّاخ:

إذا مـا رايـةٌ رُفعـتْ لمجْـدٍ تلقَّاهـا عُرابـةُ باليميـنِ[١]!

أي: بالقوَّة، وعُرابة: اسم رجل من الأنصار من الأوس، وقال آخر:

لمَّا رأيتُ الشـمسَ أشرقَ نورُها وأخذتُ منها حاجتي بيَمِيني[٢]!

وقال بعضهم: ﴿بِٱلۡيَمِينِ﴾، أي: بالحق، أو بالاستحقاق.

وقال الإمام القرطبي في تفسيره: «إنَّ هذا الكلام خرج مخرَج الإذلال، على عادة النَّاس في الأخذ بيد مَن يُعاقَب. كما يقول السلطانُ لمَن يريد هوانه: خُذُوا يديه. أي: لَأَمَرْنا بالأخذ بيده، وبالغنا في عقابه»[٣].

فقد أخبر سبحانه أنَّه لو تقوَّل عليه شيئًا من الأقاويل، لما أقرَّه، ولعاجله بالعقوبة، فإنَّ كَذِبًا على الله ليس ككذبٍ على غيره، ولا يليق به أن يقرَّ الكاذب عليه، فضلًا عن أن ينصره ويؤيِّده ويصدِّقه.

﴿ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾

﴿ٱلۡوَتِينَ﴾: نياط القلب، وهو عرق يجري في الظهر حتَّى يتَّصل

---

(١) البيت للشماخ بن ضرار الذبياني يمدح به عرابة ملك اليمن، انظر: ديوانه صـ ٣٣٦، تحقيق صلاح الدين الهادي، نشر دار المعارف.

(٢) عزاه عبد الملك المعافري إلى عمرو بن مضاض الجرهمي، انظر: التيجان في ملوك حمير صـ ١٩٥، تحقيق ونشر مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء، ط١، ١٣٤٧هـ.

(٣) تفسير القرطبي (٢٧٦/١٨).

QaradawiBooks.com

بالقلب، إذا انقطع بطلت القوى، ومات صاحبه. قال ابن قُتَيْبَةَ: «ولم يُرِدْ أنَّا نقطع ذلك العرق بعينه، ولكنَّه أراد: لو كذَّب لأمتناه أو قتلناه. فكان كمن قُطِع وتينه، قال: مثله قوله ﷺ: «**ما زالتْ أَكْلَةُ خيبرَ تُعَاوِدُني، فهذا أوان انقطاع أَبْهَرِي**»[١].

والأبهر: عرق يتَّصل بالقلب، فإذا انقطع مات صاحبه. فكأنَّه قال: هذا أوانُ يقتلني السّمُّ»[٢].

﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾

أي: ما منكم أيُّها النَّاس مَنْ يحجزه أو يمنعه عني، و﴿أَحَدٍ﴾ هنا في معنى الجمع، فلذلك نعته بالجمع، أي: فما منكم قومٌ يحجزون عنه، كقوله تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. هذا جمعٌ؛ لأن ﴿بَيْنَ﴾ لا تقع إلَّا على اثنين فما زاد.

القرآن تذكرة ينتفع به أهل التقوى:

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

أي: وإنَّ القرآن لتذكرة وتبْصرة لأهل التقوى، الَّذين يخشونَ ربَّهم ويخافون سوء الحساب. والأصل في القرآن أنَّه يذكر النَّاس جميعًا، ويهدي النَّاس جميعًا، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، لكنَّه في أول البقرة قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]. وكأنه يقول: أنتم النَّاس أيها

---

(١) علَّقه البخاري في المغازي (٤٤٢٨)، ووصله الحاكم في المغازي (٥٨/٣)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، عن عائشة.

(٢) تأويل مشكل القرآن صـ ١٠٠، تحقيق إبراهيم شمس الدين، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

QaradawiBooks.com

المتقون، فأنتم وحدكم الَّذين تنتفعون بما في القرآن من هداية ونور، كما قال شوقي: أنتم النَّاسُ أيُّها الشعراءُ[(١)]!

ومعنى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ أنَّه ـ كما قال ابن القيِّم ـ يتذكَّر به المتقي، فيبصر ما ينفعه فيأتيه، وما يضرُّه فيجتنبه، ويتذكَّر به أسماء الربِّ تعالى وصفاته وأفعاله، فيؤمن ويتذكَّر به ثوابه وعقابه، ووعده ووعيده، وأمره ونهيه، وآياته في أوليائه وأعدائه ونفسه، وما يزكِّيها ويطهِّرها ويعليها، وما يُدسِّيها ويخفيها ويحقرها، ويذكر به علم المبدأ والمعاد، والجنَّة والنار، وعلم الخير والشرِّ، فهو التذكرة على الحقيقة، تذكرة حجة للعالمين، ومنفعة وهداية للمتعلِّمين[(٢)].

غير مرخصة للطباعة

التنديد بالمكذبين بالقرآن:

﴿وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾

أي: مع هذا البيان والوضوح، سيوجد منكم مَن يكذِّب بالقرآن، وإنَّا لنعلم هذا، أي: لا يخفى علينا شيء من أمركم، وممَّا علمناه منكم: أن في الزوايا خبايا، وأن هذه الخبايا مكشوفة لنا تمامًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥]. فسنجازي هؤلاء المكذِّبين بتكذيبهم، وقد قال تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥]، ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٢].

---

(١) في همزيَّته: خدعوها بقولهم حسناء، انظر: الأعمال الشعرية الكاملة لأحمد شوقي (١١٢/٢)، نشر دار العودة، بيروت، ١٩٨٨م.

(٢) التبيان في أقسام القرآن صـ ١٩٠، تحقيق محمد حامد الفقي، نشر دار المعرفة، بيروت.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

القرآن حسرة على الكافرين حين لا ينفعهم التَّحسُّر:

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن، ﴿لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، في يوم القيامة، وكيف يكون القرآن حسرةً عليهم؟

إنهم إذا عاينوا حقيقة ما أخبر به، كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات حين لا ينفعهم التَّحسُّر، وهكذا كلُّ مَن كذَّب بحقٍّ، أو صدَّق بباطل، فإنه إذا انكشفت له حقيقة ما كذَّب به، أو صدَّق به، كان تكذيبه وتصديقه حسرةً عليه، كمَن فرَّط فيما ينفعه وقت تحصيله، حتَّى إذا اشتدَّت حاجته إليه، وعاين فوز المحصِّلين صار تفريطه عليه حسرة، كذلك قال الله في شأن الكفار: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾

مراتب اليقين في القرآن:

إنَّ هذا القرآن لحقُّ اليقين، كما يقال: «عين اليقين»، و﴿لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾، أي: حق لا بطلان فيه، ويقين لا ريب فيه. ثمَّ أُضيف أحد الوصفين إلى الآخر.

ومَن قرأ القرآن الكريم وتأمَّل سوره وآياته، يجدْ أنَّه ذكر مراتب اليقين كلَّها، وهي ثلاث: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين. وقد ذكرها العلَّامة ابن القيِّم في كتابه: «التبيان في أقسام القرآن»، كما ذكر قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥ ـ ٧].

QaradawiBooks.com

قال: «فهذه ثلاث مراتب لليقين:

أوَّلها: علمه، وهو التَّصديق التامُّ به، بحيث لا يعرض له شكٌّ ولا شبهة تقدح في تصديقه، كعلم اليقين بالجنَّة مثلًا، وتيقنهم أنَّها دار المتَّقين، ومقرُّ المؤمنين. فهذه مرتبة العلم، كيقينهم أنَّ الرسل أخبروا بها عن الله، وتيقنهم صدق المخبر.

المرتبة الثانية: عين اليقين، وهي مرتبة الرؤية والمشاهدة، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر: ٧]. وبين هذه المرتبة والَّتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة: فاليقين للسمع، وعين اليقين للبصر، وفي المسند للإمام أحمد مرفوعًا: «**ليس الخبرُ كالمعاينة**»[١]. وهذه المرتبة هي الَّتي سألها إبراهيم الخليل ربَّه أن يريه كيف يحيي الموتى؛ ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين، فكان سؤاله زيادة لنفسه، وطمأنينة لقلبه، فيسكن القلب عند المعاينة، ويطمئن لقطع المسافة الَّتي بين الخبر والعيان، وعلى هذه المسافة أطلق النبي ﷺ لفظ: «الشك»، حيث قال: «**نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم**»[٢]. ومعاذ الله أن يكون هناك شكٌّ منه، ولا من إبراهيم، وإنَّما هو عين بعد علم، وشهود بعد خبر، ومعاينة بعد سماع.

المرتبة الثالثة: مرتبة حق اليقين، وهي مباشرة الشيء بالإحساس به، كما إذا أدخلوا الجنَّة وتمتعوا بما فيها، فهم في الدنيا في مرتبة علم اليقين، وفي الموقف حين تزلف وتقرَّب منهم حتَّى يعاينوها في مرتبة عين اليقين، وإذا دخلوها وباشروا نعيمها في مرتبة حقِّ اليقين، ومباشرة المعلوم: تارة

(١) رواه أحمد (١٨٤٢)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح. عن ابن عباس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٧٢)، ومسلم في الإيمان (١٥١)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

يكون بالحواسِّ الظاهرة، وتارة يكون بالقلب، فلهذا قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾، فإنَّ القلب يباشر الإيمان به ويخالطه، كما يباشر بالحواس ما يتعلّق بها، فحينئذ يخالط بشاشته القلوب، ويبقى لها حق اليقين، وهذه أعلى مراتب الإيمان، وهي الصدِّيقيَّة الَّتي تتفاوت فيها مراتب المؤمنين.

وقد ضرب بعض العلماء للمراتب الثلاثة مثالًا، فقال: إذا قال لك مَن تجزِمُ بصدْقِه: «عندي عسل أريد أن أُطْعِمَك منه». فصدَّقته، كان ذلك علم يقين، فإذا أحضره بين يديك، صار ذلك عين اليقين، فإذا ذقته صار ذلك حق اليقين، وعلى هذا، فليست هذه الإضافة من باب إضافة الموصوف إلى صفته، بل من إضافة الجنس إلى نوعه، إن «العلم» و«العَيْن» و«الحقَّ» أعمُّ من كونها يقينًا، فأضيف العامُّ إلى الخاصِّ، مثل: «بعض المتاع»، و«كل الدراهم»، ولما كان المضاف والمضاف إليه في هذا الباب يصْدُقان على ذات واحدة، بخلاف قولك: «دار عمرو» و«ثوب زيد»، ظنَّ مَن ظنَّ أنَّها مِن إضافة الموصوف إلى صفته، وليس كذلك، بل هي من باب إضافة الجنس إلى نوعه، كـ «ثَوْبِ خَزٍّ» و«خاتم فِضَّة»، فالمضاف إليه قد يكون مغايرًا للمضاف، لا يصدُقان على ذات واحدة، وقد يجانسه، فيصدُقان على مسمًّى واحد، والله أعلم»[1].

الأمر بتسبيح الرب العظيم سبحانه:

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾

بهذه الآية الكريمة ختم الله تعالى هذه السورة، وهي جديرة بهذه الخاتمة، فقد أمر الله فيها بتسبيحه باسم الرب العظيم، وهو أهل لأن

(١) التبيان لابن القيم صـ ١٩١ ـ ١٩٣.

QaradawiBooks.com

يُسبَّح ويُحمَد، وقد جاء في القرآن بهذا التسبيح ثلاث عشرة (١٣) مرَّة، وهو أمر للنبي ﷺ، ولكلِّ مَن يصلح للأمر بعده، منها قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١]، وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٨]، وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

ومنها ما جاء بهذه الصيغ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]، جاء في سورة الواقعة وحدها مرتين بهذه الصيغة هذه هي الأولى، والثانية: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٥، ٩٦]، وآخر مرَّة جاء فيها الأمر بالتسبيح بهذه الصيغة كانت في هذه السورة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: ٥١، ٥٢].

كما جاء في ثلاث آيات أخرى الأمر بالتسبيح بصيغة المضمر، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠]، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩]، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦].

والتسبيح: هو تنزيه الله تعالى عمَّا لا يليق بكماله، ولذلك أمر به النبيَّ ﷺ، وأمر به المؤمنين جميعًا، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

وقد أُمر الرسول الكريم أن يسبِّح ربَّه حين تنزل به المِحن، وتضيق به الدنيا، فليلجأ إلى ذكر الله وتسبيحه وعبادته: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٩].

﴿ٱلْيَقِينُ﴾ هنا: هو الموت.

QaradawiBooks.com

كما أُمر عليه السلام أن يُسبِّح ربَّه ويحمده حين تنفتح لـه أبواب النصر، ويدخل النَّاس في دينه أفواجًا وجماعات، فقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١ ـ ٣].

روى الإمام أحمد بسنده، عن عقبة بن عامر الجهني، قال: لما نزلت: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]. قال لنا رسول الله ﷺ: «**اجعلوها في ركوعِكم**». أي: قولوا: سبحان ربِّي العظيم. فلما نزلت: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى: ١]. قال: «**اجعلوها في سُجُودِكم**»(١). أي: قولوا سبحان ربِّي الأعلى.

وروى التِّرْمِذي بسنده، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن قال: سبحانَ الله العظيم وبحمده، غُرِست له نخلةٌ في الجنَّة**»(٢).

وروى البخاري آخر حديث في كتابه، عن أبي هُرَيرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحانَ الله وبحمدِه، سبحانَ اللهِ العظيم**»(٣).

شهادته تعالى لنبيِّه محمَّد ﷺ:

ويحسن بنا أن ننقل هنا بعض ما كتبناه في تفسيرنا لسورة الرعد، من شهادة الله لرسوله محمد، وتأييده بالآيات الباهرات، وهو ما أقسم عليه

---

(١) رواه أحمد (١٧٤١٤)، وقال مخرِّجوه: إسناده محتمل للتحسين. وأبو داود في الصلاة (٨٦٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٨٧)، وضعَّفه الألباني في ضعيف أبي داود (١٥٢).

(٢) رواه الترمذي في الدعوات (٣٤٦٤)، وقال: حسن صحيح غريب. والحاكم في الدعاء (٥٠١/١)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٦٤).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٥٦٣)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٤)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

بمخلوقاته في هذه الآيـات على صدقه في دعوتــه، وأنَّه ﷻ خلَّى بين الرســول ﷺ، وبين دعوته، فإذا كان كاذبا، فكيــف تركه الله ﷻ يُضل الناسَ، ويفسد في الأرض؟!

وكيف فتح له القلوب لتتأثَّر به، وتتحمَّس له، وتنضمَّ إلى قافلته؟!

الله ﷻ لا يتــرك الضالَّ حتَّى يقصمه، يقــول ﷻ: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقـة: ٤٤ ـ ٤٧]. وهذا لو تقوَّل بعض الأقاويل، فكيف لو افتعل الرســالة كلَّها من أصلها؟! وكيف لو قال: إنَّه رسول الله، وما هو برسوله؟! يقول الله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وهو ســبحانه لا يهدي ظالمًا، فكيف بأظلم النَّـاس، وهو الَّذي يفتري على الله الكذب؟! وهل يترك الله هذا الأظلم، ويُخلِّي بينه وبين النَّاس يضلهــم؟! لا يُتصوَّر هذا ولا يكون؛ لأن تــرك الضالِّ المضلِّ ليس من ســنن الله أبدًا، وهو القائل ســبحانه: ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ [طـه: ٦١]، فالمفتري لا بدَّ أن يخيــب ولا يفلح: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١، ١٣٥، ويوسف: ٢٣، والقصص: ٣٧]، ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يونس: ٨٢]، كما قال موسى ﵇: ﴿مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

وإذن، فمجــرَّد التخلية بين محمَّــد وبين الناس: تعتبر شــهادة من الله ﷻ، فأما أن يؤيِّده بالمعجــزات، والآيات البيِّنات، وأعظمها القرآن، فهذه شهادة بعد شــهادة، وهي شهادة عملية: من ناحية المعجزات وفتح القلوب والعقول له، وهي شهادة قولية: من ناحية أنَّ القرآن كلام الله ﷻ.

QaradawiBooks.com

ومثل ذلك: تأييده ونصره على أعدائه، رُغم كثرتهم وقوّتهم، وقلّة أنصاره وضعفهم المادي، ففتح الله له فتحًا مبينًا، ونصره نصرًا عزيزًا.

ولذلك قال بعض الغربيين: ماذا تريد ممَّن يدَّعي لك أنَّه بنَّاء أكثر من أن يبني لك بناءً من السَّعة بحيث يسع الملايين، ومن المتانة بحيث يعيش مئات السنين. يقصد بهذا: الإسلام.

ويقول: إنَّ الباطل لا يمكن أن يستمرَّ، فمثل الباطل مثل ورقة «البنكنوت» ـ النقد ـ الزائفة، قد يمر من يدٍ إلى يدين أو أكثر، ولكنَّه لا يلبث أن يُضبط، ويُعرف أنَّه زائف، وأمَّا الحق فهو الَّذي يستمر.

ويقول: إن دين محمَّد يتبعه مئات الملايين من النَّاس، وأهله أشدُّ الخلق تحمُّسًا له من أي أصحاب دين في الأرض، إذن فهذا الدين لا يقوم على أكاذيب، ولكنَّه يقوم على حقائق.

وهذا المعنى قاله «توماس كارليل»، صاحب كتاب «الأبطال»، الَّذي قال في محمَّد: إنَّه «بطل في صورة رسول».

والنبوَّة هداية، فكيف لكاذب أن يهديَ النَّاس، وأن يُبصِّر الحائرين، ويُعلِّم الجاهلين، ويأخذ بأيدي النَّاس إلى الله، ويحشرهم في ساحته؟!

فهذا كلُّه يعتبر من شهادة الله ﷻ: ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [الرعد: ٤٣، الإسراء: ٩٦].

لو كان محمَّد كاذبًا، لقطع الله وتينه:

وفي سورة الحاقَّة يقول تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝

QaradawiBooks.com

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۝ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٤٧].

وفي هذه الآيات أقسم الله تعالى على صدق نبيِّه، وأنَّ القرآن كلام ربِّ العالمين، بلَّغه رسوله الكريم محمَّد ﷺ، أقسم على ذلك بالأشياء كلِّها وبالكون كلِّه: ما يُبْصَر منه وهو القليل، وما لا يُبْصَر وهو الكثير.

قال ابنُ القَيِّم: «وهذا القَسَم أعمُّ قَسَم وقع في القرآن؛ فإنه يعمُّ العلويَّات والسفليَّات، والدنيا والآخرة، وما يُرى وما لا يُرى، ويدخل في ذلك الملائكة كلُّهم، والجن والأنس، والعرش والكرسي، وكلُّ مخلوق، وكلُّ ذلك من آيات قدرته وربوبيَّته، وهو سبحانه يصرِّف الأقسام كما يصرِّف الآيات، ففي ضمن هذا القسم أن كلَّ ما يُرى وما لا يُرى آية ودليل على صدق رسوله، وأن ما جاء به هو من عند الله، وهو كلامه لا كلام شاعر، ولا مجنون، ولا كاهن.

ومن تأمَّل المخلوقات ما يراه منها وما لا يراه، واعتبر ما جاء به الرسول بها، ونقَّل فكرته في مجاري الخلق والأمر: ظهر له أنَّ هذا القرآن من عند الله، وأنَّه كلامه، وهو أصدق الكلام، وأنَّه حقٌّ ثابت، كما أنَّ سائر الموجودات ما يُرى منها وما لا يُرى حق. فكأنه سبحانه يقول: إنَّ القرآن حقٌّ، كما أنَّ ما تشاهدونه من الخلق وما لا تشاهدونه حقٌّ موجود، بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون لدلَّكم ذلك على أنَّ القرآن حقٌّ...

ثمَّ ذكر سبحانه المُقْسَم عليه، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، وهذا رسوله البشريُّ محمَّد ﷺ، وفي إضافته إليه باسم الرسالة أبين دليل أنَّه كلام المرسل، ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاء وابتداء لم يكن رسولًا.

QaradawiBooks.com

ثم بيَّن سبحانه كذب أعدائه وبهتهم في نسبة كلامه تعالى إلى غيره، وأنَّه لم يتكلَّم به، بل قاله من تلقاء نفسه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۞ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢]»[(١)].

ثم أخبر سبحانه أنَّه: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وذلك يتضمَّن أمورًا منها:

أنَّ ربوبيَّته الكاملة لخلقه تأبى أن يتركهم سُدًى: لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يرشدهم إلى ما ينفعهم، ويُحذِّرهم ما يضرُّهم، بل يتركهم هملًا بمنزلة الأنعام السائمة، فمَن زعم ذلك لم يقدر ربَّ العالمين قدْرَه، ونسبه إلَّا ما لا يليق به تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

ثم أقام سبحانه البرهان القاطع على صدق رسوله، وأنَّه لم يتقوَّل عليه فيما قاله، وأنَّه لو تقوَّل عليه لما أقرَّه، ولعاجله بالإهلاك، فإن كمال علمه وقدرته وحكمته يأبى أن يُقرَّ مَن تقوَّل عليه، وافترى عليه، وأضلَّ عباده، واستباح دماء من كذَّبه وحريمهم وأموالهم، وأظهر في الأرض الفساد والجَور والكذب، وخالف الخلق، فكيف يليق بأحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، وأقدر القادرين، أن يقرَّه على ذلك؟

بل كيف يليق به أن يؤيِّده وينصره ويعليه ويظهره، ويظفره بأهل الحقِّ: يسفك دماءهم، ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم، قائلًا: إنَّ الله أمرني بذلك وأباحه لي؟!

بل كيف يليق به أن يُصدِّقه بأنواع التَّصديق كلِّها، فيصدِّقه بإقراره، وبالآيات المستلزمة لصدقه، الَّتي دلالتها على التصديق كدلالة التصديق بالقول وأظهر، ثمَّ يصدِّقه بأنواعها كلِّها على اختلافها، فكلُّ آية على انفرادها

(١) التبيان لابن القيم صـ ١٧٥، ١٧٦.

QaradawiBooks.com

مصدِّقة له، ثمَّ يحصــل باجتماع تلك الآيات تصديق فــوق تصديق كلِّ آية بمفردها، ثمَّ يُعجز الخلق عن معارضتــه، ثمَّ يصدِّقه بكلامه وقوله، ثمَّ يقيم الدلالة القاطعة على أن هذا قوله وكلامه، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله.

فمن أعظم المحــال، وأبطل الباطل، وأبين البهتــان: أن يجوز على أحكم الحاكمين، وربِّ العالمين أن يفعل ذلك بالكاذب المفترى عليه، الَّذي هو شرُّ الخلق على الإطلاق.

فمن جوَّز على الله أن يفعل هذا بشــرِّ خلقه وأكذبهم، فما آمن بالله قطعًا، ولا عرف الله، ولا هذا هو ربُّ العالمين، ولا يحســن نسبة ذلك إلى مَن له مَســكة من عقل وحكمة وحِجًى، ومَن فعل ذلك فقد أزرى بنفسه، ونادى على جهله»[1].

مناظرة بين ابن القيِّم وأحد أحبار اليهود:

وقد ذكر ابن القيِّم هنا وفــي عدد من كتبه مناظرة جرَتْ له في مصر مع أكبر من يشير إليه اليهود بالعلم والرياســة، قال: «فقلتُ له في أثناء الكلام: أنتم بتكذيبكم محمَّدًا ﷺ قد شتمتم الله أعظم شتيمة. فعجِب من ذلك وقال: مثلك يقول هذا الكلام؟ فقلتُ له: اسمع الآن تقريره:

إذا قلتم: إنَّ محمَّدًا ملك ظالم، قهر النَّاس بسيفه، وليس برسول من عند الله، وقد أقام ثلاثًا وعشــرين ســنة يدَّعي أنَّه رسول الله، أرسله إلى الخلق كافَّة، ويقول: أمرني الله بكذا، ونهاني عن كذا، وأوحي إليَّ كذا. ولم يكن من ذلك شــيء. ويقول: إنَّه أباح لي ســبْي ذراري من كذَّبَني وخالفني. ولم يكن من ذلك شــيء، وهو يدأب في تغيير دين الأنبياء،

(١) التبيان في أقسام القرآن صـ ١٧٥ ـ ١٨٠.

QaradawiBooks.com

ومعاداة أممهم، ونسخ شرائعهم، فلا يخلو: إمَّا أن تقولوا: إنَّ الله ﷻ كان يطلع على ذلك ويشاهده ويعلمه. أو تقولوا: إنَّه خفي عنه ولم يعلم به.

فإن قلتم: لم يعلم به. نسبتموه إلى أقبح الجهل، وكان مَن علم ذلك أعلم منه.

وإن قلتم: بل كان كلُّه بعلمه ومشاهدته واطِّلاعه عليه. فلا يخلو: إما أن يكون قادرًا على تغييره، والأخذ على يديه، ومنعه من ذلك، أو لا.

فإن لم يكن قادرًا، فقد نسبتموه إلى أقبح العجز المنافي للربوبية.

وإن كان قادرًا، وهو مع ذلك يعزُّه وينصُره ويؤيِّده، ويعلِّيه ويُعلي كلمته، ويجيب دعاءه، ويُمكِّنه من أعدائه، ويظهر على يديه من أنواع المعجزات والكرامات ما يزيد على الألف، ولا يقصده أحد بسوء إلَّا ظفر به، ولا يدعوه بدعوة إلَّا استجابها له، فهذا من أعظم الظلم والسَّفَه، الَّذي لا يليق نسبته إلى آحاد العقلاء، فضلًا عن ربِّ الأرض والسماء، فكيف، وهو يشهد له: بإقراره على دعوته، وتأييده بكلامه، وهذه عندكم شهادة زور وكذب؟!

فلما سمع اليهودي ذلك، قال: معاذ الله أن يفعل الله هذا بكاذبٍ مفترٍ! بل هو نبيٌّ صادق مَن اتبعه أفلح وسعد.

قلتُ: فما لك لا تدخل في دينه؟

قال: إنَّما بُعث للأميين، الَّذين لا كتاب لهم، وأمَّا نحن فعندنا كتاب نتبعه.

قلتُ له: غُلبتَ كلَّ الغَلَب، فإنه قد علم الخاصُّ والعامُّ: أنَّه أخبر أنَّه رسول الله إلى جميع الخلق، وأنَّ مَن لم يتَّبعْه، فهو كافر من أهل

QaradawiBooks.com

الجحيم، وقاتل اليهود والنصارى ـ وهم أهل كتاب ـ وإذا صحَّت رسالته وجب تصديقه في كلِّ ما أخبر به. فأمسك ولم يُحِرْ جوابًا»[(١)].

هذا هو نصر الله الَّذي وعد به رسوله محمَّدًا ﷺ، وفاضت به سور القرآن، ونطقت به آياته البيِّنات، وقد امتلأ قلب محمَّد إيمانًا به، وأملًا فيه، ولم يتسرَّب إلى قلبه في لحظة من اللحظات ذرَّة من شكٍّ في أنَّ الله ناصره على عدوِّه، ومؤيِّده على مُكذِّبيه، فهو وعد الله الَّذي لا يتخلَّف، وسنة الله الَّتي لا تتبدَّل: أن تكون العاقبة لرسله، والهلاك لأعدائهم: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

ثقة رسول الله ﷺ بنصر الله:

وقد مرَّت بمحمَّد مِحنٌ وأزماتٌ تشيب من هولها ناصية الوليد، وأحاطت به أحداث رهيبة، ابتُلي فيها المؤمنون، وزلزلوا زلزالًا شديدًا، وبلغت القلوب الحناجر، وظنَّ النَّاس بالله الظنون، ولو لم يكن موقنًا كلَّ اليقين بدعوته، واثقًا كلَّ الثقة بنصرته، لخارت قواه، أو ارتاب فؤاده، أو ـ على الأقل ـ سكت حتَّى تمرَّ الأزمة، وتهدأ العاصفة، وتنقشع سحابة المحنة. كلا، إنَّه كان في أشد الأوقات حلوكةً وظلامًا، يردِّد آيات النصر، ويعلن أنَّ الله مؤيِّد كتابه، ومظهر دينه، ومهلك عدوه، وأن أرجى ما يكون النصر إذا استحكمت حلقات الخطوب، وتراكمت ظلمات الكروب، وهجم اليأس بعسكره على القلوب، ألم يقرأ في آيات كتابه العزيز: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]،

(١) هداية الحيارى لابن القيم (٢/٣٨٤ ـ ٣٨٥)، تحقيق محمد أحمد الحاج، نشر دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

QaradawiBooks.com

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠]؟

وفي السيرة المحمديَّة مصداق ما نقول: ففي مكة ظلَّ محمَّد رسول الله ﷺ، ثلاثة عشر عامًا، يدعو إلى الله، ويربِّي الجيل الأول، وقاسى هو وصحبه من الإيذاء والتعذيب والصَّدِّ والمقاطعة ما قاسَوا، حتَّى أُخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حقٍّ إلَّا أن يقولوا: ربنا الله. وعاشوا بعد الهجرة في صراع دامٍ، وجهادٍ مُتَّصل، فقد رمتهم العرب عن قوس واحدة، وبعد سبع وعشرين غزوة، وبضع وخمسين سريَّة، جاء نصر الله والفتح، ودخل النَّاس في دين الله أفواجًا، وعلت كلمة الله على كلمة الطاغوت.

علامَ يدلُّ هذا النصر والتأييد، والفتح الَّذي ظفر به محمد؟

ذلك النصر الَّذي لم يخرجه عن اليقين بحصوله في أحلك الأزمات، وأحرج الساعات؛ ذلك النصر الَّذي جاءه بعد أن أخرجه قومه من داره، واضطهدوه وأتباعه، وتمالأت عليه الوثنية الفاجرة، واليهودية الماكرة، علامَ يدلُّ هذا؟ وماذا نسمِّيه؟

يدلُّ هذا على أنَّ محمَّدًا الَّذي أيَّده الله بنصره، وأمدَّه برُوح من لدنه: رسول من عند الله، صدَّقه الله بهذا النصر، كما صدَّق المرسلين قبله، ونسمِّي هذا ـ كما سمَّاه القرآن ـ شهادة من الله لمحمد بأنَّه صادق فيما يقول وفيما يبلغ عنه، ليس بكاذب ولا ضالٍّ ولا غاوٍ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١ ـ ٤].

ولو كان محمدٌ كاذبًا في نبوَّته مفتريًا على ربِّه، منتحلًا ما ليس له، ما خلَّى الله بينه وبين عباده يضلُّهم ويغويهم، ويكذب عليهم، ويكلِّفهم

QaradawiBooks.com

ما لم يكلفهم الله به، فضلًا عن أن يؤيِّده بالآيات البينات، ويفتح له القلوب، ويُخضع له الرقاب، ويُمكِّن له في الأرض، ويصدِّقه في تحديه، ويحقِّق له نبوءاته، ويذلِّل له العقبات، ويُهيِّئ لدعوته أسباب الفلاح.

فليس من حكمة الله تعالى أن يترك الكذَّابين المفترين عليه، دون أن يهلكهم أو يفضحهم، ويبيِّن حقيقة أمرهم على ملأ النَّاس، فإن سنة الله أن يُحقَّ الحقَّ ويبطل الباطل، وليس من سنَّته أبدًا أن يبطل الحقَّ ويظهر الباطل.

ولهذا ذكر القرآن على لسان موسى حين جاء سحرة فرعون يتحدونه، وألقوا حبالهم وعصيهم وسحروا أعين النَّاس واسترهبوهم، قال موسى: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]، وجاء في القرآن: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٨].

ويقول الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الصف: ٧]، ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١].

وجاء في سورة الشورى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [٢٤].

فمعنى ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾: إن يشأ الله يُنْسِكَ القرآن، ويقطع عنك الوحي ـ كما جاء عن الْمُفسِّر المعروف قتادة[1] ـ فكان هذا جوابًا لهم، وتكذيبًا لقولهم: إن محمَّدًا كذب على الله، افترى عليه هذا القرآن.

(١) تفسير الزمخشري (٤/٢٢٢).

QaradawiBooks.com

فأجابهم بأحسن جواب، وهو أنَّ الله تعالى قادر لا يعجزه شيء، فلو كان كما تقولون لختم على قلبه، فلا يمكنه أن يأتي بشيء منه، بل يصير القلب كالشيء المختوم عليه، فلا يوصل إلى ما فيه، فيعود المعنى إلى أنَّه: لو افتراه عليَّ لم أمكِّنه ولم أقرَّه.

ومعلوم أنَّ مثل هذا الكلام ـ الَّذي هو القــرآن ـ لا يصدر من قلب مختوم عليه؛ فإن فيه من علوم الأولين والآخرين، وعلم المبدأ والمعاد، والدنيا والآخرة، والعلم الَّذي لا يعلمــه إلَّا الله، والبيان التام، والجزالة والفصاحة والجلالة، والإخبار بالغيوب، ما لا يمكن مَن خُتم على قلبه أن يأتي به ولا ببعضه. فلولا أنِّي أنـزلته على قلبه، ويسَّــرته بلسانه، لما أمكنه أن يأتيكم بشيءٍ منه[1].

ولنقرب ذلك إلى الأذهــان بمثل نضربه: هــبْ أنَّ رجلًا ذهب إلى إقليم من أقاليــم مملكة، وادَّعى لأهلها أنَّه منــدوب الملك إليهم، وأنَّه مفوَّض من قِبَلــه، ونُصِّب عليهم. وقد أخذ فعلًا يباشــر ســلطانه يأمر وينهى، ويجْبي الأموال، ويقيم العقوبات، ويُخضِع الرقاب. والملك قد عرف دعــواه، وعلم بقصَّته، ومع هذا ســكت عليه، وخَلَّــى بينه وبين الرعية، وكان قادرًا بما عنده من عُدَّة وعــدد أن يبعث إليه من يزيله عن ســلطانه، ويبين للناس كذبه وتضليله ـ إن كان كاذبًا مضلًّا ـ ولكنَّه لم يفعل، بل هيَّأ له كلَّ أســباب النجاح والانتصــار، وأزال من طريقه كلَّ الموانع، ومكَّنه من أعناق معارضيه، وبعث له بالمدد بعد المدد. أفليس هذا دليلًا أوضح دليل، وبرهانًا أنصع برهان، على صدق هذا الرجل فيما ادَّعى به على الملك؟

(١) التبيان لابن القيم صـ ١٨٥، ١٨٦.

QaradawiBooks.com

هذا الدليل كافٍ كلَّ الكفاية في إثبات النبوَّة المحمديَّة، لكلِّ من كان يؤمن بالله العلي الكبير، ويؤمن بهيمنته على الكون، وحسن تدبيره له، وسُموِّ حكمته، وكمال عدله وبره بخلقه.

ومن لم يكن مؤمنًا بإلهٍ للكون، فيكفي أن يكون مؤمنًا بما في الكون من سنن عادلة، وما للحياة والطبيعة من صدق.

شهادة المنصفين من أهل الكتاب:

وهذا ما وضحه الفيلسوف البريطاني «توماس كارلايل» في كتابه «الأبطال»، حين عقد المحاضرة الثانية من كتابه للبطل في صورة رسول، فاختار بطله «محمَّدًا» ﷺ.

قال الفيلسوف البريطاني «كارلايل»: «لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدين في هذا العصر أن يُصغي إلى ما يظنُّ من أن دين الإسلام كذب، وأنَّ محمَّدًا خدَّاع مزوِّر، وآن لنا أن نحارب ما يُشاع من هذه الأقوال السخيفة المُخجلة؛ فإنَّ الرسالة الَّتي أبداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنًا لنحو مائتي مليون(١) أمثالنا، خلقهم الله الَّذي خلقنا! أكان أحدكم يظنُّ أن هذه الرسالة الَّتي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر أكذوبة وخدعة؟! أمَّا أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبدًا. فلو أنَّ الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج، ويصادفان منهم ذلك التصديق والقبول، فما النَّاس إلَّا بُلهٌ ومجانين، وما الحياة إلَّا سُخف وعبث وأضلولة، كان أولى بها ألا تُخلق»(٢).

---

(١) هم الآن قاربوا ألفي مليونٍ من النَّاس.

(٢) الأبطال صـ ٥٤، ترجمة محمد السباعي، نشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط ٣، ١٩٣٠م.

QaradawiBooks.com

من ثمارهم تعرفونهم:

وفي إنجيل «متَّى»: «احذروا من الأنبياء الكذَبة، الَّذين يأتوكم بلباس الحِمْلان، وهم في الباطن ذئابٌ خاطفة، من ثمارهم تعرفونهم، هل يُجْتَنى من الشوك العنب؟! ومن العوسج التين؟! هكذا كلُّ شجرةٍ صالحةٍ تثمر ثمرًا جيدًا، والشجرة الفاسدة تثمر ثمرًا رديئًا، لا تستطيع شجرة صالحة تثمر ثمرًا رديئًا، ولا شجرة فاسدة أن تثمر ثمرًا جيدًا، كل ثمرة لا تثمر ثمرًا جيدًا تُقطع وتُلقى في النَّار، فمن ثمارهم تعرفونهم»[1].

هذا كلام تلوح عليه أنوار النبوَّة، ويجدر بكلِّ مسيحي، بل بكلِّ عاقل أن يتأمَّل فيه:

فهو ـ أولًا ـ لم يغلق باب النبوة من بعده، ولم يقُل: إنَّه خاتم النبيين، فكلُّ مَن ادَّعى النبوة بعده فهو كاذب دجَّال، كلا، وإنَّما حذَّر فقط من المتنبئين الكذَّابين.

ثم هو ـ ثانيًا ـ قد وضع في أيدي اتباعه، بل في يدي كلِّ عاقل ميزانًا سليمًا يمكن أن يعرف به الأدعياء الدجَّالين من الأنبياء الصادقين: ومن ثمارهم تعرفونهم.

فما أشبه نفس الإنسان بالشجرة، وما أشبه أقواله وأعماله وأخلاقه بالثمرة!

فإذا أردنا أن نعرف حقيقة صاحب دعوة، ونكشف عن دخيلة نفسه، فلننظر بعين البصيرة فيما جاء به من أقوال، وما قام به من أعمال، وما تركه للناس من آثار؟!

(١) إنجيل متَّى (٢٠/١٥).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وهذا المعنى الكبير قد أثبتـه القرآن وأكدَّه في غير موضع منه معلنًا أنَّ الكاذب على الله لا يفلح، وأنَّ الله لا يهديه؛ لأنَّه تعالى لا يهدي القوم الظالمين، ولا يصلح عمل المفسدين، ولا يهدي مَن هو مسرف كذَّاب، وليس من سنته تعالى أن يؤيِّد الكذب على الصدق، وينصر الباطل على الحقِّ، بل من سنته أن يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، وأن يخيب المفتري، ويفضح المنافق الدجال: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨].

وقد يـروج الكذب فترة من الزمـن، ويملي الله للـكاذب حينًا من الدهر، ثمَّ سرعان ما يأخذه الله أخْذه الأليم الشديد، فيكشف ستره، ويبيد من الأرض ذكره، ويجعله سلفًا ومثلًا للآخرين.

نقول: هذا المعنى الكبير قد أثبتته نصوص كثيرة من أسـفار العهد الجديد المقدسـة عند النصارى، وأسـفار العهد القديم المقدسـة عند الطائفتين: النصارى واليهود.

ففي الزبور الأول من العهد القديم آية (٧): «لأنَّ الربَّ يعرف طريق الصِّديقين، وطريق المنافقين تهلك».

وفي الزبور الخامـس (٦): «وتهلك كُلَّ الَّذيـن يتكلَّمون بالكذب، الرجل السافك الدماء والفاسق يرذله الربُّ».

وفي الزبور الرابع والثلاثيـن (١٦): «وجه الربِّ على الَّذين يعجلون المساوئ؛ ليبيد من الأرض ذِكْرُهم».

وفي الزبور السـابع والثلاثين (١٧): «لأنَّ سـواعد الخطاة تُكسـر، والربُّ يعضد الصِّدِّيقين».

QaradawiBooks.com

وفيه (٣٠): «الخطـاة فيَهْلِكون، وأعداء الـربِّ جميعًا ـ إذ يُمجَّدون ويرتفعون ـ يبيدون، وكالدخان يَفْنَون».

فلو لم يكـن محمَّدٌ من الصِّدِّيقين، وكان مـن الخُطاة وأعداء الربِّ المفترين عليه، لأنجز الله فيه هذا الوعيد، وأعمل فيه هذه السنن الإلهيَّة الصارمة، فأهلك طريقه وطمسـها، وجعله مرذولًا مدحـورًا، وأباد من الأرض ذكره، وكسر سواعده، وأفناه كالدخان!!

ولما كان أمر محمَّد بعكس هذا كله، وإنَّما هو الفتح المبين، والنصر العزيـز: فتْحُ القلوب بالإيمـان، وكثرة الأتباع، وفتـح البلدان والقرى، وخضوع المستكبرين، وإنَّما هو النصر العزيز: النصر على الوثنية، وعلى المجوسـية، وعلى اليهودية، وعلى النصرانية، وإنَّما هو الذكر المرفوع: تُصلِّي آلاف الألسنة، بل ملايينها على محمَّد حبيبها وشفيعها وهاديها، في الصلوات والأذان والإقامة، وسائر الاذكار والدعوات:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ خَلَّـدَ ذِكْـرَهُ إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ أَشْهَدُ؟!
وَشَـقَّ لَـهُ مِـنِ اسْـمِهِ لِيُجِلَّـهُ فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ، وَهَذَا مُحَمَّدُ[1]!

قال الشيخ العلَّامة «رحمة الله الهندي» في كتابه القيِّم «إظهار الحق»: «إنَّه عليه السلام ادَّعى بين قومٍ لا كتاب لهم، ولا حكمـة فيهم: أنِّي بُعِثْتُ من عند الله بالكتاب المنير والحكمة الباهرة، لأنوِّر العالم بالإيمان والعمل الصالح، وانتصب ـ مع ضعفـه وفقره، وقلَّة أعوانه وأنصـاره ـ مُخالفًا لجميع أهل الأرض: آحادهم وأوساطهم، وسلاطينهم وجبابرتهم، فضلَّل آراءهم، وسـفَّه أحلامهم، وأبطل مللهم، وهدم دولهم، وظهر دينه على

(١) البيتان لحسان بن ثابت، في ديوانه صـ ٥٤، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

الأديان في مدَّة قليلة، شرقًا وغربًا، وزاد على مرِّ الأعصار والأزمان، ولم يقدر الأعداء ـ مع كثرة عددهم وعددهم، وشـدَّة شوكتهم وشكيمتهم، وفرط تعصبهم وحميتهم، وبذلهم غاية جهدهم ـ إطفاء نور دينه، وطمس آثار مذهبه. فهل يكون ذلك إلَّا بعوْن إلٰهي، وتأييد سماوي؟!

ولنعم ما قـال «عمالائيل» معلم اليهود لهم فـي حقِّ الحواريين من أصحاب عيسى عليه السلام «الباب الخامس من كتاب الأعمال»: «يا أيُّها الرجالُ الإسرائيليُّون! احترزوا لأنفسكم من جهة هؤلاء النَّاس ـ يقصد الحواريِّين ـ فيما أنتم مُزْمِعون أن تفعلوا؛ لأنَّه قبل هذه الأيام قام «ثوداس» قائلًا عن نفسه: إنَّه شيء. الَّذي التصق به عدد من الرجال نحو أربعمائة، الَّذي قُتِلَ وجميع الَّذين انقادوا إليه تبدَّدوا وصاروا لا شيء.

بعد هذا قام «يهوذا الجليلي» في أيام الاكتتاب، وأزاغ وراءه شـعبًا غفيرًا، فذاك أيضًا هلك، وجميع الَّذين انقادوا إليه تشـتَّتوا، والآن أقول لكم: تنحَّـوا عن هؤلاء النَّاس واتركوهم؛ لأنَّـه إن كان هذا الرأي وهذا العمل مـن النَّاس فسـوف ينتقـض، وإن كان من الله فلا تقـدرون أن تنتقضوه؛ لئلا توجدوا محاربين لله أيضًا (٣٦ ـ ٣٩)»[١]. اهـ

وهذا الَّذي قاله المعلِّم اليهودي حقٌّ ناصع أيدته وقائع التاريخ، فكم من مدَّعين دجَّاليـن هلكوا، وبـاد ذكرهم، وتشـتت أتباعهم، وذهبت دعوتهم، كأن لم تكن شيئًا مذكورًا.

وقد أدرك بعض مشركي قريش هذه الحقيقة بما بقي في فطرتهم من نور الله، ففي إحدى معارك المشـركين مع الرسـول جاء مندوب قبيلة

(١) إظهار الحق (١٠٧٤/٤، ١٠٧٥)، تحقيق محمد ملكاوي، نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية، السعودية، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

QaradawiBooks.com

عربية (غفار) إلى قريش، يعرض عليهم المساعدة العسكرية بالسلاح والرجال لحرب محمَّد وأصحابه، فقال أحد المشركين العقلاء كلمة عاقلة ما أشبهها بكلمة «عمالائيل» لليهود، قال: أمَّا إن كُنَّا نحارب محمَّدًا وأصحابه، فإنَّهم قلَّة، وإنَّا عليهم لقادرون، وإنْ كنَّا نحارب الله ـ كما يزعم محمَّد ـ فما لأحدٍ بحرب الله من طاقة.

وقد بان للقوم أنَّهم لم يكونوا يحاربون محمَّدًا وأتباعه القليلين، وإنَّما كانوا يحاربون الله ﷻ، فحقَّت عليهم الغلبة والهزيمة، وهذا ما جعل فرسان قريش ودهاتها يهاجرون باختيارهم إلى محمد، معلنين إسلامهم، وانضمامهم بقلوبهم وسيوفهم للدين الجديد، فهذا خالد بن الوليد، وهذا عمرو بن العاص، ينضمان إلى معسكر محمَّد وأصحابه[1].

❊ ❊ ❊

(١) انظر كتابنا: تفسير سورة الرعد صـ ٢٩٦ ـ ٣٠٨، نشر مكتبة وهبة، ط ١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

سورة المعارج

أغراض السورة:

هذه السورة مكيَّة، كما هو مبيَّن من أسلوبها وآياتها وموضوعها وقوارعها. وهي تهتمُّ بما تهتمُّ به السور المكية عادة، من تقرير الأصول والقواعد العقيدية والأخلاقية، وخصوصًا عقيدة الإيمان بالآخرة، والجزاء بها حَسَب الإيمان والعمل، وكيف يودُّ المجرم يوم القيامة لو يفتدي من عذاب هذا اليوم بأعزِّ النَّاس عليه، وأحبِّ النَّاس إليه، ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١١ ـ ١٤].

ثمَّ بينت السورة طبيعة الإنسان الهلوع الَّذي يجزع عند الشرِّ، ويمنع عند الخير، إلَّا أصحاب الإيمان، من المداومين على الصلاة والإنفاق، والتصديق بالآخرة، والخوف من عذاب الله، والعِفَّة عن الحرام، ورعاية الأمانات والعهود، والقيام بالشهادة بالحقِّ، والمحافظة على الصلاة، فهذه هي صفات الَّذين يستحقُّون إكرام الله لهم في الجنة.

ثمَّ خُتمت السورة بمناقشة للكفرة المنكرين للآخرة، الطامعين في جنات النعيم، وهم لم يؤمنوا بها، ومن ثَمَّ لم يعملوا لها، فالأَوْلى أن يُتركوا في لهوهم ولعبهم حتَّى يأتيهم من الله ما كانوا يوعدون.

نسخة مجانية

بداية تفسير السورة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾

فعل السؤال عادة ما يتعدى بحرف «عن» فيقال: سأل عن. وهنا تعدى بحرف الباء ﴿بِعَذَابٖ﴾، ولهذا قال المفسرون: إنَّ الفعل «سأل» ضُمِّن معنى «استعجل»، دلَّ عليه حرف الباء، فالمعنى: سأل سائلٌ مستعجِلًا بعذاب واقع.

﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾ هو واقع بهم لا محالة، ولا يستطيع كائن من كان أن يدفعه أو يرده، وهو كقوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧]. أي: وعذابه واقع لا محالة.

روى النسائي عن ابن عبَّاس، أنَّ السائل هو النَّضْر بن الحارث بن كِلْدة(١).

وروى العَوْفيُّ عن ابن عبَّاس ـ أيضًا ـ أنَّه قال: ذلك سؤال الكفَّار عن عذاب الله، وهو واقعٌ بهم(٢).

وقال بعضهم: إنَّ سأل هنا بمعنى دعا، ولهذا صحَّ أن يتعدَّى بالباء، أي: دعا داع بعذاب الآخرة، وهو شبيه قول الله على لسان كفَّار قريش: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢].

---

(١) رواه النسائي في السهو (١١٥٥٦)، والبزار (٥٠٩٨).

(٢) رواه الطبري في التفسير (٢٣/٥٩٦).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وهذا العذاب المسؤول عنه أو المدعُوُّ به: مُرْصدٌ للكافرين لا دافع له عنهم، إذا أراد الله وقوعه، وهو كائن لا محالة في الآخرة، ولهذا قال الله: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ هذا العذاب للكافرين واقع من الله العليِّ الكبير، صاحب المعارج. والمعارج: جمع مَعْرَج ـ بفتح الميم والراء بينهما عينٌ ساكنة ـ من عَرِجَ إذا صَعِد، فالمعارج هي عروج الملائكة بأعمال العباد وبأرواح المؤمنين وغيرها، أو المصاعد الَّتي تصعد فيها الملائكة بهذه الأشياء.

أو المراد من المعارج: ما يَعرُجُ فيها الكَلِمُ الطيِّب والعمل الصالح إلى الله، كما قال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

وفي سورة الزخرف قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: في الكفر ﴿لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣]. فالمعارج هي المصاعد والسلالم الَّتي يرقون فيها للصعود إلى الأعلى.

والمعنى: طلب طالب عذابًا هو واقع لا محالة، سواءً طلب أم لم يطلب. وذلك لأنَّ ذلك العذاب نازل للكافرين في الآخرة، واقع بهم لا يدفعه عنهم أحد.

﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ موصوف بالفوقية والعلو، فهو سبحانه أعلى من كلِّ شيء، وهذا منطقي؛ لأنَّ كلَّ شيء إنَّما هو مِن خلقه، ولا يعقل أن يكون المخلوق فوق خالقه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى: ١]. وقال

QaradawiBooks.com

تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. وهنا قال: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾، أي: تصعد وترقى الملائكة الكرام، وهم مخلوقات نورانية، فهم في عروج وصعود ورقي إلى الله تبارك وتعالى.

والروح هنا قد يكون المراد به جبريل عليه السلام، وهو الَّذي نزل بالقرآن على قلب محمَّد ﷺ، وبالكتب المقدَّسة الأخرى، ولذا قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٥]، ويكون ذكر جبريل هنا بمثابة عطف الخاصّ على العام، للتذكير بما فيه من المزايا الخاصة، الَّتي تجعله كأنَّه جنس وحده.

وقد ورد في أكثر من موضع من القرآن عطف الروح على الملائكة، كما في سورة القدر: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤]. وفي سورة النبأ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، وفي هذه الآية قدَّم الرُّوح على الملائكة، وهو من عطف العام على الخاص.

وقيل: الروح ملك آخر غير جبريل عليه السلام، فجبريل هو ملك الوحي، والروح غيره.

وقد يكون «الروح» هنا الروح الَّتي بفقدها تنتهي الحياة، قال ابن كثير: «ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بني آدم، فإنَّها إذا قبضت يُصعد بها إلى السماء، كما دلَّ عليه حديث البراء[1]. وهو حديث رواه أحمد وأصحاب السنن، عدا الترمذي، وهو حديث متكلَّم في بعض رواته»[2].

---

(١) إشارة إلى الحديث الطويل: خرجنا مع النبي ﷺ، في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر... رواه أحمد (١٨٥٣٤)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في السنة (٤٧٥٣)، والنسائي (٢٠٠١)، وابن ماجه (١٥٤٩)، كلاهما في الجنائز.

(٢) تفسير ابن كثير (٨/٢٢١).

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ هـذا أطول زمن مقـدَّر ذُكر في القرآن، فقـد ذُكر في القرآن: سـاعة من نهـار (يعني: لحظـة)، والفجر، والضحـى، والظهيـرة[1]، والعصر والعشـاء، والبُكْرة والأصيـل، والغداة والعشـي، والليل والنهار، والصباح والمساء، والشـتاء والصيف، وذكرت الطفولة والصِّبَا والشباب والشيخوخة في غير آية، وكذا أرذل العمر، وذكر القرآن ثلاثة أيام، وسبعة، وعشرة كاملة، وشهرًا، وثلاثة أشهر، وأربعة أشهر، وأربعة أشهر وعشرًا، وحولًا، وحولين كاملين، واثني عشر شهرًا، وخمسين عامًا، ومائة عام، وثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا، وألف سنة. أمَّا الأزمنة غير المقدرة فقد ذكر القرآن حينًا من الدهر، وذكر الخلود والأمد والأبد.

فما هو هذا اليوم الَّذي بلغ هذا المقدار الطويل فيما يرى الناس؟

ذكر المفسِّـرون فيه عدَّة أقوال، أرجحها أنَّه يوم القيامة، يوم الطامَّة الكبرى، ويوم الصاخَّة، ويـوم الحاقَّة، ويوم القارعة، ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

ولماذا يعرج الملائكة والروح إلى الله تعالـى في هذا اليوم الطويل بالنسبة لمقاييسنا ونظرنا نحن البشر؟

لا بدَّ أنَّ لهم مهام تشغلهم في هذا اليوم الهائل المخوف.

حال النَّاس في يوم القيامة:

هذا اليوم الَّذي يُبعث فيه الخلائق مـن قبورهم، ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾ [القمر: ٧]، يُحشـرون حفـاة عـراة غُـرلًا، كمـا ذكـر

(١) يعني قوله تعالـى: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ [النور: ٥٨]، وفي الآيـة أيضًا ذكر وقت العشاء وهو قوله تعالى: ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِ﴾.

QaradawiBooks.com

رسول الله ﷺ، قالوا: وينظر الرجال إلى النساء يا رسول الله؟ قال: «**الأمر أشدُّ من ذلك**»[١]. ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ ـ ٦]، زحام شديد، وعرقٌ أشد، وخوف أشدُّ وأشد، والسعيد من أظلَّه الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلَّا ظله، منْ أسعفه إيمانه بالله، وطاعته له، وإخلاصه العمل لوجهه، وخوفه من الوقوف بين يده، من: إمام عادل، وشابٌّ نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتَّى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجلين تحابَّا في الله ﷻ، اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه، ورجل دعته امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمال فقال: إنِّي أخاف الله تعالى، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه[٢].

في هذا اليوم يقضي الله بين النَّاس، فمنهم من يحاسب حسابًا يسيرًا، ومنهم من يحاسب حسابًا عسيرًا، ومنهم من يدخل الجنَّة بغير حساب، وهناك تطايُر الصحف، ووضْعُ الموازين، والمرور على الصراط، ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢]، ويُنهِي الله الفصل والميزان والحساب في هذا اليوم المقدَّر بخمسين ألف سنة بأيامنا ومقاييسنا البشريَّة.

قال الإمام الرازي: «واعلمْ أنَّ هذا الطول إنَّما يكون في حقِّ الكافر، أمَّا في حقِّ المؤمن فلا، والدليل عليه الآية والخبر، أمَّا الآية فقوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾ [الفرقان: ٢٤]. واتَّفقوا على أنَّ ذلك المَقِيل والمستقرُّ هو الجنَّة». وأمَّا الخبر، فذكر الحديث الَّذي رواه الإمام أحمد، عن أبي سعيدٍ الخُدْرِي مرفوعًا، أنَّه قيل لرسول الله ﷺ:

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٥٢٧)، ومسلم في الجنة (٢٨٥٩)، عن عائشة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٦٦٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٣١)، عن أبي هريرة. ومطلعه: «سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله».

QaradawiBooks.com

ما أطولَ هذا اليوم! فقال: «**والَّذي نفسي بيده، إنَّه ليخفَّفُ على المؤمن حتَّى يكون أخفَّ عليه من صلاةٍ مكتوبةٍ يُصَلِّيها في الدنيا**»[(١)](٢).

وفي سنده ابن لهَيعة، عن درَّاج، عن أبي الهَيْثم، ودرَّاجٌ وشيخُه ضعيفان بلا شكٍّ، فضلًا عما في ابن لَهِيعة من كلام.

أمر الرسول ﷺ بالصبر:

﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۞ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۞ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾

الخطاب للنبيِّ ﷺ، يأمره بالصبر، والصبر الجميل، وهو ما تكرَّر الأمر به في القرآن المكي للرسول الكريم ﷺ؛ لما تعانيه الدعوة إلى الإسلام من مشاقٍّ، وما تتطلَّبه المصابرة من عزم، وما يحتاج إليه المؤمنون من ثبات؛ لذلك ذكر القرآن أمر الله له بالصبر تسعَ عشرةَ مرَّة، كلُّها في القرآن المكي، مثل قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ [المدثر: ٨]. وقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ [المزمل: ١٠]. ومثل قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٧، ١٢٨].

وعندما تتعقَّد الأمور، وتضيق الصدور، وتتراكم الظلمات، ويتكاثر الباطل على الحقِّ، ويستكبر العدل على الظلم، ويقلُّ الَّذين آمنوا، ويكثر الَّذين كفروا، لا يكون هناك حلٌّ لهذه الكربات المتراكمة، والغمم المتكاثفة، إلَّا الاعتصام بالصبر. والصبر مرٌّ لا يتجرعه إلَّا حرٌّ، ولكن لا بدَّ منه، ومن فقد الصبر في أوقات الشدائد والمحن، فقد فَقَدَ كلَّ شيء؛

(١) رواه أحمد (١١٧١٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وأبو يعلى (١٣٩٠).
(٢) تفسير الرازي (٣٠/٦٣٩).

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

لأنَّه فقد المفتاح الَّذي تُحلُّ به العقَد، وتُعالج به المشكلات، وتداوى به الجراح والمصائب. ولهذا قال الله لرسوله ﷺ: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرًا جَمِيلًا﴾.

غير مرخصة للطباعة

الصبر الجميل:

والصبر الجميل هو: الصبر الَّذي لا يلحقه عتبٌ، ولا شكٌّ، ولا شكوى، ولا قلَّة رضا، ولا جزع. وقالوا: ثلاثة من الصبر: ألَّا تُحدِّث بما يوجعك، ولا بمصيبتك، وألَّا تزكِّي نفسك. وقد جاء ذكر الصبر الجميل في كلام يعقوب عليه السلام، حين قال لأبنائه: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]. وقال لهم مرَّة أخرى: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]. كما أمر الله رسوله بالهجر الجميل للمشركين، كما قال له: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]. وأمره الله تعالى في القرآن بالصفح الجميل: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

وقد سُئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذه الثلاث: الهجر الجميل، والصفح الجميل، والصبر الجميل، فقال: «الهجر الْجَمِيل: هجر بِلَا أَذًى، والصفح الْجَمِيل: صفح بِلَا عتاب، وَالصَّبْر الْجَمِيل: صَبر بِلا شكوى.

قَالَ يَعْقُوب عَلَيْهِ الصلاة والسلام: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]. مَعَ قَوْله: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، فالشكوى إِلَى الله لَا تنافي الصَّبْر الْجَمِيل، بخلاف الشكوى إلى المخلوقين»(١).

(١) دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية (٢/٢٩٤)، تحقيق د. محمد السيد الجليند، نشر مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط ٢، ١٤٠٤هـ.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

والجمال في هذه الآيات هو الجمال المعنوي، وهو يضاف إلى ما اهتمَّ به القرآن من الجمال الحسِّي والمادِّي في الكون، من السماء والأرض، وفي الإنسان، وفي الحيوان، وفي النبات، والقرآن ينوِّه ويُشيد بالجمال وبالحُسْن في ذلك كلِّه، ويعتبره آية من آيات الإبداع الإلهي، ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ [النمل: ٨٨]، ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾ [السجدة: ٧].

وقد أخبر النبي ﷺ، قال: «**إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمال**»(١). ولذا أمرنا أن نتجمَّل ونجمِّل الحياة في كلِّ شيء.

أي: اصبر يا محمَّد على تكذيب قومك لك، واستعجالهم العذاب استبعادًا لوقوعه، كقوله: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ﴾ [الشورى: ١٨].

ـ قُرب العذاب الَّذي أُنذِرَ به الكافرون:

﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا﴾ يعود الضمير في ﴿إِنَّهُمۡ﴾ على المشركين، الَّذين يواجههم القرآن بكلِّ ما ينزل من آيات، فهم يروْن العذاب أو يوم القيامة بعيد الوقوع، بمعنى أنَّه يستحيل الوقوع في نظرهم، ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ [ق: ٣].

﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾: لأنَّ أمره هيِّن علينا، ليس مستحيلًا، ولا صعبًا كما يظنون، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: ٢٧]، فليس بعيدًا علينا، ولا متعذِّرًا، ولا متعسرًا، بل هو في إمكان قدرتنا الَّتي لا يعجزها شيء، وهو آتٍ لا محالة، وكلُّ آتٍ قريب.

(١) رواه مسلم في الإيمان (٩١)، وأحمد (٣٧٨٩)، عن ابن مسعود.

QaradawiBooks.com

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾

هذا اليوم العظيم الَّذي ينتظره النَّاس، يوم تكون السماء كالمهل، في هذا اليوم ترى الكائنات الَّتي كانت موجودة في الدنيا، ولها كيانها وهيئاتها ونظامها، قد تغيَّرت وتبدَّلت. فهذه السماء الَّتي جعلها الله سقفًا محفوظًا، وزيَّن السماء الدنيا فيها بمصابيح، قد تغيَّرت وتغيَّر كلُّ شيء فيها وحولها، فالسماء انفطرت، والكواكب انتثرت، والشمس كُوِّرت، والبحار فُجِّرت أو سُجِّرت، والقبور بُعثرت، وأُخرِج كلُّ مَن كان فيها إلى ربِّهم. ولهذا وصف الله السماء في هذا اليوم العصيب بأنَّها تكون كالمهل. وقد وصف الله عذاب الظالمين في جهنَّم في سورة الكهف بقوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

ووصف الله طعام جهنَّم، الَّذي هو الزقوم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٤٦]. والمهل: هو ما أذيب من الحديد والنحاس والمعادن، ومن المفسرين من قال: المهل: دُرْدِيُّ الزيت (عَكَرُه وما يبقى في أسفله)، ومنهم من قال: المهل: عَكَر القَطِران، وكلُّها ممَّا يستعاذ بالله من شره.

ومعنى هذه الآيات: أنَّ السماء ـ أو السماوات ـ هذا الجرم العظيم، الَّذي وسعه الله ما شاء أن يوسعه، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، يصبح في هذا اليوم مادة مُذابة نارية حامية، لا يتحمَّلها مَن يصاب بها، حتَّى مَن يستغيث من أهل جهنم، فإنَّه يغاث

QaradawiBooks.com

بهذه المادة الملتهبة، فهو كالمستغيثِ من الرَّمْضَاءِ بالنَّارِ، كما يقول الشاعر العربي[(١)].

وهذه الجبال الشامخة الراسخة الهائلة، الله ينسفها نسفًا، فيذرها قاعًا صفصفًا (أي: أملسَ مستويًا)، لا ترى فيها عوجًا ولا أَمْتًا (أي: لا انخفاض فيها ولا ارتفاع)، كما قال الله في سورة الواقعة: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٤ ـ ٦]. وقال تعالى في سورة القارعة: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٤، ٥]. والعهن: هو الصوف المنفوش، الَّذي نفشته الرياح فطار في الجو، أي تصبح حبيبات متناثرة أو متراكمة.

قال الرازي: «ومعنى العِهْن في اللغة: الصوف المصبوغ ألوانًا، وإنَّما وقع التشبيه به؛ لأنَّ الجبال جُدَدٌ بِيض وحُمْر مختلِفٌ ألوانها وغرابيبُ سودٌ، فإذا بُسَّت وطُيِّرت في الجوِّ، أشبهت العِهْن المنفوش إذا طيَّرته الريح.

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ قال ابن عبَّاس: الحميم: القريب الَّذي يَعصِب له. وعدم السؤال إنَّما كان لاشتغال كل أحد بنفسه، وهو كقوله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢]. وقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧].

ثم في الآية وجوه:

أحدها: أن يكون التقدير: لا يسأل حميمٌ حميمَه: كيف حالك؟ ولا يكلمه؛ لأنَّ لكلِّ أحدٍ من أمر نفسه ما يشغله عن غيره.

---

(١) هو التِّكلام الضبعي. انظر: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال صـ ٣٧٧، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٧١م.

QaradawiBooks.com

الثاني: لا يسأل حميمٌ حميمًا شفاعة، ولا يسأل حميمٌ حميمًا إحسانًا إليه ولا رِفقًا به؛ لأنَّه يعلم أنَّ عند غيره ما يكفيه.

الثالث: لا يسأل حميمٌ عن حميمِه، فحذف الجار، وأوصل الفعل)[1].

قال ابن كثير: «أي: لا يسأل القريبُ قريبَه عن حاله، وهو يراه في أسوأ الأحوال، فتشغله نفسُه عن غيره.

قال العَوْفي عن ابن عبَّاس: يعرف بعضهم بعضًا، ويتعارفون بينهم، ثمَّ يفرُّ بعضهم من بعض بعد ذلك، يقول: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧][2].

وهذه الآية الكريمة كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [لقمان: ٣٣]. وكقوله: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨]. وكقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]»[3].

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾

ولذا قال تعالى بعدها: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: يبصر الأقاربُ الأقاربَ، والأحمَّاءُ الأحماء، ويعرفون أحوالهم، فلا يخفى عليهم منها شيء، وما يمنعهم عن السؤال عنهم إلَّا الانشغال بحال أنفسهم، كأن كلًّا منهم يقول: نفسي نفسي.

(١) تفسير الرازي (٦٤١/٣٠).

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٦٠٥/٢٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٢٢٤/٨، ٢٢٥).

غير مرخصة للبيع - نسخة مجانية

«قال ابنُ عبَّاس في معنى ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾: في المحشـر يبصر بالحميم حميمُه، ثمَّ يفرُّ عنه لشغله بنفسه. نقول: بصُر فلان بالشيء، وبصَّرْته به: أريتُه إيَّاه، ومنه قول الشاعر يخاطب ناقته:

إذا بَصَّرَتْكِ البيداءُ فَاسْـرَيْ   وأمَّـا الآنَ فَاقْتَصِدِي وَقِيلِي!

وقرأ قتادة ومجاهـد: «يُبْصِرُونَهُمْ» مضارع مـن «أبْصر» معناه يبصر المؤمنون الكفَّار في النار. وقال ابن زيد: يبصـر الكفَّار من أضلَّهم في النَّار عبرة وانتقامًا عليهم وخزيًا لهم»[1].

الصداقة والقرابة تتلاشى يوم القيامة ولا يهمُّ المرءُ إلَّا نفسَه:

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾: الْمُجْـرِمُ هنـا الكافر المستحق للعقوبة الهائلة في الآخرة، بدليل شدَّة الوعيد، وذكر «لَظى».

يتمنَّى هـذا المجرم الَّـذي ارتكـب ما ارتكب مـن الجرائم في حق المؤمنين، لو يفدي نفسـه من عذاب هذا اليوم، بأقـرب النَّاس إليه، وأعزَّ النَّاس عليه، فكل همّه نفسه، لا يبالي بأحد غيره، فالأولاد وفِلْذات الأكباد، الَّذين كان في أوقات أزمات الدنيا يفديهم بنفسـه، وبكلِّ ما يملكه، يتمنى اليوم عكس ذلك: أن يفدي نفسه ولو هلكوا هم، وهم بنوه وذريته وعصبته.

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾ وكذلـك زوجتـه الَّتـي كان يحبُّها فـي الدنيا، ويخلص لها، ويفديها بروحه في الشـدائد، أصبح اليوم يضحِّي بها من أجل نفسه، وكذلك إذا كان له أخ أو أكثر، يقدِّمه فداء نفسه.

﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ قرابته الأدْنَوْن منه نَسبًا وقُربى، مثل بني هاشم بالنسبة للنبي ﷺ.

(١) تفسير ابن عطية (٥/٣٦٧).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

قال الإمام الرازي: «فصيلة الرجل: أقاربه الأقربون الَّذين فُصِلَ عنهم، وينتهي إليهم؛ لأنَّ المراد من الفصيلة: المفصولة؛ لأنَّ الولد يكون منفصلًا من الأبوين، قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**فاطمة بَضْعة مِنِّي**»[١]. فلمَّا كان هو مفصولًا منهما، كانا أيضًا مَفْصُولَيْن منه، فسُمِّيَا فصيلةً لهذا السبب، وكان يقال للعبَّاس: فصيلة النبيِّ ﷺ؛ لأنَّ العمَّ قائمٌ مَقام الأب»[٢].

ومعنى ﴿تُـْٔوِيهِ﴾: تضمُّه.

وهكذا كلُّ أنواعِ التواصل والقرابة، لا يحرص أحدٌ عليها، ولا يبالي أحدٌ بها؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ مشغولٌ بنفسه، مهمومٌ بأمره، يهمُّه أن يفتدي بهذا اليوم العظيم بكلِّ هذه العُرى والقرابات، ابتداءً بأبنائه وورثته من صلبه، وانتهاءً بفصيلته وعشيرته الَّتي تؤويه وتضمُّه وتحميه، ويعتز بانتمائه إليها، يتمنى هذا المجرم لو يفتدي بهؤلاء كلهم، وقد كان في الدنيا يفديهم بنفسه، ثمَّ توسَّع إلى ما هو أوسع، فقال: ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ ذلك الافتداء، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإنجاء، والمعنى: يتمنَّى لو كان كلُّ أولئك تحت قبضته، ويبذلهم في فداءِ نفسه، ثمَّ يُنجيه ذلك، وهيهات!

من أوصاف جهنَّم:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾

﴿كَلَّآ﴾ ردٌّ لقولهم وما ودُّوه وتمنَّوْه من الافتداء بغيرهم، أي: الأمر ليس كذلك، وردع للمجرم عن كونه بحيث يودُّ الافتداء يومئذ ببنيه، وكل من ذكرهم، على أنَّه لا ينفعه ذلك الافتداء، ولا ينجيه من

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أصحاب الرسول (٣٧١٤)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٩)، عن المسور بن مخرمة.

(٢) تفسير الرازي (٣٠/٦٤٢).

QaradawiBooks.com

العذاب، أي: لا يُقبل منه فداء، ولو جاء بأهل الأرض، وبأعزِّ ما يجده من مال، ولو بملء الأرض ذهبًا، أو من ولده الَّذي كان في الدنيا حُشاشة كبده، يود يوم القيامة إذا رأى الأهوال أن يفتدي من عذاب الله به، ولا يُقبل منه.

﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾، أي: إنَّ الشأن لظى، ولظى علَم على جهنَّم، لذا لم يُصرف للعلميَّة والتأنيث.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ يصف النَّار وشدَّة حرِّها وعِظم لهيبها، بأنَّها تنزع الشَّوى. قال المفسرون: تنزع جلدة الرأس، أو الجلود والهامة، أو ما دون العظم من اللحم، وكذلك العصَب، وأطراف اليدين والرجلين، ولحم الساقين، تقطع عظامهم ثمَّ تُبدِّل جلودهم وخلقهم، أو نزاعة لهامته ومكارم وجهه.. وأطرافه، أو تحرق كلَّ شيء في وجهه ويبقى فؤاده.. وكل هذا أقوال المفسرين. وكلها تدخل في قوله: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾.

وقال ابن الجوزي في تفسيره: «﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾: معناها في اللغة: اللهب الخالص. وقال ابن الأَنْبَاري: سُمِّيت لظًى لشدَّة توقُّدها وتلهُّبها، يقال: هو يتلظَّى أي: يتلهَّب ويتوقَّد، وكذلك النَّار تتلظَّى، يراد بها هذا المعنى. وأنشدوا:

جَحيمًا تلظَّى لا تَفْتَّرُ ساعةً ولا الحرُّ منها غابِرَ الدَّهْرِ يَبْرُدُ![1][2]

(١) الزاهر في معاني كلمات الناس لابن الأنباري (١٤٧/٢)، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

(٢) زاد المسير (٣٣٧/٤)، تحقيق عبد الرزاق المهدي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

QaradawiBooks.com

صفات أهل النار:

﴿تَدۡعُواْ﴾ هذه لظى الملتهبة، الَّتي تنزع الشَّوى بشدَّة، تدعو الهالكين ممَّن استحقوا عذاب الله تعالى وخِزْيه، ولكن كيف تدعو هؤلاء الكفَرة الفجَرة؟ هل تدعوهم بلسان الحال أم بلسان المقال؟

هناك من رأى من المفسرين أنَّ الله يُنطقها بلسان فصيح، تقول: إليَّ يا كافر، إليَّ يا فاجر، إليَّ يا منافق، ثمَّ تلتقطهم لظى التقاط الحبِّ. كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾ [الفرقان: ١٢].

وهناك من قال: إنَّها تدعوهم بلسان الحال، كما قيل: سل الأرض من أشقَّ أنهارَك، وغرس أشجارَك؟ فإن لم تجبك جُؤارًا، أجابتك اعتبارًا. فهاهنا لما كان مرجع كل واحد من الكفَّار إلى زاوية من زوايا جهنم، كأن تلك المواضع تدعوهم وتحضرهم.

﴿مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ **أي**: من أدبر عن الطاعة، وتولى عن الإيمان.

﴿وَجَمَعَ﴾ المال ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ أي جعله في أوعية وخزائن، ولم يؤدِّ زكاته والحقوق الواجبة فيه.

فقوله: ﴿أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ إشارة إلى الإعراض عن معرفة الله وطاعته، وقوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ إشارة إلى حبِّ الدنيا، فـ «جَمَعَ» إشارة إلى الحرص، و«أَوْعَى» إشارة إلى الأمل، ولا شكَّ أنَّ مجامع آفات الدِّين ليست إلَّا هذه.

وكان عبد الله بن عُكَيْم لا يربط كيسه، ويقول: سمعت الله يقول: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾(١). إنَّه لم يرد أن يشابه هؤلاء في مجرَّد الصورة.

(١) رواه الطبري في التفسير (٦١٠/٢٣).

QaradawiBooks.com

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾: «أي: تدعو النَّار إليها أبناءها الَّذين خلقهم الله لها، وقدَّر لهم أنَّهم في الدار الدنيا يعملون عملها، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طَلْق ذَلْق، ثمَّ تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطيرُ الحبَّ. وذلك أنَّهم كما قال الله ﷻ كانوا ممَّن ﴿أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: كذَّب بقلبه، وترك العمل بجوارحه، ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ أي: جمع المال بعضه على بعض فأوعاه، أي: أوكاه، ومنع حقَّ الله منه من الواجب عليه في النفقات ومن إخراج الزكاة.

وقد ورد في الحديث: «**ولا تُوعي فيُوعي اللهُ عليكِ**»[1].

وقال الحسن البصري: يا ابنَ آدم، سمعتُ وعيد الله ثمَّ أوعيتَ الدنيا!

وقال قتادة في قوله: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ قال: كان جموعًا قَمُومًا للخبيث[2]»[3].

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [١٩ ـ ٣٥].

(١) متَّفق عليه: رواه البخاري في الهبة (٢٥٩٠)، ومسلم في الزكاة (١٠٢٩)، عن أسماء بنت أبي بكر.
(٢) رواه الطبري في التفسير (٢٣/٦١٠).
(٣) تفسير ابن كثير (٨/٢٢٥).

QaradawiBooks.com

صفات الإنسان:

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾

والحديث عن الإنسان هنا هو عموم الإنسان من حيث جنسُه، وليس المقصود منه جنس الكفار، كما زعم بعض المفسرين، بدليل أنَّ الله تعالى استثنى منه: ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ وهو يتضح لكلِّ من قرأ القرآن وتدبَّره بدون أن يتأثر بقول غيره.

هنا يتحدث القرآن عن الإنسان في فطرته الأولى، قبل أن تؤثر فيه النوازع، وتبعده الأعراف والعادات عما يحبه الله منه، وقد جاء في الحديث الصحيح المتَّفق عليه: «**ما من مولود إلَّا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يُمجِّسانه، كما تُنتَج البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ، هل تُحِسُّون فيها من جدعاء**». ثمَّ يقول أبو هُرَيرة رضي الله عنه: واقرؤوا إن شئتم قول الله ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠][(١)].

ونحن نرى أنَّ الإنسان كما يُصوِّره القرآن إذا تُرك وحدَه لغرائزه ودوافعه النفسية تُسيِّره وحدها، دون وحي من الله يعلِّمه ويُسدِّده، ودون إيمان يردعه ويحجزه، ودون تقوى من الله تخوِّفه وتمنعه، لا يصير إلى خير، ولهذا نجد القرآن يذكِّره بهذه الحوافز والمزكيات المهمة لفلاح الإنسان، كما قال الله تعالى: ﴿**وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۞ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا**﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠]. فبيَّن لنا أنَّ

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٣٥٨)، ومسلم في القدر (٢٦٥٨)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

النفس مُستعدَّة للفجور استعدادها للتقوى، بل ربما قبل التقوى، كما يدل على ذلك تقديم الفجور على التقوى في الآية، وإنَّما فلاح الإنسان في ذلك يبدأ بأن يزكِّي نفسه، أي: يطهِّرها وينمِّيها، أمَّا من أهملها وغفل عنها، وتركها تسير تبعًا لأهوائها، فلا مصير له إلَّا الخيبة والخسران.

وهذا ما يتأمَّله الإنسان إذا قرأ القرآن كلَّه وتدبره، وربط آياته بعضها ببعض، فالقرآن كتابٌ متكامل، يُصدِّق بعضه بعضًا، ويُفسِّر بعضه بعضًا، ولا ينبغي أن نأخذ منه بعض آياته دون أن نربطها بالآيات الأخرى، الَّتي تفسِّرها، أو تخصِّصها، أو تقيِّدها، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

الطبائع الإنسانيَّة مُهلكة إذا تُركت بدون تزكية:

نقرأ في القرآن في وصف الطبائع الإنسانيَّة، قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]. ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]. ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]. ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۞ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۞ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٦ ـ ٨]. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]. ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

فهذه هي صفات الإنسان الأساسية، وهي ضرورية ليعيش ويحيا، ولكنَّه إذا تُرك لنفسه وهواها، ولم ينشغل بعلاجها وتزكيتها، والاستعانة بما أرسل الله به رسله لهدايتها إلى الخير، وتعليمها الكتاب والحكمة، وتعليمها ما لم تكن تعلم، طغى وتجبَّر وتكبَّر، وبخل وشحَّ ومنع، فهذه

QaradawiBooks.com

هي وظيفة الوحي، كما قال الله تعالـى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣] وقال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣]. وقـال: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ۞ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [هود: ٩ ـ ١١].

قال ابن كثير في تفسيره: «يقول تعالى مُخْبِرًا عن الإنسان وما هو مجبولٌ عليه من الطبائع الرديئة والدنيئة إذا لم يعاهد نفسه بالتزكية: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾، ثمَّ فسَّره بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا﴾ أي: إذا أصابه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب، وأَيِس أن يحصل له بعد ذلك خير.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ أي: إذا حصلت له نعمـة من الله بخل بها على غيره، ومنع حقَّ الله فيها.

وقال الإمام أحمد: حَدَّثنا أبو عبد الرحمن، حدَّثنا موسى بن عُلَيِّ بن رَبَاح: سـمعتُ أبي يُحَدِّث عن عبد العزيز بن مروان بـن الحَكَم قال: سمعتُ أبا هُرَيرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «**شرُّ ما في رَجُلٍ: شحٌّ هالِعٌ، وجبنٌ خالـعٌ**»(١). ورواه أبـو داود عـن عبد الله بن الجـرَّاح، عن أبي عبد الرحمن المقرئ، به، وليس لعبد العزيز عنده سواه.

---

(١) رواه أحمد (٨٠١٠)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في الجهاد (٢٥١١)، وابن حبان في الزكاة (٣٢٥٠)، عن أبي هريرة. =

QaradawiBooks.com

ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ أي: الإنسان من حيث هو متَّصف بصفات الذم إلَّا من عصمه الله ووفقه، وهداه إلى الخير ويسَّر له أسبابه، وهم المصلون.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾

من هم هؤلاء؟ قال بعض المفسِّرين: الَّذين يحافظون على أوقاتها وواجباتها.

وقال مفسرون آخرون: المراد بذلك الَّذين إذا عملوا عملًا داوموا عليه وأثبتوه، كما جاء في الصحيح عن عائشة، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ**»[1]. وفي لفظ: «**ما داوم عليه صاحبُه**»[2]. قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا عَمِلَ عملًا أثبته[3]، أي: جعله ثابتًا غير متروك.

وقال قتادة في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ ذُكِرَ لنا أنَّ دانيال عليه السلام نعت أُمَّةَ محمَّد ﷺ، فقال: يصلُّون صلاةً لو صلَّاها قومُ نوح، ما غَرِقوا، أو قوم عاد، ما أُرْسِلَتْ عليهم الرِّيحُ العقيم، أو ثمود، ما أخذتهم الصيحة. فعليكم بالصلاة فإنَّها خُلُق للمؤمنين حسن[4]»[5].

قال الإمام الرازي في تفسيره: «يقال: هَلِعَ الرجلُ يَهْلَع هَلَعًا وهَلَاعًا، فهو هالع وهلوع. وهو شدَّة الحرص وقلَّة الصبر، يقال: جاع فهَلَع.

= وإنَّما كان الشح الهالع، والجبن الخالع شر ما في الرجل؛ لأنَّ الدعوات لا تنتصر، والأمم لا تنهض إلا بخُلُقين رئيسين: السخاء الذي يهون معه بذل المال، والشجاعة التي يهون معها بذل النفس، فإذا شحَّ الناس بأموالهم، وضنُّوا بأنفسهم، فلن تقوم للأمة قائمة.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٦٤)، ومسلم في صفة القيامة (٢٨١٨).

(٢) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٨٥).

(٣) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦) (١٤١).

(٤) رواه الطبري في التفسير (٢٣/٦١٢).

(٥) تفسير ابن كثير (٨/٢٢٦، ٢٢٧).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقال الفرَّاء: الهلوع: الضجور[١]. وقــال المُبرِّد: الهلع الضجر، يقال: نعوذ بالله من الهلع عند منازلة الأقران.

وعن أحمد بن يحيى: قال لي محمَّد بن عبد الله بن طاهر: ما الهلع؟ فقلت: قد فسَّــره الله، ولا تفسير أبين من تفسـيره، هو الَّذي إذا ناله شرٌّ أظهر شدة الجزع، وإذا ناله خير بخل ومنعه الناس.

قال القاضي: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ نظير لقوله: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]. وليس المراد أنَّه مخلوقٌ على هذا الوصف، والدليل عليه: أنَّ الله تعالى ذمَّــه عليه، والله تعالى لا يــذمُّ فِعلَه، ولأنَّه تعالى اســتثنى المؤمنين، الَّذين جاهدوا أنفســهم في ترك هذه الخصلة المذمومة، ولو كانت هذه الخَصْلة ضروريَّة حاصلة بخَلْق الله تعالى لما قدروا على تركها.

واعلمْ أنَّ الهلع لفظٌ واقع على أمرين: أحدهما: الحالة النفسانيَّة الَّتي لأجلها يُقدم الإنسان على إظهار الجزع والتضرع.

والثاني: تلك الأفعــال الظاهرة من القول والفعــل الدالَّة على تلك الحالة النفسانيَّة، أمَّا تلك الحالة النفسانيَّة فلا شكَّ أنَّها تحدث بخلق الله تعالى؛ لأنَّ من خُلِقت نفسه على تلك الحالة لا يمكنه إزالة تلك الحالة من نفسه، ومن خُلِق شجاعًا بطلًا لا يمكنه إزالة تلك الحالة عن نفسه، بل الأفعال الظاهرة من القول والفعل يمكنه تركها والإقدام عليها، فهي أمــور اختياريَّة، أمَّا الحالة النفســانيَّة الَّتي هي الهَلَع فــي الحقيقة فهي مخلوقةٌ على سبيل الاضطرار»[٢].

(١) معاني القرآن (١٨٥/٣).
(٢) تفسير الرازي (٦٤٣/٣٠، ٦٤٤).

QaradawiBooks.com

وفي قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ قال الرازي: «المرادُ من الشرِّ والخير: الفقرُ والغنى، أو المرضُ والصحَّة. فالمعنى أنَّه إذا صار فقيرًا أو مريضًا، أخذ في الجزع والشكاية، وإذا صار غنيًّا أو صحيحًا، أخذ في منع المعروف، وشحَّ بماله، ولم يلتفت إلى النَّاس.

فإن قيل: حاصل هذا الكلام: أنَّه نفور عن المضارِّ، طالب للراحة، وهذا هو اللائق بالعقل، فلم ذمَّه الله عليه؟

قلنا: إنَّما ذمَّه عليه؛ لأنَّه قاصرُ النظر على الأحوال الجسمانيَّة العاجلة، وكان من الواجب عليه أن يكون مشغولًا بأحوال الآخرة، فإذا وقع في مرضٍ أو فقر، وعلم أنَّه فِعْل الله تعالى كان راضيًا به، لعلمه أنَّ الله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وإذا وجد المال والصحَّة صرفهما إلى طلب السعادات الأخرويَّة.

واعلمْ أنَّه استثنى من هذه الحالة المذكورة المذمومة من كان موصوفًا بثمانية أشياء:

أوَّلها: قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾

فإن قيل: قال: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ ثم: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾!

قلنا: معنى دوامهم عليها؛ أن لا يتركوها في شيء من الأوقات.

ومحافظتهم عليها: ترجع إلى الاهتمام بحالها، حتَّى يُؤْتى بها على أكمل الوجوه، وهذا الاهتمام إنَّما يحصل تارة بأمور سابقة على الصلاة، وتارة بأمور لاحقة بها، وتارة بأمور متراخية عنها.

أمَّا الأمور السابقة، فهو أن يكون قبل دخول وقتها متعلِّق القلب بدخول أوقاتها، ومتعلِّق بالوضوء، وستر العورة وطلب القِبْلة، ووجدان

QaradawiBooks.com

الثوب والمكان الطاهرَيْن، والإتيان بالصلاة في الجماعة، وفي المساجد المباركة، وأن يجتهد قبل الدخول في الصلاة في تفريغ القلب عن الوساوس والالتفات إلى ما سوى الله تعالى، وأن يبالغ في الاحتراز عن الرياء والسمعة.

وأمَّا الأمور المقارنة، فهو أن لا يلتفت يمينًا ولا شمالًا، وأن يكون حاضر القلب عند القراءة، فاهمًا للأذكار، مطَّلِعًا على حكم الصلاة.

وأمَّا الأمور المتراخية، فهي ألَّا يشتغل بعد إقامة الصلاة باللغو واللهو واللعب، وأن يحترز كلَّ الاحتراز عن الإتيان بعدها بشيء من المعاصي»(1).

أهمية المحافظة على الصلاة:

وأهمية الصلاة في صفات المؤمنين والمتقين والمحسنين في القرآن الكريم ثابتة وبالغة، وقد ذكر الله تعالى المؤمنين في السورة الَّتي سُمِّيت باسمهم، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢]. فجعل أول صفاتهم الخشوع في الصلاة، أي: ليس المطلوب منهم الوقوف بالأبدان في صف المُصلِّين، ولكن المهم هو روح الصلاة، وهو خشوع القلب، الَّذي كانت تتميز به صلاة النبي ﷺ وأصحابه الطيبين.

ومع هذا لم يكتف بهذا الوصف وحده، ولكنَّه بعد أن ذكر عدة خصال طيبة، وأوصاف حميدة لهؤلاء المؤمنين، ختمها بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۞ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٩ ـ ١١]

(١) تفسير الرازي (٣٠/٦٤٤، ٦٤٥).

QaradawiBooks.com

فوصفهم بصفة لها دلالتها في أمر الصــلاة، وهي المحافظة عليها، والمحافظة عليها، تعني: المحافظة علــى أوقاتها، فلا تُصلى صلاة بعد وقتها من غيــر عــذر، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣]. ولذا ذمَّ الله تعالى المصلين الَّذين يتشاغلون الصلاة وينسونها، حتَّى يفــوت وقتها، وقــال تعالــى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥].

ومن المحافظة عليها: المحافظة على شروطها وأركانها وآدابها، فيحافظ على الركوع وعلى الســجود، وعلى القراءة، وعلــى القيام، كما يحافظ على الوضوء، وعلى الطهارة العامّة، وعلــى القبلة، وكذلك على الجماعة، وعلى صلاتها في المسجد، وعلى كل ما يتمم الصلاة، ويقيمها على أكمل ما تكون.

وفي سورة المعارج الَّتي نفسرها، ذكر الله تعالى الإنسان في طبيعته المعتــادة، ﴿خُلِقَ هَلُوعًا ۞ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۞ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ اســتثنى من الإنسان المتأثر بالشــح الهالع، وبالجبن الخالع، صنفًا واحدًا من النَّاس، هم المسلمون المؤدُّون للصلوات المفروضة، ثمَّ وصفهم في أولى هــذه الصفات الَّتــي تحلُّوا بها بخصلــة طيبة تتعلق بالصلاة، وفي آخر الصفات بخصلة أخرى طيبة تتعلق بالصلاة أيضًا، قال تعالى في الأولــى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾، وقــال في الأخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾.

وتكرر الوصف بالمحافظة على الصلاة أو الصلــوات للمؤمنين، ولكن انفردت ســورة المؤمنون بالخشوع، وســورة المعارج بالدوام، لهذا حرِص بعض المفسرين أن يشرح الدوام بالسكون، كالماء الدائم أي: الساكن، وبذلك أدخل الخشوع في معنى الدوام، ومنهم من أدخله في معنى المحافظة.

QaradawiBooks.com

ولذلك كان أمر الصلاة عند المسلمين أمرًا عظيمًا، فهي أعظم عبادة فرضها الله على عبـاده، إقامتها إيمان، وإنكارها كفر، وتعظيم شـعائرها فريضة، وإنشاء مساجدها قربة، وتعليمها للناس من أفضل ما يقرِّب إلى الله ربِّ العالمين.

وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ وما اتَّصف به أهل الصلاة بعد ذلك: «اسـتثناء للمتَّصِفين بالنعـوت الجليلة الآتية، من المطبوعين على القبائح الماضية؛ لإنباءِ نعوتهم عن الاسـتغراق في طاعة الحق، والإشـفاق على الخَلْق، والإيمان بالجزاء، والخوف من العقوبة، وكسـر الشـهوة، وإيثار الآجل على العاجـل، على خلاف القبائح المذكورة الناشـئة من الانهماك في حُبِّ العاجل وقِصَر النَّظَر عليه»[(١)].

﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾

بعد أن ذكـر الله أول صفة لهـؤلاء المتحرِّرين من ضعف الإنسـان الهلوع، الَّذي يجزع عندما يمسه الشـر، ويمنع عندما يمسه الخير، وهو الوصف المتعلق بالصلاة والدوام عليها، ذكر هـذا الوصف الَّذي كثيرًا ما يقرنه القرآن بإقامة الصلاة، وهو ما يتعلـق بالجانب المالي، وما فيه من حقِّ الله تعالى وللفقراء والمجتمع، فقد قرن القرآن الزكاة بالصلاة في ثمانية وعشرين موضعًا في كتاب الله.

ومن هنا جاء الوصف الثاني لهـؤلاء الناجين، بأنَّهم ﴿فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾.

---

(١) تفسير أبي السعود (٣٢/٩).

QaradawiBooks.com

ملكيَّة المال الحقيقية لله تعالى:

وكثير من النَّاس يحسبون أنَّ الأموال الَّتي حازوها وامتلكوها بعمل أو شراء أو ميراث أو هبة، أو غير ذلك. إنَّما هي أموالهم وحدهم، وليس لأحد فيها حق، مهما يكن له من حاجة، أو ضرورة، وإن كانت ماسة وحقيقية؛ لأنَّهم ظنوا أنَّ المال مالهم حقيقة، مِلكًا ومُلْكًا، وهذا ما جعل قارون يقول عن ماله الكثير الوافر، الَّذي تنوء مفاتيح خزائنه بالعصبة أولي القوة: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]. وجعل مدين قوم شعيب يقولون له: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

هذا مع أنَّ القرآن الكريم يقرر ويؤكد: أنَّ ملكية المال الحقيقية لله، وأنَّ الإنسان إنَّما هو مستخلَف فيه، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ [النور: ٣٣]. ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ﴾ [الحديد: ٧]. ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

فقوله: ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ وإنَّما هي في الحقيقة أموال الله تعالى عندهم، كما سُئل أعرابيٌّ مسلمٌ عن الشاة الَّتي يرعاها: لمن هي؟ فقال: هي لله عندي. وما أصدق ما قال(١)! المال الَّذي يحوزه الإنسان ويمتلكه بالشراء أو بالميراث، أو بأيِّ عقد شرعي تنتقل ملكيته به من شخص إلى آخر، هو ـ وإن كان مال الله في الحقيقة ـ للإنسان في الظاهر، ولذلك له فيه حقوق، وعليه فيه واجبات، ولا ينبغي لصاحب هذا المال أن ينظر أو يفكر أو يستبعد ما يُطالب به في ماله؛ فإنَّ من أعظم ما جاء به الإسلام

---

(١) تفسير ابن عطية (٢٨٥/٥).

QaradawiBooks.com

في هذا الباب: أنَّه قـرَّر أنّ للناس حقوقًا في مـال كلِّ غني، أو كلِّ ذي مال، حقوقًا يطالـب بها أصحابها، ويرعاها الإسـلام لمن يسـتحقها، ويطالِب بها، ويدافع عنها، ويقاتِل دونها.

معنى ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾:

ذكر ابن الجوزي في «زاد المسـير» في تفسـير قولـه تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩] قول ابن عبَّاس: إنَّه ما يَصِلون به رَحِمًا، أو يَقْـرون به ضيفًا، أو يحملون بـه كَلًّا، أو يُعينون به محرومًا، وليس بالزَّكاة. وذكـر قولًا آخر أنَّها الزكاة المفروضـة. وعزاه إلى قَتَادة وابن سِيرِين[١].

واكتفى في تفسير الآية الَّتي معنا في سـورة المعارج ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ بما ذكره في تفسير آية الذاريات.

أقول: يقول القرآن: إنَّه حقٌّ. ومعنى أنَّه حـق: أنَّ وراءه مُطالِبًا، وأنَّه ما دام حقًّا فهو من الله، فليس لأحد أن يُسقطه، أو يُفرط فيه. ومعنى أنَّه حق: أنَّه ثابت بيقين لا يملك أحد أن يزيله أو يغيره.

وهو ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ أي: معروف وجوبه لهـم، ومعروف مقداره متى هو؟ وزمنه الَّـذي يدفع فيه كـم هو؟ ولذا قـال بعضهم: إنَّهـا الزكاة المفروضة، فهـي المعلوم لهم بما فرضه الله ورسـوله عليهم من مقدار معيَّن في مال معيَّن، إلى آخر ما هو معلوم.

ولكنْ ردَّ عليهم الآخرون بأنَّ آية الذاريات: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾، وآيـة المعـارج: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ مكيَّتان،

(١) زاد المسير (١٦٩/٤).

QaradawiBooks.com

نـزلتا قبل أن تفرض الزكاة المعلومة المقدَّرة، الَّتي تُطلب من النَّاس، فهي ليست من هذه الزكاة، وإنَّما هي من الزكاة المطلوبة في مكة في أوائل سـورة النمل ولقمان ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٣، لقمان: ٤]. وغيرهما، وهي زكاة مطلقة، غير محدَّدة المقادير.

فالأَوْلى أن يُفَسَّر هذا «الحقُّ المعلوم» بأنَّه معلوم عند صاحبه وحده، خصَّصه هو لأهـل الحاجة مـن حوله، حَسَـب ما يرى مـن حاجتهم وضرورتهم البشريَّة والفرديَّة والعائليَّة، وحسَب ما عنده من قدرة ماليَّة، فهو يقدِّر في نفسه في كلِّ عام، أو في كلِّ موسم ما يجب عليه، ويبذله لهم، وإلَّا كان مذمومًا.

معنى السائل والمحروم:

السائل هو: الطالب الَّذي لا يستنكف أن يسأل النَّاس ما يحتاج إليه.

والمحروم، ذكر فيه ابن الجوزي في تفسير سـورة الذاريات ثمانية أقوال، ثمَّ قال: وأظهر هذه الأقوال: ما قاله قتادة والزهري، أنَّه المتعفِّف الَّذي لا يسأل شـيئًا. وعلَّل ذلك بقوله: «لأنَّه قرنه بالسائل، والمتعفِّف لا يَسأل ـ ولا يكاد النَّاس يعطون مَن لا يسأل ـ ثمَّ يتحفَّظ بالتعفُّف من ظُهور أثر الفاقة عليه، فيكون محرومًا من قِبَلِ نَفْسِه حينَ لم يَسأل، ومن قِبَل النَّاس حين لا يُعطونه، وإنَّما يفطِن له متيقِّظٌ».

وقد ذكر ابن الجوزي أنَّ المفسِّرين قالوا: إنَّ هذه الآية منسوخة بآية الزكاة. قال: ولا يصحُّ[1]. وهو ما نؤكِّده معه.

---

(١) زاد المسير (١٦٩/٤).

QaradawiBooks.com

ومعنى هذا: أنَّ للسائل الَّذي يطلب، والمحروم الَّذي لا يطلب: نصيبًا مقرَّرًا لذوي الحاجات، علمه صاحب المال بما اعتاده كلَّ عام، وبما قدَّره في نفسه، وعلمه الفقير من عادات النَّاس.

التصديق بيوم الدين:

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾

أي: يُصدِّقون الإيمان بالعمل: حين يلتزمون في أنفسهم بالطاعات الدينية والمالية، طمعًا في المثوبة الأخرويَّة، بحيث يستدل بذلك على تصديقهم بيوم الجزاء.

والمقصود بيوم الدين: يوم الجزاء الَّذي تُوفَّى فيه كلُّ نفس ما كسبت، وتُجازى على ما عملت، ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وقد تحدثنا عن يوم الدين في سورة الفاتحة في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]. وفي سورة الانفطار في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧ ـ ١٩]. وفي كثير من سور جزء عم، وهذا الجزء.

الخوف من عذاب الله:

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾: أي: خائفون وجِلون على أنفسهم، مع ما لهم من أعمال صالحة، استصغارًا لها، واستعظامًا لمقامه ﷻ، كما قال تعالى في مدح السابقين في الخيرات والساعين إليها: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. وفي الحديث الَّذي

QaradawiBooks.com

رواه الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلتُ: يا رسول الله، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أهو الَّذي يزني، ويسرق، ويشرب الخمر؟ قال: «**لا، يا بنتَ أبي بكر** ـ أو: يا بنتَ الصِّدِّيق ـ **ولكنَّه الرجلُ يصوم ويتصدَّق ويصلِّي، وهو يخاف ألَّا يتقبَّل منه**»(١).

لا يأمن أحدٌ عذاب الله:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٍ﴾

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٍ﴾: هذه الجملة اعتراضية مُؤْذِنة بأنَّه لا ينبغي لأحد أن يأمن عذابه تعالى، وإن بالغ في الطاعة، بل ينبغي على كل أحد أن يخافه ويشفق منه، ومع هذا التهويل الملموس، كان في الآية بصيص من الأمل يرجوه الآملون في رحمة الله، حين وصف العذاب بقوله تعالى: ﴿عَذَابَ رَبِّهِمۡ﴾ فنعم الرَّبُّ هو.

حفظ الفروج عن كل ما حرَّم الله:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦].

ثمَّ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۞ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۞ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ وهذه من الصفات الطيبة الأساسية لهؤلاء المُكْرَمين في جنات الله، الناجين من خسران الجاهليَّة، والمتَّصِفين بالعفة والطهارة، الَّتي يتَّصف بها دعاة الحنيفيَّة، فهم يحفظون فروجهم من كلِّ ما حرَّم الله، إلَّا على

(١) رواه أحمد (٢٥٧٠٥)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وابن ماجه في الزهد (٤١٩٨)، والحاكم في التفسير (٢/٣٩٣)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، وحسَّنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٣٨٤).

QaradawiBooks.com

ما أحلَّه الله لهم من زوجة، عقدوا عليها عقدًا شرعيًّا صحيحًا، أو بما كان معروفًا في زمن النبوة، وفي عهد سيادة الرقيق وانتشاره في العالم، حيث أجاز الإسلام في سبيل تصفية الرق وآثاره، بإجازته عقد ملك اليمين، أن يملك الرجل امرأة أو أكثر، يجوز لها أن يتزوجها، ويجوز له أن يباشرها، فتصبح له حلالًا، وما جاءت به من أولاد يُحرِّرونها، وكأنَّ الإسلام اتَّخذ من غرائز الرجال أداة لتحرير النساء، ولا لوم على الرجل إذا استمتع بالمرأة عن هذا الطريق بما وراءه من تبعات.

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٧].

فمن لم تَكْفِه الطرق الشرعيَّة الَّتي أتاحها الله لعباده، ويريد لشهوته الجنسيَّة العاتية أن تتمرد وتتعدَّى الحدود الشرعية، فهذا هو المعتدي على حق الله تعالى في أمره ونهيه، والاستعلاء على ما حرَّم على عباده.

وقد رأينا كيف ضلَّ النَّاس عن هذا الصِّراط المستقيم، وانحرفوا عن حدود الله الَّتي حدَّها لخلقه، فغرق النَّاس في بحور من الموبقات والآثام، وشَكَت البشريَّة من طوفان الطغيان والجنس، وحُمَّى ما أُصيبت به البشريَّة من جنون جاوز كلَّ حد، يؤذن بأن يأخذ الله النَّاس بعذاب شديد، إذا لم يجدوا ما يردُّهم إلى صراط الرشد والهُدى، فيكتفوا بما أحلَّ الله، مُعرضين عمَّا حرَّمه.

صيانة الأمانات ورعاية العهود:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨].

ومن صفات هؤلاء: صيانة الأمانات، ورعاية العهود والمحافظة عليها، أماناتهم مع الله، وأماناتهم مع رسوله، وأماناتهم مع المسلمين،

QaradawiBooks.com

كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧].

ومن ذلك أمانة التكاليف والمسؤولية الَّتي عُرضت على السماوات والأرض والجبال، فأبينَ أن يحملنَها وأشفقْنَ منها، وحملها الإنسان، كما قال الله تعالــى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وكذلك هم يحافظون على العهود والمواثيق الَّتي بينهم وبين ربهم، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾ [الرعد: ٢٠].

وكذلك العهود والمواثيق الَّتي بينهم وبين الخلق، لا ينقضونها، ولا يخلون بأيّ مبــدأ أو فقرة منها. كما قــال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١]. ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤]. ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٥].

فهؤلاء إذا اؤتمنوا لم يخونوا، وإذا عاهدوا لم يغدِروا، وهذه صفات المؤمنين، وضدَّها صفات المنافقين، كما ورد في الحديث المتفق عليه: «**آيــةُ المنافقِ ثــلاث: إذا حدَّث كــذب، وإذا وعد أخلــف، وإذا اؤتُمن خان**»[١]. وفي الحديث الآخر: «**أربع من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خَصْلةٌ منهن كانت فيه خَصْلة من النفاق حتَّى يدعها: إذا اؤتُمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»[٢].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) (١٠٧)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.
(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨)، كلاهما في الإيمان، عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

أداء الشهادات المطلوبة:

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾

أي: يؤدُّون الشهادات المطلوبة منهم، كما ينبغي أن تؤدَّى، فلا يكتمونها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣]. وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠].

وهم يقيمونها لله، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]. ويُشهدون العدول المرضيين من النَّاس كما قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢]. ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. ولا يجوز لهم أن يرفضوا الحضور، إذا دعوا إلى الشهادة على أمر حضروه وعرفوه، وهم قادرون على ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ومن ذلك: شهادتهم على التوحيد، وأنَّ الله تعالى واحدٌ لا شريك له، ولا ندَّ له، ولا ضدَّ له، كما قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. والشهادة لمحمد بالرسالة، وأنَّه رسول ربِّ العالمين إلى النَّاس كافَّة، وهي الركن الثاني في الشهادة، بعد الركن الأول وهو توحيد الله، بكل مطالبه وأركانه: توحيد الربوبيَّة، وتوحيد الإلهيَّة، وتوحيد الحاكميَّة.

وهذا ما يعلنه المسلم كل يوم في الأذان والإقامة للصلوات الخمس، وما يقرِّره بنفسه في قلب الصلوات كلِّها، حين يقرأ في ختامها التشهد، وفيه: أشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله.

QaradawiBooks.com

ومن الشهادة الَّتي يقوم بها المسلمون: الشهادة للأمة المسلمة بالوسطية والربانيَّة والوحدة والخيرية، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ يدلُّ على أنَّها أمَّة مجعولة، صنعها صانع، وجعلها جاعل، وأخرجها مُخْرِجٌ لمهمة، وهذا الجاعل أو المُخْرِج هو الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فالله هو الَّذي أخرج الأمة للناس، لهداية النَّاس، ونفع النَّاس، وتربية النَّاس، وتنوير النَّاس، وإنقاذ الناس.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢] ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢] فالناس متفرقون إلى أجناس شتَّى، وملل مختلفة، وعصبيات وأهواء، ولكن الانتماء إلى الأمة الإسلامية هو الَّذي يخرجهم من هذه الفرقة العصبية، والعصبيات المضيِّقة على النَّاس، بهذه الرابطة الإسلامية، الَّتي تربطهم بالله تعالى وبعبادته، والاعتصام بحبله، الاحتكام إلى شرعه، واتباع رسوله، والارتباط بجماعته وأمته، وصراط المؤمنين، صراط الَّذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

وهناك من المفسرين من اهتمَّ بوصف القائمين بالشهادة في المعاملات والحقوق بين النَّاس بعضهم وبعض، يقول ابن عطيَّة صاحب «المُحَرَّر الوجيز»: «وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾ معناه في قول جماعة من المُفَسِّرين: أنَّهم يحفظون ما يشهدون فيه، ويتيقَّنونه ويقومون بمعانيه، حتَّى لا يكون لهم فيه تقصير.

QaradawiBooks.com

وقال آخرون: معناه الَّذين إذا كانت عندهم شهادة ورأَوْا حقًّا يَدْرُس، أو حرمة لله تعالى تُنتهك، قاموا بشهادتهم.

وذكر في ذلك الحديث الصحيح المرفوع الَّذي قال: «**خَيْرُ الشهداءِ الَّذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألَها**»(١).

قال: واختلف النَّاس في معنى هذا الحديث بحسب المعنيين اللذين ذكرنا في الآية، أحدهما: أن يكون بحيث يحفظهما مُتقنة، فيأتي بها، ولا يحتاج أن يُستفهَم عن شيء منها، ولا أن يعارض.

والثاني: إذا رأى حقًّا يُعمل بخلافه، وعنده في إحياء الحق شهادة، فعليه أن يؤدِّي ما عنده، ممَّا يقوِّي الحقَّ ويضعف الباطل»(٢).

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾

كانت هذه آخر فضائلهم، كما أنَّ الدوام على الصلاة كانت أولها، فأول صفاتهم بدأ بالعبادة، وآخرها ينتهي بالعبادة، وهي الصلاة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إليهم باسم الإشارة للجمع البعيد، مع قرب العهد بالمشار إليهم، للإيذان بعلوِّ شأنهم، وبُعْد منزلتهم بالفضل، كما يُعبِّر القرآن دائمًا في مثل ذلك، كما في سورة المؤمنون(٣)، وسورة البقرة(٤) وغيرهما.

﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ أي: يستقرُّون في جنَّات، لا يعلم قدرها، ولا يدرك كنهها.

---

(١) رواه مسلم في الأقضية (١٧١٩)، وأحمد (٢١٦٨٣)، عن زيد بن خالد الجهني.

(٢) تفسير ابن عطية (٥/٣٦٩).

(٣) في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الآيتان: ١٠، ١١].

(٤) في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الآية: ٥].

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة بحثية

﴿مُّكۡرَمُونَ﴾ أي: يتلقون الإكرام والإنعام والتفضيل من ربهم، ومن ملائكته الَّذين ﴿يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

ختم أوصاف المؤمنين بجزائهم، وهو التكريم في الجنات، وهو يشبه ما ختم به أوصاف المؤمنين في سورة المؤمنون حين قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١]. والفردوس هو أعلى الجنَّة كما صحَّ في الحديث[١]، وهنا قال: ﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾. والمعقول أن تكون هذه الجنان هي الفردوس، فهؤلاء وأولئك ممَّن رضي الله عنهم ورضوا عنه، فهم جميعًا في الفردوس خالدون، ندعو الله ﷻ أن نكون منهم.

سِرُّ تكرير ﴿وَٱلَّذِينَ هُم﴾:

وإنَّما كرَّر الوصف بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم﴾ بتكرير الموصولات، لتنزيل اختلاف الصفات، منزلة اختلاف الذَّوات، كما في قول الشاعر:

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَابْنِ الْهُمَامِ   وَلَيْثِ الْكَتَائِبِ فِي الْمُزْدَحَمْ[٢]

إيذانًا بأنَّ كلَّ واحد من الأوصاف المذكورة نعتٌ جليلٌ على حياله، له شأن خطير، مستتبع لأحكام جمَّة، حقيقٌ بأن يُفْرَد له موصوفٌ مستقلٌّ، ولا يجعل شيء منها تتمَّة للآخر.

---

(١) إشارة إلى الحديث: «**إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنَّه أوسطُ الجنَّة، وأعلى الجنَّة**». وقد سبق تخريجه صـ٢٤.

(٢) البيت ذكره الفراء غير منسوب في معاني القرآن (١٠٥/١). والقرم من الرجال: السيد العظيم، المجرِّب للأمور. والهُمَامُ: السيّد الشجاع السَّخِيُّ من الرِّجال، عطف صفة على صفة، لشيء واحد، كقولك: جاءني الظريف والعاقل، وأنت تريد شخصًا واحدًا. فعطفَ الصِّفاتِ مع أنَّ الأصل عدمُ عطفها، ليَلْفِتَ النظر إلى أنَّه مع كونه ملكًا قَرْمًا هو ابْنُ سيِّدٍ شجاع سخي، وهو أيضًا شجاعٌ كالأسد.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

نفرة المشركين من الرسول ﷺ وتفرُّقهم جماعات:

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ۝٣٦ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾

وبعد أن بيَّن صفات المؤمنين ومصيرَهم، ذكر صفاتِ المشركين ومصيرَهم، بأسلوبٍ بليغٍ من أساليب الإنكار والتيئيس.

قال العلَّامة ابن كثير: «يقول تعالى منكِرًا على الكفَّار الَّذين كانوا في زمن النبيِّ ﷺ، وهم مشاهِدون له، ولِمَا أرسله الله به من الهدى، وما أيَّده الله به من المعجزات الباهرات، ثمَّ هم مع هذا كلِّه فارُّون منه، متفرِّقون عنه، شاردون يمينًا وشمالًا فرقًا فرقًا، وشيعًا شيعًا، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾ [المدثر: ٤٩ ـ ٥١] وهذه مثلها؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ أي: فما لهؤلاء الكفَّار الَّذين عندك يا محمَّد ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين نافرين منك، كما قال الحسن البصري: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: منطلقين.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ واحدها عِزة، أي: مُتفرِّقين. وهو حالٌ من ﴿مُهْطِعِينَ﴾، أي: في حالِ تَفرُّقِهم واختلافهم، كما قال الإمام أحمد في أهل الأهواء: فهم مخالفون للكتاب، مختلفون في الكتاب، متَّفقون على مخالفة الكتاب.

وقال العوْفي، عن ابن عبَّاس: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ قال: قِبلك ينظرون، ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ قال: العِزين: العُصَب من النَّاس، عن يمينٍ وشمالٍ مُعْرِضين يستهزئون به»[1].

---

(١) رواه الطبري في التفسير (٢٣/٦١٩). ﴿عِزِينَ﴾: جمع عِزة ـ بكسر أوَّلِه وفتحِ ثانيه ـ وهي الجماعة. والمراد: جماعات جماعات.

QaradawiBooks.com

وقال ابن جرير بسنده عن الحسن في قوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾: متفرقين، يأخذون يمينًا وشمالًا، يقولون: ما قال هذا الرجل؟[1]»[2].

وقال الرازي في تفسيره: «المُهْطِع: المسرع، وقيل: المادُّ عنقه، وأنشدوا فيه:

بمكَّة أهلُها ولقد أراهم بمكَّة مُهْطِعِينَ إلى السَّمَاعِ[3]

والوجهان متقاربان، رُوِيَ أنَّ المشركين كانوا يحتفُّون حول النبيِّ ﷺ حِلَقًا حِلَقًا، وفِرَقًا فِرَقًا، يستمعون ويستهزئون بكلامه، ويقولون: إذا دخل هؤلاء الجنَّة كما يقول محمَّد، فلندخُلَنَّها قبلهم، وليكونَنَّ لنا فيها أكثر ممَّا لهم. فنزلت هذه الآية»[4].

وروى أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي من حديث الأعمش بسنده إلى جابر بن سمرة: أن رسول الله ﷺ خرج عليهم، وهم حِلَق، فقال: «**ما لي أراكم عِزِين؟!**»[5].

وروى ابن جرير بسنده عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ خرج على أصحابه وهم حِلَق حِلَق، فقال: «**ما لي أراكم عِزِين؟!**»[6].

---

(١) رواه الطبري في التفسير (٦٢٠/٢٣).
(٢) تفسير ابن كثير (٢٢٨/٨).
(٣) ذكره الفراء في معاني القرآن (١٦٦/٣) غير منسوب.
(٤) تفسير الرازي (٦٤٦/٣٠).
(٥) رواه مسلم في الصلاة (٤٣٠)، وأحمد (٢٠٨٧٤)، وأبو داود في الأدب (٤٨٢٣)، والنسائي في الكبرى في التفسير (١١٥٥٨).
(٦) رواه الطبري في التفسير (٦٢٠/٢٣).

QaradawiBooks.com

قال ابن كثير: «وهذا إسنادٌ جيِّد، ولم أرَه في شيء من الكتب الستَّة من هذا الوجه»[(١)].

وإنَّما أنكر عليهم النبيُّ ﷺ أن رآهم جماعات متفرِّقة، وفي هذا الحديث دلالة على أنَّ التفرُّق في الأجسام يولِّد التفرُّق في القلوب، ولذا كان النبيُّ ﷺ حريصًا على وحدة الصفِّ في الجماعة، للدَّلالة على وحدة الصفِّ في الأُمَّة، وكان لا يحبُّ أن يصلِّي الرجل وحدَه خلف الصف[(٢)]، فهو يحبُّ أن يسوِّي بين المَظْهَر والمَخْبَر.

لا جنَّة بلا إيمان، ولا إيمان إلَّا بعمل:

﴿أَيَطْمَعُ[(٣)] كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝٣٨ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾

قال المفسِّرون: كان المشركون يجتمعون حول النبي ﷺ، ويستمعون كلامه، فيكذِّبونه، ويَكْذِبون عليه، ويستهزئون بأصحابه، ويقولون: لئن دخل هؤلاء الجنَّة لندخلنَّها قبلهم، ولئن أعطوا منها شيئًا لنعطينَّ أكثر منه؛ فنزلت الآية.

فهم يريدون أن يدخلوا الجنَّة على ما بهم مِن كُفْر بالله ورسوله، ومن عُتُوٍّ على خلق الله، وأكلٍ للربا، وشربٍ للخمر، وهذا كذب على الله، فلا جنَّة بلا إيمان، ولا إيمان إلَّا بعمل، ولذا قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ ردع

(١) تفسير ابن كثير (٦١/٤).

(٢) نهى ﷺ عن الوحدة، أن يبيتَ الرجلُ وحده. أو يسافرَ وحده. رواه أحمد (٥٦٥٠)، وقال مخرِّجوه: صحيح. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٢٠٨): رجاله رجال الصحيح. وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٦٩١٩). عن ابن عمر.

(٣) الهمزة للاستفهام التوبيخي.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

لهم عن ذلك الطمع الفارغ، أي: كلا ليس الأمر كما يزعمون من أنَّهم سيدخلون الجنَّة قبل المؤمنين أو معهم أو بعدهم.. وإنَّما هم سيكون مأواهم جهنَّم وبئس المصير.

﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾: تعليل للردع، على معنى أنّهم يعلمون أنَّهم مخلوقون من نطفة، ثمَّ من علقة، ثمَّ من مضغة، كما خُلق سائر جنسهم، فليس لهم فضل يستوجبون به الجنة، وإنَّما يستوجبونها بالإيمان والعمل الصالح، ورحمة الله.

قال المفسرون: فجملة ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ تأكيد لهذا الردع والزجْر، وتهوين من شأنهم، وإبطالٌ لغرورهم، وتنكيسٌ لخُيلائهم بأسلوب بديع مهذَّب؛ لأنَّه ممَّا لا شك فيه أنَّهم يعلمون أنَّهم قد خُلقوا من ماء مَهين، ومن كان كذلك فلا يليق به ـ متى كان عاقلًا ـ أن يغترَّ أو يتطاول.

وقيل: كانوا يستهزئون بفقراء المسلمين ويتكبَّرون عليهم فقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي من القذر. كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]. فليس لهم هذا التكبر. وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۞ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۞ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۞ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۞ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٥ ـ ١٠].

ورُوِيَ أنَّ مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير من التابعين، رأى المُهَلَّب بن أبي صُفْرة، وهو يتبختر في جُبَّةِ خَزٍّ (حرير)، فقال: يا عبد الله، هذه مِشية يبغضها الله ورسوله. فقال له المهلب: أمَا تعرفني؟! فقال: بلى أعرفك، أولك نطفة مَذِرة، وآخرتك جِيفَة قَذِرة، وأنت بين ذلك تحمل العَذِرة! فمضى المهلَّب وترك مِشيته تلك[1].

(١) إحياء علوم الدين (٣/٣٤٠).

QaradawiBooks.com

تهديد المشركين وبيان أنَّ قدرته تعالى لا يُعجزها شيء:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الآيتان: ٤٠، ٤١]

أقسم هنا بربِّ المشارق والمغارب، ووصف نفسه في سورة الرحمن فقال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧]، وفي سورة المزمّل برب المشرق والمغرب، ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]. وكلها صحيح المعنى، موفٍّ بالمراد في مكانه، فالمراد بربِّ المشرق والمغرب، الجهة الَّتي تشرق منها الشمس، والجهة الَّتي تغرب منها، فهو رب هذه الجهة وما في مقابلها، أي هو رب الكون كله، لا ربَّ غيره، ولا خالق سواه، ولا يدبر هذا الكون من كلِّ جهاته أحد معه، أو أحد دونه.

وبعضهم قال: مشرق كل كوكب ومغربه.

والمراد بربِّ المشرقَيْن ورب المغربَيْن: مشرق الشمس ومغربها، في كلٍّ من الصيف والشتاء، فهذا التنوع والتخصيص صُنْع الله الَّذي أتقن كلَّ شيء، وأحسن كلَّ شيء خلقه.

وهنا قال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ والمراد بالمشارق والمغارب: مطالع الشمس والقمر والنجوم المختلفة، الَّتي تظهر كلَّ يوم وتغرب، وهو خالقها ومدبِّرها سبحانه وتعالى، ولا تطلع ولا تغرب، ولا تظهر ولا تغيب، ولا تنكسف ولا تنخسف، إلَّا بأمره وتقديره، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ومعنى ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾: أنَّه من الوضوح والظهور بحيث لا يحتاج إلى قسم.

QaradawiBooks.com

أي: لا فائــدة مِنْ أن أُقسِــمَ بخالقِ المشــارق والمغارب، ولكن سيأتي مَنْ يدرك هذه الحقيقة من حقائق نظام الكون الناشئة عن حركة الأرض حَوْل نفسها في اتِّجاه الشــمس؛ إذ تحدث مُتدرِّجة مُتَتابعة، فهو ســبحانه المهيمن بصفات ربوبيَّتِهِ خلقًا وتدبيرًا على الشــروق والغروب، وعلى أمكنة وأزمنة الشروق والغروب، فلا أحدَ غير الله له ربوبيَّة في شيءٍ من ذلك.

﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۞ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: الله الَّذي خلق السماوات والأرض، وجعل مشرقا ومغربا، وســخَّر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها.

«وتقدير الكلام: ليس الأمر كما يزعمون أنْ لا معاد ولا حساب، ولا بعث ولا نشور، بل كلُّ ذلك واقعٌ وكائنٌ لا محالة. ولهذا أتى بـ «لا» في ابتداء القسم ليدلَّ على أنَّ المُقْسَــم عليه «نفي»، وهو مضمون الكلام، وهو الردُّ على زعمهم الفاسد في نفي يوم القيامة، وقد شاهدوا من عظيم قــدرة الله تعالى ما هو أبلــغ من إقامــة القيامة، وهو خلق الســماوات والأرض، وتسخير ما فيهما من المخلوقات من الحيوانات والجمادات، وسائر صنوف الموجودات؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]. وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۞ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨١، ٨٢]. وقــال هاهنا: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۞ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا﴾ أي: يــوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه، فإنَّ قدرته صالحة لذلك.

QaradawiBooks.com

﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ أي: بعاجزين. كما قال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۞ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٣، ٤]. وقال تعالى: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ۞ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١].

واختار ابن جرير أنَّ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرًا﴾ أي: أُمَّة تطيعنا ولا تعصينا[(١)]، وجعلها كقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]. والمعنى الأول أظهر لدلالة الآيات الأخر عليه، والله أعلم. والمقصود بهذه الآيات الكريمة تهديد المشركين وبيان أن قدرته تعالى لا يعجزها شيء.

افتتاح السورة واختتامها بإثبات أن يوم القيامة حق:

﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ۝٤٢ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾

[الآيات: ٤٢ ـ ٤٤]

ثمَّ قال تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾ أي: يا محمَّد ﴿يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾ أي: دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم واستهزائهم، ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ أي: فسيعلمون غِبَّ ذلك ويذوقون وباله»[(٢)].

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾: «أي: اتركْهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم. ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ إمَّا العذاب في الدنيا أو في الآخرة.

(١) تفسير الطبري (٢٣/٦٢٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/٢٢٩) بتصرف يسير.

QaradawiBooks.com

وقيل: إنَّ هذا منسوخ بآية السيف»[١] اهـ.

وكلامه كلُّه جيد، إلَّا ما قاله في النسخ، فلا أصل له، وما في الآية أصيل ومُحْكَم، ولا دليل على دعوى النسخ.

وصف يوم البعث والجزاء الَّذي ينكرونه ويستهزئون به:

قال ابن كثير: «﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أي: يقومون من القبور إذا دعاهم الرب، تبارك وتعالى، لموقف الحساب، حين ينفخ في الصور النفخة الثانية، ينهضون ﴿سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ قال ابن عبَّاس، ومجاهد، والضحاك: إلى عَلَم يسعون. وقال أبو العالية، ويحيى بن أبي كثير: إلى غاية يسعون إليها.

وقد قرأ الجمهور: ﴿نَصْبٍ﴾ بفتح النون وإسكان الصاد، وهو مصدر بمعنى المنصوب. وقرأ الحسن البصري (وهي قراءة حفص وابن عامر)[٢]: ﴿نُصُبٍ﴾ بضمِّ النون والصاد، وهو الصنم، أي: كأنَّهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه.

﴿يُوفِضُونَ﴾: يبتدرون أيُّهم يستلمه أوَّل. وهذا مرويٌّ عن مجاهد، ويحيى بن أبي كثير، ومسلمٍ البطين، وقتادة، والضحَّاك، والربيع بن أنس، وأبي صالح، وعاصم بن بهدلة، وابن زيد، وغيرهم»[٣].

«وقوله: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: خاضعة. أي: يخرجون من قبورهم، حالة كونهم ذليلةً خاضعة أبصارُهم، لا يرفعونها لما هم فيه من الخزي والهوان.

---

(١) تفسير القرطبي (١٢١/١٦).

(٢) انظر: النشر في القراءات العشر (٣٩١/٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٢٣٠/٨).

نسخة مجانية غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾ أي: تغشاهم ذلة شديدة، وهوان عظيم. يقال: رَهِقه الأمر يَرْهَقه رَهَقًا، إذا غشيه بقهر وغلبة لا يمكن له دفعها.

وهذا الذلُّ والهوان في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ أي: ذلك الَّذي ذكرناه من الأهوال، هو اليوم الَّذي كانوا يوعدونه في الدنيا على ألسنة الرسل، والذي كانوا ينكرون وقوعه، وها هو ذا في حكم الواقع، لأنَّ كل ما أخبر الله تعالى عنه، فهو متحقق الوقوع. كما قال سبحانه في أول السورة: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾.

وهكذا افتُتحت السورة بإثبات أنَّ يوم القيامة حقٌّ، واختُتمت كذلك بإثبات أنَّ يوم القيامة حقٌّ. وصلى الله على سيدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم»[1].

* * *

(١) التفسير الوسيط للشيخ سيد طنطاوي (١٠٧/١٥)، نشر دار نهضة مصر، القاهرة، ط١.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

تفسير سورة نوح

مقدمة وبيان قصد السورة:

السورة مكيَّة بالإجماع، وهي ثمان وعشرون آية حسَب مصاحفنا المرقمة. وكلها في قصَّة سيدنا نوح عليه السلام، ولا عجب أن سُمِّيت باسمه، وإن كانت سورة هود قد فصَّلت في قصته ما لم تفصِّل سورةُ نوح، ولكنها لم تكن خالصة له، بل شملت عددًا من الرسل الآخرين.

وقد اهتمَّت السورة بإبراز دعوة نوح إلى قومه، ومخاطبته لهم، وصبره عليهم ألفَ سنة إلَّا خمسين عامًا، كما قال الله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]. أي نحو أكثر من ثلاثين جيلًا مرَّ بهم نوح عليه السلام، إذا اعتبرنا الجيل في الجملة نحو ثلاثين سنة، وربما يعتبره بعض النَّاس أقل.

المهم أنَّ نوحًا بلَّغ هذه الأجيال ما بعثه الله به إليهم، من الدعوة إلى التوحيد، ونبْذ الشرك الَّذي اتخذه قومه من دون الله تعالى. فقد اتَّخذوا أصنامًا سمَّوْها: وَدًّا وسُوَاعًا ويَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْرًا.

ونوح هو أول الأنبياء والرسل الَّذين ظهرت الوثنيَّة في عهدهم، وبارز الكافرون الله تعالى بها، حتَّى إنَّ بعض العلماء اعتبروا نوحًا هو أوَّل

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

المرسلين، واستدلوا على ذلك بقول الله تعالى في القرآن: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ۞ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤].

كما استدلوا بحديث الشفاعة العظمى المطوَّل، الَّذي رواه سيِّدُنا أنس بن مالك خادم رسول الله وصاحبه على أنَّه أوَّل رسول بعثه الله إلى أهل الأرض(١).

ولعلَّ الحديث يريد: أنَّ نوحًا أوَّل رسول بعثه الله إلى المشركين بالتوحيد، فإنَّ آدم كان نبيًّا ورسولًا إلى أولاده، وكانوا كلُّهم موحِّدين، وظلت البشريَّة كذلك إلى أن جاء قوم نوح.

وقد قال تعالى في سورة طه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۞ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ۞ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۞ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ۞ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ۞ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢١ ـ ١٢٦]. فدلَّت هذه الآيات أن هدى الله للجميع من أول الأمر.

ولم يرِد إلينا نصٌّ صحيح صريح، يُعلِمنا عن سنِّ نوح، وإن قال بعض العلماء: بعث وعمره خمسون سنة، وقال ابن عبَّاس: ابن أربعين سنة(٢). وقال من قال: كان عمره حين بعث ثلاثمائة وخمسين سنة. وهذه أقوال

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٥١٠)، ومسلم في الإيمان (١٩٣).
(٢) تفسير القرطبي (١٨/٢٩٨).

QaradawiBooks.com

لا دليل عليها؛ لأنَّها لا تُعرف إلَّا بنص ثابت عن الله تعالى ورسوله، ولم يجئنا هذا النصُّ. وكلُّ ما يقال إنَّما هو أضغاث أحلام، أو شطحات أوهام.

ومن أهداف السورة ومقاصدها: تثبيت النبيِّ الكريم في مواجهة قومه المعاندين، كما ثبتت مسيرة نوح تسعمائة وخمسين عامًا، كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

ومن أهداف السورة ومقاصدها: تثبيت المؤمنين مع رسول الله ﷺ؛ ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، ويصبر رسول الله ومن معهم من المؤمنين على قلتهم، حتَّى ينصرهم الله لهم في النهاية، كما نصر نوحًا واستجاب لدعائه، وأغرق قومه بالطوفان الهائل: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤]. فالمؤمنون مع محمد، تقول لهم هذه السورة: إنَّ الله تعالى معهم، وإنهم منصورون على المشركين مع كثرتهم وقوتهم، وقلة المؤمنين وضعفهم. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الصفات: ١٧١ ـ ١٧٣].

ومن مقاصد هذه السورة أيضًا: الإعلام بوحدة رسالات السماء، فإنَّ المرسِل ربٌّ واحد، والمُرسَل إليهم هم بشر من بني آدم، تجري عليهم سننٌ واحدة، قد تختلف في بعض جزئيَّاتها، ولكنها في النهاية نمطٌ واحد، يُمثِّل عدل الله في الأرض، لهذا اتَّفقت كل رسالات في عقائدها وأصولها، وإنْ كان لكلٍّ منها شرعة ومنهاج، يختلف في بعض جزئياته عن بعض، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣].

QaradawiBooks.com

وكذلك من مقاصد السورة: أنَّ المكذِّبين الظالمين هم الهالكون، وأنَّ الدعاة الصادقين هم المنتصرون، وأن نوحًا عليه السلام، وإن ظل قرونا يدعو قومه، ويكرِّر دعوته عليهم، فلم يستجيبوا له، وأصروا على مشاقته وإيذائه، نصره الله على قومه، وأهلكهم بعد أن أنذرهم نبيهم بعذاب الله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٠ ـ ١٤].

بداية تفسير السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

[الآيات: ١ ـ ٤]

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

هذه بداية السورة: إعلان الربِّ الأعلى: أنَّه أرسل نوحًا إلى قومه، وما أعظمها من رسالة! وما أرفعه من خطاب! وما أهوله من إنذار! وما أعظمه من مرسِل! وما أعظمه من رسول! إنَّه رسول من رب العالمين.

أوَّل رسالة من الله إلى بشر مكذِّبين ومشركين جاءت بهذه الصيغة: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ بلغة المتكلِّم الأعظم، فهو يتكلم بلغة الجمع،

QaradawiBooks.com

كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ [المعارج: ٣٩، ٤٠] ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وغيرها من الآيات الكثيرة.

المرسِل هو الله ربُّ السماوات ورب الأرض، رب العرش العظيم، والمرسَل هو عبده نوح الَّذي اختاره من بين خلقه، فاختصَّه بنبوَّته، وأوحى إليه برسالته، وألزمه أن يدعو قومه إلى نبْذ ما هم فيه من الشِّرك والكفر، فليس هناك من يستحقُّ أن يُعبَد سواه جلَّ وعلا.

الله وحده هو الجدير بأن يُعبد؛ لأنَّه الخالق العظيم، الَّذي خلق الكون، وخلق الإنسان، وكلَّفه أن يعبده وحده لا شريك له، وهو صاحب النعم الكبرى: نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الحياة، والسمع والبصر والفواد، ونعمة تسخير الكون كله لخدمة الإنسان، كل هذا يجعله تبارك وتعالى أهلًا لأن يُعبد وحده لا شريك له، وأن يُنفر من كل ما يؤلَّه من دونه، فكلهم من خلقه، وهم لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له، ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم الموت أو الأذى.

بطبيعة الحال أرسِل نوح إلى قومه، فلم يكن هناك قوم غيرهم، وهكذا كل رسل الله من بعده أرسلوا إلى أقوامهم، هود أرسل إلى قومه عاد، وصالح أرسل إلى قومه ثمود، وإبراهيم أرسل إلى قومه، وكذلك إسحاق ويعقوب ويوسف أرسلوا إلى أقوامهم، وموسى وأنبياء بني إسرائيل أرسلوا إلى أقوامهم، ومنهم المسيح عيسى بن مريم أرسل إلى خراف بني إسرائيل الضالة، كما قال هو عن نفسه[1].

---

(١) إنجيل متَّى (٦/١٠).

QaradawiBooks.com
غير مرخصة للطباعة

محمد ﷺ خالف هؤلاء جميعًا في أمرين:

أولهما: أنَّه أرسل إلى النَّاس كافَّة، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**كان النبيُّ يُبعَث إلى قومه خاصَّة، وبُعثت إلى النَّاس كافَّة**»(١).

وثانيهما: أنَّه جاء ليختم الأنبياء، فليس بعده نبيٌّ يأتي برسالة جديدة للناس، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ولهذا قال: «**أنا العاقب، والعاقبُ الَّذي ليس بعده نبيٌّ**»(٢).

لماذا أرسل الله تعالى نوحًا إلى قومه؟

﴿أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ كل رسل الله جاؤوا مبشرين ومنذرين، كما قال تعالى: ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء: ١٦٥]. وكما قال الله تعالى لمحمد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٥]. ومع هذا قال له في بعض سور القرآن: ﴿ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٣]. ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞ ﴾ [الرعد: ٧]. ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ ﴾ [غافر: ١٨]. بل سُمِّي الرسلُ كلهم نُذُرا، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ [فاطر: ٢٤].

حين تتفرغ أمة للشرك وللباطل، وتقاوم الحق ودعوته، وتقف ضدَّ دعاة توحيد الله وطاعته، لا يستحق هؤلاء القوم أن يُبشَّروا بخبر يسُرُّ، أو

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التيمم (٣٣٥)، ومسلم في المساجد (٥٢١)، عن جابر بن عبد الله.

(٢) رواه مسلم في الفضائل (٢٣٥٤)، والترمذي في أسماء النبي ﷺ (٢٨٤٠)، عن جبير بن مطعم.

QaradawiBooks.com

شيء يُفرح، بل لا يستحقون إلَّا الإنذار، والإنذار وحده. ومن هنا كان إرسال نوح إلى قومه الكافرين المجاهرين المعاندين المصرين: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

كان خطاب الله جَلَّ جَلَالُهُ لنوح: أن أنذر قومك، فليس لهم إزاء هذا الموقف، موقف الَّذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله، الَّذين كفروا وظلموا وكابروا وأفسدوا في الأرض، ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ۝ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٢، ٢٣]. ليس لهم إزاء هذا الموقف اللئيم العنيد إلَّا عذاب أليم، يأتيهم من قبل الله الَّذي كفروا به، وكذَّبوا برسوله، ﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩]، ورغم طول السنين، ومرور الدهور، دهرًا بعد دهر، لم يزدهم دعاؤه لهم إلَّا ضلالًا.

العذاب الأليم هو الموجِع، وقد يكون في الدنيا، كأن يخسِف الله بهم الأرض، أو يُسقط عليهم كِسْفًا من السماء، أو يغرقهم بماء يَفيض من الأرض، أو ينزل عليم من فوقهم، أو نحو ذلك. وقد يكون عذاب الآخرة الَّتي أعدَّ الله فيها النَّار للذين كفروا، فالعذاب الأليم إما عاجلٌ أو آجلٌ.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [الآيتان: ٢، ٣]:

هذا القول من نوح استئناف مبنيٌّ على سؤال نشأ من إرسال نوح بالإنذار، كأن قيل: فما فعل عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ فقيل: قال لهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، إنِّي نذير مُخوِّف لكم من قبل الله تعالى بيِّن النذارة، موضِّح لحقيقة الأمر مظهره لكم بلسانكم الَّذي تعرفونه. فالله تعالى يقول مخبرًا عن نوح: إنَّه أرسله إلى قومه، آمرًا له أن ينذرهم ويخوفهم بأس الله الَّذي لا يردُّ عن القوم المجرمين، قبل حلوله بهم، فإن تابوا وأنابوا دفع عنهم.

QaradawiBooks.com

وهكذا سنَّ نوح شيخ المرسلين طريقة البلاغ للمشركين، ففيها الوضوح والبيان، وفيها التحذير والتخويف من سوء العاقبة لِمَن كذَّب وعصى. وهكذا شأن المرسلين.

بِمَ أنذر نوح قومه؟

﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ «أن» هنا، الأظهر أنَّها المفسِّرة، وهي المسبوقة بجملة فيها معنى القول دون حروفه، وهي جملة: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾.

أمرهم عليه السلام بثلاثة أوامر:

أوَّلها: أن يعبدوا الله، بمعنى: أن يخضعوا له كل الخضوع الممزوج بغاية الحب. فهذه هي حقيقة العبادة، الَّتي لا يستحقها إلَّا الخالق الأعظم، والرب الأعلى، واهب النعم العليا. ومعنى هذا: ألا يعترفوا بربٍّ غيره، ولا بمعبودٍ سواه، ولا آمر ولا ناهٍ إلَّا هو. وهذا معنى: أنَّه لا إلٰه إلَّا هو.

وثاني هذه الأوامر: أن يتَّقوه سبحانه، ومعنى تقواه: أن يخافوا مقامه، ويلتزموا أحكامه، فلا يعصوا له أمرًا، ولا يرفضوا له رسالة، ولا يتوانَوْا في تنفيذ كل ما يطلبه منهم. فالمراد: اتركوا محارمه، واجتنبوا مآثمه.

والأمر **الثالث**، هو الَّذي قال فيه: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ أي: أطيعوني فيما آمركم به، وأنهاكم عنه. طلب منهم أن يطيعوا أمره؛ لأنَّ أمره ليس من عند نفسه، ولا من طوع هواه، ولكنَّه من عند ربه، كما قال تعالى عن نبيه محمد: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وكذلك هنا: من أطاع نوحًا فقد أطاع الله تعالى، فلم يجئ الأنبياء الَّذي أرسلهم الله لعباده

QaradawiBooks.com

ليجعلوا البشر خَوَلًا لهم، أو عبيدًا في أيديهم، بل إنَّما جاؤوا ليحرِّروهم من كل ما يُقَيِّدهم في حياتهم، ويضع الأغــلال في أعناقهم، بلا هدف يحتاج إليه النَّاس، ولا أمر من الله ﷻ، فهو لا يأمر إلَّا بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى.

﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾:

أي: إذا فعلتــم ما أمرتكــم به، واتقيتــم ما نهيتكم عنــه، وصدَّقتم ما أُرسلتُ به إليكم؛ غفر الله لكم ذنوبكم. و«مِنْ» في قوله: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ قيل: إنَّها زائدة، ولكن القول بزيادتها في الإثبات قليل، «إنَّما الزيادة في النفي». ومنه قول بعض العرب: قد كان من مطر.

وقيل: إنَّها بمعنى «عن» تقديره: يصفح لكــم عن ذنوبكم. واختاره ابن جرير. ولا أرجِّح اختياره.

وقيل: إنَّها للتبعيض. أي: يغفر لكــم الذنوب العظيمة الَّتي أوعدكم على ارتكابكم إيَّاها بالانتقام.

والمعنى الراجح لـ «مِن» أنَّها تبعيضيَّة، وعلى هذا يكون المعنى: إن تعبدوا الله وتتَّقوه وتطيعوني فيما أدعوكم إليه، يَغفر لكم بعضَ ذنوبكم، وهي حقوق الله عليكم، فلا يؤاخذكم عليها، ولا يُجازيكم بعذاب على اقترافهــا، ويُبْقي عليكم حقوق العبــاد، فهذه إمَّا أن تؤدُّوهــا، أو تؤدُّوا تعويضًا عنها، أو يُسامحكم أصحابها.

﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾:

أي: يمدُّ في أعماركم، ويدرأ عنكم العــذاب، الَّذي ـ إن لم تجْتنبوا ما نهيتكم عنه ـ أُوقِعه بكم. وقد يستدل بهذه الآية من يقول: إنَّ الطاعة

QaradawiBooks.com

والبرَّ وصلة الرحم يزاد بها في العمر حقيقة، كما ورد به الحديث: «**صلةُ الرحم تَزيدُ في العُمر**»(١).

وقـول الله تعالـى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة، فإنـه إذا أمر تعالى بكون ذلك لا يرد أمره ولا يمنع، فإنه العظيم الَّذي قد قهر كل شـيء، العزيز الَّذي دانت لعزَّته جميع المخلوقات.

ما الفائدة من قوله: ﴿لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؟

والجواب: الغرض الزجر عن حبِّ الدنيا، وعن التهالك عليها، وعن الإعراض عن الدين بسـبب حُبِّهـا. يعني: أن غلوَّهم فـي حب الدنيا، وطلب لذاتها، بلغ إلى حيث يدل على أنَّهم شاكون في الموت.

* * *

مناجاة نوح ربه وذكره ما لَقِيَ من قومه وطريقة دعوته لهم:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۞ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۞ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۞ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۞ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۞ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۞ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۞ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ۞ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ۞ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ۞

(١) رواه الطبراني (٢٦١/٨)، وحسَّن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (١٣١٧)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٤٦٣٧)، عن أبي أمامة. وفي البخاري في الأدب (٥٩٨٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٧)، عن أنس بن مالك بلفظ: «من أحبَّ أن يُبسَـط له في رزقه، ويُنسأ له في أَثَره، فلْيَصِلْ رحمه».

QaradawiBooks.com

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۞ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۞ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۞ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۞ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۞ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [الآيات: ٥ ـ ٢٠].

تفسير الآيات:

في هـذه الآيات الكريمـة يخبرنـا الله تعالى عن عبده ورسـوله نوح عليه السلام: أنَّه قال مناجيًا لربه، وحاكيًا لـه تعالى ـ وهو أعلم بحاله ـ ما لَقِيَ مـن قومه، وما صبر عليهم في تلك المـدة الطويلة، الَّتي هي أطول مدة قضاها رسـول مع قومه المشـركين، وهي ألف سـنة إلَّا خمسين عامًا، كما ذكره الله في سـورة العنكبوت، وهو لم يُقصِّر يومًا في دعوة قومه إلى ربِّه سـبحانه، وتوحيده وعبادتـه وتقواه، فكم بيَّن لقومِه الغاية، ووَضَّح لهـم الطريق، ودعاهم إلى اتِّبـاع طريق الهدى والرشد، وسلوك السبيل الأقوم، مُغيِّرًا ما استطاع من طريقة إلى أخرى، ومن وقت إلى آخر، من سـر إلى جهار، ومن ليل إلى نهار، فلم يجد إلَّا النفار غاية النفار.

تأسُّف نوح وتحزُّنه من قومه وشكواه إلى الله:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۞ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الآيتان: ٥، ٦]

هكذا صرَّح الرجل، وباح بكل ما عنده. أي: لم أترك دعاءهم إليك في ليل ولا نهار، امتثالًا ـ يا ربِّي ـ لأمرك، وابتغاء مرضاتك.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: كلَّمـا دعوتهم ليقتربـوا من الحق، وحبَّبته إليهـم، فرُّوا منه، وحـادوا عنه. فالمراد بالفـرار: التباعد عن الإيمان.

QaradawiBooks.com

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [الآية: ٧]

بيَّن الله تعالى لنا موقف نوح من قومه، وشدَّة إعراضهم عنه، على الرُّغم ممَّا يصنع من أساليب، ويفكِّر من حيل، ليقرِّبهم إلى ربِّهم، ويُحبِّب إليهم طاعته، ولكنَّهم لا يجيبون. فهنا يقول: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي: دعوتهم إلى سبب المغفرة وهو: الإيمان والطاعة لك؛ والاستقامة على طريقك، فقاوموا هذه الدعوة بكل عناد وقوة، فـ ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: أطراف أصابعهم؛ لئلَّا يسمعوا صوتي.

وهذا هو نهاية الصدود والإعراض عن الداعي، بحيث لا يريدون أن يسمعوا له صوتًا، ولا أن يروا له وجهًا. كما أخبرنا تعالى عن كفَّار قريش المُصرِّين على الكفر: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]. وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ غطوا بها وجوههم لئلا يروني، أي: بالغوا في التَّغطِّي بها، كأنَّهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم أو تُغشِّيهم؛ لئلا يبصروه، كراهة النظر إليه، وليشعروه بأنَّه صار ثقيلَ الظلِّ كريهًا لديهم، أو لئلَّا يعرفهم فيدعوهم.

﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾: أي: أصرُّوا واستمروا على الكفر، فلم يتوبوا، واستكبروا عن قبول الحق، فلم يرجعوا؛ لأنَّهم قالوا لنوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

و﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ إنَّما ذكرت للتفخيم. أي: استكبارًا عظيمًا بالغًا إلى النهاية القصوى. أي: لزموا بعنادٍ ما هم عليه من كفر، واستكبروا عن الإيمان بك تكبُّرًا مُسْرفًا شنيعًا.

QaradawiBooks.com

قال قتادة: إنَّ الرجل منهم كان يذهب بابنه إلى نوح، فيقول له: احذر هذا لا يُغوِيَنَّك، فإنَّ أبي قد ذهب بي إليه، وأنا مثلُك، فحَذَّرني مِثلَ ما حذَّرتُك(١).

استمرار نوح في دعوة قومه رغم إصرارهم على الكفر:

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۞ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ [الآيتان: ٨، ٩]

يبيِّن نوح لربه سبحانه ما فعله مع قومه، من أنَّه تفرَّغ لهم في دعوته، فدعاهم دعوة جهرية خالصة للجهر، ثمَّ دعاهم دعوة أخرى، يجمع فيها بين الجهر والإعلان وبين الإسرار، يتقلَّب على كل الوجوه، ويتلوَّن بكل الألوان، عسى أن يكون في لون منها ما يستجيب له القوم، وهيهات هيهات.

أي: ثمَّ إنِّي بعدَ اليأس من استخدامِ أسلوب العرض العادي على أفرادِهم وجماعاتهم، دعوتُهم في مجامعهم خطيبًا مُعلنًا بأعلى صوتي، ثمَّ بعد اليأس من دعوتهم جهارًا، اتّخذت أسلوب الإعلان والإسرار، فدعوتُ بعضهم علانية بالمحادثة والحوار والمجادلة، ودعوتُ أفرادًا منهم بأسلوب الحديث السرِّي، ولم أنشره وأحدِّث النَّاس به؛ ليكون أدعى للتأثير بهم.

قال الفخر الرازي: «واعلم أنَّ هذه الآيات تدلُّ على أنَّ مراتب دعوته كانت ثلاثة، فبدأ بالمناصحة في السرِّ، فعاملوه بالأمور الأربعة [المذكورة في الآية السابقة(٢)]، ثمَّ ثنَّى بالمجاهرة، فلمَّا لم يؤثر، جمع بين الإعلان

(١) رواه الطبري في التفسير (٦٣١/٢٣).

(٢) ﴿ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾.

QaradawiBooks.com

والإسرار. وكلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ دالة على تراخي بعض هذه المراتب عن بعض، إما بحسَب الزمان، أو بحسَب الرتبة؛ لأنَّ الجهار أغلظ من الإسرار، والجمع بين الإسرار والجهار أغلظ من الجهار وحده»(١).

الإيمان سبيل إلى الحياة الطيبة:

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [الآيات: ١٠ ـ ١٢]

من الأساليب الَّتي أسَّسها نوح: أنَّه لم يجعل الدعوة إلى توحيد الله وعبادته طريقًا إلى الجنَّة فقط، بل بيَّن أنَّها طريق إلى الحياة الطيِّبة في الدنيا، فليس وراءها إلَّا سعادة الدارَيْن، ونَيْل الحسنيَيْن في الدنيا والآخرة، كما علَّمنا القرآن في دعاء المؤمنين الصَّادقين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١].

الاشتغال باستغفار الله تعالى وطاعته سبب لإدرار الخيرات كلها:

بيَّن القرآن الكريم على لسان نوح عليه السلام: أنَّ الاستغفار ـ ومعناه: طلب المغفرة، وهي العفو عن الذنوب صغيرها وكبيرها ـ من الله تعالى، وطاعته، يدرُّ على الإنسان، وعلى الجماعة كلها خيرات الدنيا الَّتي يجْري النَّاس وراءها، ويفتح أبوابها واسعةً لهم. وهذا واضح في كتاب الله، ومجمع عليه من العلماء.

قال الإمام الرازي: «واعلم أنَّ الاشتغال بالطاعة سببٌ لانفتاح أبواب الخيرات، ويدلُّ عليه وجوه:

---

(١) تفسير الرازي (٣٠/٦٥١).

نسخة مجانية غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

أحدها: أنَّ الكفر سبب لخراب العالم، على ما قال في كفر النصارى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ [مريم: ٩٠، ٩١]. فلمَّا كان الكفر سببًا لخراب العالم، وجب أن يكون الإيمان سببًا لعمارة العالم.

وثانيها: الآيات في القرآن، منها هذه الآية، ومنها: قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦].

﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ [الجن: ١٦].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

وثالثها: أنَّه تعالى قال: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فإذا اشتغلوا بتحصيل المقصود، حصل ما يحتاج إليه في الدنيا على سبيل التبعية.

ورابعها: أنَّ عمر خرج يستسقي، فما زاد على الاستغفار، فقيل له: ما رأيناك استسقيت! فقال: لقد استسقيت بمجاديح السماء(١)! المِجْدح: ثلاثة كواكب مخصوصة، ونوؤه يكون غزيرًا، شبَّه عمر (الاستغفار) بالأنواء الصادقة الَّتي لا تخطئ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في الصلاة (٤٩٠٢)، وسعيد بن منصور في التفسير (١٠٩٥)، وقال النووي في خلاصة الأحكام (٣١١٦): إسناد صحيح، لكنَّه مرسل؛ لم يدرك الشعبي عمر.

QaradawiBooks.com

وعن بكر بن عبد الله: إن أكثر النَّاس ذنوبًا أقلهم استغفارًا، وأكثرهم استغفارًا أقلهم ذنوبًا: يدل عليه قوله تعالى في شأن المحسنين: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨].

وعن الحسن: أن رجلًا شكا إليه الجدب، فقال: استغفر الله. وشكا إليه آخر الفقر، وآخر قلة النسل، وآخر قلة ريع أرضه، فأمرهم كلَّهم بالاستغفار، فقال له بعض القوم: أتاك رجال يشكون إليك أنواعًا من الحاجة، فأمرتهم كلهم بالاستغفار، فتلا له هذه الآيات».

أقول (القرضاوي): إنَّ الاستغفار الَّذي أمر الحسن به النَّاس، ليس هو مجرَّد لوك للسان بالدعاء، وطلب المغفرة من الله، مع بُعْد القلب عن الله وعن الإخلاص له، فهذا هو الَّذي قيل فيه: إن استغفارنا يحتاج إلى استغفار!

«وههنا سؤالان:

الأول: أنَّ نوحًا عليه السلام أمر الكفَّار قبل هذه الآية، بالعبادة والتقوى والطاعة، فأي فائدة في أن أمرهم بعد ذلك بالاستغفار؟

والجواب: أنَّه لما أمرهم بالعبادة قالوا له: إن كان الدين القديم الَّذي كنا عليه حقًّا، فلِمَ تأمرنا بتركه؟ وإن كان باطلًا، فكيف يقبلنا بعد أن عصيناه؟ فقال نوح عليه السلام: إنَّكم وإن كنتم عصيتموه، ولكن استغفروه من تلك الذنوب، فإنَّه سبحانه كان غفارًا.

السؤال الثاني: لِمَ قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾، ولم يقل: إنَّه غفَّارٌ؟

قلنا: المراد: إنَّه كان غفَّارًا في حقِّ كلِّ مَنِ استغفروه، كأنَّه يقول: لا تظنُّوا أن غفَّاريَّته إنَّما حدثت الآن، بل هو أبدًا هكذا كان، فكأنَّ هذا هو حرفته وصنعته»(١).

(١) تفسير الرازي (٦٥٢/٣٠) بتصرُّف يسير.

QaradawiBooks.com

من بركات الاستغفار:

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [الآيات: ١١ ـ ١٣]

قال الرازي في تفسير هذه الآيات: «واعلم أنَّ الخلق مجبولون على محبَّة الخيرات العاجلة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣]. فلا جرَم أعلمهم الله تعالى هاهنا أن إيمانهم بالله يجمع لهم مع الحظ الوافر في الآخرة الخِصْب والغنى في الدنيا.

والأشياء الَّتي وعدهم من منافع الدنيا في هذه الآيات خمسة:

أوَّلها: قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾.

وفي السماء وجوه:

(**أحدها**): أنَّ المطر منها ينـزل إلى السحاب.

(**وثانيها**): أن يراد بالسماء السحاب.

(**وثالثها**): أن يراد بالسماء المطر من قوله:

إذا نـزل السـماءُ بأرضِ قَوْمٍ رَعَيْنَـاهُ وإن كانـوا غِضَابًا(١)

والمدرار: الكثير الدرور، و«مِفْعَال» ممَّا يستوي فيه المذكَّر والمؤنَّث، كقولهم: رجل أو امرأة مِعطار ومِثقال.

وثانيها: قوله: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ﴾ وهذا لا يختصُّ بنوعٍ واحد من المال، بل يعمُّ الكل.

---

(١) من شعر معاوية بن مالك. انظر: المفضليات صـ ٣٥٩، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، نشر دار المعارف، القاهرة، ط ٦.

QaradawiBooks.com

وثالثها: قوله: ﴿وَبَنِينَ﴾ ولا شكَّ أنَّ ذلك ممَّا يميل الطبع إليه. كما قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

ورابعها: قوله: ﴿وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ أي: بساتين.

وخامسها: قوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾». يعني: الأنهار الَّتي تسقيكم وتسقي أنعامكم ورواحلكم وبساتينكم وأرضكم.

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾:

قال الفخر الرازي: «ثمَّ قال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ وفيه قولان:

الأول: أنَّ الرجاء ههنا بمعنى الخوف، ومنه قول الهُذَلي:

إذا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لم يَرْجُ لَسْعَها(١)

والوقار: العظمة، والتوقير: التعظيم، ومنه: قوله تعالى: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩]. بمعنى: ما بالكم لا تخافون لله عظمة؟!».

قال الفخر الرازي: «وهذا القول عندي غير جائز؛ لأنَّ الرجاء ضد الخوف في اللغة المتواترة الظاهرة، فلو قلنا: إنَّ لفظة الرجاء في اللغة موضوعة بمعنى الخوف، لكان ذلك ترجيحًا للرواية الثابتة بالآحاد، على الرواية المنقولة بالتواتر، وهذا يفضي إلى القدح في القرآن، فإنَّه لا لفظ فيه إلَّا ويمكن جعل نفيه إثباتًا وإثباته نفيًا بهذا الطريق.

الوجه الثاني: ما ذكره صاحب «الكشَّاف»(٢) وهو أنَّ المعنى: ما لكم لا تأملون لله توقيرًا؟ أي: تعظيمًا. والمعنى: ما لكم لا تكونون

(١) صدر بيت لأبي ذؤيب الهذلي، وعجزه: وخالفها في بيتِ نُوبٍ عواسلِ. انظر: جمهرة أشعار العرب صـ ٢٧، تحقيق علي محمد البجادي، نشر نهضة مصر.

(٢) الكشاف (٤/٦١٧).

QaradawiBooks.com

على حال تأملون فيها تعظيم الله إيَّاكم؟ و﴿لِلَّهِ﴾ بيان للموقِّر، ولو تأخَّر لكان صلة للوقار»[١].

وقال القرطبي: «الرجاء هنا بمعنى الخـــوف[٢]، أي: ما لكم لا تخافون لله عظمة وقدرة على أخذكم بالعقوبة، أيْ: أيُّ عذر لكم في ترك الخوف من الله؟

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ في موضع الحال، كأنَّه قال: ما لكم لا تؤمنون بالله، والحال هذه؟ وهي حال موجِبة للإيمان به.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي: تارات؛ خلقكم أولًا ترابًا، ثمَّ خلقكم نطفًا، ثمَّ خلقكم علقًا، ثمَّ خلقكم مضغًا، ثمَّ خلقكم عظامًا ولحمًا، ثمَّ أنشأكم خلقًا آخر[٣]. وهو ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤]».

الدليل من الأنفس على التوحيد:

قال الإمام الرازي: «واعلمْ أنَّه لمَّا أمر في هذه الآية بتعظيم الله تعالى استدلَّ على التوحيد بوجوه من الدلائل:

الأوَّل: قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ وفيه وجهان:

الأوَّل: قال الليث: الطور: التارة. يعني: حالًا بعد حال، كما ذكرنا أنَّه كان نطفة، ثمَّ علقة إلى آخر التارات.

(١) تفسير الرازي (٣٠/٦٥١ ـ ٦٥٣) بتصرف، وانظر: الكشاف للزمخشري (٤/٦١٧ ـ ٦١٨).
(٢) وهو الرأي الذي ردَّه الرازي كما ذكرنا.
(٣) تفسير القرطبي (١٨/٣٠٣) بتصرف.

QaradawiBooks.com

الثاني: قال ابن الأنباري: الطور: الحال[١]. والمعنى: خلقكم أصنافًا مختلفين، لا يشبه بعضكم بعضًا. و«الأطوار» جمع «طَوْر». و«الطور» في اللغة: المرَّة، أي: من فعل هذا وقدر عليه، فهو أحقُّ أن تعظموه.

وفسَّره بعضهم تفسيرًا آخر، فقال: ﴿أَطْوَارًا﴾ أي: صبيانًا، ثمَّ شبانًا، ثمَّ كهولًا، ثمَّ شيوخًا وضعفاء، ثمَّ أقوياء في الآخرة.

وقيل: ﴿أَطْوَارًا﴾ أي: أنواعًا: صحيحًا وسقيمًا، وبصيرًا وضريرًا، وغنيًّا وفقيرًا، إلخ.

ولما ذكر هذا الدليل من الأنفس على التوحيد، أتبعه بذكر دليل التوحيد من الآفاق، على العادة المعهودة في كل القرآن.

الدليل من الآفاق على التوحيد:

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾

الدليل الثاني على التوحيد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح١٥، ١٦].

واعلم أنَّه تعالى تارة يبدأ بدلائل الأنفس، وبعدها بدلائل الآفاق، كما في هذه الآية؛ وذلك لأن نفس الإنسان أقرب الأشياء إليه، فلا جرم بدأ بالأقرب.

وتارة يبدأ بدلائل الآفاق، ثمَّ بدلائل الأنفس، إما لأن دلائل الآفاق أبهر وأعظم، فوقعت البداية بها لهذا السبب، أو لأجل أن دلائل الأنفس

(١) الزاهر (٤٥٤/١).

QaradawiBooks.com

حاضرة، لا حاجة بالعاقل إلى التأمُّل فيها. إنَّما الَّذي يحتاج إلى التأمل فيه دلائل الآفاق؛ لأنَّ الشبه فيها أكثر، فلا جرم تقع البداية بها»[1].

رأي البحوث العلمية في لفظ (أطوار):

يقول العلَّامة الدكتور زغلول النجار في موسوعته العلميَّة للإعجاز القرآني:

«ويشمل لفظ «أطوار» في الآية الكريمة الَّتي نحن بصددها مراحل الخلق المتدرِّجة الَّتي يمرُّ فيها جنين الإنسان من النطفة، إلى النطفة الأمشاج، إلى العلقة، إلى المضغة، إلى خلق العظام، ثمَّ كسوتها لحمًا، حتَّى إنشائه خلقًا آخر.

وانطلاقًا من عتاب الله سبحانه وتعالى لكُفَّار ومشركي قوم نوحٍ ولأمثالهم من الكفَّار والمشركين في كل زمان ومكان إلي يوم الدين، يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي: أفلا تدركون عظمة الله، وطلاقة قدرته، فتطيعونه وتخشون عقابه، ولقد خلقكم في عدد من التارات المتعاقبة الَّتي لا يكاد بعضها أن يُرى بالعين المجرَّدة، والخروج عن طاعة هذا الخالق العظيم، الَّذي بيده مقاليد خلقكم ورزقكم، وسعادتكم أو شقائكم؛ لا يمكن أن يصدر عن ذي بصيرة أبدا؟ !

وقد جاء ذكر أطوار خلق الانسان هذه في مراحله الجنينيَّة المتتالية مرتبة ترتيبًا دقيقًا، وموصوفة وصفًا شاملًا، لم تصله بعد العلوم المكتسبة في قمتها الحالية، وذلك في عدد من آيات القرآن الكريم، منها: (النحل: ٤، الكهف: ٣٧، الحج: ٥، المؤمنون: ١٣، ١٤، فاطر: ١١، يس: ٧٧، غافر: ٦٧، النجم: ٤٥، ٤٦، القيامة: ٣٧، الإنسان: ٢، عبس: ١٩).

(١) تفسير الرازي (٣٠/٦٥٣ ـ ٦٥٤).

QaradawiBooks.com

وهذا الوصــف القرآني المعجز، جاء في زمن ســاد فيــه الاعتقاد بأن الجنين البشــري يُخلَق خلقًا كامــلًا في صورة متقزِّمة جــدًّا، لا تكاد ترى بالعين المجــردة، وذلك من دم الحيض فقط، أو من مــاء الرجل فقط، ثمَّ يزداد في الحجم تدريجيًّا حتَّى لحظة الميلاد. فلم تكتشف العلوم المُكْتسبة كلًّا من نطفة الرجل ونطفة المرأة إلَّا في أواخر القرن السابع عشر الميلادي، بعد بناء المجهر. وحتى بعد اكتشــافهما فإن دورهما في تكوين الجنين لم يدرك إلَّا في أواخر القرن الثامن عشــر الميلادي، ولم يُعرفا على أنهما من الخلايا الحيَّة، إلَّا بعد منتصف القرن التاسع عشر الميلادي (١٨٥٩م)، ولم تعترف العلوم المكتسبة أنَّ الجنين يتخلَّق بإخصاب نطفة الأنثى (البييضة) بواسطة نطفة الذكر (الحيمن) إلَّا في القرن التاسع عشر ميلادي.

وعلى ذلك فــإنَّ التأكيد علــى دور كل من الذكر والأنثــى في تخلُّق الجنين، ووصف أطوار الجنين البشري في مراحله المتتالية بدقَّة متناهية في كل من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ من قبل أربعة عشر قرنًا، وفي زمن بدائي لم يتوافر لأيٍّ من الخلق طُوالَه أية وسيلة من وسائل التكبير أو التصوير أو الفحص، لممَّا يؤكِّد لكلِّ ذي بصيرة أنَّ القــرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشــريَّة، بل هو كلام الله الخالق الَّذي أنــزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الَّذي قطعه على ذاته العليَّة، في نفس لغة وحيه (اللغة العربيــة)، وحفظه حفظًا كامــلًا على مدى الأربعة عشــر قرنًــا الماضية، وتعهَّد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذلك الحفظ الدقيق إلى قيام الساعة، حتَّى يبقى القرآن الكريم شــاهدًا على جميع الخلق في كل زمــان ومكان، إلى أن يــرث الله تعالى الأرض ومن عليها، شاهدًا على جميع الخلق في كل زمان ومكان بأنَّه كلام الله الخالق، وشاهدًا للرسول الخاتم الَّذي تلقَّاه بالنبوة وبالرسالة.

QaradawiBooks.com

فالحمد الله على نعمة الإسلام، والحمد الله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة النبي والرسول الخاتم، الَّذي تلقاه صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أنَّ الحمد لله رب العالمين»[1].

رأي العلم الحديث في السماوات السبع الطباق:

يقول د. زغلول النجار عن هذه الآية من سورة الملك، ومن سورة نوح ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾: «ويتَّضح من هاتين الآيتين الكريمتين أنَّ السماوات السبع متطابقة حول مركز واحد، يغلف الخارج منها الداخل، وإلا ما كان جميع ما في السماء الدنيا واقعًا في داخل باقي السماوات، فيكون كل من القمر والشمس ـ وهما من أجرام السماء الدنيا ـ واقعيْن في جميع السماوات السبع.

والقرآن الكريم يصف الحركة في السماء الواحدة، وفي السماوات السبع بالعروج، والعروج لغة: هو سيْر الجسم في خطٍّ منعطف مُنْحنٍ، وقد ثبت علميًّا أن حركة الأجسام في الجزء المُدْرَك من الكون لا يمكن أن تكون في خطوط مستقيمة أبدًا، بل لا بدَّ لها من الانحناء، نظرًا لانتشار المادة والطاقة في كل الكون، وتأثير كلٍّ من جاذبية المادَّة «بأشكالها المختلفة» والمجالات المغناطيسيَّة للطاقة «بصورها المتعدِّدة» على حركة الأجسام في الجزء المدرَك من الكون»[2].

(١) موسوعة الإعجاز العلمي (خلق الإنسان) (٣٨٢/٤ ـ ٣٨٥).
(٢) موسوعة الإعجاز العلمي (السماء) (١٤٦/١، ١٤٧).

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [الآية: ١٧]

يستمر نوح في بيانه لقومه عن عظمة ربه الأعلى، الَّذي خلق فسوَّى، والذي قدَّر فهدى، فكان ممَّا نبَّههم عليه، وأرشدهم إليه: أنَّه سبحانه هو الَّذي أنبتهم من الأرض، أي: أخرجهم منها كما يخرج سبحانه النبات من الأرض، وهو ما يراه النَّاس بأعينهم، ويشاهدونه في حياتهم.

كذلك أنبتهم من الأرض على معنى: أنَّهم يكوِّنُهم من هذه الأرض الَّتي يمشون عليها؛ لأن أجسامهم الَّتي يحيون بها، إنَّما تنشأ من الأغذية الَّتي يأكلونها. وهذه الأغذية هي الَّتي تنبت اللحم، وتنشئ العظم، وتنمِّي الأعصاب والحواس، وكل أجهزة الجسم وخلاياه. وهذه الأغذية النباتية والحيوانية بكل مكوناتها إنَّما هي من الأرض.

ومِن المفسرين مَن قال: ﴿أَنۢبَتَكُم﴾ أي: أنبت أباكم آدم، حيث خلق الله أول ما خلقه من طين، وهو ما عبَّر عنه بالتراب أو الصَّلصال أو الحمأ المسنون.

ولكن هذا خلاف ظاهر اللفظ الَّذي جاء به القرآن، وربما قال الكفَّار المعاندون: نحن لم نرَ آدم، وقد لا نُصدِّق أنَّه خلق من الأرض.

استعار القرآن كلمة الإنبات في الآية للإنشاء الإلهي، وانتصاب «نباتًا» بـ «أنبتكم» مصدرًا على حذف الزائد، أي: إنباتًا. أو على إضمار فعل، أي: فنبتُّم نباتًا.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ [الآية: ١٨]

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا﴾ أي: بالدفن في الأرض والإقبار فيها، كما قال تعالى:

QaradawiBooks.com

﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ۞ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۞ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۞ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٨ ـ ٢١].

﴿وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجًا﴾ أي: يوم القيامة يُخرجكم من قبوركم، ويبْعثكم بعد موتكم، كما قال تعالى: ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾ [القمر: ٧]. ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا﴾ [الآية: ١٩].

أي: تتقلبون عليها، كما يتقلَّب الرجل على فراشه. أي: مبسوطة مستوية، ولم يجعلها كلَّها جبالًا وَعِرة، بل جعلها بساطًا أي: طُرقًا واسعة مفتوحة لكم، واكتفى بهذه المنفعة عن بقية المنافع والاستفادات منها؛ لأنَّ سلوك الطرق واسطة لجميع ذلك.

قال العلَّامة أبو حَيَّان في تفسيره «البحر المحيط»: وظاهره أنَّ الأرض ليست كرويَّة بل هي مبسوطة[1].

وقال ابن عطيَّة في «المحرَّر الوجيز»: قوله تعالى: ﴿بِسَاطٗا﴾ يقتضي ظاهره أنَّ الأرض بسيطة كروية، واعتقاد أحد الأمرين غير قادح في نفسه، اللهم إلَّا أن يترتب على القول بالكروية نظر فاسد[2].

وأقول لهؤلاء العلماء الكبار في معارفهم الدينيَّة: إنَّ القرآن الكريم لم ينفِ كرويَّةَ الأرض بأيِّ لفظ كان، ولكن قال: إنَّ الله جعلها بساطًا، وهذه حقيقة، فالكرة الكبيرة تعتبر بسيطة لمن يقف عليها، إذا كان حجمه صغيرًا. كما لو وضعت كرة مثل قرية، ووضعت عليها مثل النمل أو

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٢٨٤/١٠).
(٢) تفسير ابن عطية (٣٧٥/٥).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

النحل أو الذباب ونحوها علـى ظهرها، فإنه يتعامل معها كأنَّما هو على ظهر مُسطَّح، لا يبدو له غيره.

وكذلك مرَّ الزمان الطويل المديد يتعامل النَّـاس مع الأرض قرونًا على أنَّها مسطَّحة، ولم يتبيَّن لهم طرف سطحها، فإنَّ المسطح لا بدَّ له من أطراف أربعة، تظهر فيها نهاية أطرافه، أو أحد أطرافه.

وقد اكتشف المسلمون قبل غيرهم: أنَّ الأرض كروية، وأثبتوا ذلك في كتبهم، وعرفها كثير من علمائهم، وكتب في ذلك الإمام الموسوعي أبو محمَّد بن حزم في كتابه «الفِصَل فــي المِلَل والأهواء والنِّحَل» مبيِّنًا صحَّة ذلك بالأدلَّة العقليَّة، بل والنقليَّة، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قالوا: إنَّ البراهين قد صحَّتْ بأنَّ الأرض كرويَّة، والعامَّة تقول غير ذلك.

وجوابنا وبالله تعالى التوفيق: إنَّ أحدًا من أئمَّة المسلمين المستحقِّين لاسم الإمامة بالعلم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لم ينكروا تكوير الأرض، ولا يحفظ لأحد منهم في دفعه كلمة، بل البراهين من القرآن والسُّــنَّة قد جاءت بتكويرها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ [الزمـر: ٥]، وهذا أوضح بيان في تكوير بعضها على بعض، مأخوذٌ من كَوْر العمامةِ، وهو إدارتها. وهذا نصٌّ على تكوير الأرض ودوران الشمس كذلك، وهي الَّتي منها يكون ضوء النهار بإشـراقها، وظلمة الليل بمغيبها، وهي آية النهار بنصِّ القرآن، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]...»(١).

جواب الإمام الرازي عن بسط الأرض وكُرويَّتها:

وقال الإمام فخر الدين الـرازي: «فإن قيل: هل يدلُّ قولُه: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾ على أنَّها بسيطة؟

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٧٨/٢)، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة.

نسخة مجانية غير مخصصة للطباعة
QaradawiBooks.com

قلنا: نعم؛ لأنَّ الأرض بتقدير كونها كرة، فهي كرة في غاية العظمة، والكرة العظيمة يكون كلُّ قطعةٍ صغيرة منها، إذا نُظر إليها فإنَّها ترى كالسطح المستوي، وإذا كان كذلك زال ما ذكروه من الإشكال، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧]. سمَّاها أوتادًا، مع أنَّه قد يحصل عليها سطوح عظيمة مستوية، فكذا هاهنا»(١).

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ۝ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ۝ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ [الآيات: ٢١ ـ ٢٤]

هذا شوط جديد من أشواط نوح لدعوته، الَّتي طالما تكررت في تلك المدة المديدة الَّتي استغرقت أجيالا من النَّاس في تسعمائة وخمسين عامًا، والرجل المرسل إليهم من ربهم بالدعوة إلى توحيده وعبادته وتقواه، يواجههم بنفس الدعوة، لا يتزحزح عنها، ولا هم يتزحزحون عن موقفهم العنيد، الَّذي يتواصون عليه، كل جيل منهم يوصي آباؤه أبناءَهم، وحين يكبر الأبناء يوصون أبناءَهم.. وهكذا.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الآية: ٢١]

أعيد لفظ الحكاية لطول العهد بحكاية مناجاته لربه، أي: قال مناجيًا له تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ أي: ثبتوا واستمروا على مخالفتي وعِصْياني. فهو يشكو إلى ربه جل وعلا من موقف قومه، وقد دعاهم في أول الأمر: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾. فلا هم عبدوا الله، ولا اتقوه، ولا أطاعوا نوحًا ولا اتَّبعوه، ولكن للأسف اتَّبعوا رؤساءهم وكبراءهم الَّذي أضلوهم عن الحق، وأبعدوهم عن طريق الرُّشد، فقال:

(١) تفسير الرازي (١٣١/١٩).

QaradawiBooks.com

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾ أي: اتَّبعوا فئة من النَّاس، أعمتْهم أهواؤهم، وغرَّتهم شياطينهم، وأعطاهم الله من نعمه الكبيرة، فلم يشكروا الله عليها، بل اغترُّوا بها، وكانت فتنته لهم، وهي: المال والولد، كما قال تعالى في القرآن: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [التغابن: ١٥]. لم يزد هؤلاء القوم من الكبراء والأغنياء كفرهم وأموالهم وأولادهم إلَّا ضلالًا في الدنيا، وهلاكًا في الآخرة. قالوا: دعا نوح الأبناء بعد الآباء، فوجد الجميع على طريقة واحدة.

تكلم الرازي عن دعوة نوح وموقف قومه منه، فقال:

«واعلمْ أنَّ نوحًا عليه السلام لمَّا دعاهم إلى الله، ونبَّههم على هذه الدلائل الظاهرة، حكى عنهم أنواع قبائحهم وأقوالهم وأفعالهم.

فالأوَّل قوله: ﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي﴾ وذلك؛ لأنَّه قال في أول السورة: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٣]. فكأنه قال: قلتُ لهم: أطيعوني، فهم عصوني.

الثاني قوله: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: ذكر في الآية الأولى: أنَّهم عصوه، وفي هذه الآية: أنَّهم ضمُّوا إلى عصيانه معصية أخرى، وهي طاعة رؤسائهم الَّذين يدعونهم إلى الكفر. وقوله: ﴿مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾ يعني: هذان وإن كانا من جملة المنافع في الدنيا، إلَّا أنهما لما صارا سببًا للخسار في الآخرة، فكأنهما صارا محض الخسار.

والأمر كذلك في الحقيقة؛ لأنَّ الدنيا في جنْب الآخرة كالعدم، فإذا صارت المنافع الدنيويَّة أسبابًا للخسار في الآخرة، صار ذلك جاريًا مَجْرى اللقمة الواحدة من الحلو إذا كانت مسمومة سمَّ الوقت.

QaradawiBooks.com

واستدل بهذه الآية من قال: إنَّه ليس لله على الكافر نعمة؛ لأن هذه النعم استدراجات ووسائل إلى العذاب الأبدي، فكانت كالعدم، ولهذا المعنى قال نوح عليه السلام في هذه الآية: ﴿لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾.

المسألة الثانية: قرئ ﴿وَوُلْدُهُ﴾ بضم الواو. واعلم أنَّ الوُلْد بالضم لغة في الوَلَد، ويجوز أن يكون جمعًا، إما جمع وَلَد كالفلك، وهاهنا يجوز أن يكون واحدًا وجمعًا»[1].

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [الآيتان: ٢٢، ٢٣]

معطوف على ﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ﴾؛ لأنَّ المتبوعين هم الَّذين مكروا، وقالوا للأتباع: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾. وهؤلاء هم الَّذين مكروا.

والمكر كما قال الراغب في «مفردات القرآن»: هو صرف الغير عمَّا يَقصِده بحيلة، وذلك ضرْبان: مكر محمود، وذلك أن يُتحَرى بذلك فعل جميل، وعلى ذلك قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]، ونوعٌ مذموم، وهو أن يُتحَرَّى به فعل قبيح، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [سورة فاطر: ٤٣][2].

وهؤلاء الكبراء مكروا بالبسطاء والضعفاء من النَّاس مكرًا كُبَّارًا، أي: مكرًا عظيمًا هائلًا، بدلالة الصيغة ذاتها، تقول: مكرا كبيرًا، وكُبَارًا، وكُبَّارًا، تعظّمه وتضخِّمه، والعرب تقول: أمر عجيب وعُجَاب وعُجَّاب،

(١) تفسير الرازي (٣٠/٦٥٥).
(٢) المفردات في غريب القرآن للأصفهاني مادة (م. ك. ر).

QaradawiBooks.com

ومثل ذلك: حُسَان وحُسَّان، وجُمَال وجُمَّالٌ، وقُرَّاء للقارئ، ووُضَّاء للوَضِيء. وأنشد ابن السِّكِّيت:

بَيْضَاء تَصْطَادُ الْقُلُوبَ وَتَسْتَبِي ... بِالحُسْنِ قَلْبَ المسلمِ القُرَّاءِ[1]

ثم ذكر شيئًا من ذلك المكر، بقوله: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: لا تتركُنَّ عبادتها، ثمَّ خصُّوا بعضَها بالذِّكر لتميُّزها عندهم، وقالوا: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

قال الرازي: «المكر الكُبَّار، هو أنَّهم قالوا لأتباعهم: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾ فهم منعوا القوم عن التوحيد، وأمروهم بالشِّرك، ولما كان التوحيد أعظم المراتب، لا جرم كان المنع منه أعظم الكبائر. فلهذا وصفه الله تعالى بأنَّه كُبَّار، واستدل بهذا من فضَّل علم الكلام على سائر العلوم، فقال: الأمر بالشرك كُبَّار في القبح والخزي، فالأمر بالتوحيد والإرشاد، وجب أن يكون كُبّارًا في الخير والدِّين»[2].

أقول (القرضاوي): ولكن أن يكون تعلم التوحيد عن طريق القرآن وما يسنده من العقل والفطرة.

وتكلَّم الرازيُّ في مسألة أخرى في هذه الآية، وهي: أنَّه تعالى إنَّما سمَّاه «مكرًا» لوجهين: **الأوَّل**: لما في إضافة الإلهيَّة إليهم من الحيلة الموجبة لاستمرارهم على عبادتها، كأنهم قالوا: هذه الأصنام آلهة لكم، وكانت آلهة لآبائكم، فلو قبلتم قول نوح لاعترفتم على أنفسكم بأنكم كنتم جاهلين ضَالّين كافرين، وعلى آبائكم بأنَّهم كانوا كذلك، ولما كان

(١) البيت لزيد بن تُرْكٍ الدُّبَيْرِيّ، كما في تاج العروس مادة (ق. ر. أ). وانظر: تفسير القرطبي (٣٠٦/١٨).

(٢) تفسير الرازي (٦٥٦/٣٠).

QaradawiBooks.com

اعتراف الإنسان على نفسه، وعلى جميع أسلافه بالقصور والنقص والجهل شاقًّا شديدًا، صارت الإشارة إلى هذه المعاني بلفظ آلهتكم صارفًا لهم عن الدِّين، فلأجل اشتمال هذا الكلام على هذه الحيلة الخفية سمَّى الله كلامهم «مكرًا».

الثاني: أنَّه تعالى حكى عن أولئك المتبوعين أنَّهم كان لهم مال وولد، فلعلهم قالوا لأتباعهم: إنَّ آلهتكم خير من إلٰه نوح؛ لأن آلهتكم يعطونكم المال والولد، وإله نوح لا يعطيه شيئًا؛ لأنَّه فقير. فبهذا المكر صرفوهم عن طاعة نوح. وهذا مثل مكر فرعون إذ قال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١]. وقال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٥٢، ٥٣][1].

وقال ابن كثير في تفسير «المكر الكُبَّار»: «والمعنى في قوله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ أي: باتباعهم في تسويلهم لهم بأنَّهم على الحق والهدى، كما يقولون لهم يوم القيامة: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣٣].

﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾

وهذه أسماء أصنامهم أو آلهتهم الَّتي كانوا يعبدونها من دون الله.

روى البخاري بسنده عن ابن عبَّاس: صارت الأوثان الَّتي كانت في قوم نوح في العرب بعدُ، أمَّا وَدّ: فكانت لكلب بدومة الجندل، وأمَّا سُواع: فكانت لهذيل، وأمَّا يغوث: فكانت لمراد، ثمَّ لبني غُطَيف بالجُرُف عند سبأ، أمَّا يَعوقُ: فكانت لهَمْدان، وأمَّا نسر: فكانت لحِمْيَر

(١) تفسير الرازي (٣٠/٦٥٦).

QaradawiBooks.com

لآل ذي كَلاع. وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن: انصبوا إلى مجالسهم الَّتي كانوا يجلسون فيها أنصابًا، وسمُّوها بأسمائهم. ففعلوا، فلم تُعبد، حتَّى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخَ العلم عُبِدت[1].

وكذا رُوي عن عكرمة، والضحَّاك، وقتادة، وابن إسحاق، نحو هذا.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: هذه أصنام كانت تعبد في زمن نوح[2]»[3].

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ [الآية: ٢٤]

فهؤلاء الكبراء من قوم نوح ظلُّوا على تضليل أتباعهم من أصاغر النَّاس والمستضعفين منهم، وقد أضلوا كثيرًا منهم بفتنتهم، ولهذا دعا عليهم نوح، فقال لربِّه: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ [نوح: ٢٤]، فقد يئس منهم، ولم يعد عنده أدنى طمع في أن يؤمنوا ويرجعوا عن كفرهم، ويعترفوا بأنَّ الله هو الَّذي خلقهم ورزقهم، فلا غرْو أن يدعو عليهم كما دعا موسى عليه السلام على فرعون وملئه وجنده: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

وقيل: إنَّ الإضلال في قوله: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ﴾: إنَّما هو للأصنام، وهو شبيه بقول إبراهيم بعد أن دعا ربه فقال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. ثمَّ قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]. فيمكن أن

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٩٢٠).

(٢) رواه الطبري في التفسير (٦٤٠/٢٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٢٣٤/٨، ٢٣٥).

QaradawiBooks.com

ينسب الإضلال إلى هذه الأصنام، وهذه الحجارة الَّتي لا تبصر ولا تسمع ولا تعقل، فأجراها مجرى الآدميين، لما يقع عند كثيرين من الفتنة بها.

مصير قوم نوح وعاقبة مكرهم:

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ۝ وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ۝ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا﴾ [الآيات: ٢٤ ـ ٢٨]

بهذا الشوط تنتهي هذه السورة الَّتي نرى فيها صورة من جهاد شيخ المرسلين نوح عليه السلام، مع هؤلاء النَّاس الجاحدين العتاة غلاظ القلوب، الَّذين ضلت عقولهم، وعميت بصائرهم، والذين ظلَّ نوح يجادلهم ويعاودهم ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهارًا، ويجتهد بكل طاقته العقليَّة والنفسيَّة والروحيَّة، ليخرجهم من هذه الحجرية الصلدة، ويفكهم من الحبل الغليظ الَّذي يربطهم بجاهليتهم، الَّتي صنعوها هم، وكانوا أول من صنعها للناس، ولكن نوحًا على الرغم من فصاحة لسانه، وبلاغة كلامه، وتنوع بيانه، لم يستطع أن يغير هذا النشاز السميك، الَّذي يسدُّ آذانهم، ويغطِّي وجوههم وعقولهم.

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا﴾ [الآية: ٢٥]

ولهذا قال الله تعالى هنا: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمۡ﴾ أي: بسبب خطيئاتهم ومساوئهم المتعددة والمتنوعة. وكلمة «ما» زائدة من الناحية الإعرابية، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ﴾ [المائدة: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

QaradawiBooks.com

فيقول تعالى هنا: من أجل هذه الخطايا والذنوب والمعاصي الَّتي ظهر خبثها، وفاحت روائحها المنتنة، عمَّهم الله تعالى بالإغراق، الَّذي تبعه الإحراق: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ هذا هو الحكم الَّذي حكم الله سبحانه به عليهم من فوق سبع سماوات، بعد أن صبر عليهم وحلم عليهم كل هذه الفترة الكبيرة.

إثبات عذاب القبر:

تمسَّك أهل السنة بالآية الكريمة وغيرها في إثبات عذاب القبر، كما صحَّت به الأحاديث، وجاءت به الآيات الأُخر.

ومن ذلك ماجاء في الآية الكريمة هنا: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ فعطف دخول النَّار على الإغراق، بحرف الفاء ﴿فَأُدْخِلُوا۟﴾ والفاء في اللغة العربية، تفيد والترتيب والتعقيب بلا مهلة. فلا يمكن حملها على عذاب الآخرة؛ لأن دخول النَّار حدث عقب الإغراق.

وما يعترض به بعض النَّاس من أنَّ الميِّت من الكفَّار أو المجرمين العتاة يغرق، ونعلم أنَّه من أصحاب الجحيم، ولكنَّه يظل في البحر لا يخرجه أحد، أو في الطوفان عدة أسابيع، أو أشهر، فكيف يجتمع الماء والنار؟

والجواب: أنَّا نقول: النعيم والعذاب في القبر، أو في الحياة البرزخية؛ ليست كما هي في الحياة الآخرة، بل هي حياة أخرى، ربما يكون العذاب فيها للكيان الروحي والعقلي للإنسان، وليس للكيان الجسدي، الَّذي قد يتفتَّت أو يُذرَّى في الهواء أو غير ذلك. ولكن الله تعالى قادر على أن يوصِّله لأصله الإنساني ـ الَّذي هو أساس تكوينه وتكليفه ـ ولا بد، في الحياة البرزخية، كما قال تعالى في الشهداء:

QaradawiBooks.com

﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

وقال تعالى عن قوم فرعون الَّذين أغرقهم الله أجمعين: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۞ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

فترى هؤلاء الظالمين ـ والشِّرك ظلم عظيم ـ في سكرات الموت، والملائكة الموكَّلون بإماتة البشر باسطو أيديهم، ينادونهم: أخرجوا أنفسكم، يساعدونهم على إخراج أرواحهم من أجسادهم، لتتلقَّى ما تستحق ممَّا هو معدٌّ لها من عذاب الله. اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله من أقوال باطلة، وكانوا يستكبرون على الله، ويظنون أنفسهم يملكون شيئًا.

ليس للكفار أنصار وشفعاء:

وكان النتيجة: أنَّهم لم يجدوا لهم من دون الله أنصارًا، في حين كان المشركون من عبَّاد الأوثان يعتقدون أنَّ آلهتهم تشفع لهم عند الله، وأنَّهم عند الأزمات سينصرونهم من دون الله، وقد ظهر كَذِبُهم، ولم يُغْنوا عنهم شيئًا. ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۞ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥].

QaradawiBooks.com

قال الرازي: «قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ وهذا تعريضٌ بأنَّهم إنَّما واظبوا على عبادة تلك الأصنام، لتكون دافعة للآفات عنهم، جالبة للمنافع إليهم، فلمَّا جاءهم عذاب الله لم ينتفعوا بتلك الأصنام، وما قدرت تلك الأصنام على دفع عذاب الله عنهم. وهو كقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣]. واعلم أن هذه الآية حُجَّة على كل من عوَّل على شيء غير الله تعالى»(١).

دعاء نوح على الكافرين المعاندين:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [الآية: ٢٦]

آن لنوحٍ بعد هذا الصبر المرير والطويل، أن يلجأ إلى ربِّه، يدعوه الدعوة الَّتي لا بدَّ منها، الدعوة بتنظيف الأرض ممَّا أصابها من خُبث الكفر المُصرِّ المعاند، فلم يعد هناك أي أمل أو رجاء في أن ينبض قلب بإيمان، أو ينطق لسان بتوحيد، بعد تطاول القرون بعد القرون، وبعد أن أوحى الله إلى نوح: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]. وبعد هذا الأمر الإلهي أيقن نوح في قرارة نفسه: أنَّه يائس، بل يستيئس تمام الاستيئاس من هؤلاء الناس.

ومن هنا لا يستطيع أحد أن يدَّعِي على نوح أنَّه كان يمكن أن يطيل في دعوته أكثر فأكثر، فهذا كلام لا معنى له، وخصوصًا بعد ألف سنة إلَّا خمسين عامًا، عرف فيها طباعهم وعقولهم وحربهم. كان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه ويقول: احذر هذا فإنه كذاب، وإن أبي أوصاني بمثل

(١) تفسير الرازي (٣٠/٦٥٩).

QaradawiBooks.com

هذه الوصية، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك. لهذا قال نوح: ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي: نازلَ دارٍ؛ يريد: لا تَدَعْ منهم أحدًا إلَّا أهلكتَه.

يريد من الله جل وعلا أن يغسل الأرض غسلًا، وينظِّفها تنظيفًا تامًّا من كل ما لوَّثها من الشرك، والشرك نجس، كما قال القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]. فدعا أن لا يُبقي في الأرض كلها من الكافرين ديارًا واحدًا.

قال المبرِّد: «ديَّار» لا تستعمل إلَّا في النفي العام، يقال: ما بالدار ديَّار، ولا تستعمل في جانب الإثبات. ويقول العامة: ما فيها ديَّار، ولا نافخ نار(١).

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾

أي: إنَّك ـ يا ربِّ ـ إنْ تتركُهم دونَ إهلاك واستئصال، يُضِلُّوا عبادك في أماكن من الأرض لم يَغمُرها الطُّوفان.

بيَّن نوح عليه السلام في دعوته لربِّه: أن خطر هؤلاء الكافرين لا يقتصر على تلوُّثهم بالشرك، بل هم شرٌّ من ذلك وأشد خطرًا: أنَّهم أمسوا يمثلون فتنة مُجَسَّمة، وضررًا فادحًا، يُهدِّد من بقي من المؤمنين، فإهلاكهم يعني أمرين كبيرين:

الأول: الاستراحة من شرِّهم وكفرهم.

والثاني: حماية المؤمنين من فتنة إضلالهم وتكفيرهم.

---

(١) تفسير الرازي (٣٠/٦٥٩).

QaradawiBooks.com

﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾

أي: إن توالدوا فإنهم لا يَلدون إلَّا مولودًا يَؤولُ أمرُه إلى أن يكون بعدَ بلوغِه فاجـرًا مُنْبعثًا بقـوَّةٍ لارتكاب الجرائـم والآثام، مُبالغًا في كفره، جُحُـودًا للحقِّ، وتغطيةً لأدلَّتِه بالأكاذيـب والمغالطات المزيَّنة بزُخْرف القول.

فهؤلاء القوم أصبحوا يتوارثون الكفر، ابنًا عن أب، وأبًا عن جد، ولا شـك أن كل واحد منهم يولد على الفطرة، ولكن البيئة الضالة الفاسدة المفسدة، شوَّهت هذه الفطرة، فاختفتْ تمامًا من هذه البيئة، كما عرفها نوح وخبرها وجرَّبها، خلال هذه الأجيال المتطاولة. فالعصا من العُصَيَّة، والحية لا تلد إلَّا الحُيَية، بعضهم من بعض.

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [الآية: ٢٨]

ما أجمله من ختام! فبعد أن دعا نـوح على الكافرين بالهلاك الَّذين يسـتحقونه: أن يدعو نوح لنفسه ولكل من يحب، وأول ما يدعو به ربه: أن يغفر له، إنَّه لا يدَّعي الطهـارة المطلقة فيما صدر عنه، فربما كان في دعائه حظٌّ لنفسـه، ولقد ناجى ربه في شأن ابنه، وأنَّه من أهله، فقال له: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٦، ٤٧].

ولقد سنَّ نوح للرسل من بعده أن يبدؤوا الدعاء بالمغفرة لأنفسهم، ثمَّ يُثنُّـوا بوالديهم، فهما أحق النَّاس بعد الله تبـارك وتعالى ببرِّ الأبناء،

QaradawiBooks.com

ولذلك قال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾. ولذلك قال أبو الأنبياء إبراهيم من بعده: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١].

﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ﴾: كثير من المفسرين تأوَّلوها بأنَّه أراد: من دخل مسجدي. وبعضهم قال: بيته: شريعته ودينه. استعار منها: البيت، كما يقال: قبة الإسلام، وفسطاط الدين. وبعضهم قال: ﴿دَخَلَ بَيْتِىَ﴾ أي: ركب سفينتي.

ولا أدري: لِمَ هذا التكلُّف في التأويل، ولماذا لا نأخذ كلام الله تعالى على ظاهر ما يفهم منه، فبعد أن دعا لنفسه، دعا لأبويه، ثمَّ دعا لمن دخل داره، ونزلها من المؤمنين، فهم أولى النَّاس به. ولهذا قال العلَّامة ابن كثير: ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها، وهو أنَّه دعا لكلِّ من دخل منزله وهو مؤمن. بل أقول: هذا هو الأولى.

واستشهد ابن كثير بما رواه الإمام أحمد في مسنده، عن أبي سعيد الخدري: أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**لا تصحبْ إلَّا مؤمنًا، ولا يأكلْ طعامَك إلَّا تقيٌّ**»[(١)(٢)].

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: وبعد أن دعا نوح لنفسه ولوالديه ولمن دخل منزله مؤمنًا: دعا لكل المؤمنين والمؤمنات، فهم أهله وذووه، بل هم ـ أحيانًا ـ قبل أهله وذويه، فقد رأينا الإنسان يهجر أباه الكافر، كما فعل إبراهيم، ولا عجب أن تبرَّأ منه إبراهيم في النهاية: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]. ومثل ابن نوح وامرأة نوح، كفرا به،

---

(١) رواه أحمد (١١٣٣٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. وأبو داود في الأدب (٤٨٣٢)، والترمذي في الزهد (٢٣٩٥)، وحسنه، والحاكم في الأطعمة (١٢٨/٤)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

(٢) تفسير ابن كثير (٢٣٧/٨).

QaradawiBooks.com

واستحقَّا الغرق، فكانا من المغرَقين، ومن أهل النار. وامرأة فرعون الَّتي قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

فلا عجب أن يشعر أهل الإيمان بعد عهد نوح، وفي كل عصر بأن آصرة الإيمان هي أشد الأواصر قوة، وأصحابها أكثر النَّاس تلاحمًا في الشدائد، وتراحمًا في ساعات الصبر. كما وصف القرآن مجتمع الأنصار فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

فكان هذا الدعاء من نوح لجميع المؤمنين والمؤمنات من قومه ومَنْ بعد قومه، وذلك يعمُّ الأحياء منهم والأموات، ولهذا يُستحبُّ مثل هذا الدعاء اقتداء بنوح وبإبراهيم عليهما السلام، وبما جاء في الأخبار والآثار النبوية الميمونة، والأدعية المشهورة المشروعة.

وقال بعض العلماء: إنَّ الإله الَّذي استجاب لنوح عليه السلام فأغرق بدعوته جميع أهل الأرض الكفَّار، لجدير أن يستجيب له، فيرحم بدعوته جميع المؤمنين!

ومن يقرأ القرآن العظيم، يجده مليئًا بألوان من استغفار رسل الله تعالى للصالحين من عباده، وخصوصًا لأعظمهم وأوثقهم صلة بربه، فما أولانا بأن يكون لنا نصيب من الاستغفار لنا وللمؤمنين والمؤمنات.

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾: أي: لا تَزِدِ الظالمين لأنفسِهم بالكفر إلَّا عذابًا مرافقًا لإهلاكهم.

هذه نهاية دعاء نوح عليه السلام، فبعد أن دعا بالمغفرة له ولمن يُحبُّ، دعا على الظالمين، ومَنْ مثله قاسَى من الظالمين ما قاسى، وصبر على إيذائهم له، وإعراضهم عنه طوال القرون! فلا عجب إذا فاض كأسه،

QaradawiBooks.com

وقال لربه: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾. التبار هو: الهلاك والدمار وذهاب الرسم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٣٩].

يسأل نوح ربَّه أن يكون أخذه للظالمين المتجبِّرين في الأرض، المستكبرين على الخَلق، أخذًا أليمًا شديدًا، كما قال ﷺ: «**إنَّ الله ليُملي للظالم حتَّى إذا أخذه لم يُفلِتْه**». قال ثمَّ قرأ: «﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾» [هود: ١٠٢][1].

وقال بعض المفسِّرين: حين هلك القوم لم يكن معهم صبيٌّ. ولكن هذا لا يعرف إلَّا بالوحي، ولا وحي.

وقال آخرون: كان معهم من الصغار والأطفال ما يكون مع الأقوام عادة، ولكن الله تعالى أهلك الأطفال معهم بالعذاب العامِّ، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]. فيهلِكون مهلكًا واحدًا، ويصدرون مصادر شتى.

ونحن نعلم أنَّ التكليف مرفوع عن الصبي حتَّى يبلغ، لهذا يعاقب الله الكبار بإهلاكهم، ويعاقبهم مرَّة أخرى بأخذ صغارهم معهم، وقد كانوا يُحبُّونهم حبًّا جمًّا، بل يُقدِّمونهم على أنفسهم في بعض الأحيان، فلم يُغنوا عنهم من الله شيئًا.

مسألتان ذكرهما ابن العربي:

يفيد هنا أن نذكر مسألتين ذكرهما الإمام ابن العربي في كتابه «أحكام القرآن»:

المسألة الأولى: قال ابن العربي: دعا نوح على الكافرين أجمعين،

(١) سبق تخريجه صـ١٢٢.

QaradawiBooks.com

ودعا النبي ﷺ على من تحزَّب على المؤمنين وألَّب عليهم. وكان هذا أصلًا في الدعاء على الكافرين في الجملة، فأما كافر مُعيَّن لم تُعلم خاتمتُه، فلا يُدْعَى عليه؛ لأن مآله عندنا مجهولٌ، وربما كان عندَ الله معلومَ الخاتمة بالسعادة. وإنَّما خصَّ النبي ﷺ بالدعاء عُتبةَ وشَيْبَةَ (ابنَيْ ربيعة) وأصحابَهما[١]، لعلمه بمآلهم، وما كُشِف له من الغطاء عن حالهم. والله أعلم.

المسألة الثانية: قال ابن العربي ـ أيضًا ـ معلِّقًا على كلام نوح في حديث الشفاعة الطويل[٢]: «فإن قيل: لِمَ جعل نوح دعوتَه على قومه سببًا لتوقُّفه عن طلب الشفاعة للخلق من الله في الآخرة؟ قلنا: قال الناس: في ذلك وجهان:

أحدهما: أنَّ تلك الدعوة نشأت عن غضبٍ وقسوة، والشفاعةُ تكون عن رِضًا ورِقَّة، فخاف أن يُعاتَب بها ويقال: دعوتَ على الكفَّار بالأمس وتشفع لهم اليوم!

الثاني: أنَّه دعا غضبًا بغير نصٍّ ولا إذنٍ صريح في ذلك؛ فخاف الدَّرَكَ (أي التبعة) فيه يوم القيامة؛ كما قال موسى عليه السلام: إنِّي قتلتُ نفسًا لم أُومر بقتلها[٣]. قال: وبهذا أقول»[٤].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في (٢٤٠)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٤)، عن ابن مسعود.

(٢) يقصد حديث الشفاعة والذي فيه: «فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح، إنَّك أنت أوَّل الرسل إلى أهل الأرض، وقد سمَّاك الله عبدًا شكورًا، اشفع لنا إلى ربِّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إنَّ ربِّي عز وجل قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنَّه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري». متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧١٢)، ومسلم في الإيمان (١٩٤)، عن أبي هريرة.

(٣) جزء من حديث الشفاعة السابق.

(٤) أحكام القرآن لابن العربي (٣١٢/٤).

QaradawiBooks.com

علَّق على ذلك القرطبي فقال: وإن كان لم يُؤْمر بالدعاء نصًّا، فقد قيل له: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]. فأُعلم عواقبهم، فدعا عليهم بالهلاك؛ كما دعا نبيُّنا ﷺ على شيبة وعتبة ونظرائهم فقال: «**اللهمَّ عليكَ بهم**»(١). لمَّا أُعلم عواقبهم؛ وعلى هذا يكون فيه معنى الأمر بالدعاء. والله أعلم(٢).

* * *

(١) ولفظه في الصحيح: «اللهمَّ عليك بأبي جهل بن هشام وعُتبة بن رَبِيعة وشَيْبَة بن رَبِيعة والوليد بن عُقْبة وأُمَيَّة بن خَلَف وعُقْبة بن أبي مُعَيْط». وقد سبق تخريجه قبل حديثين.

(٢) تفسير القرطبي (١٨/٣١٣).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

تفسير سورة الجن

السورة مكية:

سورة الجن سورة مكيَّة بإجماع المُفسِّرين وعلماء القرآن.

ويدل على ذلك موضوعُ السورة وأسلوبُها، وكذلك ترجمها الإمام الترمذي في كتاب التفسير من جامعه[١]، وترجمها الإمام البخاري في كتاب التفسير: سورة ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾[٢].

ولم يذكرها السيوطي في «الإتقان» في عدد السور الَّتي لها أكثر من اسم[٣].

متى نزلت؟

ويظهر ـ كما قال العلَّامة ابن عاشور ـ أنَّها نزلت في حدود سنة عشرٍ من البعثة[٤]؛ ففي الصحيحين وجامع الترمذي، من حديث ابن عبَّاس أنَّه قال: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى

(١) سنن الترمذي (٤٢٦/٥).

(٢) صحيح البخاري (١٦٠/٦).

(٣) الإتقان في علوم القرآن (١٩٠/١ ـ ١٩٧)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

(٤) التحرير والتنوير (٢١٦/٢٩)، نشر الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

سوق عُكاظ بنخلةَ[١]، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، وأنَّه استمع نفرٌ من الجنِّ إلى قراءته، فرجعوا إلى قومهم، فقالوا: يا قومَنا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢]. وأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ على نبيِّه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١][٢].

وذكر ابن إسحاق أن نزول هذه السورة كان بعد سفر رسول الله ﷺ إلى الطائف: يطلب النُّصرة من ثَقِيف[٣]. وذلك كان في سنة عشر بعد البعثة، وسنة ثلاث قبل الهجرة.

غير مرخصة للطباعة

ترتيبها في النزول:

وقد عدَّها علماء القرآن السورة الأربعين في ترتيب نزول السور، واعتبروها بعد الأعراف، وقبل يس.

ولكن بعض هذه التحديدات مبنيَّة على ظنون قابلة للنقاش والاعتراض، وبعضها لا دليل عليه، وكثيرًا ما يذكرون بعض السُّوَر في السور المَدَنيَّة، وهي مكيَّة عند التأمل بلا ريب ـ كما بيَّنَّا في سورة الرعد ـ وكذلك العكس.

أغراض السورة:

ومِمَّا يدلُّ على مَكِّيَّتها: ما ذكره صاحب «التحرير والتنوير» في أغراض السورة حيث قال:

---

(١) بطن نخلة: موضع بين مكة والطائف، وقد مرَّ به النبي ﷺ عند عودته من الطائف، بعد أن عَرَض نفسَه على أهل الطائف ولم يُجيبوه.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٧٧٣)، ومسلم في الصلاة (٤٤٩)، كما رواه الترمذي في التفسير (٣٣٢٣).

(٣) سيرة ابن هشام (٤٢١/١، ٤٢٢)، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، نشر مصطفى البابي الحلبي، ط ٢، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

«إثبات كرامةٍ للنبي ﷺ بأنَّ دعوته بلغت إلى جنس الجنِّ، وإفهامهم فهمَ معانٍ من القرآن الَّذي استمعوا للنبيِّ ﷺ، وفَهْم ما يدعو إليه من التوحيد والهُدَى، وعلَّمهم بعظمةِ الله وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد.

وإبطال عبادة ما يُعبد من الجنِّ.

وإبطال الكهانة، وبلوغِ علم الغَيْب إلى غير الرُّسل الَّذين يُطلِعهم الله على ما يشاء.

وإثبات أنَّ لله خلقًا يُدعَوْن الجنَّ، وأنَّهم أصناف: منهم الصالحون، ومنهم دون ذلك بمراتب، وتضليل الَّذين يتقوَّلون على الله ما لم يقُلْه، والذين يعبدون الجن، والذين ينكرون البعث.

وأنَّ الجنَّ لا يُفلِتون من سلطان الله تعالى.

وتعجبهم من الإصابة برجوم الشهب المانعة من استراقِ السَّمع، وفي المراد من هذا المنع، والتخلُّص من ذلك إلى ما أوحى الله إلى رسوله ﷺ مَن في شأن القحط الَّذي أصاب المشركين لشركهم ولمنعهم مساجد الله، وإنذارهم بأنَّهم سيندمون على تألبهم على النبيِّ ﷺ ومحاولتهم منه العدول عن الطعن في دينهم»[1].

وجه مناسبتها لما قبلها:

ووجه مناسبتها لما قبلها ـ وهو سورة نوح ـ كما قال أبو حيَّان في «البحر المحيط» ـ: «أنَّه لمَّا حكى تمادي قوم نوح في الكفر وعكوفهم على عبادة الأصنام، وكان عليه الصلاة والسلام أوَّل رسول إلى الأرض، كما أنَّ محمَّدًا ﷺ آخر رسول إلى الأرض، والعرب الَّذي هو منهم عليه الصلاة والسلام كانوا عبَّاد أصنام

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٢١٧).

QaradawiBooks.com

كقوم نوح، حتَّى إنهم عبدوا أصنامًا مثل أصنام أولئك في الأسماء، وكان ما جاء به محمَّد ﷺ من القرآن هاديًا إلى الرُّشد، وقد سمعَتْه العرب، وتوقَّف عن الإيمان به أكثرُهم: أنزل الله تعالى سورة الجن إثر سورة نوح، تبكيتًا لقريش والعرب في كونهم تباطؤوا عن الإيمان؛ إذ كانت الجنُّ خيرًا منهم وأَقْبَلَ للإيمان، هذا وَهُمْ من غير جنس الرسول ﷺ، ومع ذلك فبِنَفْس ما سمعوا القرآن استعظموه وآمنوا به للوَقْتِ، وعرفوا أنَّه ليس من نمط كلام النَّاس، بخلاف العرب؛ فإنَّه نزل بلسانهم، وعرفوا كونه مُعجِزًا، وهم مع ذلك مكذِّبون له، ولمن جاء به، حسدًا وبغيًا أن يُنزل الله من فضله على من يشاء من عباده»[(١)].

بداية تفسير السورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾

تَكرار كلمة: «قل» في القرآن:

تبدأ السورة بقوله تعالى لرسوله: «قل». وهو فعل أمر من «قال».

وكلمة «قل» تكرَّرت في القرآن الكريم (٣٣٢) مرَّة. وهي تدلُّ على أنَّ الوحي الإلهي المعروف بالقرآن إنَّما هو بلاغٌ من الله إلى رسوله ليبلِّغه إلى النَّاس، ولهذا يُؤمر فيه بهذا الفعل المباشر، الَّذي لا يُقابل إلَّا بالإجابة والتنفيذ. ولهذا نرى بعض السور بُدِئت بهذا الأمر «قُلْ»، كما في هذه السورة وفي سورة الكافرون والإخلاص والمُعَوِّذَتَين.

(١) البحر المحيط (٢٩٢/١٠).

QaradawiBooks.com

وجاء في القرآن المدني قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقد جعل بعض الغافلين والمغرورين في عصرنا: أنَّ كلمة «قل» كانت مطلوبة من الرسول محمَّد أن يقولها، أمَّا نحن فلسنا مطلوبين أن نقولها!

وهذا هوَسٌ عجيب!! فإنَّ هذا الأمر له أهميته في الفهم والإفهام، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٧].

المهم أنَّ النبيَّ ﷺ أُمِر أن يقول لقومه: أُوحِي إليَّ أنَّه استمع نفر من الجن. أي: قصدوا سماع تلاوته للقرآن مع إصغاء وإنصات.

والوحي هو الإعلام والإبلاغ بسرعة وخفاء، بعيدًا عن الضجيج والإعلان.

ويبدو أنَّ هؤلاء النفر استمعوا إلى الرسول الكريم دون أن يعلَم بحضورهم.

هم نفر من الجن، والنفر: من الثلاثة إلى العشرة. وهم ليسوا من بني آدم، أو من نُسمِّيهم: البشر، مثلنا، بل هم مثلُنا من الأحياء والمخلوقات العاقلة المُكلَّفة، ولذلك كلَّفهم الله تعالى بأن يعبدوه، كما نعبده نحن الإنس، إلَّا أنَّهم يقدرون أن يَرَوْنا، ونحن لا نقدر ـ بِحُكم خِلْقَتنا ـ أن نراهم، إلَّا من آتاه الله قدرةً خاصَّة على ذلك، مثل بعض الأنبياء والرسل؛ مثل سليمان عليه السلام.

QaradawiBooks.com

وهم مكلَّفُون مثلنا بعبادة الله تعالى وطاعة أمره، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨].

وهذا النوع من الخلق العُقَلاء، الَّذين خلقهم الله في هذا الكون، وهم من المُغيَّبِين عنَّا أيضًا، مثل الملائكة، الَّذين خلقهم الله تعالى لعبادته وطاعته، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]. فهم مخلوقات نورانيَّة، خلقهم الله من النور، كما خلق الجن من النار، وكما خلق النَّاس من التراب والطين، الَّذي منه تتكون الحجارة والصلصال، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۞ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥].

المهم: أنَّ هؤلاء النفر من هذا النوع من الخليقة ـ أي: من نوع الجنِّ المُغيَّبين عنا، والذين بُعث إليهم سيدنا محمَّد ـ أوحي إلى رسولنا وسيدنا محمد: أنَّه استمع نفر منهم إليه، وهو يتلو القرآن، فقالوا من فَرْط ما أعجبوا بالقرآن الكريم وتأثَّروا به: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾: أي قولًا يُقرأ ويُسمع، فيَعجَب به سامُعه، لِمَا يحتوي عليه من جوامع الكلم، وروائع الحكم، ونوادر العلم، وكنوز المعرفة، وبدائع الحكمة، وأحكام الشريعة العادلة، ومكارم الأخلاق الفاضلة، وسوانح الهداية الربانيَّة، وعوالي القيِّم الإنسانيَّة.

القرآن يهدي إلى الرشد:

﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾

وقال الجنُّ: إنَّ من صفة هذا القرآن العَجَب الَّذي سمعوه أنَّه يهدي إلى الرُّشْد، يعني إلى استِنارة العقل، الَّذي ينقل الإنسان من الخطأ إلى الصواب، ومن العِوَج إلى السَّدَاد، ومن السَّفَه إلى الرَّشاد.

QaradawiBooks.com

والقرآن إنَّما يهدي إلى الرُّشد، ويسمو بالإنسان إلى أن يكون في طليعة الراشدين، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۞ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

وقال تعالى عن خليله إبراهيم: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٥١].

وقال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقد وجد هذا النَّفرُ من الجنِّ فيما استمعوه من القرآن: أنَّه يهدي إلى الرشد، بما تدلُّ عليه الآيات، وما تُرشِد إليه السُّوَر، وما يعبر عنه مجموعُ القرآن: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، فأعلنوا أنَّهم لما سمعوا القرآن آمنوا به، وقالوا: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾. ويفهم من إيمانهم بالقرآن: أنَّهم آمنوا بالله الَّذي أنزله، وآمنوا بوحدانيَّته، وأنَّه لا إلٰه غيره، ولذلك قالوا: ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾.

فنالوا التوحيد ببراءتهم من الشرك، فإن مَن آمن بأن الله واحد لا شريك له، ولا نِدَّ له، ولا ضدَّ له، لا بدَّ أن كل أنواع الشرك منفيَّةٌ عنه ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾.

ومن نفى الشرك كلَّه، وأخلص الوحدانية لله، فقد خلُص قلبه وعقله وضميره وحياته كلها لله، ومن أشرك بالله فقد وقع في الضلال البعيد، ونزل من علياء التوحيد إلى أسفل أودية الشرك. ولهذا يقول تبارك تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١].

تفسير ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾:

أعلن هؤلاء القوم الَّذين أنار الله بصائرَهم، وفَتَح عقولَهم ببيِّنات

QaradawiBooks.com

القرآن، أنَّهم بمجرد أن سمعوا القرآن تدبَّروه، فهداهم إلى الإيمان بربِّهم، فآمنوا صادقين، إيمانًا لا يميل به عن التوحيد لونٌ من الشِّرك؛ لأنَّهم آمنوا بالله ربًّا، فلن يشركوا بالله في الربوبية، وآمنوا بالله إلهًا واحدًا، فلا يستحق أحدٌ العبادةَ غيره في الأرض أو في السماء، فهم يُفردونه بالعبادة والاستعانة، كما عُلِّمنا أن نقول إذا قرأنا الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

تنزيهه سبحانه عن الصاحبة والولد:

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾

هذا ممَّا قاله هذا النفر من مؤمني الجن للرسول الكريم ﷺ، فهو ممَّا سمعوه، وكان حق «أنَّ» في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أن تكون مكسورة، عطفًا على قولهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾، لكنَّهم جعلوه من جملة ما آمنوا به، في قولهم: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾، أي: آمنا به وبأنه تعالى جدُّ ربِّنا.

وممَّا تعلَّمه هؤلاء الجن ممَّا سمعوه من القرآن العجيب، وآمنوا به: أنَّه تعالى جَدُّ الله سبحانه، كما نقول في دعاء استفتاح الصلاة: «**سبحانَك اللهمَّ وبحمدك، وتبارك اسمُك، وتعالى جَدُّك، ولا إلهَ غيرُك**»[1].

قال عدد من المفسِّرين: تعالى جدُّه: أي: علا مقامه وعظمته وسلطانه. كما قال أنسٌ رضي الله عنه: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران ـ أي

(١) رواه أحمد (١١٤٧٣)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود (٧٧٥)، والترمذي (٢٤٢)، كلاهما في الصلاة، والنسائي في الافتتاح (٨٩٩)، وابن ماجه في الصلاة (٨٠٤)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٩٩٦)، عن أبي سعيد الخدري.

QaradawiBooks.com

إذا حفظهما ـ جَدَّ في أعيُننا[(١)]. أي: عظُم وكبُر وعلا مقامه. فهذا هو من الجَدِّ الَّذي قال فيه رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان: «**ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منكَ الجَدُّ**»[(٢)].

معنى ﴿تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾:

وقال مجاهد: ﴿تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾: أي تعالى ذِكْرُه. وقال بعضهم: جلالُه. وقال ابن عبَّاس: قـدرُه وأمْرُه[(٣)]. وهذا كلُّه مُتَّجِـهٌ؛ لأنَّ الجَدَّ ـ كما قال الإمام ابن عطيَّة ـ «هو حظُّ المَجْدود من الخيرات والأوصاف الجميلة، فجَدُّ الله تعالى هو الحظ الأكمل من السـلطان الباهر، والصفات العَلِيَّة والعظمة، ومن هذا قول اليهودي حين قدم النبيُّ ﷺ المدينةَ: يا بَنِي قَيْلَةَ، هذا جَدُّكم الَّذي تنتظرون[(٤)]. أي: حظُّكم من الخيرات وبَخْتُكم»[(٥)].

---

(١) جزء من حديث رواه أحمد (١٢٢١٥)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٨٤٤)، ومسـلم في المساجد (٥٩٣)، عن المغيرة بن شعبة. وقوله: «ولا ينفع ذا الجَدِّ منه الجَدُّ». بفتح الجيم وهو الحظ، وهو الذي تسميه العامة البخت. قال أبو عبيد: معناه لا ينفع ذا الغنى عندك غناه، وإنَّما ينفعه العمل بطاعتك.
قال ابن عبد البر في الاستذكار: وقد روي هذا الحديث بكسر الجيم. وقد كان عبد الملك بن حبيب يقول: لا يجوز فيه إلا الكسر وهو الاجتهاد.
قال: والمعنى فيه، أنَّه لا ينفع أحدًا في طلب الرزق اجتهاده، وإنَّما له ما قسـم الله له منه، وليس الرزق على قدر الاجتهاد، ولكن الله يعطي من يشـاء ويمنع لا إلٰه إلا هو الحليم الكريم.
قال أبو عمر بن عبد البر: هذا أيضًا وجه حسـن، محتمل غير مرفـوع. والله أعلم بما أراد رسول الله ﷺ بقوله ذلك. انظر: الاستذكار (٢٧٠/٨)، تحقيق سالم محمد عطا ومحمد علي معوض، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

(٣) البحر المحيط لأبي حيان (٢٩٤/١٠).

(٤) رواه أبو نعيم في معرفـة الصحابة (٧١٤٥)، والبيهقي في دلائـل النبوة (٥٠٢/٢، ٥٠٣)، عن رجال من أصحاب الرسول ﷺ.

(٥) تفسير ابن عطية (٣٧٩/٥).

QaradawiBooks.com

﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾

وقد ختمت الآية بقول مؤمني الجنِّ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ فبعد أن أعلنوا: تَعَالِي مقـام ربِّنا ـ تعالى الله عُلُوًّا كبيـرًا ـ أعلنوا أنَّه تعالى ما اتَّخـذ صاحبة ولا ولدًا. يعنـي: أنَّ مقتضى الوحدانيَّـة الَّتي أعلنها القرآن تُقَرِّر أنَّه جلَّ وعـلا لا يجوز له أو عليـه: أن يتَّخذ صاحبة، أو يتَّخذ ولدًا؛ لأنَّ كلَّ ما عداه إنَّما هو مِلْك له، وعبدٌ له سـبحانه، وكذا كلُّ ما يملكه العبد، فهـو مِلْكٌ لله تعالـى، فكما هو مُقَرَّر في فقهِنا وواقعنا: أنَّ العبدَ وما ملكت يداه لسيده. وكما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ ـ ٩٥].

وهذا يرد على الَّذين زعموا مـن العرب أنَّ الملائكة بناتُ الله، ويرد على الَّذين جعلوا لله ابنًـا، كما قال بعض الهنود مـن قديم، وكما قال بعض اليهود: عزيرٌ ابنُ الله. وكما قالت النصارى: المسيح ابنُ الله.

ولو كان لله ولدٌ لكان له صاحبة ـ أي: زوجة ـ وهم لا يقولون ذلك. ولذلك ردَّ اللهُ عليهم فقـال: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وكيف يكون له ولد وكلُّ ما عـداه عبيده؟! ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧].

فكان ردُّ القرآن على الجميع بنفـي الوالديَّة والوَلَديَّة عن الله تعالى، كما قال تعالى في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

QaradawiBooks.com

من اعترافات مؤمني الجن قولُ سفيههم الشَّطط على الله:

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾

ثم قال تعالى على لسان مؤمني الجنِّ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾.

السَّفَه: الخِفَّة، والمراد بها خِفَّة العقل والعلم. وفي سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]. وفيها: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢].

والجنُّ هنا يعلنون أنَّ سفيهَهُم كان يقول على الله شَططًا، فمَن سفيهُهم؟ قالوا: هو اسم جنسٍ لكلِّ سفيه. وإبليس هو مُقَدَّم السفهاء، والله تعالى قال: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠].

والشَّطط: هو التَّعدِّي وتجاوز الحدِّ. ويقال: أَشَطَّ في السَّوْم، إذا أبعد فيه: أي يقول قولًا هو في نفسه شَطَط، وهو نسبة الصاحبة والولد إلى الله تعالى، وكلُّ ما عدا الله، ومَنْ عدا الله؛ فهو مخلوق له سبحانه.

قال الرازي: «واعلم أنَّه لمَّا كان الشطط هو مجاوزة الحدِّ، وليس في اللفظ ما يدلُّ على أنَّ المراد مجاوزة الحدِّ في جانب النفي أو في جانب الإثبات، فحينئذٍ ظهر أنَّ كلا الأمرين مذموم. فمجاوزة الحدِّ في النفي تُفْضي إلى التعطيل، ومجاوزة الحدِّ في الإثبات تُفضي إلى التَّشبيه، وإثباتِ الشريك والصاحبة والولد. وكلا الأمرين شططٌ ومذموم»(١).

(١) تفسير الرازي (٦٦٧/٣٠).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ظنُّ الجن عدم كذب الإنس والجن على الله:

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾

هذا كلام النَّفَر المؤمنين من الجنِّ. والمعنى: أنَّا كنَّا نظنُّ قبلَ إيمانِنا: أنَّ الأقوال المنتشِرة بين النَّاس، الَّتي كُنَّا نسمعها من غواة الإنس والجن، حول الآلهة وما يتعلَّق بها: حقٌّ وليست بكذب؛ لأنَّهم ينسبونها إلى الله تعالى، وكُنَّا نظنُّ بهم أنَّهم لا يكذبون على الله تعالى ـ ولا يرجِّحون ذلك ـ ثمَّ تبيَّن لنا خطأ ذلك الظن، فهو ليس مبنيًّا على علم وبينة، ولكنَّه مؤسَّس على جهل بيِّن، فالكذب على الله قديمٌ في الجنِّ والإنس.

ـ عَوْذُ رجال من الإنس برجال من الجن:

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾

معنى هذا: أنَّ مؤمني الجنِّ قالوا: كُنَّا نرى أنَّ لنا فضلًا على الإنس؛ لأنَّهم كانوا يعوذون بنا، أي: إذا نزلوا واديًا أو مكانًا موحشًا من البَرَارِيِّ وغيرها ـ كما كان عادة العرب في جاهليتها ـ يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجانِّ، أن يصيبهم بشيء يسوؤهم، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذِمامه وخِفارته، فلمَّا رأت الجنُّ أنَّ الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم؛ «زادوهم رهقًا» أي: خوفًا وإرهابًا وذُعْرًا، حتَّى يبقوا أشدَّ منهم مخافة، وأكثر تعوُّذًا بهم. قال قتادة: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: إثمًا، وازدادت الجنُّ عليهم بذلك جراءة(١).

(١) تفسير ابن كثير (٢٣٩/٨).

QaradawiBooks.com

وقال السُّــدِّيُّ: كان الرجل يخرج بأهله، فيأتــي الأرض، فينـزلها، فيقول: أعوذ بسـيِّدِ هذا الوادي من الجــنِّ أن أُضَرَّ أنا فيــه، أو مالي، أو ولدي، أو ماشِــيَتي. قال: فــإذا عاذ بهم مــن دون الله رَهَقَتْهم الجنُّ الأذى عندَ ذلك[١].

وعن قتادة: أنَّ الجنَّ لذلك كانت تحتقر بني آدم وتزْدريهم، لما ترى من جهلهم، فكانــوا يزيدونهم مخافة، ويتعرَّضــون للتخيُّل لهم بمنتهى طاقاتهم، ويغوونهم في إرادتهم، لمَّا رأوا رِقَّة أحلامِهم، فهذا هو الرهق الَّذي زادته الجن ببني آدم[٢].

وفي الآية تحذير من اللجوء إلى السَّــحرة والمشــعوذين وأمثالهم، والمنع من الرُّقى الَّتي لا يقرُّها الشرع.

ظنُّ الجنِّ كما ظنَّ الإنس بعدم البعث:

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟﴾ يريد بني آدم الكفَّار ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ مخاطبة لقومهم من الجنِّ.

أو أنَّ كفَّار الجنِّ ظنُّوا ظنًّا توهميًّا ضعيفًا كما ظننتم ـ يا معشر الكفَّار من الإنس ـ أن لن يبعث الله بعد الموت أحدًا، فلا حســاب يومَ الدِّين، ولا فصل قضاء، ولا جزاء.

وقولهم: ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ يحتمل معنيين:

(١) تفسير ابن كثير (٢٣٩/٨).
(٢) تفسير ابن عطية (٣٨٠/٥).

QaradawiBooks.com

أحدهما: بعث الحشر من القبور، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [الحج: ٧].

والآخر: بَعْثُ النبيِّ رسولًا إلى النَّاس، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

صيانة السماء من استراق السمع من الجنِّ:

﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ۝٨
وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾

يخبرنا تعالى على لسان مؤمني الجنِّ، حين بعث الله تعالى رسوله محمدًا، وأنزل عليه القرآنَ، أنْ كان من حفظه له أنَّ السماء الدنيا الَّتي تحيط بنا وتظلِّلُنا: مُلِئتْ حرسًا شديدًا، وحُفظت من سائر أرجائها، وطُردت الشياطين عن مقاعدها الَّتي كانت تقعد فيها قبل ذلك؛ لئلَّا يسترِقُوا شيئًا من القرآن ـ من الملائكة الَّذين كانوا ينقلونه ـ ليلقُوه على ألسنةِ الكَهَنَة، فيلتبس الأمر ويختلط، ولا يُدْرَى من الصَّادق ومن الدجَّال. وهذا من لطفِ الله بخلقه، ورحمتِه بعباده، وحفظه لكتابه العزيز، ولهذا قال هذا النَّفر من الجنِّ: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ أي: مَنْ يروم أن يَسْتَرِقَ السمعَ اليوم، يجدْ له شهابًا مُرْصَدًا له، لا يَتخطَّاه ولا يتعدَّاه، بل يمحقُه ويُهلكُه.

وفي هذه الآية والَّتي قبلها إبطال مزاعم السَّحرة والمشعوذين، الَّذين يدَّعون علم الغيب، ويغرِّرون بضَعَفة العقول؛ بافتراءاتهم وأقوالهم الباطلة.

QaradawiBooks.com

عدم دراية الجنِّ عمَّا يحدث من حراسة السماء من استراق السمع: أهو خيرٌ أم شرٌّ؟

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾

أي: لا ندري نحن هل المقصود من المنع من الاستراق والرمي بالشُّهُب هو شرٌّ أُريد بأهل الأرض، أم أُريد بهم صلاحٌ وخيرٌ يمنع عنهم به كهانة الكهَّان، وما تُوحي إليهم به الشياطين من بعض أخبار السماء؟

لكن دَرَيْنا بعد أن استمعنا القرآن فآمنّا به، وذهب عنا التَّحيُّر، وعلمنا أنَّ الله ﷻ قد أراد بأهل الأرض أمرًا رشدًا.

وقولهم هذا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ من حُسن أدبهم في التعبير، حيث أسندوا الشرَّ إلى غير فاعل، وأسندوا إرادة الرُّشد والخير إلى الله تعالى.

وقد ورد في السُّنَّة الصحيحة في دعاء رسول الله ﷺ: «**والشرُّ ليس إليك**»[(١)].

وقد كانت الكواكب يُرمى بها قبل ذلك، ولكن ليس كثيرًا؛ بل في الأحيان بعدَ الأحيان، كما في حديث ابن عبَّاس، من طريق الزهري، عن علي بن الحسين، عنه أنَّه قال: بينما نحن جلوسٌ مع رسول الله ﷺ؛ إذا رُمِي بنجمٍ فاستنار، فقال: «**ما كنتم تقولون في هذا؟**» فقلنا: كُنَّا نقول: يولَد عظيم، يموت عظيم. قال معمر: قلتُ للزهري: أكان يرمى بها في الجاهليَّة؟ قال: نعم، ولكن غلظت حين بعث النبي ﷺ. قال ابن عبَّاس:

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٧١)، وأبو داود في الصلاة (٧٦٠)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٢)، عن علي بن أبي طالب.

QaradawiBooks.com

فقال رسول الله ﷺ: **«فإنَّها لا يُرمَى بها لموتِ أحدٍ ولا لحياته، ولكنَّ ربَّنا تبارك وتعالى إذا قضى أمرًا سبَّح حَمَلةُ العرش، ثمَّ سبَّح أهل السماء الَّذين يَلُونهم، حتَّى يبلغَ التَّسبيحُ هذه السماء الدُّنْيا، ثمَّ يستخبرُ أهلُ السماء الَّذين يلونَ حملةَ العرش، فيقول الَّذين يلون حملة العرش لحمَلة العرش: ماذا قال ربُّكم؟ فيخبرونهم، ويخبر أهلُ كلِّ سماءٍ سماء؛ حتَّى ينتهي الخبر إلى هذه السماء، وتخطف الجنَّ السمع، فيرمون، فما جاؤوا به على وجهه فهو حقٌّ، ولكنَّهم يَقْرِفون فيه[1] ويزيدون»**[2].

وهذا هو السبب الَّذي حملهم على تطلُّب السبب في ذلك، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة، فعرفوا أن هذا هو الَّذي حُفِظَتْ من أجله السماء، فآمن من آمَنَ منهم، وتمرَّد في طغيانه من بَقِي.

ولا شكَّ أنَّه لمَّا حدث هذا الأمر، وهو كثرة الشُّهُب في السماء والرَّمْيُ بها؛ هال ذلك الإنس والجن، وانزعجوا له، وارتاعوا لذلك، وظنُّوا أنَّ ذلك لخراب العالم، كما قال السُّدِّيُّ: لم تكن السماء تُحرس إلَّا أن يكون في الأرض نبيٌّ أو دينٌ لله ظاهر، فكانت الشياطين قبل محمَّد ﷺ قد اتخذت المقاعدَ في السماء الدنيا، يستمعون ما يحدث في السماء من أمر، فلما بَعث الله محمَّدًا نبيًّا، رُجِمُوا ليلةً من الليالي، ففزع لذلك أهل الطائف، فقالوا: هلك أهل السماء. لِمَا رأوا من شدَّة النارِ في

---

(١) قال النووي: هذه اللفظة ضبطوها على وجهين: أحدهما: بالراء، والثاني: بالذال. ووقع في رواية الأوزاعي، وابن معقل بالراء باتفاق النسخ، ومعناه يخلطون فيه الكذب وهو بمعنى يقذفون. شرح النووي على مسلم (١٤/٢٢٦، ٢٢٧)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، ١٣٩٢هـ.

(٢) رواه مسلم في السلام (٢٢٢٩)، وأحمد (١٨٨٢)، والترمذي في التفسير (٣٢٢٤).

QaradawiBooks.com

السماء، واختلاف الشُّهُب، فجعلوا يعتقون أرِقَّاءَهم ويُسَيِّبون مَوَاشيَهم، فقال لهم عبدُ يَالِيل بن عمرو بن عُمَير: ويحَكم يا معشر أهل الطائف، أمسكوا عن أموالكم، وانظروا إلى معالم النجوم، فإن رأيتموها مستقرَّة في أمكِنَتِها فلم يهلِك أهلُ السماء، إنَّما هذا من أجل ابن أبي كبشة ـ يعني: محمَّدًا ﷺ ـ وإن أنتم لم ترَوْها، فقد هلك أهل السماء. فنظروا، فرَأَوْها، فكَفُّوا عن أموالهم. وفزعت الشياطينُ في تلك الليلةِ، فأتَوْا إبليسَ، فحدَّثوه بالذي كان من أمرهم، فقال: ائتوني من كلِّ أرض بقبضَةٍ من ترابٍ أَشَمُّها. فأتَوْه، فشَمَّ، فقال: صاحبُكم بمكَّة. فبعث سبعةَ نفرٍ من جِنِّ نَصِيبِينَ، فقدموا مكَّةَ، فوجدوا رسولَ الله ﷺ قائمًا يصلي في المسجد الحرام يقرأ القرآن، فدنوا منه حرصًا على القرآن، حتَّى كادت كَلاكِلُهم[1] تُصيبُه، ثمَّ أسلموا. فأنزل الله تعالى أمرَهم على نبيِّه ﷺ[2].

طبيعة الجن واختلافهم في الإيمان والكفر واختلافهم في الجزاء على عقائدهم وأعمالهم:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا﴾

يقول تعالى مُخبِرًا عن الجنِّ: إنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: دون فريق الصَّالحين مراتب ودرجات ودركات، ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ أي: طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة. أي: كنَّا قبل استماع القرآن جماعاتٍ مُتفرِّقين، ومذاهبَ وعقائدَ وأديانًا متقطعة وأهواءً مختلفة لا جامعة تجمع بينها.

(١) الكلاكل: جمع كلكل، وهو الصدر من كل شيء، انظر: لسان العرب مادة (ك. ل. ل).
(٢) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٤/٤٨).

QaradawiBooks.com

قال ابن عبَّاس، ومجاهد وغير واحد: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ أي: منَّا المؤمن، ومنا الكافر(١).

وقوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ أي: نعلم أنَّ قدرة الله حاكمةٌ علينا، وأنَّا لا نُعجِزُه في الأرض، ولو أمعَنَّا في الهرب، فإنه علينا قادر، لا يُعجِزه أحدٌ منَّا.

والمعنى: أنَّا ظننَّا ظنًّا راجحًا قبل سماع القرآن ومعرفة سبب امتلاء السماء بالحرس الشديد والشُّهب: أنَّ الله قادر علينا، وأننا في قبضته وسلطانه، فلن نفوته إنْ أراد بنا أمرًا أينما كنا، ولن نستطيع أن نُفلت من عقابه هَرَبًا إنْ طَلَبنا.

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ يفتخرون بذلك، وهو مفْخَرٌ لهم، وشرَفٌ رفيعٌ، وصفةٌ حَسنَة.

والمعنى: أنَّا لمَّا سمعنا القرآن، وما اشتمل عليه من الهُدى، صدَّقنا به وبمحمدٍ ﷺ تصديقًا جازمًا، فقد تدرَّجنا في الاقتناع حتَّى بلغنا إلى اليقين.

وقولهم: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ البَخْس: النقص في الثواب، والرَّهَق: لحوق الذُّلّ. أي: فآمنوا ـ أيُّها الجنُّ ـ بالربِّ إيمانًا كاملًا، واسْتَسْلموا له، فَمَنْ يؤمن بربِّه إيمانًا صحيحًا، فلا يخاف نقصانًا من عمله وثوابه، ولا يخاف أن يُحمَّل ما لا يُطيق.

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٥٤).

QaradawiBooks.com

قال ابن عبَّاس وقتادة وغيرهما: فلا يخاف أن ينقص من حسناته، أو يُحمَل عليه غيرُ سيئاته[1]، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

الجن منهم المسلمون ومنهم القاسطون:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ «القاسطون»: مِنْ قَسَط الرجل إذا جار ولم يعدل. والمراد: الجائرون على أنفسهم بالكفر والمعاصي. وأمَّا العدل فيقال فيه: أقسط الرجل. أي: عَدَل، فهو مقسط.

أي: مِنَّا المسلم، ومِنَّا الجائر عن الحق الناكب عنه.

أي: أنَّ قومنا بعد أن دعوناهم إلى الإسلام صاروا فرقتين: المسلمون الَّذين آمنوا بالنَّبيِّ ﷺ، والجائرون العادلون عن الحقِّ.

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ أي: فَمَنْ استسلم لله صادقًا مخلصًا، فأولئك أصحاب المنازل الرفيعة الفضلاء، قَصَدوا باهتمام واجتهاد طريق الحقِّ وتوخَّوْه، وطلبوا لأنفسهم النجاة، وهو سبيل الرَّشاد والصَّواب. فكانوا من أهل الجنة، ينعَّمون فيها.

﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾

أي: وَقودًا تسعَّرُ بهم جهنم.

والمعنى: وأمَّا الجائرون عن صراط الله المستقيم الَّذين اتَّبعوا الغيَّ، استجابةً لأهوائهم وشهواتهم، فكانوا لجهنَّم يوم القيامة كالحطب الَّذي

(١) تفسير ابن كثير (٢٤٢/٨).

QaradawiBooks.com

يُعدُّ لتوقَدَ به النار، أو ليزيدَ به وقودها، إذ هم سيُطرحون ويُكبُّون في نار جهنَّم كما يُطرح ويُكبُّ الحطب في النار.

الماديُّون من بني الإنسان ينكرون وجود الجنِّ:

ولا شكَّ أنَّ الماديِّين من بني الإنسان ينكرون وجود الجنِّ، كما ينكرون وجود الملائكة، فكلُّ ما لا يدخل تحت دائرة الحسِّ، لا يجوز ـ عندهم ـ للعقل الإنساني أن يعتبره موجودًا. وهكذا اتَّفق الفلاسفة الماديُّون (الذين لا يؤمنون إلَّا بالمادة) قديمًا وحديثًا.

فهناك المؤمنون بالغيب، أي: بكل ما غاب عن الحسِّ، من الله ﷻ، ومن الملائكة، ومن الشياطين، والجنِّ عامَّة، وهناك من لا يؤمن إلَّا بالمادَّة، وهي ما يتحيَّز وإن صغُر.

وقد كتب الإمام الفخر الرازي صفحات كثيرة في تفسيره عمَّن يؤمن بالجنِّ ومن لا يؤمن به من الفلاسفة، الَّذين ينتمون إلى الإسلام، وإن كانوا لا يأخذون فكرَهم الأساسي إلَّا من فلاسفة الإغريق، وخصوصًا فيلسوفهم الأكبر ومعلِّمِهم الأوَّل أرسطو.

قال الرازي: «اختلف النَّاس قديمًا وحديثًا في ثبوت الجنِّ ونفيه، فالنقل الظاهر عن أكثر الفلاسفة إنكاره، وذلك لأنَّ أبا عليِّ بنِ سينا قال في رسالته في «حدود الأشياء»: الجنُّ حيوانٌ هَوائيٌّ مُتَشكِّل بأشكال مختلفة.

ثم قال: وهذا شرح للاسم. فقوله: وهذا شرح للاسم، يدل على أن هذا الحدَّ شرحٌ للمُراد من هذا اللفظ، وليس لهذه الحقيقة وجود في الخارج.

QaradawiBooks.com

وأمَّا جمهور أرباب الملـل والمصدِّقين للأنبياء، فقد اعترفوا بوجود الجنِّ، واعترف به جَمْع عظيم من قدماء الفلاسفة»[١].

ولا يزال في أصحاب التفكير الماديِّ مِنَ المسلمين مَنْ يجحد أو يشكِّك في وجود الجنِّ، ومنهم من يدَّعي الإيمان به، لذكره في القرآن، ولكنَّه يُؤَوِّله تأويلًا يخرج عن لغة العرب، ولا يقبله دين ولا عقل.

ما جاء في سورة الأحقاف:

وقد ذُكرَ الجنُّ قبل هذه السورة في سورة الأحقاف، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩، ٣٠]. إلى آخر ما ذكره الله في سورة الأحقاف.

وكثير من المُفسِّـرين يرَوْن أنَّ ما في سورة الجنِّ تفسير لما جاء في سورة الأحقاف، وبعضهم يقول: إنَّهما مرَّتان، وأنَّ الجنَّ الَّذين ذكروا في الأحقاف غير الَّذين ذكروا هنا في سورة الجنّ، وليس عندنا دليلٌ يقطع بهذا أو بذاك.

وبعضهم جعل هؤلاء الَّذين ذُكروا في سورة الأحقاف من يهود الجن، الَّذين آمنوا بسيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فمن المعلوم أنَّ الرُسُل أُرْسِلوا إلى الجنِّ ـ كما نصَّ القرآن في أكثر من موضع ـ كما أنَّ القرآن ذكر على ألسنتهم أنَّهم قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]. وهم يقصدون محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكتابه،

(١) تفسير ابن كثير (٣٠/٦٦١).

QaradawiBooks.com

فلم يقولوا: أُنْزِلَ من بعد عيسى، وإنَّما قالوا: أُنْزِلَ من بعد موسى؛ لأنَّ توراة موسى هي الأصل المحتوِي على الشرائع والأحكام.

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾

هذا من المعطوف على قوله: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾، فهو ممَّا أُوحي للنبي ﷺ، وقد اختلف المفسِّرون في معنى هذا على قولين:

القول الأول: وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام، وعدلوا إليها، واستمرُّوا عليها، وهي الَّتي جاءت في سورة فُصِّلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠]، وفي سورة الأحقاف وغيرهما.

﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي: كثيرًا. والمراد بذلك: سَعَة الرِّزق، فإنَّ الماءَ الغَدَق وراءَه الحياة والسَّعة والنَّماء، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦].

وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وقال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وعلى هذا يكون معنى قوله: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: لنختبرهم. كما قال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ﴾: لِنبتَلِيَهم، من يستمر على الهداية ممَّن يرتدُّ إلى الغَواية(١)!

---

(١) تفسير ابن كثير (٢٤٣/٨).

QaradawiBooks.com

القـول الثانـي: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾: أي طريقـة الضـلال ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ أي: لأوسـعنا عليهـم الرزق اسـتدراجًا، كما قال: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]. وكقوله: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ [المؤمنـون: ٥٥، ٥٦]. ولـه اتِّجاه، ويتأيَّد بقوله: ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾.

ولكن ممَّا يُضعِّف هذا القول أنَّه يخرُج بكلمة (الاستقامة) عن معناها المحبوب والمحمود دائمًا، ويجعل منها الاستقامة على طريق الضلالة، فكيف نُسَمِّيها استقامة، وهي اعوجاج عن طريق الحقِّ، وهو وَسَط قَيِّم، لا عوج فيه؟!

﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾

ومعنى ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾: لنختبرهم، يشكرون ويدومون على الاستقامة أم ينحرفون؛ لأنَّ الامتحان يكون في السَّرَّاء كما يكون في الضرَّاء، وذلك بالثبات على الصَّلاح وعدم الأشَرِ والبَطَر.

وقوله: ﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾ أي: عذابًا شـاقًّا شديدًا موجِعًا مؤلِمًا.

والمعنى: ومَنْ يُعرِض عن كتاب ربِّه المُنـزل على نبيِّه ﷺ، بعدم التوجُّه لتلقِّيه وتدبُّر معانيه، ويأْتِه أجلُهُ وهو على إعراضه، يُدخلْه مُذيقًا إيَّاه عذابًا شديدًا شـاقًّا، في مكان ضيِّق لا يتَّسع لأكثر منه، لا يزداد إلَّا شـدَّة، كما يُدْخَل السِّـلك في الثَّقْب الضيِّق؛ ليذوق جزاء إعراضه عن دعوة ربِّه، وعدم استجابته لدين الله، واتباع كتابه.

QaradawiBooks.com

قال ابن عبَّاس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وابن زيد: ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي: مشقَّة لا راحة معها[١].

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾

قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ أي: وأُوحِيَ إليَّ أنَّ العبادة خاصَّةٌ بالله تعالى، ففيه مجازٌ مُرسَلٌ من ذِكرِ المحلِّ وإرادة الحالِّ ويجوز أن يكون لفظ «المساجد» جمعًا للمصدر الميمي، بمعنى: أنَّ السجود لا يكون إلَّا لله. أي: أنَّ السجود والمواضعَ الَّتي بُنيت للصَّلاة والعبادة وذكر الله ﷻ، لله وحده، فلا تعبدوا ـ أيها الإنس والجن ـ مع الله أحدًا، وأخلصوا الدعاء له.

يأمر تعالى عباده بأنْ يوحِّدوه في مجال عبادته، فلا يُدعا معه أحدٌ، ولا يُشرك به. كما قال قتادة في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ قال: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبِيَعهم، أشركوا بالله، فأمر اللهُ نبيَّه ﷺ والمؤمنين معه أن يوحِّدوه وحده، ولا يعبدوا من دونه ولا معه أحدًا غيره[٢].

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾

«لِبَدًا»: جمع لِبْدة ـ بكسر فسكون ـ بوزن نعمة. واللِّبْدة هي الصوف أو الشعر الملتصق بعضه ببعض التصاقًا شديدًا. والمراد: جماعات متزاحمة متلاصقة، تعجُّبًا ممَّا سمعوا.

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٤٣).

(٢) رواه الطبري في التفسير (٢٣/٦٦٥).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

أي: وأنَّه لمَّا قام عبد الله محمدٌ ﷺ بهِمَّة وعزم يُبلِّغ كتاب الله، ويدعو إلى سبيل ربِّه، كاد رافضو دعوته يكونون جماعات مجتمعة بكثافة ضدَّه، لمقاومة دعوته، ولمنعه من أداء رسالة ربِّه.

قال قتادة: تلبَّدت الإنسُ والجنُّ على هذا الأمر ليُطفئوه، فأبى الله إلَّا أن ينصره ويُمضيه، ويُظهره على مَنْ ناوأه[١].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾

يأمر رسوله ﷺ أن يقول لهم، لمَّا آذَوْه وخالفوه، وكذَّبوه وتظاهروا عليه، ليُبْطلوا ما جاء به من الحق، واجتمعوا على عداوته: ﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي﴾ أي: إنَّما أعبدُ ربِّي وحده لا شريك له، وأستجير به وأتوكل عليه، ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾. وقد قال النبي ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**». ثمَّ تلا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أي: عن دعائي ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠][٢].

﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾

أي: قل ـ يا رسول الله ـ لهم: إنِّي لا أقدر على مقارعتكم بوسيلة مادية أضرُّكم بها، لأمنع تألُّبكم عليَّ وعلى الَّذين آمنوا بي، ولا أملك وسيلة ألزمكم بها إلزامًا إكراهيًا أن تكونوا راشدين مسلمين، فأنتم مسؤولون عن اختياركم الحرِّ أمام ربِّكم.

---

(١) رواه الطبري في التفسير (٢٣/٦٦٧).

(٢) رواه أحمد (١٨٣٥٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في الصلاة (١٧٤٩)، والترمذي في التفسير (٢٩٦٩)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الدعاء (٣٨٢٨)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (١٣٢٩)، عن النعمان بن بشير.

QaradawiBooks.com

إنَّما أنا بشر مثلكم يُوحى إليَّ، وعبدٌ من عباد الله ليس لي من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم، بل المرجع في ذلك كله إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾

أمره أن يعلن لهم أنَّه لا يُجيره من الله أحد ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾.

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ أي: لو عصيته؛ فإنَّه لا يقدر أحد على إنقاذي من عذابه، ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أي: لن أجدَ من دونه ملجأً ألجأ إليه.

قال مجاهد، وقتادة، والسُّدِّي: لا ملجأ. وقال قتادة أيضًا: لا نصير ولا ملجأ[1].

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾

قال بعضهم: هو مستثنى من قوله: ﴿لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ﴿إِلَّا بَلَٰغًا﴾.

ويحتمل أن يكون استثناء من قوله: ﴿لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾. أي: لا يجيرني منه ويخلصني إلَّا إبلاغي الرسالة الَّتي أوجب أداءَها عليَّ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٤٥).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾

أي: إنَّما أبلِّغكم رسالة الله، فمن يعصِ بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنَّم خالدين فيها أبدًا، أي: لا مَحِيدَ لهم عنها، ولا خروجَ لهم منها.

والجمع في قوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ باعتبار معنى «من»، والإفراد باعتبار لفظها، على نهج القرآن في مثله.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾

أي: أَمْهلهم ـ يا رسول الله ـ واصبر عليهم، حتَّى إذا رأوا ما يُوعَدون من نكبات تنزل بهم، فسيعلمون عند انتصار المؤمنين عليهم في الدنيا مَنْ أضْعَفُ ناصرًا وأقلُّ عددًا؟ أهم أم المؤمنون؟

أو المعنى: حتَّى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجنّ والإنس ما يُوعَدون يوم القيامة فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصرًا وأقلُّ عددًا، هم أم المؤمنون المُوَحِّدون لله ﷻ؛ أي: إنَّ المشركين لا ناصر لهم بالكليَّة، وهم أقل عددًا من جنود الله ﷻ.

الرسول لا يعلم من الغيب إلَّا ما أعلمه الله:

﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول للناس: إنَّه لا علم له بوقت الساعة، ولا يدري أقريب وقتها أم بعيد؟ ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾؟ أي: مدة طويلة.

QaradawiBooks.com

وقد كان ﷺ يُسأل عن وقت الساعة، فلا يُجيب عنها، ولما تبدَّى له جبريل في صورة أعرابي كان فيما سأله أن قال: يا محمد، فأخبرني عن الساعة؟ قال: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»[1].

ولما ناداه أحد الأعراب بصوت جَهْوَرِيٍّ، فقال: يا محمَّد، متى الساعة؟ قال: «**ويْحك، إنَّها كائنة، فما أعددتَ لها؟**» قال: أمَا إنِّي لم أُعِدَّ لها كثيرَ صلاةٍ ولا صيام، ولكنِّي أُحِبُّ اللهَ ورسوله. قال: «**فأنت مع مَن أحبَبْتَ**». قال أنس: فما فرح المسلمون بشيءٍ فرحهم بهذا الحديث[2].

وقوله: ﴿**عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ**﴾ هذه كقوله تعالى: ﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ**﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وهكذا قال هاهنا: إنَّه يعلم الغيب والشهادة، وإنَّه لا يطلع أحد من خلقه على شيء من علمه إلَّا ممَّا أطلَعَه تعالى عليه؛ ولهذا قال: ﴿**فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ**﴾، وهذا يعُمُّ الرسولَ المَلَكِيَّ والبشريَّ.

ثم قال: ﴿**فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا**﴾ أي: يختصُّه بمزيدِ مُعقِّبَاتٍ من الملائكة يحفظونه من أمر الله، ويُساوِقُونه على ما معه من وحي الله؛ ولهذا قال: ﴿**لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا**﴾.

وقد اختلف المفسرون في الضمير الَّذي في قوله: ﴿**لِّيَعْلَمَ**﴾ إلى من يعود؟

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٦٨٨)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٣٩)، عن أنس بن مالك.

QaradawiBooks.com

فقيل: إنَّه عائد إلى النبي ﷺ.

فعن سعيد بن جبير في قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ قال: أربعة حفظة من الملائكة مع جبريل، ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ محمَّد ﷺ ﴿أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾[١].

وعن قتادة: ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ قال: لِيعلمَ نبيُّ الله أنَّ الرُّسل قد بلَّغت عن الله، وأنَّ الملائكة حفظَتْها ودَفَعَتْ عنها[٢].

وقيل غير ذلك، فقد روى العَوْفيُّ عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾، قال: هي مُعقِّباتٌ من الملائكة يحفظون النَّبيَّ من الشيطان، حتَّى يتبيَّنَ الَّذي أُرسل به إليهم، وذلك حينَ يقول، ليَعلَم أهلُ الشرك أن قد أبلغوا رسالاتِ ربِّهم[٣].

وقرأ يعقوب: «لِيُعْلَمَ» بالضم، أي: ليَعْلَم الناسُ أنَّ الرسلَ بلَّغوا[٤].

ويحتمل أن يكون الضمير عائدًا إلى الله ﷻ، وهو قول حكاه ابن الجوزي في «زاد المسير»[٥]. ويكون المعنى في ذلك: أنَّه يحفظ رسلَه بملائكته، ليتمكنوا من أداء رسالاته، ويحفظ ما بيَّن إليهم من الوحي؛ ليعلمَ أنْ قدْ أبلغوا رسالات ربهم، ويكون ذلك كقوله: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

---

(١) رواه الطبري في التفسير (٦٧٣/٢٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٢٤٧/٨).

(٣) رواه الطبري في التفسير (٦٧٢/٢٣، ٦٧٣).

(٤) المبسوط في القراءات العشر لابن مهران النيسابوري صـ ٤٤٩، تحقيق سبيع حمزة حاكمي، نشر مجمع اللغة العربية، دمشق.

(٥) زاد المسير (٣٥١/٤).

QaradawiBooks.com

وكقولـه: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١].

إلى أمثال ذلك، مع العلم بأنَّه تعالى يعلم الأشياء قبل كونِها، قطعًا لا محالة؛ ولهذا قال بعدَ هذا: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾.

كلام العلَّامة أبي السعود في تفسير آية: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾:

قال العلَّامة أبو السعود: «﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوف، أيْ: هو عالم الغيب. والجملة استئنافٌ مُقَرِّر لما قبله من عدم الدراية، والفاء لترتيب عدم الإظهار على تفرُّده تعالى بعلم الغيب على الإطلاق، أي: فلا يُطلع على غيبه إطلاعًا كاملًا ينكشف به جَلِيَّة الحال انكشافًا تامًّا موجِبًا لعَيْن اليقين أحدًا من خلقه ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ أي: إلَّا رسولًا ارتضاه لإظهاره على بعض غيوبه المتعلِّقة برسالته، كما يُعرب عنه بيانُ ﴿مَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ بالرسول تعلُّقًا تامًّا، إما لكونه من مبادئ رسالته، بأن يكون معجزة دالَّةً على صحَّتها، وإما لكونه من أركانها وأحكامها؛ كعامَّة التكاليف الشرعيَّة الَّتي أُمِر بها المُكَلَّفون، وكيفيَّات أعمالهم، وأَجْزِيَتها المُترتِّبة عليها في الآخرة، وما تتوقَّف هي عليه من أحوال الآخرة، الَّتي مِن جُملَتِها قيامُ الساعة والبعث، وغير ذلك من الأمور الغيبيَّة الَّتي بيَّنها من وظائف الرسالة.

وأمَّا ما لا يتعلَّق بها على أحد الوجهين من الغيوب، الَّتي من جملتها وقت قيام الساعة؛ فلا يُظهِر عليه أحدًا، على أنَّ بيان وقته مُخِلٌّ بالحكمة التشريعيَّة الَّتي عليها يدور فَلَكُ الرسالة.

وليس فيه ما يدل على نفي كرامات الأولياء المتعلِّقة بالكشف؛ فإن اختصاص الغاية القاصية من مراتب الكشف بالرسل، لا يستلزم عدم حصول مرتبة ما من تلك المراتب لغيرهم أصلًا، ولا يدَّعي أحدٌ

QaradawiBooks.com

لأحدٍ من الأولياء ما في رتبة الرسل عليهم السلام من الكشف الكامل الحاصل بالوحي الصريح.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ تقريرٌ وتحقيق للإظهار المستفاد من الاستثناء، وبيانٌ لكيفيَّته، أي: فإنه يسلك من جميع جوانب الرسول ﷺ عند إظهاره على غيبه حَرَسًا من الملائكة يحرسونه، من تعرُّض الشياطين لما أظهره عليه من الغيوب المتعلِّقة برسالته.

وقوله تعالى: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّق بـ «يسلك»، غاية له من حيث إنَّه مترتِّب على الإبلاغ المترتب عليه. إذ المراد به العلم المُتعلِّق بالإبلاغ، الموجود بالفعل، و«أَنْ» مخففة من الثقيلة، واسمها الَّذي هو ضمير الشأن محذوف، والجملة خبرُها، و﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ عبارة عن الغيب الَّذي أريد إظهار المرتضَى عليه، والجمع باعتبار تعدد أفراده، وضمير ﴿أَبْلَغُوا۟﴾ إما للرَّصَد، فالمعنى أنَّه تعالى يسلكهم من جميع جوانب المرتَضى، ليعلم أنَّ الشأن قد أبلغوه رسالات ربهم سالمة عن الاختطاف والتخليط علمًا مستتْبِعًا للجزاء، وهو أن يعلمه موجودًا حاصلًا بالفعل، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة محمد: ٣١]»(١).

ما قاله الإمام القرطبي:

قال الإمام القرطبي: «﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ فيه مسألتان:

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود (٤٧/٩، ٤٨).

QaradawiBooks.com

الأولى: قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ عالمُ رفعًا نعت لقوله: ﴿رَبِّيٓ﴾[(١)]. وقيل: أي هو عالم الغيب والغيب ما غاب عن العباد.

﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه؛ لأنَّ الرسل مؤيَّدون بالمعجزات، ومنها الإخبار عن بعض الغائبات، وفي التنزيل على لسان عيسى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وقال ابن جبير: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ هو جبريل عليه السلام. وفيه بُعدٌ، والأَوْلَى أن يكون المعنى: أي: لا يُظهر على غيبه إلَّا من ارتضى، أي: اصْطَفى للنبوة، فإنه يُطلعه على ما يشاء من غيبه، ليكون ذلك دالًّا على نبوته».

كَذَب المنجِّمون في دعاويهم:

قال القرطبي: «**الثانية**: قال العلماء رحمة الله عليهم: لما تمدَّح سبحانه بعلم الغيب، واستأثر به دونَ خلقه، كان فيه دليل على أنَّه لا يعلم الغيبَ أحدٌ سواه، ثمَّ استثنى من ارتضاه من الرُّسل، فأودعهم ما شاء من غَيْبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم، ودلالة صادقة على نُبوَّتهم، وليس المُنَجِّم، ومن ضاهاه ممَّن يضرب بالحصى، وينظر في الكتب، ويزجر بالطير؛ ممَّن ارتضاه من رسول، فيطلعه على ما يشاء من غيبه، بل هو كافر بالله، مفترٍ عليه بحَدْسه وتخمينه وكَذِبه.

قال بعض العلماء: وليت شعري ما يقول المنجِّم في سفينة ركب فيها ألف إنسان على اختلاف أحوالهم، وتباين رتبهم، فيهم الملِك

(١) في قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ في الآية التي قبلها.

QaradawiBooks.com

والسُّــوقَة، والعالم والجاهــل، والغنيُّ والفقير، والكبيــر والصغير، مع اختلاف طوالعهم، وتباين مواليدهم، ودرجــات نجومهم، فعمَّهم حكمُ الغرقِ في ســاعة واحدة؟ فإن قال المنجِّم قبَّحه الله: إنَّما أغرقهم الطالع الَّذي ركبوا فيه، فيكون على مقتضى ذلــك أن هذا الطالع أبطل أحكام تلك الطوالع كلها على اختلافها عند ولادة كل واحد منهم، وما يقتضيه طالعه المخصوص به، فلا فائدة أبدًا في عمــل المواليد، ولا دلالة فيها على شقيٍّ ولا سعيد، ولم يبقَ إلَّا معاندة القرآن العظيم، وفيه استحلال دمِه على هذا التَّنجيم، ولقد أحسن الشاعر حيث قال:

حَكَــم المنجِّــم أنَّ طالِعَ مولدي ... يقضــي علــيَّ بمِيتــة الغَــرَقِ
قُل للمنجِّمِ صبحــةَ الطوفانِ هلْ ... وُلِــد الجميــعُ بكَوْكــب الغرقِ

وقيل لأمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما أراد لقاء الخوارج: أتلقاهم والقمرُ في العَقْرَب؟ فقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فأين قمرُهم؟! وكان ذلك في آخر الشــهر. فانظر إلى هذه الكلمة الَّتي أجاب بها، وما فيها من المبالغة في الرد على من يقول بالتنجيم، والإفحام لكل جاهل يحقِّق أحكام النجوم.

وقال له مسافرُ بن عَوْف: يا أمير المؤمنين، لا تسِرْ في هذه الساعة، وسِرْ في ثلاث ســاعات يمضين من النهار. فقال له علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ولِمَ؟ قال: إنَّك إنْ سِــرْتَ في هذه الســاعة أصابك وأصاب أصحابك بلاءٌ وضُرٌّ شديد، وإن سِرْتَ في الســاعة الَّتي أمرتُكَ بها ظَفِرْتَ وظَهَرْتَ وأصبتَ ما طلبتَ. فقال عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما كان لمحمد ﷺ مُنجِّمٌ، ولا لنا من بعده ـ من كلام طويل يحتج فيه بآيات من التنزيل ـ فمَنْ صدَّقك في هذا القول لم آمَــن عليه أن يكون كَمَن اتَّخذ مــن دون الله نِدًّا أو ضِدًّا، اللهــمَّ لا طيْرَ إلَّا طَيْرُكَ، ولا خيْرَ إلَّا خَيْــرُك. ثمَّ قال للمُتكلِّم:

QaradawiBooks.com

نُكذِّبك ونخالفك، ونسير في الساعة الَّتي تنهانا عنها. ثمَّ أقبل على النَّاس فقال: يا أيها النَّاس، إياكم وتعلُّمَ النُّجُومِ، إلَّا ما تهتدون به في ظلمات البر والبحر، وإنَّما المُنَجِّم كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار، والله لئن بلغني أنَّك تنظر في النجوم وتعمل بها لأُخلِّدنَّك في الحبس ما بقيتُ وبقيتَ، ولأحرمنَّك العطاء ما كان لي سلطان. ثمَّ سافر في الساعة الَّتي نهاه عنها، ولقي القوم، فقتلهم. وهي وقعة النَّهْرَوان الثابتة في الصحيح لمسلم(١). ثمَّ قال: لو سرنا في الساعة الَّتي أمرنا بها وظفرنا وظهرنا، لقال قائل: سار في الساعة الَّتي أمر بها المنجِّم، ما كان لمحمد ﷺ منجِّم، ولا لنا من بعده، فتح الله علينا بلاد كسرى وقيصر وسائر البلدان. ثمَّ قال: يا أيها النَّاس، توكَّلوا على الله وثِقُوا به، فإنه يكفي ممَّن سواه(٢).

﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ يعني: ملائكة يحفظونه عن أن يقرب منه شيطانٌ، فيُحفظ الوحْيُ من استراقِ الشياطين، والإلقاء إلى الكهنة.

قال الضحَّاك: ما بعث الله نبيًّا إلَّا ومعه ملائكة يحرسونه من الشياطين عن أن يتشبَّهوا بصورة المَلَك، فإذا جاءه شيطانٌ في صورة الملك قالوا: هذا شيطان فاحذره. وإن جاءه الملك قالوا: هذا رسول ربِّك. وقال ابن عبَّاس وابن زيد: رصدًا أي حَفَظة يحفظون النبيَّ ﷺ من أمامه وورائه من الجنِّ والشياطين. قال قتادة وسعيد بن المسيَّب: هم أربعة من الملائكة حَفَظَة.

(١) رواه مسلم في الزكاة (١٠٦٦) (١٥٦).
(٢) رواه الحارث في مسنده (٥٦٤) بغية الحارث.

QaradawiBooks.com

وقال الفـرَّاءُ: المراد جبريل، كان إذا نـزل بالرسـالة نـزلت معه ملائكة يحفظونه من أن تستمع الجنُّ الوحيَ، فيلقوه إلى كَهَنتهم، فيسبقوا الرسول[(١)].

وقال السُّدِّي: ﴿رَصَدًا﴾ أي حفظة يحفظون الوحي، فما جاء من عند الله قالوا: إنَّه من عند الله، وما ألقاه الشيطان قالوا: إنَّه من الشيطان.

و«رصـدًا» نُصِبَ علـى المفعول. وفـي الصحاح: والرَّصَـدُ القوم يرصدون كالحَرَس، يسـتوي فيه الواحد والجمـع، والمذكَّر والمؤنَّث، وربما قالوا أرصادًا[(٢)]»[(٣)].

التفاضل بين الجنِّ والإنس:

الجنُّ والإنسان نوعان من مخلوقات الله تعالى الحيَّة العاقلة، ولكنَّهما يشتركان في أنَّ كلَّ نوعٍ منهما مُكلَّف لعبادة الله تعالى، وطاعة أمره، وتنفيذ حكمه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ولكن هناك من الإنس من يودُّون أن يبحثوا: أي الجنسـين أفضل؟ وأيهما أقدر على التعلُّـم والتحكُّم في مادِيَّات الكون ومُسـخَّرَاته: أهو الإنس أو الجنُّ؟ الفرد أو النوع؟

والَّذي يتبيَّن لنَـا من خلال النُّصـوص الدينيَّة الثابتـة، والَّتي هي المصدر الوحيد لمعرفـة الحقائق عن الجنِّ خاصَّة؛ إذ الإنسـانُ تُمكن معرفتُه عن طريـق الملاحظة والتجربة، والسـؤال والجـواب، والنوم واليقظة، والصحَّة والمرض، وغيرها من الظواهر والعادات والأساليب،

(١) معاني القرآن للفراء (٣/١٩٦).

(٢) الصحاح للجوهري مادة (ر. ص. د).

(٣) تفسير القرطبي (١٩/٢٨ ـ ٣٠).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الَّتي تُمكن بها معرفة الإنسان، ومقارنة أحواله وتطوراته، ومناظرة بعضها ببعض، إلى آخر ما يمكن للإنسان ظاهرًا وباطنًا من إمكان معرفة الإنسان، وهو أمر معلوم، وإن اختلفت أسبابه، واختلفت مظاهره، واختلفت عناصره، واختلف باحثوه، واختلفت نتائجه.

ولكنَّ الجنَّ ليس لنا بهم صلة معروفة، إلَّا ما يدَّعيه بعضُ النَّاس من الصِّلة بهم، ولا نعرف صدقَهم من كذبهم، وصوابَهم من تَخَرُّقهم.

ما نقوله عمَّا بين الجنِّ والإنس من أمور:

الذي نقوله نحن المؤمنين بوجود الجن عن طريق النبوَّات والكتب السماوية عدَّة أمور:

١ ـ الجنُّ مخلوقات، وُجدت قبل الإنسان، بمدَّة لا يعلمها إلَّا الله، ثمَّ خلق الله الإنسان.

٢ ـ الجنُّ يرى الإنسانَ، على حين لا نراهم، كما قال تعالى عن إبليس وهو من الجنِّ بنص القرآن: ﴿**إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ**﴾ [الأعراف: ٢٧].

٣ ـ الجنُّ يقدرون على التشكُّل، فيمكن تصوُّر الجِنِّي في شكلِ قِطٍّ أو كلب، أو حمار أو سَبُع، أو مَلِك أو خادم، أو إنسان عادي. وهذه مَزِيَّة تعطِي للجنيِّ قوَّةً ليست للإنسيِّ.

٤ ـ الإنسان خلقه الله في أحسن تقويم، كما قال القرآن: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ [التين: ٤]. ﴿**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**﴾ [غافر: ٦٤، التغابن: ٣]، ﴿**ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ**﴾ [الانفطار: ٧، ٨].

QaradawiBooks.com

٥ ـ الإنسان مخلوق مُكَرَّم، أي كرَّمه الله تعالى ومكَّن له في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

٦ ـ الله سبحانه سخَّر للإنسانِ ما في السماوات، وما في الأرض من نِعَم، فالنُّجوم تهديه، والشمس تعطيه الشعاعَ والحرارة والضياءَ، والقمر يعطيه النُّور، والأرض تعطيه الماء والتربة والبُذورَ، والبحار تسقيه الماء، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

٧ ـ أرسل الله الرسلَ الَّذين يتولَّوْن هداية الجِنْسَين، من بني الإنسان، بدأَهم بآدمَ ثمَّ نوحٍ، وختمهم بمحمدٍ ﷺ، وهذا يمنح فضلًا كبيرًا لبني آدم على النوع الآخر.

٨ ـ خلق الله الجنَّ قبل آدم، فلم نعـرف لهم تاريخًا ولا ذِكْرًا، ولكن لما أراد الله خلق آدم ليكون في الأرض خليفة: شـاور فيه ملائكته ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. وكان خلق آدم خلقًا عجيبًا، يجمع بين طين الأرض وصلصالها، والنفخة الإلهيَّة في الطين الَّتي حوَّلَتْه إلى روح. ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٥]. فخلق الله آدمَ بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وسخَّر له ما في السـماوات وما في الأرض جميعًا منه، وطرد إبليسَ من سـاحة قُرْبِه، حين تمرَّدَ على السـجود لآدم، وقرَّبَ كُلَّ من عادى إبليس لعداوة آدم ووالى الله: ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥].

QaradawiBooks.com

٩ ـ عُرِفَ أنَّ مِن النَّاس مَن اســتخدموا الجنَّ، ليعملوا في خدمتهم، ولم يعرف أن أحدًا من الجن اســتخدم آدميًا طواعيــة ليعمل عنده كما يريد. فنجد سليمان عليه السلام أخدمه الله الجن: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

١٠ ـ وجدنا الفرق بين قوَّة العفريت الجنِّي وقوَّة الإنسان العالِم، بما طلبه النبي الملك سليمان من كل من الجنســين، فوجدنا الإنسيَّ يفوق الجني بمراحل ومراتب.

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ۝ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٣٨ ـ ٤٠].

وهذا الَّذي عنده علم من الكتاب إنَّما هو من بني الإنســان، فلم يكن من عقلاء جلســائه، أو مكتبه التحضيري أو التنفيذي: إلَّا الجن والإنس، وقد قدَّم الجني أفضل ما عنده، وقدَّم الإنســيُّ أفضــل ما عنده. وكان عند الإنســي من العلم، الَّذي منحه الله له، وعرَّفه من أســراره، ما استطاع أن يجلب عرش الملكة العربية بلقيس من اليمن إلى فلسطين، في لمح البصر ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]، فهذا يَدُلُّنا، على مقدار ما أوتيه الإنسان، كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]. وأنَّه فوق ما أُوتِيَته الجنُّ.

١١ ـ لقد حدَّثَتْنا الكتب الســماويَّة المُنزلة مــن عند الله تعالى، عن مقدار ما عند الإنســان من قُدرات على الصناعــة والتفكيك، والتَّحليل

QaradawiBooks.com

والتَّركيب، والتَّجميع والتَّفريق، والتقريب والتبعيد، والوصل والتقطيع، فيما أتيح له في عناصر الكون الكبير، ما دلَّنا على أنَّ الله تعالى آتى الإنسان ما لم يُؤته مخلوقًا آخر. كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣]. وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

ولقد شهدنا في أرضنا هذه ـ أو كوكبنا الَّذي نعيش فوقه ـ من صناعة الإنسان وهندسته واتِّساع معارفه، وابتكار أدواته، وإنجازات المتفوِّقين من أبنائه وعلمهم كثيرًا من المعارف والعلوم، الَّتي لا يسلُس قيادُها إلَّا للكبار الَّذين يوفِّقهم الله سبحانه إلى العلم النافع، والعمل الصالح، والإنجاز الرائع، والعمل الراشد. والحمد لله ربِّ العالمين.

* * *

QaradawiBooks.com

تفسير سورة المزَّمِّل

مكيَّة السورة:

سورة المزمِّل مكيَّة عند المفسِّرين وعلماء القرآن، إلَّا الآية الأخيرة منها: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ ...﴾ [المزمل: ٢٠]، فقد اختُلف فيها، فقيل: إنَّها مدنيَّة، فهي في طبيعتها مخالفة لسائر آيات السورة، وقد ذُكر فيها القتال، وهو لم يشرع إلَّا في المدينة، قال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]. إن لم يكن ذلك من باب الإنباء بأمر مغيَّب يستقبله الرسول والمؤمنون على وجه المعجزة، وقد دلَّ على ذلك بقوله: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ ...﴾.

وينبغي على المفسِّر التأمُّل في استثناء بعض الآيات من عامَّة السورة، لينسبها إلى المكيَّة والمدنيَّة، فكثيرًا ما يدخل فيها الظنون، بل الأوهام، ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٣٦].

ترتيب السورة في التنزل:

ولقد كثُرت أقاويل المفسِّرين وعلماء القرآن حول هذه السورة، والسور المنزلة في أوائل تنزيل القرآن، فمن المتفق عليه ـ كما صحَّت

QaradawiBooks.com

به الأحاديث ـ: أن أوائل سـورة العلق: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]. هـذه الآيات الخمس هـي الفوج الأول الـذي أنزل على محمَّد ﷺ، لقَّنه إيَّاها جبريل، حامل الوحي إلى الرسـول ومَن قبله مِن الرُّسل الكرام. وهو ما ذكره الإمام البخاري في أوائل صحيحه من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا[(١)].

ثم اختلفوا في الدفعة أو الفوج التالي من الآيات، ويجب أن نكون متنبِّهين إلى أنَّ السُّور لم تكن تنـزل كاملة مرَّة واحدة، بل كانت تنـزل الآيات الأولى في السورة غالبًا، ثمَّ تنـزل الآيات الأخرى بعد ذلك، وقد يتأخَّر نـزولها، وقد تنـزل على عدَّة مرات.

وبعض المفسِّرين ورجال القرآن، إذا رأوا كلمة الجهاد، أو المنافقين، أو الفتنة، أو الهجرة، في سورة غلب على ظنِّهم: أنَّ السورة مدنيَّة. وهذا ليس دائمًا، فكم ذُكِرَت هـذه الكلمات في السـورة المكيَّة، وهو ليس بغريب في القرآن، فسياق الآيات أو السورة يقتضيها.

ومنْ تدبَّر القرآن تَدَبُّرًا كليًا، وربطَ بعضَه ببعض، أوَّله بآخره، وآخرَه بأوله، وتأمَّل في آياته البيِّنات، على ما يحـبُّ الله تعالى، وعلى ما دَعَا إليه رسوله، وعلى ما مضى عليه الكرام من أصحابه، لن يجد غرابة في أن توجد هذه الكلمات في القرآن المكي؛ لأنَّ القرآن المكي يُعِدُّ للقرآن المدني، ويُهيِّئ لاسـتقباله وما فيـه من أحكام، وأوامـر ونواهٍ، وحكم وآداب، تتكامل كلها في نهج واحد، ونظام واحد، مترابط أوفق الترابط، ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٣)، ومسلم في الإيمان (١٦٠).

نسخة مجانية غير مخصصة للطباعة
QaradawiBooks.com

في سـورة العنكبوت تقرأ فيها عن الجهاد في أوائلها: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]. وفي آخرها ختمت بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. والجهاد هنا هو تحمُّل المشقة والابتلاء والعذاب في سبيل الله.

وفي سورة النحل تقرأ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١١٠]. وقولـه: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١].

ولا عجب أن يذكر القرآن الهجرة في السُّـور المكيَّة، ومنها الهجرة إلى الحبشة، تهيئة لما بعدها.

وذُكِر النفاق في سورة المُدَّثر، وفي سورة العنكبوت، وهما مكيَّتان.

وذُكِرت الفتنة في سـورة البروج وفي سـورة الحج، في الجزء الأول المكي.

فلا ينبغي أن يكون همُّنا كلمةً من تلك الكلمات لننـزع عن السورة مكيتها وننسبها إلى المَدَنِيَّة.

والذي ينشرح له الصدر، ويطمئن إليه العقل، وتدل عليه الدراسات الجادة في علـوم القرآن: أن آيـات العلق أول ما بدئ بـه النـزول، ثمَّ جاءت آيات المدثر، وفيها العمل والسـلوك، والأمر بالتبليغ ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ [المدثر: ٢]، الَّذي يدل على الرسـالة بعد النبوة. ثمَّ جاءت سورة المزمِّل، وفيها: الإعداد للمرحلة القادمة، وما تتطلبه مـن جهود وجهاد وإعداد، وصبر ومصابرة على مقاومة المشركين.

QaradawiBooks.com

ثمَّ جاء مطلع سورة القلم، وفيه رد على المتطاولين، الَّذين لا يحسنون قولًا ولا عملًا.

أغراض السورة:

أغراض هذه السورة أشبه بالأغراض العامَّة، الَّتي اشتركت فيها كل السُّوَر المكيَّة، الَّتي جاءت تُقِرُّ العقائد الأساسية، الَّتي جاء بها الوحي، من إثبات البعث والجزاء، والجنَّة والنار، وإثبات الوحدانية الحقَّة لله تعالى، فلا يُتَّخذ غيره ربًّا، ولا يُعبد غيره إلهًا، ولا يُبتغى غيره حكمًا، والإيمان برسالة محمَّد الَّذي ختم الله به النبيِّين، وأتمَّ به مكارم الأخلاق، الَّتي تُمثِّلُها الرحمة العامة الَّتي بعث الله بها محمَّدًا للناس كافة، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

تزيد هذه السورة على ذلك بما اختُصَّت به، ممَّا ذكره الإمام ابن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير» حيث قال: «الإشعار بملاطفة الله تعالى رسوله ﷺ بندائه بصفة تزمُّله.

واشتملت على الأمر بقيام النبيِّ ﷺ غالب الليل، والثناء على طائفة من المؤمنين حملوا أنفسهم على قيام الليل.

وعلى تثبيت النبيِّ ﷺ بتحمُّل إبلاغ الوحي.

والأمر بإدامة إقامة الصلاة وأداء الزكاة وإعطاءِ الصدقات.

وأمره بالتمحُّض للقيام بما أمره الله من التبليغ، وبأن يتوكل عليه.

وأمره بالإعراض عن تكذيب المشركين.

وتكفَّل الله له بالنصر عليهم، وأن جزاءهم بيد الله.

QaradawiBooks.com

والوعيد لهم بعذاب الآخرة.

ووعظهم ممَّا حل بقوم فرعون لما كذَّبوا رسول الله إليهم.

وذكر يوم القيامة ووصف أهواله.

ونسخ قيام معظم الليل بالاكتفاء بقيام بعضه؛ رَعْيًا للأعذار المُلازمة.

والوعد بالجزاء العظيم على أفعال الخيرات، والمبادرة بالتوبة.

وأدمج في ذلك أدب قراءة القرآن وتدبُّره، وأن أعمال النهار لا يغني عنها قيام الليل»[1].

الخطاب المباشر للرسول:

والسورة كلها خطاب مباشر للرسول محمد، كما هو واضح من أولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾، وأكثر سور هذا الجزء ـ ما عدا سورة نوح ـ تخاطب الرسول، وكذلك سور الجزء السابق، وهو الجزء الثامن والعشرون، وكذلك معظم سور جزء «عمَّ» وهو الجزء الثلاثون.

وفي هذه الأجزاء الثلاثة يحس من يقرأ القرآن الكريم: أنَّ هناك علاقة متعينة خاصة بين الله تعالى ورسوله، هي علاقة القرب والمحبَّة والمناجاة، فليس هناك من يستطيع أن ينكر هذه العلاقة، أو يعكرها، أو يضعفها بأي وجه من الوجوه، أو بأية حال من الأحوال. انظر هذه العلاقة في سورة الصف أو الجمعة أو المنافقون أو التغابن أو الطلاق أو التحريم، يتبين لك قوَّة الصلة بين محمَّد وربه. وكذلك في سور الجزءين الأخيرين، في سور المزمِّل أو المدَّثر أو الضحى أو الشرح أو الكوثر أو

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٢٥٤/٢٩، ٢٥٥).

QaradawiBooks.com

المسد، وكلها تنبئ بقرب هذا الرسول المكرم من ربه الأكرم، الَّذي أحب الله وأحبه الله وحبَّبه إلى خلقه، وجعل تعالى حب النبي ﷺ مع حبه جزءًا من الإيمان الحقيقي.

بداية تفسير السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ١ ـ ٩].

أنواع النداءات الإلهيَّة في القرآن:

النداءات الإلهيَّة في القرآن أنواع، فمنها: النداء للناس عامَّة، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ ...﴾ [البقرة: ٢١].

ومثله النداء لبني آدم، كقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

ومثله النداء لعباد الله، كقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

وأخصُّ منها النداء إلى أهل الكتاب؛ مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]. والمراد بأهل

QaradawiBooks.com

الكتاب: أهل التــوراة والإنجيل، وهم اليهــود والنصارى على اختلاف مذاهبهم وتأويلاتهم.

وقــد ينــادي الكفَّــار أو المشــركين، كقولــه تعالــى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۞ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١، ٢].

وقد يكون النداء إلى الإنســان عامَّة، كما فــي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]. وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

وقد يكون النداء إلى جماعة المؤمنين، وهذا لم يجئ إلَّا في القرآن المدني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]. وقد تكرر هذا النداء ٨٩ مرَّة.

وقد يتكرَّر النداء الإلهي إلى الأشــخاص؛ مثل النداء إلى آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من أنبياء الله ورسله.

النداء بـ «يا أيُّها المزمل»:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾

ومن ذلك: النداء إلى الرسول بأوصافه الَّتي وُصِف بها مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، فهــو يناديه وهــو في حالة معيَّنــة من اللباس والتَّغطِّي، فــي أوائل ما جاءه الوحي، وقد جاء إلــى أهله في بيته يقول لهم: دثِّروني، أو زمِّلوني. فكأنَّ الله تعالى يُلاطفه ويُؤانسه، حينما يناديه بهذا الوصف، وفــي هذه الحالة، فإذا نُودِيَ المنــادى بوصف هيئته من لِبْسة أو جِلْسة أو ضِجْعة، فإنَّ المقصود في الغالب: التلطف به، والتحبُّب إليه، ولهيئته. ومنه قول النبي ﷺ لعلي بن أبــي طالب، وقد وجده في

QaradawiBooks.com

المسجد، وقد عَلِق التراب بجنبه: «**قمْ أبا تراب!**»[١]، وقوله لحذيفة بن اليمان يوم الخندق: «**قمْ يا نومان!**»[٢].

وفي القرآن خطاب للنبيِّ الكريم بصيغ شتَّى منها: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ**﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ**﴾ [الأحزاب: ١]. ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ**﴾ [التحريم: ١]، إلخ.

و«المزمِّل»: اسم فاعل من تزمَّل يتزمَّل، فهو مُزَّمِّل، إذا تلفَّف بثوبه كالمَقْرور، أو مريد النوم، وهو مثل التدثُّر في مآل المعنى، وإن كان بينهما اختلاف في أصل الاشتقاق، والمزمِّل أصلها: المتزمِّل، أدغمت التاء في «الزاي» بعد قلبها زايًا لتقاربهما.

مواجهة المجتمع الوثني:

ثم إنَّ النبي ﷺ والذين آمنوا معه، تنتظرهم رحلة طويلة وشاقة ومضنية من مواجهة المجتمع الوثني، الَّذي استمرَّ مئاتٍ وربما آلافًا من السنين، مستمرئًا ضلال العقيدة، وانحراف السيرة، وفساد الفكر، وقلة الخير، وانعدام المحبَّة الحقيقية بين النَّاس، فهم أشبه بالغابة الكبيرة، الَّتي يأكل فيها الكبيرُ الصغيرَ، ويلتهم الغنيُّ الفقير، ويجور القوي على الضعيف.

أفسدت الجاهليَّة العمياء عقولهم، وأماتت ضمائرهم، وجارت على أخلاقهم، فأصبح كلُّ امرئ منهم، كأنَّه يعيش وحده لا يفكر في غيره، وإذا فكر في غيره، فلِكَي يكون له خادمًا أو على الأقل عونًا، لا يعرفون

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٤١)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٠٩)، عن سهل بن سعد.

(٢) رواه مسلم في الجهاد والسير (١٧٨٨)، عن حذيفة.

QaradawiBooks.com

معنى الأخوة الحقَّة، ولا بر الوالدين بحقٍّ، ولا صلة الأرحام الَّتي يحبُّها الله، ولا العطف على الأيتام والمساكين وابن السبيل وما ملكت الأيمان.

غلبت شهوات الدنيا على الأفراد، فأصبحوا يأكلون الحرام، ويستحِلُّون الحرام، يزنون أحيانًا مسافحين، وأحيانًا متَّخذي أخدان، أو متَّخذات أخدان، ويأكلون الربا، ويأكلون أموال اليتامى ظلمًا، ويتحكَّم الأقوياء في الضعفاء، كأن الغلبة إنَّما هي للأقوياء بأبنائهم، أو بأسلحتهم، أو بأموالهم، أو بعصبياتهم، وأحيانًا لا يبالون بعصبياتهم إذا غلبتهم أهواؤهم.

وأحيانًا على بَكْرٍ أخينا إذا لم نجدْ إلَّا أَخَانا(١)

يقول زُهَيْر بن أبي سُلمى في معلَّقته:

ومن لم يذُدْ عن حَوْضِه بسِلَاحِهِ يُهَدَّمْ ومن لا يظلمِ الناسَ يُظلمِ(٢)

أي: لكي يبتعد النَّاس عن ظلمك والاعتداء عليك لا بدَّ أن تبدأ بظلمهم، فإن لم تظلمهم فقد عرَّضت نفسَك للظلم لا محالة.

وقال عمرو بن كُلْثوم في معلَّقته الشهيرة(٣):

لَنَا الدُّنْيا ومَنْ أَمْسَى عليها ونَبْطِشُ حينَ نَبْطِشُ قادرينا
بُغَاةً ظالمينَ وما ظُلِمْنا ولكنَّا سنبدأُ ظالمينا

الفرد ضائع في هذا المجتمع عقليًّا ونفسيًّا وثقافيًّا، والأسرة تحتاج إلى التعاضد والتراحم، والمجتمع يحتاج إلى أن يتكاتف ويتساند، ويكون

(١) من شعر عمير بن شييم المعروف بالقطامي. انظر: ديوان الحماسة (٢٠٣/١).
(٢) البيت في ديوانه صـ ١١١، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
(٣) البيتان في ديوانه صـ ٩٠، تحقيق إميل بديع يعقوب، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

QaradawiBooks.com

بعضه أولياء بعض، يعطف غنيُّه على فقيره، ويأخذ قويُّه بيد ضعيفه، يسأل أحدهم نفسه قبل أن يأخذ المال: من أين جاءني؟ وإذا اكتسبه: كيف أُنفقه؟

لم يكن المجتمع الجاهلي يعرف هذا الفقه، ولا هذه الثقافة، ولا هذه الروح، إنَّما هي الأنانية المحضة، الَّتي جعلت أبناءه ذئابًا يفترس بعضُها بعضًا.

إنَّه في حاجة إلى الدعوة الَّتي تبني هذا المجتمع بناء جديدًا، تغيِّره ابتداء من لَبِنَاته، ثمَّ من ارتباطه بعضه ببعض، ثمَّ بارتباط جماعاته، حتَّى تتكوَّن منهم أمة ربانيَّة إنسانيَّة أخلاقيَّة، ثمَّ تقوم عليهم دولة تؤدِّي الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمت بين النَّاس حكمت بالعدل، تقيم الصلاة، وتؤْتي الزكاة، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، كل ذلك بعد الإيمان بالله تعالى، الَّذي هو أساس البناء كله.

تأمُّل في الآيات الأولى من سورة «المُزمِّل»:

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾

كان القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية، الَّتي أنزلها الله تعالى على رسله، وهو يتضمَّن الوحي الإلهي الَّذي يخاطب الله تعالى به رسوله عن طريق الروح الأمين جبريل، الَّذي يحمل الوحي من الله تعالى لرسله، وخصوصًا القرآن، الَّذي أنزله الله كله على خاتم رسله محمد، بطريق الوحي الجلي؛ نزول الملك به سورة سورة وآية آية.

وكان القرآن مصدر التعليم الربَّاني الأول، ومصدرَ التَّشريع والتوجيه، الآمر الناهي، الهادي إلى صراط الله المستقيم، المُوضِّح لأحكامه وأهدافه وهداه.

QaradawiBooks.com

ولذلك نادى الله تعالى رسوله محمَّدًا في هذا الكتاب في هذه المرحلة الحسَّاسة بهذا النداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾. وبعد هذا النداء اللطيف المُؤْنس لعبده ورسوله، وحامل أمانته محمَّدٍ، يُصدِرُ الله تعالى هذا الأمر المباشر: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

وإذا تأمَّلنا في الآيات الأولى من سورة «المزمِّل»، وجدناه تعالى يأمر رسوله أن يترك التزمُّل، وهو: التَّغطِّي في الليل، وينهض إلى القيام لربِّه عَزَّ وَجَلَّ، فليس هناك مجال للنوم الطويل، ولا لراحة المُرَفَّهِين، كما قال الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

مقدار قيام الليل:

وكذلك كان رسول الله ﷺ ممتثِّلًا ما أمره الله تعالى به من قيام الليل، وقد كان واجبًا عليه وحدَه، كما قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩]. وهاهنا بيَّن له مقدار ما يقوم، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي: يا أيُّها المُتلفِّف المُتغطِّي بثيابه، قُم الليل للصلاة والعبادة إلَّا قليلًا تنام فيه.

قال ابن عبَّاس، والضحَّاك، والسُّدِّي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ يعني: يا أيُّها النائم. وقال قتادة: المُزَّمِّل في ثيابه. وقال إبراهيم النخعي: نزلت وهو متزمِّل بقَطِيفة[1].

وقولُه: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾: بدلٌ من الليل. ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٤٩).

QaradawiBooks.com

أي: أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل، لا حرج عليك في ذلك.

والمعنى: قُم نصف الليل أو انقص من النصف قليلًا إلى الثلث، أو زِد على النصف إلى الثُلثين.

قراءة القرآن بترسُّل وتمهُّل وتبيينٍ:

وقوله: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ أي: واقرأ القرآن بترسُّل وتمهُّل وتبيينٍ، مع حضور القلب والتأمُّل في معاني الآيات. وفي الآية: استحباب ترتيل القرآن، وأنَّه أفضل من سرعة القراءة، فقراءة القرآن على تمهُّل عونٌ على فهم القرآن وتدبُّره. وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه، قالت حفصة: كان يقرأ السورة فيرتِّلُها، حتَّى تكون أطولَ من أطولَ منها[١].

وفي صحيح البخاري، عن أنس: أنَّه سُئل عن قراءة رسول الله ﷺ، فقال: كانت مَدًّا[٢].

وعن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: «**يقال لصاحب القرآن: اقرأْ وارْقَ، ورَتِّل كما كنتَ ترتِّل في الدنيا؛ فإنَّ منزلتك عند آخر آيةٍ تقرؤها**»[٣].

قال الحافظ ابن كثير: «وقد قدَّمْنا في أول التفسير الأحاديث الدالَّة على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة، كما جاء في الحديث:

---

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٣٣)، وأحمد (٢٦٤٤١)، والترمذي في الصلاة (٣٧٣).

(٢) رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٤٦)، وأحمد (١٣٠٥٠).

(٣) رواه أحمد (٦٧٩٩)، وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره. وأبو داود في الوتر (١٤٦٤)، والترمذي في فضائل القرآن (٢٩١٤)، وقال: حسن صحيح.

QaradawiBooks.com

«**زَيِّنوا القرآنَ بأصواتكم**»[١]، و«**ليس منَّا من لم يَتَغَنَّ بالقرآنِ**»[٢]، و«**لقد أُوتي هذا مزمارًا من مزامير آل داود**»[٣]، يعني: أبا موسى. فقال أبو موسى: لو كنتُ أعلمُ أنَّك كنتَ تسمع قراءتي لحبَّرْته لك تحبيرًا[٤].

وعن ابن مسعود أنَّه قال: لا تنثروه نثر الرمل، ولا تَهذُّوه هذَّ الشِّعر، قِفُوا عند عجائبه، وحرِّكوا به القلوب، ولا يكن همُّ أحدكم آخر السورة[٥].

وفي البخاري عن أبي وائل قال: جاء رجلٌ إلى ابن مسعود، فقال: قرأتُ المُفصَّل الليلةَ في ركعة. فقال: هذًّا كهذِّ الشِّعْر، لقد عرفتُ النظائرَ الَّتي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهنَّ ـ فذكر عشرين سورةً من المُفَصَّل ـ سورتين في ركعةٍ[٦].

﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾

أي: إنَّا سُنلقي عليك ـ يا محمَّد ـ كلامًا عظيمًا جليلًا، ذا معانٍ وفيرةٍ غزيرةٍ، لا يُستطاع تفهُّمها؛ إلَّا بالقراءة المُرتَّلة الَّتي فيها أناةٌ وتمهُّلٌ، وتفكُّر وتدبُّر.

---

(١) رواه أحمد (١٨٤٩٤)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في الصلاة (١٤٦٨)، والنسائي في الافتتاح (١٠١٥)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٤٢)، عن البراء بن عازب.

(٢) رواه البخاري في التوحيد (٧٥٢٧)، عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٤٨)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٩٣)، عن أبي موسي الأشعري.

(٤) روى هذه الزيادة ابن حبان في مناقب الصحابة (٧١٩٧)، والحاكم في معرفة الصحابة (٤٦٦/٣)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

(٥) رواه الآجُرِّي في أخلاق القرآن صـ ٣٨، تحقيق الشيخ محمد عمرو عبد اللطيف، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

(٦) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٧٧٥)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨٢٢).

QaradawiBooks.com

قال الحسن وقتادة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾: أي العمل به.

وقيل: ثقيلٌ وقت نزوله؛ من عظمته. كما قال زيد بن ثابت: أُنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي، فكادت تَرُضُّ فَخذي(١).

وفي المسند عن عبد الله بن عمرو قال: سألتُ النَّبيَّ ﷺ، فقلتُ: يا رسول الله، هل تُحِسُّ بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أسمعُ صَلاصيل، ثمَّ أسكتُ عند ذلك، فما من مرَّة يُوحى إليَّ إلَّا ظننتُ أنَّ نفْسي تَفِيض**»(٢).

وفي أوَّل صحيح البخاري عن عائشة: أنَّ الحارث بن هشام سأل رسولَ الله ﷺ: كيف يأتيكَ الوحيُ؟ فقال: «**أحيانًا يأتيني في مثلِ صَلْصَلة الجَرَس، وهو أشدُّه عَلَيَّ، فَيُفْصِمُ(٣) عنِّي، وقد وَعَيْتُ عنه ما قال، وأحيانًا يتمثَّل لي المَلَكُ رجلًا، فيكلِّمُني، فأعِي ما يقول**».

قالت عائشة: ولقد رأيتُه ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد، فَيُفْصِمُ عنه وإنَّ جبينه ليتفصَّدُ عرقًا(٤).

وفي المسند عن عائشة قالت: إنْ كان ليوحَى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته، فتضرب بِجِرَانِها(٥).

---

(١) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٣٢).

(٢) رواه أحمد (٧٠٧١)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. والطبراني (١٦/١٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٩٣٤): إسناده حسن.

(٣) أي: يقلع. يقال: أفصم المطر: إذا أقلع وانكشف.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري بدء الوحي (٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٣٣).

(٥) رواه أحمد (٢٤٨٦٨)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيح.

QaradawiBooks.com

وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور، عن مَعْمَر، عن هشام بن عروة، عن أبيه؛ أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته، وضعت جِرَانها، فما تستطيع أن تَحَرَّكَ حتَّى يُسَرَّى عنه[١]. وهذا مرسل.

الجِرَان: هو باطن العنق.

واختار ابنُ جرير[٢] أنَّه ثقيل من الوجْهَين معًا، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما ثقل في الدُّنْيا ثقُل يوم القيامة في الموازين»[٣].

وقال بعض المفسِّرين: ثقيلًا: أي ثابتًا كثبوت الثقيل في محله، ومعناه: أنَّه ثابت الإعجاز، لا يملك أحدٌ أن يأتيَ بمثله، أو بسورةٍ منه، لا يزولُ إعجازه أبدًا.

معنى «القول الثقيل» المُلقى على الرسول:

ولا بدَّ لنا أن نقف وقفة تأمُّل عند هذا الوصف الَّذي وصف الله به تعالى القرآن، حين قال لخير خلقه، وخاتم رسله محمد، بعد أن أمره بقيام الليل أدنى من ثلثيه ونصفه وثلثه، وطائفة من أصحابه الَّذين معه، وترتيل القرآن الكريم، وقراءته على مهل، لِيُعدَّه ﷺ بهذا القيام وهذه القراءة، وهذا الترتيل، وهذا التبتُّل لله تعالى، لحُسْن تلقِّي هذا القرآن وما يحمله من هداية إلى الَّتي هي أقوم، من تنوير للعقل، وتطهير للقلب، وتزكية

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢٣/٦٨١).
(٢) تفسير الطبري (٢٣/٦٨٢).
(٣) تفسير ابن كثير (٨/٢٥٠، ٢٥١).

QaradawiBooks.com

للنفس، وترقية للروح، وحُسْن الاتِّصال بالله جل شأنه، ولذَّة التقرُّب منه، والترقِّي في مراقي عبوديَّة الله سبحانه، والوصول إلى أعلى مراتب القرب من الله، والحب لله، ولهذا قال ﷻ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾.

أراد الله تعالى أن يُعِدَّ رسولَه الأكرم في مدرسة الليل، ومدرسة القرآن وترتيله، لما ينتظره من عبء ثقيل سيحمله وإخوانه؛ عبء الدعوة والعمل والتربية، والصبر والمصابرة والجهاد الدائم.

إنَّ الثِّقَل هنا ليس ثقل الأوزان، كـ «ثقل ما يحمله البعير، أكثر ممَّا يحمله الحصان». ولكن الثِّقَل هنا معنوي، يتعلق بالعقائد والعبادات والأخلاق والمكارم، والدعوة والجهاد، وهذه يتفاوت فيها النَّاس تفاوُتًا بعيدًا.

ولقد قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۞ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣].

فهذه أمانة التكاليف الإلهيَّة الَّتي طلبها الله من النَّاس كافَّة، وأمَّا ما يريده من محمَّد وأمته خاصَّة، فهو ما أنزله في القرآن، وهو ما وصفه أو اعتبره ﴿قَوْلًا ثَقِيلًا﴾؛ لأنَّه يحمل موازين وقيمًا جديدة للبشريَّة تهديهم إلى الرُّشد، وترفعهم إلى أعلى، وترقى بهم إلى الدرجات العلا.

وكلُّ فرد من أمته ﷺ، يأخذ من هذا «القول الثقيل» على قدر ما تهيَّأ له، بحسب منزلته، كما قال تعالى في القرآن: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

QaradawiBooks.com

كلام الفخر الرازي في معنى «القول الثقيل»:

وممَّا ذكره الإمام الفخر الرازي في وجوه التفسير لمعنى «القول الثقيل» ـ وهو ما اختاره ورجَّحه ـ: أنَّ المراد من كونه ثقيلًا عِظَمُ قَدْرِه، وجلالة خَطَرِه.

وممَّا ذكره الرازي أيضًا: أنَّ المرادَ بالقول الثقيل القرآنُ وما فيه من الأوامر والنواهي وتحريمات، الَّتي هي تكاليف شاقَّة ثقيلة على المكلَّفين عامة، وعلى رسول الله خاصَّة؛ لأنَّه يتحمَّلها بنفسه ويبلغها إلى أمته، وحاصله أن ثِقَله راجعٌ إلى ثِقَل العمل به، أي: وثِقَل تبليغه والدعوة إليه، فإنه لا معنى للتكليف إلَّا إلزام ما في فعله كلفة ومشقة.

ونقل الرازي عن الحسن أنَّه ثقيلٌ في الميزان يوم القيامة(١)، وهو إشارة إلى كثرة منافعه وكثرة الثواب في العمل به.

كما نقل عن الفرَّاء أنَّه قال: قَوْلًا ثَقِيلًا، أي: ليس بالخفيف ولا بالسفساف؛ لأنَّه كلام ربِّنا تبارك وتعالى(٢).

أقول: ويؤيِّد هذا قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

وأيضًا قال الزجَّاج: معناه أنَّه قولٌ متين في صحَّته وبيانه ونفعه(٣)، كما تقول: هذا كلام رزين، وهذا قول له وزن. إذا كنتَ تستجيده، وتعلم أنَّه وقع موقع الحكمة والبيان.

---

(١) تفسير الرازي (٣٠/٦٨٤).

(٢) معاني القرآن للفراء (٣/١٩٧).

(٣) معاني القرآن للزجاج (٥/٢٤٠)، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، نشر عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

QaradawiBooks.com

«قال أبو عليٍّ الفارسيُّ: إنَّه ثقيلٌ على المنافقين، من حيث إنَّه يهتك أسرارهم، ومن حيث إنَّه يبطل أديانهم وأقوالهم.

ومنها: أنَّ الثقيل من شأنه أن يبقى في مكانه ولا يزول، فجعل الثقيل كناية عن بقاء القرآن على وجه الدهر، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ومنها: أنَّه ثقيل بمعنى أنَّ العقل الواحد لا يفي بإدراك فوائده ومعانيه بالكليَّة، فالمتكلِّمون غاصوا في بحار معقولاته، والفقهاء أقبلوا على البحث عن أحكامه، وعلماء العقائد بحثوا عن عقائده، والمتصوِّفون بحثوا في أخلاقيَّاته، وكذا أهل اللغة والنحو وأرباب المعاني، ثمَّ لا يزال كلُّ متأخِّر يفوز منه بفوائد ما وصل إليها المتقدِّمون، فعلمنا أنَّ الإنسان الواحد لا يقوى على الاستقلال بحمله، فصار كالحِمْل الثقيل الَّذي يعجز الخلق عن حمله.

ومنها: أنَّه ثقيل لكونه مشتملًا على المُحْكَم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والفرق بين هذه الأقسام ممَّا لا يقدر عليه إلَّا العلماء الراسخون، المحيطون بجميع العلوم العقلية والحكمية، فلما كان كذلك لا جرم؛ كانت الإحاطة به ثقيلة على أكثر الخلق»(١).

معنى ناشئة الليل:

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

ذكر ابن كثير أقوال ابن عبَّاس والمفسِّرين، ثمَّ قال: «والغرض: أنَّ ناشئة الليل هي: ساعاته وأوقاته، وكل ساعة منه تُسَمَّى ناشئة، وهي

(١) تفسير الرازي (٣٠/٦٨٤).

QaradawiBooks.com

الآنات. والمقصود: أنَّ قيام الليل هو أشـدُّ مواطَأة بين القلب واللسان، وأجمع علـى التلاوة؛ ولهـذا قـال: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار؛ لأنَّه وقت انتشار النَّاس، ولَغَط الأصوات، وأوقات المعاش»(١).

تفسير الفخر الرازي لناشئة الليل:

وقال الإمام الرازي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ يقال: نَشَـأَتْ تَنْشَأُ نَشْأً فهي ناشئة، والإنشاء: الإحداث، فكل ما حَدَث فهو ناشئ، فإنه يقال للذكر: ناشئ، وللمؤنث: ناشئة.

إذا عرفت هذا فنقول في الناشئة قولان:

أحدهما: أنَّها عبارة عن ساعات الليل.

والثاني: أنَّها عبارة عن الأمور الَّتي تحدُث في ساعات الليل.

أمَّا القول الأول: فقال أبو عُبَيْدة: ناشئة الليل ساعاته وأجزاؤه المتتالية المتعاقبة(٢) فإنَّها تحدَّث واحدة بعد أخرى، فهي ناشـئة بعد ناشـئة، ثمَّ القائلون بهذا القول اختلفوا، فمنهم من قال: الليل كلُّه ناشئة، روى ابن أبي مُلَيْكَة، قال: سـألت ابن عبَّاس وابن الزبير عن ناشئة الليل، فقالا: الليل كلُّه ناشئة(٣).

وقال زين العابدين رضي الله عنه : ناشئة الليل ما بين المغرب إلى العشاء.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢٥٢/٨).

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة (٢٧٣/٢)، نشـر مكتبة الخانجي، القاهـرة، تحقيق محمد فواد سزكين، ١٣٨١هـ.

(٣) رواه الطبري في تفسيره (٦٨٢/٢٣).

QaradawiBooks.com

وهو قول سعيد بن جبير والضحَّاك والكسائي، قالوا: لأن ناشئة الليل هي الساعة الَّتي منها يبتدئ سواد الليل.

القول الثاني: هو تفسير الناشئة بأمور تحدُث في الليل، وذكروا على هذا القول وجوها:

أحدها: قالوا: ناشـئة الليل هي النَّفْس الناشـئة بالليل، الَّتي تنشأ من مضجعها إلى العبادة، أي: تنهض وترتفع، من نَشَأَت السَّحَابة إذا ارتفعت.

وثانيها: ناشئة الليل عبارة عن قيام الليل بعد النوم. قال ابن الأعرابي: إذا نمت من أول الليل نَوْمة ثمَّ قُمت فتلك النشأة، ومنه: ناشئة الليل.

وعندي فيه وجه ثالث: وهو أنَّ الإنسان إذا أقبل على العبادة والذكر في الليل المظلم في البيت المظلم، في موضع لا تصير حواسُّـه مشغولة بشيء من المحسوسات البتة، فحينئذ يُقبل القلب على الخواطر الروحانيَّة والأفكار الإلهيَّة (أي: الربانيَّة)، وأمَّا النهار فإنَّ الحواسَّ تكون مشغولة بالمحسوسات، فتصير النفس مشغولة بالمحسوسات، فلا تتفرغ للأحوال الروحانيَّة.

فالمراد من ناشئة الليل: تلك الواردات الروحانيَّة والخواطر النورانيَّة، الَّتي تنكشف في ظلمة الليل بسبب فراغ الحواسِّ، وسمَّاها: ناشئة الليل؛ لأنَّها لا تحدث إلَّا في الليل، بسبب أنَّ الحواسّ الشاغلة للنَّفْس مُعطَّلة في الليل، ومشـغولة في النهار، ولم يذكر أن تلك الأشياء الناشئة منها تارة أفكار وتأمُّلات، وتارة أنوار ومكاشفات، وتارة انفعالات نفسانيَّة من الابتهاج بعالم القُدُس أو الخوف منـه، أو تخيُّلات أحوال عجيبة، فلمَّا كانت تلك الأمور الناشئة أجناسًـا كثيرة لا يجمعها جامع، إلَّا أنَّها أمور ناشئة حادثة لا جرم، لم يصفها إلَّا بأنَّها ناشئة الليل»[1].

(١) تفسير الرازي (٣٠/٦٨٤، ٦٨٥).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

تفسير الفخر الرازي لقوله تعالى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾:

قال الإمام الرازي: «أمَّا قوله تعالى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ أي: مواطأة وملاءمة وموافقة، وهي مصدر، يقال: واطأتُ فلانًا على كذا مواطأة ووَطْأَة. ومنه ﴿لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧]. أي: ليوافقوا، فإنْ فسَّرنا الناشئة بالساعات؛ كان المعنى: أنَّها أشدُّ موافقة لما يَرِدُ من الخشوع والإخلاص، وإن فسَّرناها بالنفس الناشئة؛ كان المعنى: شدَّة المواطأة بين القلب واللسان، وإن فسَّرناها بقيام الليل كان المعنى ما يراد من الخشوع والإخلاص، وإن فسَّرناها بما ذَكَرْتُ كان المعنى أنَّ إفضاء تلك المجاهدات إلى حصول المكاشفات في الليل أشدُّ منه في النهار.

وعن الحسن: أشد موافقة بين السرِّ والعلانية لانقطاع رؤية الخلائق»(١).

قال الإمام الفخر الرازي أيضًا: «قُرِئ: ﴿أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ بالفتح والكسر(٢). وفيه وجهان:

الأول: قال الفرَّاء: أشدّ ثباتَ قَدَمٍ؛ لأنَّ النهار يضطرب فيه النَّاس، ويتقلبون فيه للمعاش(٣).

والثاني: أثقل وأغلظ على المُصلِّي من صلاة النهار. وهو من قولك: اشتدت على القوم وطأة سلطانهم؛ إذا ثقُل عليهم معاملتهم معه.

وفي الحديث: «**اللهمَّ اشدُدْ وطأتَكَ على مُضَرَ**»(٤).

فأعلم اللهُ نبيَّه أنَّ الثواب في قيام الليل على قدر شِدَّة الوطأة وثقلها.

---

(١) تفسير الرازي (٣٠/٦٨٥).

(٢) انظر تفصيل ذلك في النشر في القراءات العشر (٢/٣٩٢).

(٣) معاني القرآن للفراء (٣/١٩٧).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الاستسقاء (١٠٠٦)، ومسلم في المساجد (٦٧٥)، عن أبي هريرة.

غير مخصصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

واختار أبو عبيدة القراءة الأولى، قال: لأنَّه تعالى لما أمره بقيام الليل ذكر هذه الآية، فكأنه قال: إنَّما أمرتك بصلاة الليل؛ لأن موافقة القلب واللسان فيه أكمل، وأيضًا الخواطر الليليَّة إلى المكاشفات الروحانيَّة أتمّ.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾:

فيه مسألتان: المسألة الأولى: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ قال ابن عبَّاس: أحسن لفظًا. قال ابن قتيبة: لأنَّ الليل تهدأ فيه الأصوات[1]، وتنقطع فيه الحركات، ويخلُص القول، ولا يكون دون تسمُّعه وتفهُّمه حائل»[2].

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾

أي: إنَّ لك ـ يا محمَّد ـ في النهار تصرُّفًا وتقلُّبًا في حوائجك ومطالب حياتك، وزمانًا طويلًا للقيام بوظائف رسالتك الدعويَّة والتربويَّة، ففرِّغ نفسك ليلًا لعبادة ربِّك.

قال ابن كثير: «فالله تعالى الحكيم فيما أمر، الرحيم بمن خلق، جعل لك وللنَّاس في النهار سبْحًا طويلًا، فيما تحتاج إليه من طعام يومِك، وشرابِك وكسائِك ودوائك، ومن حاجة أولادك، ومن شؤون دنياك، ومن مطالب رفقائك، ومِمَّا يشغلك من أمور الدنيا، فعليكم أن تفرغوا لعملكم لربكم ولآخرتكم.

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾ قال: لحوائجك، فَأَفْرِغْ لدِينكَ الليلَ. قال: وهذا حين كانت صلاة

---

(١) غريب القرآن لابن قتيبة صـ ٤٩٣، تحقيق أحمد صقر، نشر دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

(٢) تفسير الرازي (٣٠/٦٨٥).

QaradawiBooks.com

الليل فريضة، ثمَّ إنَّ الله منَّ على العباد فخفَّفها ووضعها. وقرأ: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ إلى آخر الآية، ثمَّ قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾ حتَّى بلغ: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾ الليلَ نصفه أو ثلثه. ثمَّ جاء أمر أوسع وأفسح وضع الفريضة عنه وعن أمته، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩][(١)].

والدليل عليه: ما رواه الإمام أحمد في مسنده، عن سعيد بن هشام أنَّه سأل عائشة قال: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن قيام رسول الله ﷺ. قالت: ألستَ تقرأ هذه السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾؟ قلتُ: بلى.

قالت: فإنَّ الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حَوْلًا حتَّى انتفخت أقدامُهم، وأمسك الله خاتمتها في السماء اثني عشر شهرًا، ثمَّ أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوُّعًا من بعد فريضة.

فهممتُ أن أقوم، ثمَّ بدا لي وتر رسول الله ﷺ.

قلتُ: يا أمَّ المؤمنين، أنبئيني عن وتر رسولِ الله ﷺ.

قالت: كنا نُعِدُّ له سِواكَه وطَهُوره، فيبعثه الله لِمَا شاء أن يبعثه من الليل، فيتسوَّكُ، ثمَّ يتوضَّأ، ثمَّ يُصلِّي ثمانيَ ركعات لا يجلس فيهنَّ، إلَّا عند الثامنة، فيجلس ويذكر ربَّه تعالى ويدعو، ثمَّ ينهض، وما يسلِّم. ثمَّ يقوم فيصلي التاسعة، ثمَّ يقعد فيذكر الله وحده، ثمَّ يدعوه، ثمَّ يسلِّم تسليمًا يُسمعنا، ثمَّ يصلي ركعتين وهو جالس بعدما يسلم. فتلك إحدى عشرة ركعة يا بني. فلما أسنَّ رسول الله ﷺ وأخذه اللحم، أوتر بسبع، ثمَّ صلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلِّم، فتلك تسعٌ يا بني.

---

(١) رواه الطبري في تفسيره (٢٣/٦٨٦).

QaradawiBooks.com

وكان رسول الله ﷺ إذا صلَّى صلاةً أحبَّ أن يداوم عليها، وكان إذا شَغَله عن قيام الليل نوم أو وَجَع أو مرض، صلَّى من النهار ثنتي عشرة ركعة، ولا أعلم نبي الله ﷺ قرأ القرآن كله في ليلة، ولا قام ليلة حتَّى أصبح، ولا صام شهرًا كاملًا غير رمضان.

فأتيتُ ابن عبَّاس، فحدَّثْتُه بحديثها، فقال: صدقَتْ، أمَا لو كنتُ أدخل عليها لأتيتُها حتَّى تشافهني مشافهة[(١)].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا مِهْرَان، عن سفيان، عن قيس بن وهب، عن أبي عبد الرحمن قال: لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾، قاموا حولًا حتَّى ورمت أقدامهم وسُوقُهم، حتَّى نزلت: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ قال: فاستراح الناس[(٢)]. وكذا قال الحسن البصري...

وقال عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس في قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢، ٣]: فشقَّ ذلك على المؤمنين، ثمَّ خفَّف الله عنهم ورحمهم، فأنزل بعد هذا: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾ فوسَّع الله ـ وله الحمد ـ ولم يضيِّق[(٣)]»[(٤)].

قال الإمام الرازي: «قال المبرِّد: ﴿سَبۡحٗا﴾ أي: تقلُّبًا فيما يجب، ولهذا سُمِّي السابح سابحًا لتقلُّبه بيديه ورجليه.

(١) رواه أحمد (٢٤٢٦٩)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٤٦) بنحوه.

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٢٣/٦٧٩).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) تفسير ابن كثير (٨/٢٥٢ ـ ٢٥٥).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ثم في كيفيَّة المعنى وجهان:

الأوَّل: إنَّ لك في النهار تَصرُّفًا وتَقلُّبًا في مُهِمَّاتِك، فلا تتفرَّغ لخدمة الله إلَّا باللَّيل، فلهذا السبب أمرتك بالصَّلاة في الليل.

الثاني: قال الزجَّاج[١]: أي إنْ فاتك من الليل شيء من النوم والراحة، فلك في النهار فراغه، فاصرفه إليه»[٢].

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾

قال الحافظ ابن كثير: «أي: أكثر من ذكره، وانقطع إليه، وتفرَّغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك، وما تحتاج إليه من أمور دنياك، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ﴾ [الشرح: ٧]. أي: إذا فرغت من أشغالك فانْصَب في طاعته وعِبادَته، لتكون فارغ البال. قاله ابن زيد بمعناه أو قريب منه[٣].

قال ابن عبَّاس ومجاهد، وأبو صالح، وعطية، والضحاك، والسُّدي: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ أي: أخلص له العبادة. وقال الحسن: اجتهد وبتِّلْ إليه نفسَك. وقال ابن جرير: يقال للعابد: مُتبَتِّل[٤]، ومنه الحديث المرويُّ: أنَّه نهى عن التَّبتُّل[٥]. يعني: الانقطاع إلى العبادة وترك التزوُّج»[٦].

---

(١) انظر: معاني القرآن (٥/٢٤٠).

(٢) تفسير الرازي (٣٠/٦٨٦).

(٣) رواه الطبري في التفسير (٢٣/٦٨٨).

(٤) تفسير الطبري (٢٣/٦٨٧).

(٥) رواه أحمد (٢٠١٩٢)، وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره. والترمذي (١٠٨٢)، وقال: حسن غريب. والنسائي (٣٢١٤)، كلاهما في النكاح، عن سمرة بن جندب.

(٦) تفسير ابن كثير (٨/٢٥٥).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

تفسير الإمام الفخر الرازي لهذه الآية: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾:

وقال الإمام الفخر الرازي: «هذه الآية تدلُّ على أنَّه تعالى أمر بشيئين **أحدهما**: الذكر. **والثَّاني**: التبتُّل.

أمَّا الذكر؛ فاعلم أنَّه إنَّما قال: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ هاهنا، وقال في آية أخرى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥]؛ لأنَّه لا بدَّ في أول الأمر من ذكر الاسم باللسان مدة، ثمَّ يزول الاسم ويبقى المُسمَّى، فالدرجة الأولى هي المراد بقوله هاهنا: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾، والمرتبة الثانية هي المراد بقوله في السورة الأخرى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾، وإنَّما تكون مشتغلًا بذكر الربِّ، إذا كنت في مقام مطالعة ربوبيَّته، وربوبيَّتُه عبارة عن أنواع تربيته لك وإحسانه إليك، فما دُمتَ في هذا المقام تكون مشغولَ القلبِ بمُطالعة آلائه ونَعمائه، فلا تكون مُستغْرَق القلبِ به، وحينئذ يزدادُ الترقِّي، فتصير مشتغلًا بذكر إلهيَّته، وإليه الإشارة بقوله: ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠]. وفي هذا المقام يكون الإنسان في مقام الهيبة والخشية؛ لأنَّ الإلهيَّة إشارة إلى القهَّاريَّة والعِزَّة والعُلوِّ والصَّمديَّة، ولا يزال العبد يرقى في هذا المقام متردِّدًا في مقامات الجلال والتنزيه والتقديس، إلى أن ينتقل منها إلى مقام الهُويَّة الأحديَّة، الَّتي كلَّت العبارات عن شرحها، وتقاصرت الإشارات عن الانتهاء إليها، وهناك الانتهاء إلى الواحد الحقِّ، ثمَّ يقف؛ لأنَّه ليس هناك نظير في الصفات، حتَّى يحصل الانتقال من صفة إلى صفة، ولا تكون الهُويَّة مُرَكَّبة حتَّى ينتقل نظر العقل من جزء إلى جزء، ولا مناسبة لشيء من الأحوال المدركة عن النفس، حتَّى تُعرف على سبيل المقايسة، فهي الظاهرة؛ لأنَّها مبدأ ظهور كل ظاهر، وهي الباطنة؛

QaradawiBooks.com

لأنَّها فوق عقول كل المخلوقات، فسبحان من احتجب عن العقول لشدة ظهوره، واختفى عنها بكمال نوره»[(١)].

ثم قال الإمام الفخر الرازي: «وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: اعلمْ أنَّ جميع المفسرين فسروا التبتُّل بالإخلاص، وأصل التبتُّل في اللغة: القطع، وقيل لمريم البتول؛ لأنَّها انقطعت إلى الله تعالى في العبادة، وصَدَقَة بَتْلَة: منقطعة من مال صاحبها.

وقال الليث: التبتيل تمييز الشيء عن الشيء، والبتول: كلُّ امرأة تنقبض من الرجال، لا رغبة لها فيهم.

إذا عرفت ذلك فاعلم أنَّ للمفسِّرين عباراتٍ، قال الفرَّاء: يقال للعابد إذا ترك كل شيء وأقبل على العبادة: قد تبتَّل، أي: انقطع عن كل شيء إلى أمر الله وطاعته. وقال زيد بن أسلم: التبتُّل: رفض الدنيا مع كلِّ ما فيها، والتماسُ ما عند الله»[(٢)].

ثم قال الفخر الرازي: «واعلم أنَّ معنى الآية فوق ما قاله هؤلاء الظاهريُّون؛ لأن قوله: ﴿وَتَبَتَّلْ﴾ أي: انقطع عن كلِّ ما سواه إليه، والمشغول بطلب الآخرة غير متبتِّل إلى الله تعالى، بل التَّبتُّل إلى الآخرة، والمشغول بعبادة الله مُتبتِّل إلى العبادة لا إلى الله، والطالب لمعرفة الله مُتبتِّل إلى معرفة الله لا إلى الله، فمن آثر العبادة لنفس العبادة، أو لطلب الثواب، أو ليصير متعبِّدًا كاملًا بتلك العبوديَّة، فهو مُتبتِّل إلى غير الله،

(١) تفسير الرازي (٣٠/٦٨٦، ٦٨٧).
(٢) المصدر السابق نفسه.

QaradawiBooks.com

ومن آثر العرفان فهو متبتل إلى العرفان، ومن آثر العبودية لا للعبودية بل للمعبود، وآثر العرفان لا للعرفان بل للمعروف، فقد خاض لُجَّة الوصول، وهذا مقام لا يشرحه المقال، ولا يعبر عنه الخيال، ومن أراده فليكن من الواصلين إلى العين دون السامعين للأثر، ولا يجد الإنسان لهذا مثالًا، إلَّا عند العشق الشديد، إذا مرض البدن بسببه، وانحبست القُوى، وعَمِيَت العينان، وزالت الأغراض بالكلية، وانقطعت النفس عمَّا سوى المعشوق بالكلية، فهناك يظهر الفرق بين التبتُّل إلى المعشوق، وبين التبتُّل إلى رؤية المعشوق.

المسألة الثانية: الواجب أن يقال: «وتبتَّل إليه تبتُّلًا». أو يقال: «بَتِّل نفسك إليه تبتيلًا»، لكنَّه تعالى لم يذكرهما، واختار هذه العبارة الدقيقة، وهي: أنَّ المقصود بالذات إنَّما هو التبتُّل، فأمَّا التبتيل فهو تصرُّف، والمشتغِل بالتصرُّف لا يكون متبتِّلًا إلى الله؛ لأنَّ المشتغل بغير الله لا يكون منقطِعًا إلى الله، إلَّا أنَّه لا بدَّ أولًا من التبتيل حتَّى يحصل التبتُّل، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. فذكَر التبتُّل أولًا إشعارًا بأنَّه المقصود بالذات، وذكَرَ التبتيل ثانيًا إشعارًا بأنَّه لا بدَّ منه، ولكنَّه مقصود بالغرض»(١).

ونختم هذا النقل الطويل عن الإمام الرازي بكلمات الشهيد سيِّد قطب حول هذه الآية: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وذكر اسم الله، ليس هو مجرَّد ترديد هذا الاسم الكريم باللسان، على عِدَّة المسبحة المئويَّة أو الألفيَّة! إنَّما هو ذكر القلب الحاضر مع اللسان الذاكر، أو هو الصلاة ذاتها وقراءة القرآن فيها.

(١) تفسير الرازي (٣٠/٦٨٧).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

والتبتل هو الانقطاع الكُلِّي عمَّا عدا الله، والاتِّجاه الكُلِّي إليه بالعبادة والذِّكْر، والخلوص من كلِّ شاغل ومن كلِّ خاطر، والحضور مع الله بكامل الحسِّ والمشاعر»[١].

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾

قال الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾: «أي: هو المالك المتصرِّف في المشارق والمغارب، لا إلٰه إلَّا هو، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل، ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وكقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وآيات كثيرة في هذا المعنى، فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله، وتخصيصه بالتوكُّل عليه»[٢].

ـ كلام الفخر الرازي حول هذه الآية: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾:

وقال الإمام الفخر الرازي: «واعلمْ أنَّه تعالى لما أمره بالذكر أولًا، ثمَّ بالتبتُّل ثانيًا، ذكر السبب فيه فقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنَّ التبتل إليه لا يحصل إلَّا بعد حصول المحبَّة، والمحبَّة لا تليق إلَّا بالله تعالى؛ وذلك لأن سبب المحبة إما الكمال، وإما التكميل، أمَّا الكمال فلأن الكمال محبوب لذاته؛ إذ من

(١) في ظلال القرآن (٣٧٤٦/٦)، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ١٧، ١٤١٢هـ.

(٢) تفسير ابن كثير (٢٥٥/٨).

QaradawiBooks.com

المعلوم أنَّه يمتنع أن يكون كل شيء، إنَّما كان محبوبًا لأجل شيء آخر، وإلا لزم التسلسل، فإذن لا بدَّ من الانتهاء إلى ما يكون محبوبًا لذاته، والكمال محبوب لذاته، فإن من اعتقد أنَّ فلانًا الَّذي كان قبل هذا بألف سنة كان موصوفًا بعلم أزيد من علم سائر الناس؛ مال طبعه إليه، وأحبَّه شاء أم أبى، ومن اعتقد في رُسْتُم (قائد جيوش الفرس) أنَّه كان موصوفًا بشجاعة زائدة على شجاعة سائر النَّاس أحبَّه شاء أم أبى، فعلمنا أنَّ الكمال محبوبٌ لذاته، وكمال الكمال لله تعالى، فالله تعالى محبوب لذاته، فمن لم يحصل في قلبه محبته كان ذلك لعدم علمه بكماله.

وأمَّا التكميل، فهو أنَّ الجواد محبوب، والجواد المطلق هو الله تعالى، فالمحبوب المطلق هو الله تعالى، والتبتُّل المطلق لا يمكن أن يحصل إلَّا إلى الله تعالى؛ لأنَّ الكمال المطلق له، والتكميل المطلق منه، فوجب أن لا يكون التبتل المطلق إلَّا إليه، واعلم أنَّ التبتل الحاصل إليه بسبب كونه مبدأً للتكميل؛ مُقدَّم على التَّبتُّل الحاصل إليه بسبب كونه كاملًا في ذاته؛ لأنَّ الإنسان في مبدأ السير يكون طالبًا للحِصَّة، فيكون تبتُّله إلى الله تعالى بسبب كونه مبدأً للتكميل والإحسان، ثمَّ في آخر السير يترقّى عن طلب الحِصَّة كما بيَّنَّا من أنَّه يصير طالبًا للمعروف لا للعرفان، فيكون تبتُّله في هذه الحالة بسبب كونه كاملًا، فقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ إشارة إلى الحالة الأولى الَّتي هي أول درجات المتبتلين، وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إشارة إلى الحالة الثانية الَّتي هي منتهى درجات المتبتلين، ومنتهى أقدام الصِّدِّيقين، فسبحان من له تحت كلِّ كلمةٍ سر خَفِيٌّ.

ثم وراء هاتين الحالتين مقام آخر، وهو مقام التفويض، وهو أن يرفع الاختيار من البَيْن، ويفوض الأمر بالكلية إليه، فإن أراد الحق به أن

QaradawiBooks.com

يجعله متبتِّلًا رَضِيَ بعدم التبتيل لا من حيث إنَّه عدم التبتيل، بل من حيث إنَّه مراد الحق، وهاهنا آخر الدرجات، وقوله: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ إشارة إلى هذه الحالة، فهذا ما جرى به القلم في تفسير في هذه الآية، وفي الزوايا خبايا، ومن أسرار هذه الآية بقايا، ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

أمَّا قوله: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ فالمعنى: أنَّه لما ثبت أنَّه لا إلٰه إلَّا هو لزمك أن تتخذه وكيلا، وأن تُفوِّض كل أمورك إليه، وهاهنا مقام عظيم، فإنه لما كانت معرفة أنَّه لا إلٰه إلَّا هو، توجب تفويض كل الأمور إليه، دلَّ هذا على أنَّ مَن لا يفوِّض كل الأمور إليه، فإنه غير عالم بحقيقة لا إلٰه إلَّا هو، وتقريره أن كلَّ ما سواه ممكن ومحدَث، وكلَّ ممكن ومحدَث، فإنَّه ما لم ينتهِ إلى الواجب لذاته لم يجِب، ولما كان الواجب لذاته واحدًا كان جميع الممكنات مستندة إليه، منتهية إليه، وهذا هو المراد من قوله: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾.

وقال بعضهم: ﴿وَكِيلٗا﴾ أي: كفيلًا بما وعدك من النصر والإظهار»[1].

التعامل مع المشركين:

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ۝١٠ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾

ثم وجَّه الله الرسول إلى الصبر الجميل على ما يلقاه من قومه من الاتهام والإعراض والصد والتعطيل. وأن يخلي بينه وبين المكذبين، ويمهلهم قليلًا.

(١) تفسير الرازي (٣٠/٦٨٨).

QaradawiBooks.com

قال الحافظ ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله مَن كذَّبه مِن سفهاء قومه، وأن يهجرهم هَجْرًا جميلًا، وهو: الَّذي لا عتاب معه. كما أنَّ **الصبر الجميل** هو: الَّذي لا شكوى معه. **والصفح الجميل** هو: الَّذي لا لومَ معه»[1].

«ثُمَّ قال له متوعِّدًا لكفار قومه ومُتهدِّدًا ـ وهو العظيم الَّذي لا يقوم لغضبه شيء ـ:

﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِي ٱلنَّعْمَةِ﴾[2] أي: دَعني والمُكَذِّبين المترَفِين أصحابَ الأموال المُنَعَّمِين، فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم، وهم يُطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم، ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أي: رويدًا. كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٧]، وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]»[3].

التهديد بأهوال يوم القيامة:

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ ما يضادُّ تنعُّمهم: من أنكال، وهي: القيود الثقال. كما قاله ابن عبَّاس، وعدد من المفسِّرين، ﴿وَجَحِيمًا﴾ وهي السعير المضْطرمة والنار الحامية.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٥٦).

(٢) قال الزمخشري: النَّعمة بالفتح: التَّنعُّم، وبالكسر: الإنعام، وبالضم: المسرَّة. الكشاف (٤/٦٤٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٨/٢٥٦).

نسخة مجانية غير معدة للطباعة

QaradawiBooks.com

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ كالضريع والزقوم. قال ابن عبَّاس: يَنْشَبُ في الحَلق، فلا يدخل ولا يخرج[1]. ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ من سائر أنواع العذاب.

والأنكال والجحيم والطعام ذو الغُصَّة الَّذي يمزق الحلوق والعذاب الأليم.. كلها جزاء مناسب «لأولي النَّعْمة»! الَّذين لم يَرْعَوا النِّعْمة، ولم يشكروا الْمُنْعِم سبحانه.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أي: تزلزل، ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي: تصير ككُثبان الرمل بعدما كانت حجارة صمَّاءَ، ثمَّ إنَّها تُنسف نسفًا، فلا يبقى منها شيء إلَّا ذهب، حتَّى تصير الأرض قاعًا صفصفًا، لا ترى فيها عِوَجًا، أي: واديًا، ولا أَمْتًا، أي: رابية، ومعناه: لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع، وهو ما جاء في سورة طه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧].

التهديد بعذاب الدنيا، كما جرى على أمثالهم من الأُمم:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾

ثم يلتفت السياق أمام مشهد الهول المفزع، إلى المكذبين أولي النعمة، يذكرهم بفرعون الجبار، وكيف أخذه الله أخذ عزيز قهار: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥، ١٦].

يقول ابن كثير: «قال تعالى مخاطبًا لكُفَّار قريش، والمراد سائر النَّاس: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي: بأعمالكم، يشهد عليكم

(١) تفسير ابن كثير (٢٥٦/٨).

QaradawiBooks.com

يوم القيامة بكفركم وتكذيبكم ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥، ١٦]. أي: شديدًا، أي: فاحذروا أنتم أن تكذِّبوا هذا الرسول، فيصيبكم ما أصاب فرعون، حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤١، ٤٢]. وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥]. وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتم؛ لأنَّ رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران. ويُروَى عن ابن عبَّاس ومجاهد»[1].

العودة إلى تخويفهم بأهوال القيامة:

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧
ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾

أي: فكيف تأمنون ـ إن كفرتم بربِّكم في الدنيا ـ العذابَ يوم القيامة الَّذي يجعل الولدان شيوخًا من هَوْل ذلك اليوم وشدّته؟

السماء ـ مع عِظمها ـ تنشق بشدَّة هَوْل يوم القيامة، كان وعد الله تعالى كائنًا لا مَحالة.

قال الحافظ ابن كثير: (وقوله: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ يحتمل أن يكون ﴿يَوْمًا﴾ معمولًا لـ «تتَّقون»، كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود: «فكيف تخافون أيُّها النَّاس يومًا يجعل الولدان شيبًا إن كفرتم بالله ولم تُصدِّقوا به؟»[2].

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٥٦).

(٢) تفسير الطبري (٢٣/٦٩٤).

نسخة مجانية غير مخصصة للطباعة

ويحتمل أن يكون معمولًا لـ «كفرتم»، على تأويل جحدتم.

فعلى الأول: كيف يحصلُ لكم أمان من يوم هــذا الفزع العظيم إن كفرتم؟

وعلى الثاني: أي: فكيف تتَّقون الله وتخشوْنَه إنْ جحدتم يوم القيامة والجزاء؛ لأن تقوى الله تعالى خوفُ عقابه؟

وكلاهما معنى حسن، ولكنَّ الأول أولى، والله أعلم»[١].

ومعنى قوله: ﴿يَوۡمًا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ أي: يُصيِّـر الأطفال والصبيان شـيوخًا، وهو كناية عن شـدَّة ذلك اليوم، ويقال في اليوم الشديد: يوم تشيب نواصي الأطفال.

والأصل: أنَّ الهموم إذا تفاقمت أسرعت بالشيب. قال المتنبِّي:

والهـمُّ يختـرمُ الجسـيمَ نَحافةً ويُشـيب ناصيةَ الصبـيِّ ويُهْرِمُ[٢]

وقال قوم: إنَّ ذلك حقيقة، تشيب رؤوسهم من شدَّة أهواله وزلازله وبلابله، كما قد يرى الشـيب في الدنيا من الهول المُفْرط، كَهَوْل البحر والقتال ونحو ذلك.

وذلك حين يقـول الله لآدم: «**ابعث بعْثَ النـار. فيقول: مِن كم؟ فيقول: من كلِّ ألفٍ تسعُمائةٍ وتسعة وتسـعون إلى النار، وواحد إلى الجنة**»[٣].

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٥٦، ٢٥٧).

(٢) البيت في ديوانه صـ ٥٧١.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٥٣٠)، ومسـلم في الإيمان (٢٢٢)، عن أبي سـعيد الخدري.

QaradawiBooks.com

وقال الزمخشـري: «يجوز أن يوصف اليوم بالطول[١]، وأنَّ الأطفال يبلغون فيه أوان الشيخوخة»[٢].

وقَصَر ذلك بعضُهم على أطفال المشركين والكفار، والظاهر العموم، أي: يشيب الصغير من غير كِبَر.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ أي: متشقِّق، «به» أي: بسبب هول هذا اليوم، وإنَّما جاء بصيغة المذكَّر، ولم يقل: «منفطرة»؛ لأنَّ السماء تُذكَّر باعتبارها سقفًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

قال ابن كثير: «قال الحسن، وقتادة: أي بسببه، من شدَّته وهوله.

ومنهم من يعيد الضمير على الله ﷻ. وروي عن ابن عبَّاس ومجاهد، وليس بقوي؛ لأنَّه لم يَجْرِ له ذكر هاهنا.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ أي: كان وعد هذا اليوم مفعولًا، أي: واقعًا لا محالة، وكائنًا لا محيد عنه»[٣]. و«وَعْدُه» مصدر أضيف إلى مفعوله، والضمير فيه لليوم، ويجوز أن يكون من إضافته إلى فاعله وهو الله ﷻ، ولم يجر ذكره لكونه معلومًا، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]. وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦].

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾

يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ أي: السورة ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي: يتذكَّر بها

(١) يعني يكون قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ كنايةً عن طول اليوم.

(٢) تفسير الزمخشري (٦٤٢/٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٢٥٧/٨).

QaradawiBooks.com

الإنسان ما نسي، ويَتنبَّه بها لما غفل عنه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. ولهذا قال: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: الطريق مفتوح لمن يريد أن يصل إلى الحق، فقد خلق الله الإنسان حرًّا مختارًا، لا يُجْبر على شيء ضد إرادته، وهو بما أعطاه الله من عقل وإرادة وقدرة، يعمل في ضوء المشيئة الإلهيَّة العامَّة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

إنَّ هذه الرسالة الإلهيَّة رسالة بيان وهداية وموعظة وإرشاد وتذكير باقٍ، فهي ليست رسالة إكراهٍ ولا إلزام، فمن شاء نجاةَ نفسه وسعادتها، بما آتاه الله من إرادةٍ حُرَّةٍ مُمَكَّنةٍ بخلق الله أن تشاء بحُرِّيةٍ، اتَّخذ إلى مرضاة ربِّه طريقًا، ومَنْ لم يشأ ذلك استحقَّ العقاب والعذاب، فهو الَّذي يتحمَّل نتائج رفضه للحقِّ وسلوكِ سبيل الهداية.

تفسير الآية الأخيرة من سورة المزمل:

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزمل: ٢٠].

بهذه الآية الطويلة المخالِفة لآياتِ سورة المزمّل كلها، ختَم اللهُ السورة، بما فيه تخفيف وتيسير على أُمَّة الإسلام، الَّذين آمنوا بمحمد ﷺ، والذين يؤمنون به إلى يوم القيامة.

QaradawiBooks.com

وهي متَّفِقة مع النَّهْج العام الَّذي مضى عليه القرآن كلُّه، مكيُّه ومدنيُّه، في التيسير على النَّاس، والتخفيف عنهم، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]. وقال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. فأعلن الله تعالى في أوَّل الآية ما يقوم به الرَّسول وطائفة من أصحابه من القيام بما كان عليهم من قيام الليل، أدنى من ثلثيه ونصفه وثلثه، وطائفة من أصحابه الَّذين معه، والمعيَّة هنا معيَّة إيمان وصُحبة ومتابعة.

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أيْ: تارة يعتدلان، يكون الليل قَدْرَ النَّهار، وتارة يأخذ هذا من هذا، وهذا من هذا، يعني: أنَّ العالِم بمقادير أجزاءِ اللَّيل والنهار ليس إلَّا اللهُ تعالى، لا يقدر على تقدير أحدهما أحدٌ أصلًا؛ فإنَّ تقديمَ لفظِ الجلالة (الله) باعتبار هذا الاسم الجليل مبتدأ، وبناء «يُقَدِّر» عليه مُوجِبٌ الاختصاصَ قطعًا.

﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أيْ: علم الله ﷻ أنَّكم لا يمكنكم إحصاء كل واحد من أجزاء الليل والنهار على الحقيقة، ولا يمكنكم أيضًا تحصيل تلك المقادير على سبيل الظنِّ والاحتياط، إلَّا مع المشقَّة التامَّة، ومعنى هذا: أنَّه فوقَ طاقَتِكم، والله لا يمكن أن يكلِّفكم بما هو فوق طاقتكم. ولذا قال بعضهم: المراد صعوبتُه وشدَّتُه، لا أنَّهم لا يقدرون عليه.

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: رخَّص لكم في ترك القيام المقدَّر، كقوله تعالى في شأن الصيام: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]. والمعنى: أنَّه رفع التَّبِعة عنكم في ترك هذا العمل، كما رفع التَّبِعة عن التائب.

QaradawiBooks.com

تفسير: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾:

كرَّر قوله تعالى «علم» ليُقَرِّر سبحانه أنَّه بناءً على ما علم منهم وجُزم، قرَّر ما به أمر وحَكَم، فهو حكمٌ مبنيٌّ على عِلْم، ككُلِّ أحكامه الشرعية سبحانه، ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٩].

فما خفَّفه تعالى عنهم بالنسبة لما كان مطلوبًا منهم في قيام الليل، كان لُطفًا من الله تعالى بهم، وتخفيفًا عنهم، وتيسيرًا عليهم، وخصوصًا في المراحِل المُستقبَلة من الدعوة الإسلامية العظمى، الَّتي سيقوم بها محمَّد ﷺ، ويقوم بها أصحابُه وأمَّته معه، فهم مبعوثون بما بُعِث به. كما قال عليه الصلاة والسلام: «**إنَّما بُعثتم مُيسِّرينَ، ولم تُبْعثوا مُعسِّرين**»(١).

«وهناك ـ في علم الله ـ أمور تنتظركم، تستنفد الجهد والطاقة، ويشق معها القيام الطويل: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ يصعب عليهم هذا القيام. ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾.. في طلب الرزق والكد فيه، وهو ضرورة من ضرورات الحياة. والله لا يريد أن تَدَعوا أمورَ حياتِكم وتنقطعوا لعبادة الشعائر انقطاع الرهبان! ﴿وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.. فقد علم الله أن سيأذن لكم في الانتصار ممن ظلمكم بالقتال، ولإقامة راية للإسلام في الأرض يخشاها البغاة! فخففوا إذن على أنفسكم»(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الوضوء (٢٢٠)، وأحمد (٧٢٥٥)، عن أبي هريرة.
(٢) في ظلال القرآن (٣٧٤٩/٦).

QaradawiBooks.com

قال الرازي: «واعلمْ أنَّ تقدير هذه الآية كأنَّه قيل: لِمَ نَسخ الله ذلك (أي: لم غيَّره؟) فقال: لأنَّـه علم كذا، وعلم كـذا. والمعنى: لتعذُّر القيام على المرضى، والضاربين في الأرض للتجارة، والمجاهدين في سبيل الله.

أمَّا المرضى، فإنَّهم لا يمكنهم الاشتغال بالتهجُّد لمرضهم، وأمَّا المسافرون والمجاهدون، فهم مشتغلون في النَّهار بالأعمال الشاقَّة، فلو لم يناموا في الليل، لتوالت أسباب المشقَّة عليهم، وهذا السبب ما كان موجودًا في حقِّ النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ [المزمل: ٧]. فلا جرم ما صار وجوب التهجُّد منسوخًا في حقِّه»(١).

ومن لطائف هذه الآية: أنَّه تعالى سَوَّى بين المجاهدين والمسافرين لكسب الحلال، وقرن بينهما في سياق واحد من هذه الآية. قال ابن مسعود: أيُّما رجلٍ جَلَب شيئًا إلى مدينة من مدائن المسلمين صابرًا محتسبًا، فباعه بسعر يومه، كان عند الله من الشهداء(٢).

وقال ابن عمر: ما خلق الله مَوْتة أمُوتها بعد الموت في سبيل الله أحبُّ إليَّ من الموت بين شُعبتي رَحْلي، أبتغي من فضل الله، ضاربًا في الأرض(٣).

وفي الصحيحين والمُسند عن أبي هُرَيرة مرفوعًا: «**الساعي على الأرملةِ والمسكين كالمجاهدِ في سبيل الله، أو كالَّذي يقومُ الليلَ ويصومُ النَّهارَ**»(٤).

(١) تفسير الرازي (٣٠/٦٩٥).
(٢) تفسير الزمخشري (٤/٦٤٣).
(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١١٩٨).
(٤) متفق عليه: رواه البخاري في النفقات (٥٣٥٣)، ومسلم في الزهد (٢٩٨٢)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وذكر القرطبي عن بعض السلف أنَّه: «كان بواسط، فجهَّز سفينةَ حِنْطةٍ إلى البصرة، وكتب إلى وكيله: بِعْ الطعامَ يومَ تدخلُ البصرةَ، ولا تؤخِّرْه إلى غدٍ، فوافق سَعَةً في السِّعْر، فقال التُّجَّار للوكيل: إن أخَّرْته جمعةً ربحتَ فيه أضعافَه، فأخَّرَه جمعة، فربح فيه أمثاله، فكتب إلى صاحبه بذلك، فكتب إليه صاحب الطعام: يا هذا! إنا كُنَّا قَنِعْنَا بربحٍ يسير مع سلامة ديننا، وقد جَنَيْتَ علينا جِنايةً، فإذا أتاك كتابي هذا فخذ المال وتصدَّقْ به على فقراء البصرة، وليتني أنْجو من الاحتكار كَفَافًا، لا عليَّ ولا لِي.

ويُروى أنَّ غلامًا من أهل مكَّة كان مُلازمًا للمسجد، فافتقده ابنُ عمر، فمشى إلى بيته، فقالت أمُّه: هو على طعامٍ له يبيعُه، فلقيه، فقال له: يا بُنَيَّ، ما لك وللطعام؟! فهلَّا إبلًا، فهلَّا بقرًا، فهلَّا غنمًا! إن صاحب الطعام يحبُّ المَحْلَ ـ أي: الجدب ـ وصاحب الماشية يحبُّ الغَيْثَ»(١).

أمر الله تعالى بقراءة ما تيسَّر من القرآن:

ثم قال سبحانه: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾.

قال القرطبي: «أي: صلُّوا ما أمكن. فأوجب الله من صلاة الليل ما تيسَّر، ثمَّ نسخ ذلك بإيجاب الصلوات الخمس.

قال ابن العربي: وقد قال قوم: إنَّ فرض قيام الليل سُنَّ في ركعتين من هذه الآية، قاله البخاري وغيره، وعقد بابًا ذكر فيه حديث: «**يَعقدُ الشيطانُ على قافيةِ رأسِ أحدِكم إذا هو نام ثلاثَ عُقَد، يضرب على كلِّ عُقْدَةٍ مكانَها: عليكَ ليلٌ طويل فارْقُدْ. فإن استيقظ فذكر الله، انحلَّت**

(١) تفسير القرطبي (١٩/٥٦).

QaradawiBooks.com

عُقدة، فإن توضَّأ انحلَّت عُقدة، فإن صلَّى انحلَّت عُقَدُه كلُّها، فأصبح نشيطًا طيِّب النَّفس، وإلا أصبحَ خبيثَ النَّفسِ كسلانَ»(١).

وذكر حديثَ سمُرة بن جندب عن النبي ﷺ في الرُّؤيا قال: «**أمَّا الَّذي يُثْلَغ رأسُه بالحَجَر؛ فإنَّه يأخذ القرآنَ فيرفُضه، وينام عن الصلاة المكتوبة**»(٢).

وحديثَ عبدِ الله بن مسعود قال: ذُكِرَ عند النبي ﷺ رجلٌ ينامُ اللَّيْلَ كُلَّهُ فقال: «**ذلكَ رجلٌ بالَ الشيطانُ في أُذُنَيْه**»(٣).

فقال ابن العربي: فهذه أحاديث مقتضيةٌ حملَ مطلَقِ الصلاةِ على المكتوبة، فيُحمل المُطلَقُ على المقيَّد لاحتماله له، وتسقط الدعوى ممَّن عيَّنه لقيام الليل.

وفي الصحيح - واللفظ للبخاري -: قال عبد الله بن عمرو: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا عبد الله، لا تكُنْ مثلَ فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل**»(٤). ولو كان فرضًا ما أقرَّه النبي ﷺ عليه، ولا أخبر بمثل هذا الخبر عنه، بل كان يذمُّه غاية الذَّمِّ.

وفي الصحيح عن عبد الله بن عمر قال: كان الرجل في حياة النبي ﷺ إذا رأى رؤيا، قصَّها على النبيِّ ﷺ، وكنتُ غلامًا شابًّا عزبًا، وكنتُ أنامُ في المسجد على عهد رسول الله ﷺ، فرأيتُ في النومِ كأنَّ مَلَكَيْن

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التهجد (١١٤٢)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٧٦)، عن أبي هريرة.
(٢) رواه البخاري في التهجُّد (١١٤٣).
(٣) متفق عليه: رواه البخاري في التهجد (٣٢٧٠)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٧٤).
(٤) متفق عليه: رواه البخاري في التهجد (١١٥٢)، ومسلم في الصيام (١١٥٩).

QaradawiBooks.com

أخذاني فذهبا بي إلى النار، فإذا هــي مطْويَّة كطيِّ البئرِ، وإذا لها قرنان، وإذا فيها ناسٌ قد عرفتُهم، فجعلت أقول: أعوذُ بالله من النار. قال: ولَقِيَنا ملكٌ آخر، فقال لي: لم تُرَعْ. فقصَصْتُها على حفصةَ، فقَصَّتْها حفصةُ على رسول الله ﷺ، فقال: «**نِعْمَ الرجلُ عبدُ الله لو كان يصلِّي من الليل**». فكان بعدُ لا ينام من الليل إلَّا قليلًا[(١)]. فلــو كان تركُ القيام معصية لما قال له الملك: لم تُرَعْ. والله أعلم[(٢)]».

القدر اللازم للقراءة في الصلاة:

قال الإمام القرطبي: «إذا ثبت أنَّ قيام الليل ليس بفرض، وأنَّ قوله: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾ محمولٌ على ظاهره من القراءة في الصلاة؛

فاختلف العلماء في قدر ما يلزمه أن يقرأ به في الصلاة، فقال مالك والشـافعي: فاتحة الكتاب لا يجزئ العدول عنهـا، ولا الاقتصار على بعضها. وقدَّره أبو حنيفة بآيةٍ واحـدة، من أي القرآن كانت. وعنه ثلاث آياتٍ؛ لأنَّها أقلُّ سورة. ذكر القول الأول الماوردي، والثاني ابن العربي. والصحيح ما ذهـب إليه مالك والشـافعي، علـى ما بيَّنَّاه في سـورة «الفاتحة» أول الكتاب والحمد لله»[(٣)].

أقــول (القرضاوي): ولكــن يُعمل برأي أبي حنيفــة فيمن دخل جديدًا في الإسلام، وهو لا يعرف العربية، فنُيسِّر عليه فيما يقرأ حتَّى يتاح له الحفظ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التهجد (١١٢١، ١١٢٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٧٩).
(٢) أحكام القرآن (٣٣٥/٤، ٣٣٦).
(٣) تفسير القرطبي (٥٦/١٩ ـ ٥٨).

QaradawiBooks.com

قال القرطبي: «وقيــل: إنَّ المراد به قراءة القرآن في غير الصلاة. قال الماوردي: فعلى هذا يكون مطلــق هذا الأمر محمولًا على الوجوب، أو على الاستحباب دون الوجوب. وهذا قول الأكثرين؛ لأنَّه لو وجب عليه أن يقرأ لوجب عليه أن يحفظه.

الثاني: أنَّه محمول على الوجوب، ليقف بقراءته على إعجازه، وما فيه من دلائـل التوحيد وبعث الرســل، ولا يلزمــه إذا قرأه وعرف إعجــازه ودلائل التوحيد منه أن يحفظه؛ لأنَّ حفظ القرآن من القرب المستحبَّة دون الواجبة»[١].

وقال ابن عاشــور: «وهذه الآية اقتضت رفع وجــوب قيام الليل عن المسلمين إن كان قد وجب عليهم من قبل على أحد الاحتمالين، أو بيانٌ لم يوجَب عليهم، وكانوا قد التزموه، فبيَّن لهم أنَّ ما التزموه من التأسِّي بالنَّبِيِّ ﷺ في ذلك غير لازم لهم، وعَلَّل عــدم وجوبه عليهم بأنَّ الأمة يكثر فيها أصحاب الأعذار الَّتي يشــقُّ معها قيامُ الليــل، فلم يجعله الله واجبًا عليهــم، أو رَفَع وجوبَه. ولولا اعتبار المَظنَّــة العامَّة لأبقي حُكْمَ القيامِ، ورخَّص لأصحاب العذر في مدَّة العذر فقط، فتبيَّن أنَّ هذا تعليل الحكم الشرعي بالمظنَّة، والحكم هنا عدميٌّ ـ أي: عدم الإيجاب ـ فهو نظير قصر الصلاة في الســفر على قول عائشــة أم المؤمنين: إنَّ الصلاةَ فُرضت ركعتَيْــن، ثمَّ زِيدَ في ثلاثٍ من الصلــوات في الحضر، وأبقيت صلاة السفر[٢]. وعِلَّة بقاء الركعتين هو مظنَّة المشقَّة في السفر.

وأُوجِبَ التَّرَخُّص في قيام الليل؛ أنَّه لم يكن ركنًا من أركان الإسلام، فلم تكُن المصلحة الدينية قويَّة فيه.

---

(١) تفسير القرطبي (٥٨/١٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٣٥٠)، ومسلم في صلاة المسافرين (٦٨٥).

QaradawiBooks.com

وأمّا حكمُ القيام فهو ما دلَّ عليه قولــه: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل: ٢]. وما دلَّت عليه أدلَّة التحريض عليه من السنة، وقد مضى ذلك كلُّه.

فهذه الآية صالحة لأن تكون أصلًا للتعليــل بالمظنَّة، وصالحة لأنْ تكونَ أصلًا تُقاس عليه الرُّخَــصُ العامَّة الَّتي تراعى فيها مشــقَّةُ غالبِ الأمَّة؛ مثل رخصة بَيْع السَّلَم، دون الأحوال الفرديَّة والجُزئيَّة»[1].

معنى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

وفي هذه السورة المبكرة يجيء هذان الأمران الإلهيان بإقامة الصلاة: الركن الثاني في الإسلام بعد الشهادتين، وإيتاء الزكاة، الركن الثالث في الإســلام، وقد جمع بينهما القرآن في ثمانية وعشرين موضعًا في سوره المكيَّة والمدنيَّة، ولهذا أثنى ابــن زيد على أبي بكر رضي الله عنه: ما كان أفقهَهُ حين جمع بين الصلاة والزكاة[2].

وقال أبو بكر لعمر في مناقشته له حول الزكاة وحقِّها على المسلمين: والله لأقاتلَنَّ من فرَّق بينَ الصلاة والزكاة[3].

والــزكاة هنا هــي زكاة المال المفروضــة، وإن لم تكــن مقدَّرة بالمقادير المعلومة إلَّا في المدينة، ولكن جاءت آيات كثيرة في القرآن المكيِّ تؤيِّد فرضيَّة الــزكاة المُطلقة قبلَ الهجرة، وهــو ما أيَّدناه في كتابنا «فقه الزكاة»[4].

(١) التحرير والتنوير (٢٨٦/٢٩، ٢٨٧).

(٢) رواه الطبري في التفسير (١٥٣/١٤).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٤)، ومسلم في الإيمان (٢٠)، عن أبي هريرة.

(٤) فقه الزكاة (٧٨/١ ـ ٧٩)، نشر مكتبة وهبة، ط ٢٥، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

QaradawiBooks.com

قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تذكيرٌ بأنَّ الصلوات الواجبة هي الَّتي تحرصون على إقامتها وعدم التفريط فيها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

وفي هذا التعقيب بعطف الأمر بإقامة الصلاة إيماءٌ إلى أن في الصلوات الخمس ما يرفع التَّبِعَة عن المؤمنين، وأنَّ قيامَ الليلِ نافلةٌ لهم، وفيه خيرٌ كثيرٌ، وقد تضافرت الآثار على هذا ما هو في كُتب السُّنَّة.

وعطف ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ تتميمٌ؛ لأنَّ الغالب أنَّه لم يخْلُ ذكرُ الصلاة من قَرْنِ الزكاةِ معها، حتَّى استنبط أبو بكر رضي الله عنه من ذلك أن مانع الزكاة يُقاتل عليها، فقال لعمر رضي الله عنه: لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة[(١)]»[(٢)].

معنى: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾:

وممَّا طالبتنا به الآية الأخيرة من المزمِّل نحن المسلمين، الأمر بأن نقرض الله قرضًا حسنًا، والأصل في الأمر القرآني هو الوجوب على ما اخترنا، كما اخترنا أنَّ الأصل في الأمر في السُّنَّة هو الاستحباب.

قال القرطبي: «القرض الحسن: ما قُصِدَ به وجهُ الله تعالى خالصًا، من المال الطيِّب. وقال زيد بن أسلم: القرض الحسن النفقة على الأهل[(٣)]. وقال عمر بن الخطاب: هو النفقة في سبيل الله[(٤)]»[(٥)].

(١) سبق تخريجه صـ٣٦١.
(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٨٧/٢٩).
(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢٤٣٢)، تحقيق أسعد محمد الطيب، نشر مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، ط ٣، ١٤١٩هـ.
(٤) المصدر السابق (٢٤٣١).
(٥) تفسير القرطبي (٥٨/١٩).

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

الله يأمرنا أن نقرضه قرضًا حسنًا، فيردُّه علينا أضعافًا مضاعفة، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، ويقول تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١]، وقال ﷻ: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧].

ولا نقول ما قال اليهود ـ قبَّحهم الله ـ حين استقرضهم: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

بل الله جلَّ شأنه يستقرضنا، وهو الغنيُّ الحميد، الَّذي له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما، وما شاءَ ربُّنا من شيء بعدُ، المال مالُه، والمُلك ملكُه، وكلُّ شيء بيده، وأمره بين الكاف والنون، إذا أراد شيئًا قال له: كن، فيكون.

والإنسانُ المؤمن يعطي من مال الله، ومِلك الله عنده، ما يطلبه منه، فيُوَفِّي ما طلب الله منه، طيِّب النَّفْس، قريرَ العين، إلى عباد الله، قدر ما يحب الله، وهو يطلب على ذلك الأجر من الله. والأمر في قوله: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يشمل سائر الصدقات التطوُّعية، وكل شيء يفعل من الخير، ممَّا يتعلَّق بالنفس والمال، ويدخل فيه أداء الزكاة على أحسن وجه، بإخراجها من أطيب الأموال، وأكثرها نفعًا للفقراء، ومراعاة النية، وابتغاء وجه الله، والصرف إلى المستحقِّ.

قال صاحب «التحرير والتنوير»: «وإقراض الله هو الصَّدقات غير الواجبة، شبَّه إعطاء الصدقة للفقير بقرضٍ يقرضه اللهَ؛ لأنَّ الله وعد على الصدقة بالثواب الجزيل فشابه حال معطي الصدقة مستجيبًا، رغبةَ الله فيه

QaradawiBooks.com

بحال من أقرض مستقرضًا في أنَّه حقيق بأن يرجع إليه ما أقرضه، وذلك في الثواب الَّذي يعطاه يوم الجزاء.

ووصْفُ القرضِ بالحسن يفيد الصدقة المراد بها وجه الله تعالى، والسالمة من المنِّ والأذى، والحُسْنُ مُتفاوِت.

والحُسْن في كلِّ نوع هو ما فيه الصفات المحمودة في ذلك النوع في بابه، ويعرف المحمود من الصدقة من طريق الشرع بما وصفه القرآن في حسن الصدقات، وما ورد في كلام النبيِّ ﷺ من ذلك.

وقد تقدَّم في سورة البقرة قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]. وفي سورة التغابن: ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ﴾ [التغابن: ١٧]»[١].

تقديم الخير للأنفس وثوابه عند الله:

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرًا وَأَعۡظَمَ أَجۡرًا﴾

قال ابن عبَّاس: تجدوه عند الله خيرًا وأعظم أجرًا من الَّذي تُؤخِّرُه إلى وصيتك عند الموت[٢].

وقال الزجَّاج: وما تقدِّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرًا لكم من متاع الدنيا[٣]. والمعروف: أنَّ الله تعالى يعطي فيما يتصدَّق به المكلِّف من ماله على غيره، الحسنة مضاعفة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٩/٢٨٧ ـ ٢٨٨).
(٢) تفسير الرازي (٣٠/٦٩٥).
(٣) معاني القرآن للزجاج (٥/٢٤٤).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وعن عمر بن الخطاب أنه اتَّخذ حَيْسًا (أُعِدَّ له) ـ يعني: تمرًا بلبن ـ فجاءه مسكين، فأخذه ودفعه إليه. فقال بعض مَنْ حضر: ما يدري هذا المسكين ما هذا؟ فقال عمر: لكن ربَّ المسكين يدري ما هو! وكأنه تأوّلَ ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾(١). أي: ممَّا تركتم وخَلَّفتم، ومن الشُّحِّ والتَّقْصير.

قال العلَّامة الطاهر ابن عاشور: «ومعنى تقديم الخير: فعلُه في الحياة، شبَّه فعل الخير في مدة الحياة لرجاء الانتفاع بثوابه في الحياة الآخرة، بتقديم العازم على السفر ثِقَله وأدواته وبعض أهله إلى المَحَلِّ الَّذي يروم الانتهاء إليه، ليجد ما ينتفع به وقت وصوله.

والخير: هو ما وصفه الدين بالحسن ووعد على فعله بالثواب.

ومعنى ﴿تَجِدُوهُ﴾: تجدوا جزاءَه وثوابه، وهو الَّذي قصده فاعله، فكأنَّه وجد نفسَ الَّذي قدَّمه، وهذا استعمال كثير في القرآن والسُّنَّة أن يعبر عن عوض الشيء وجزائه باسم المَعُوض عنه والمُجازى به، ومنه قول النبيِّ ﷺ في الَّذي يكنز المال ولا يؤدي حقه: «**مُثِّل له يوم القيامة شُجاعًا أقرع، يأخذ بلَهْزَمَتَيْه يقول: أنا مالُك، أنا كنزُك**»(٢).

وضمير الغائب في ﴿تَجِدُوهُ﴾ هو المفعول الأول لـ(تجدوا) ومفعوله الثاني خيرًا.

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/٥٨).

(٢) رواه البخاري في الزكاة (١٤٠٣)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

والضمير المنفصل الَّذي بينهما ضمير فصل، وجاز وقوعه بين معرفة ونكرة خلافًا للمعروف في حقيقة ضمير الفصل من وجوب وقوعه بين معرفتين؛ لأن «أفعل من كذا»، أشبه المعرفة في أنَّه لا يجوز دخول حرف التعريف عليه.

وخيرًا: اسم تفضيل، أي: خيرًا ممَّا تقدِّمونه؛ إذ ليس المراد أنَّكم تجدونه من جنس الخير، بل المراد مضاعفة الجزاء، لما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧] وغير ذلك من الآيات»(١).

تفسير: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾:

وختمت السورة بهذا الطلب من الله سبحانه، وهو الاستغفار، أن يسأل كل إنسان مؤمن ربَّه المغفرةَ لذنوبه، والتكفير لسيِّئاته، فهو ﷻ الغفور الرحيم، الَّذي يشمل كل ذنب بالمغفرة، وإن عظُم، فمغفرته أوسع من الذنوب جميعًا، إلَّا ما أبى الله أن يغفره إلَّا بالتوبة منه، وهو الشِّرْك. وهو الرحيم الَّذي رحمته وسعت كل شيء، وهو القائل في كتابه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وفي القرآن العظيم، يذكر الله الحسناتِ والأعمالَ الصَّالحاتِ لعباده، ثمَّ يَصِفُهُم بعد ذلك بالاستغفار، كما قال تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨].

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٨٩/٢٩).

QaradawiBooks.com

وفي حديث أبي ذرٍّ القدسي الَّذي رواه مسلم: «**يا عبادي، إنَّكم تخطئون باللَّيل والنَّهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم**»(١).

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ يجوز أن تكون الواو للعطف، فيكون معطوفًا على جملة و﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ..﴾، فيكون لها حكم التذييل إرشادًا لتدارك ما عسى أن يعرض من التفريط في بعض ما أمره الله بتقديمه من خير، فإن ذلك يشمل الفرائض الَّتي يقتضي التفريط في بعضها توبة منه.

ويجوز أن تكون الواو للاستئناف، وتكون الجملة استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن الترخيص في ترك بعض القيام إرشادًا من الله، لما يسُدُّ مسدَّ قيام الليل، الَّذي يعرض تركه بأن يستغفر المسلم ربه، إذا انتبه من أجزاء الليل، وهو مشمول لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وقال النبيُّ ﷺ: «**ينزل ربُّنا كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلثُ الليلِ الآخِرُ، فيقول: من يدعوني فأستجيبَ له؟ من يسألني فأعطيَه؟ من يستغفرني فأغفرَ له؟**»(٢).

وقال: «**من تعارَّ من الليل فقال: لا إله إلَّا الله، وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمد، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، الحمدُ لله، وسبحان الله، ولا إله إلَّا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله. ثمَّ قال: اللهمَّ اغفرْ لي، أو دعا، استُجيب له**»(٣).

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التهجد (١١٤٥)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٥٨)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه البخاري في التهجد (١١٥٤)، عن عبادة بن الصامت.

QaradawiBooks.com

وجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تعليل للأمر بالاستغفار، أي لأنَّ الله كثير المغفرة، شديد الرحمة.

والمقصود من هذا التعليل: الترغيب والتحريض على الاستغفار، بأنَّه مرجوُّ الإجابةِ، وفي الإتيان بالوَصْفَين الدَّالَّيْن على المبالغة في الصفة إيماء إلى الوعد بالإجابة»(١).

وقال الشهيد سيِّد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ختام سورة المزمّل في ظلال هذه الآية: «واتَّجهوا إلى الله مستغفرين عن تقصيركم. فالإنسان يقصِّر ويُخطئ مهما جَدَّ وتَحرَّى الصواب.

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: إنَّها لمسةُ الرحمة والودِّ والتيسير والطمأنينة تجيء بعد عام من الدعوة إلى القيام! ولقد خفَّف الله عن المسلمين، فجعل قيام الليل لهم تطوُّعًا لا فريضة. أمَّا رسول الله ﷺ، فقد مضى على نهجه مع ربه، لا يقل قيامه عن ثلث الليل، يناجي ربَّه، في خلوة من الليل وهدأة، ويستمد من هذه الحضرة زاد الحياة وزاد الجهاد. على أن قلبه ما كان ينام وإن نامت عيناه. فقد كان قلبه ﷺ دائمًا مشغولًا بذكر الله، متبتِّلًا لمولاه. وقد فرغ قلبه من كل شيء إلَّا من ربه. على ثِقَل ما يحمل على عاتقه، وعلى مشقَّة ما يعاني من الأعباء الثقال...»(٢).

* * *

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٨٩/٢٩، ٢٩٠).

(٢) في ظلال القرآن (٣٧٤٩/٦).

QaradawiBooks.com

تفسير سورة المدَّثِّر

مقدِّمة حول السورة:

هي مكيَّة بإجماع أهل التأويل، وعلماء القرآن، والغالب أنَّها نـزلت ـ أي الجزء الأول منها ـ قبل المُزَّمِّل، كما يلحظ القارئ المتأمِّل، ونـزلت بعد المزمِّل سـورة «القلم» ـ أي الجزء الأول منها ـ وفيه يقسم الله ﷻ بالقلم وما يسطرون.

ومن قرأ السـيرة النبوية وتأمَّل صحاح السـنن، وقارن بينها، ترجَّح لديه أن سـورة المدثِّر ثانية السور نـزولًا، وأنَّه لم ينـزل قبلها إلَّا سورة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

«وهو الَّذي جاء في حديث عائشـة في «الصحيحين» في صفة بدء الوحي: أنَّ النبيَّ ﷺ جاءه الحقُّ وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ إلـى: ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]. ثمَّ قالت: ثمَّ فَتَر الوحيُ[1].

فلم تذكر نـزولَ وحيٍ بعد آيات ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٣)، ومسلم في الإيمان (١٦٠).

QaradawiBooks.com

وكذلك حديثُ جابر بن عبد الله من رواية أبي سلمة بن عبد الرحمن، من طرق كثيرة، وبألفاظ يزيد بعضها على بعض، وحاصل ما يجتمع من طُرُقه:

قال جابر بن عبد الله وهو يحدِّث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: إنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**فبينا أنا أمشي سمعتُ صوتًا من السماء، فنُودِيتُ، فنظرتُ أمامي وخلفي، وعن يميني وعن شمالي، فلم أرَ شيئًا، فرفعتُ رأسي، فإذا المَلَك الَّذي جاءني بحِراءٍ جالسٌ على كرسيٍّ بين السماء والأرض، فجُئِثْتُ منه رُعْبًا** (أي رُعِبْتُ وفَزِعْتُ)، **فأتيتُ خديجةَ، فقلتُ: دثِّروني. فدثَّروني**»[1]. زاد غيرُ ابن شهاب من روايته: «**وَصَبُّوا عليَّ ماءً باردًا. فدثَّروني، وصبُّوا علي ماءً باردًا**»[2] ـ قال النووي: صبُّ الماء لتسكين الفزع ـ فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ إلى ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ١ ـ ٥] ثمَّ حَمِيَ الوَحْيُ وتتابعَ[3].

ووقع في «صحيح مسلم» عن جابر: إنَّها أول القرآن: سورة المدثر[4]. وهو الَّذي يقول في حديثه: أنَّ رسول الله ﷺ يُحدِّث عن فترة الوحي[5]. وإنَّما تقع الفترة بين شيئين فتقتضي وحيًا نزل قبلَ سورة المدَّثر وهو ما بُيِّن في حديث عائشة»[6].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٩٢٢)، ومسلم في الإيمان (١٦١).

(٢) رواه البخاري في التفسير (٤٩٢٢).

(٣) شرح مسلم للنووي (٢/٢٠٧).

(٤) رواه مسلم في الإيمان (١٦١) (٢٥٧).

(٥) رواه مسلم في الإيمان (١٦١) (٢٥٦).

(٦) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٩/٢٩٢).

QaradawiBooks.com

أغراض السورة:

جاء فيها من الأغراض ما ذكره العلَّامة ابن عاشور:

ـ «تكريم النبيِّ ﷺ، والأمر بإبلاغ دعوة الرسالة.

ـ وإعلان وحدانيَّة الله بالإلهيَّة.

ـ والأمر بالتَّطَهُّر الحسيِّ والمعنويِّ.

ـ ونبذ الأصنام (والرجز ـ كما سيأتي ـ تشمل الشرك والمعاصي).

ـ والإكثار من الصدقات.

ـ والأمر بالصبر.

ـ وإنذار المشركين بهَوْل البعث.

ـ وتهديد من تصدَّى للطعن في القرآن، وزعم أنَّه قول البشر، وكفر الطاعن نعمةَ الله عليه، فأقدم على الطعن في آياته مع علمه بأنَّها حق.

ـ ووصف أهوال جهنم.

ـ والردُّ على المشركين الَّذين استخفُّوا بها وزعموا قِلَّة عدد حَفَظَتها، وتحدِّي أهل الكتاب بأنَّهم جهلوا عدد حفظتها.

ـ وتأييسهم من التخلُّص من العذاب.

ـ وتمثيل ضلالهم في الدنيا.

ـ ومقابلة حالهم بحال المؤمنين أهل الصلاة والزكاة والتصديق بيوم الجزاء»(١).

---

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٩/٢٩٣).

QaradawiBooks.com

بداية تفسير السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطاب الثاني الموجّه للنبي ﷺ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾

الأكثرون من علماء الأُمَّة، على أنَّ هـذا هو الخطاب الثاني الموَجَّه إلى النبيِّ محمد، بعد الخطاب الأول الَّذي وُجِّـهَ إليه في جبل حراء: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ وما بعده من الآيات الأربع.

و﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ أصلها المتدثِّر، وهو لابس الدثـار، وهو: ما يُلبس فوق الشعار الَّذي يلي الجسـد. وهذا خطاب تكليف للنبي محمَّد بالمبادئ الستة الَّتي تتعلق بالرسالة.

وخطابه بالمُدَّثِّر خطاب ملاطفة ومؤانسـة ومقاربة، ليبتسـم ثغرُه، ويطمئن قلبُه، ويدخل دورته الجديدة بصدر مُنشرح، وقلب مشتاق؛ لأنَّ معنى «المُدَّثِّر» المتغطِّي بثيابه، والدِّثَار: ما يتغطَّى به الإنسان من الثياب، ففي النداء بها ملاطفة من الكريم إلى الحبيب، إذ ناداه بحاله، وعبَّر عنه بصفته، ولم يقل: يا محمد. ليشعره باللِّين والعطف من ربِّه.

المبدأ الأول: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾:

أي: يا أيُّها المُتغطِّي بثيابه، المُسْتَدفِئُ بها.

﴿قُمْ﴾ أمْر من الله تعالـى لنبيِّه محمدٍ، بالقيام مـن المَضْجع، أو أن يقوم قيام العزم والتَّصميم.

QaradawiBooks.com

والقيام هنا يعني: الأمرين: اليقظة مـن النوم، فقد انتهى عهد النوم، وجاء عهد التَّفَتُّح والاستبْصار.

والثانـي: التَّشـمير والنهوض، فلم يعـد هناك مجال للتكاسـل أو التباطؤ، وإنَّما وراءه دعوة مُوَجَّهة إلى العالم كلِّه، طوالَ الزمن كلِّه.

والقرآن هنا يفترض القيام لله تعالى بالدعوة إليـه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ [سبأ: ٤٦]. وفي سـورة البقرة يخاطب المسلمين بقوله: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

﴿فَأَنذِرْ﴾: أي: افعَل الإنذار وأَحْدِثْه، بادئًـا بأقْرب النَّاس إليك، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. وقال: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٤]. أنذر جميع النـاس. فهذا هو الأصل في رسالته، العموم والشمول، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: ٣٤].

ومعنى ﴿أَنذِرْ﴾: أي: خوِّفْ أهلَ مكَّة والمشركين عامَّة، وحذِّرْهم من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة، إذا لم يسـارعوا إلى الإسلام. وهذا الإنذار هو أحد وجْهَي الرسـالة، فإنما هي تبشـير وإنـذار، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥]. ولكن يحسن إبراز الإنذار عندما يكون العِناد والإباء هو الموقف العام من المرسَل إليهم، عند ذلك يكون موقف الداعية العام هو الإنذار.

وقد ذكر الإنذار كثيرًا في القرآن؛ مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣]. ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾ [غافر: ١٨]. ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٥]. ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

QaradawiBooks.com

المبدأ الثاني: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾

أي: خُصَّ ربَّك وحده بالتكبير والتعظيم، ببيان عظيم صفاته وأسمائه الحسنى، وتوحيده في ربوبيَّته وإلهيَّته، وذكره بالقلب واللسان. وقيل: عظِّمه بالعبادة وبَثِّ شَرْعِه.

ومعنى ﴿وَرَبَّكَ﴾ أي: سيِّدك ومالكك، ومُصلح أمرِك، ومُرَقِّيك في مدارج الكمال، والتعبير بلفظ «ربك» أولى هنا من التعبير بلفظ الجلالة «الله»؛ لأنَّ الكلام كلَّه مُوجَّه بلغة الخطاب المباشر.

ومعنى ﴿فَكَبِّرْ﴾ أي: فعظِّم هذا الربَّ، وصِفْه بما يستحقُّ من الإجلال الَّذي هو أهله. ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]. أي: صِفْه بأنَّه أكبر من أن يكون له صاحبة أو ولد، بل هو أكبر من كل كبير يُعظِّمُه النَّاس في الدنيا، بما يملك من مال أو ولد أو سلاح، أو قوَّة ماديَّة أو دينيَّة، فهذه كلُّها بعضُ فضل الله تعالى عليه، وكلُّ ما في هذا العالم مِلك الله تعالى.

وقد شُرعَت الصَّلاة لأهل الإسلام بعد نزول هذه الآية، وكان التكبير شيئًا أساسيًا منها، حتَّى قيل: إنَّها تُفتَتح بالتكبير، وتُختَم بالتَّسليم. وتكبير الصلاة جزء ممَّا يراد بالتكبير في هذه الآية، ولا شكَّ أنَّه من التكبير الَّذي يدخل في عموم هذا اللفظ «فكبِّر»، الَّذي هو تكبير التقديس والتنزيه؛ نخلع الأصنام والأنداد من دونه، ولا نتخذ وليًّا غيره، ولا نعبد إلهًا سواه، ولا نرى لغيره فِعلًا إلَّا له، ولا نعمة إلَّا منه.

ولفظ «الله أكبر» هو المتعبد به في الأذان والإقامة والصلوات والجُمَع والأعياد، والمنقول عن النَّبِيِّ ﷺ، ومنه تعلمته الأمة كلها.

QaradawiBooks.com

المبدأ الثالث: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾:

جاء عن المفسرين أقوال كثيرة في المراد بالثياب، والمراد بالتطهير، وقد ذهبوا في تفسيرها إلى المجازات والكنايات، ولا أرى من ذلك مانعًا، ولكن لماذا لا نأخذ اللفظ بظاهره، الَّذي يُفهم من القرآن إذا تلاه التالي؟!

وقد ذكر القرطبي ذلك قولًا ثامنًا في تفسير الآية وهو أنَّ المراد بقوله: ﴿وَثِيَابَكَ﴾: الثياب الملبوسات[1]، الَّتي تلبسها النَّاس في حياتهم العادية، من القميص والرداء والإزار وغيرها.

وللمفسِّرين في تأويل «طَهِّر» على اعتبار أنَّ الثياب هي الثياب الحقيقية أربعة أوجه:

أحدها: معناه: وثيابك فأنِّقْ. ومنه قول امرئ القيس[2]:

ثِيَابُ بني عوفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ ... وأَوْجُهُهم بِيضُ المَسَافِرِ غُرَّانُ

الثاني: وثيابك فشمِّر وقَصِّر، فإنَّ تقصير الثياب أبعدُ من النجاسة.

الثالث: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ من النجاسة بالماء. وهذا كلام الفقهاء.

الرابع: لا تلبس ثيابك إلَّا من كسب حلال، لتكونَ مطهَّرة من الحرام.

قال القرطبي: وذكر الإمام ابن العربي في «أحكام القرآن»: «أنَّه إذا حملنا الآية على الثياب الملبوسة الطاهرة، فهي تتناول معنيِّين:

---

(١) تفسير القرطبي (٦٢/١٩).

(٢) انظر: ديوانه صـ ١٥٧، تحقيق عبد الرحمن المصطاوي، نشر دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

QaradawiBooks.com

الأول: تقصير الأذيال؛ لأنَّها إذا أُرسلت تدنَّسَت، ولهذا قال عمر لغلام من الأنصار وقد رأى ذيله مسترخيًا: ارفع إزارَك؛ فإنه أتقى وأنقى وأبقى[١]. وقد جاءت الأحاديث النبوية تحث على تقصير الإزار.

والمعنى الثاني: غسلها من النجاسة، وهو ظاهر منها، صحيح فيها. وبه استدلَّ بعض العلماء على وجوب طهارة الثوب في الصلاة، قال ابن سيرين وابن زيد: لا تصل إلَّا في ثوب طاهر»[٢].

ولكنَّ الَّذي يهمُّنا من الآية هو التوجيه من أول الأمر إلى ضرورة غسل الثياب وتطهيرها.

فالمراد بهذه الأوامر الربانيَّة المتقدمة: كما أُمِرْتَ بإبلاغ الرسالة، وإنذار النَّاس بها، فقلبُك أيضًا اعتنِ به، بأن تجعل من خصوصياتك ومهمَّاتك الأولى: أن تقوم بما يستحقُّه الربُّ من تعظيم وتقديس وتبجيل، وأن تهتمَّ بالوسائل الأساسية الَّتي توصلك إليه، وإلى تعظيمه، والقيام بحقِّه، وكذا أن تهتمَّ بنفسِك وثيابِك ولباسِك، وما ينبغي أن تكون عليه من نظافة وجمال وطهارة.

فكما تهتمُّ بالسماء اهتمَّ بالأرض، وكما تُعنى بالرُّوح لا تنسَ المادَّة، وما تُوَجِّهه لبعض القُرَب للرب، وجِّهْ مثله للعناية بالعبد، أيْ: بنفسك وبجسمك وثوبك. أي: اعْنَ بالظاهر عنايَتَك بالباطن.

---

(١) رواه البخاري في أصحاب النبي ﷺ (٣٧٠٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦٦/١٩) بتصرُّف يسير، وانظر: أحكام القرآن لابن العربي (٣٤١/٤).

QaradawiBooks.com

المبدأ الرابع: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾:

هذا هو الأمر أو المبدأ الرابع من المبادئ الأولى، الَّتي كلَّف الله بها نبيَّه ورسوله محمدًا، وهو أن يختصَّ الرُّجْز بالهجر. أي: واخصُص الشِّرك بالهجر الكامل، وابتعد عن كلِّ الوثنيات والشركيات، ولا تقترب من شيء منها مطلقًا، ودُمْ على هَجْر الأصنام والأوثان.

وأصل الرُّجز ـ بضم الرَّاء وكسرها ـ العذاب، كما قال تعالى في قصَّة موسى مع فرعون وقومه: ﴿لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]. وقال ﷻ: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: ١٦٢]. ولهذا قال بعض المفسرين في بيان معنى الرُّجز: هي الأوثان؛ لأنَّها تؤدِّي إلى العذاب، واستدلَّ بعضهم بقوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠].

وقال بعضهم: الرُّجْزَ: الإثم، أيْ: ليس الشِّركَ نفسَه، ولكن المظالم والمعاصي الَّتي تؤدِّي إليه، فإنَّ الألف تجرُّ إلى الباء، وإنَّ الصغيرة تؤدي إلى الكبيرة، حتَّى تؤدي إلى الكفر ذاته.

وقال الإمام الرازي: «سُمِّيَ ما يؤدِّي إلى العذاب عذابًا تسميةً للشيء، باسم ما يجاوره ويتَّصل به»(١).

والرُّجز: اسم قبيح للكلام المستقذَر، وهو معنى «الرِّجْس».

فقوله: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ كلام جامع في مكارم الأخلاق، كأنَّه قيل له: اهجُر الجَفَاء والسَّفَه، وكلَّ شيءٍ قبيح، ولا تتخلَّق بأخلاق هؤلاء المشركين المستعمِلين للرُّجز.

---

(١) تفسير الرازي (٦٩٩/٣٠).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

والمعنى: وعَمَلَ الرُّجْزِ فاهجُر. أي: اتركْه وفارقْه.

ومن اللغويين من قالوا: الرِّجز والرُّجز لغتان مثل الذِّكْر والذُّكْر.

وقال آخرون: الرُّجز بالضم: الصنم. وبالكسر: النجاسة والمعصية.

والأمر فيه سَـعَة، ولكلٍّ وجهة، واللغويون يختلفون، وفي اختلافهم رحمة.

قال الأستاذ المفكِّر الشهيد سـيِّد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ: «... والرسول ﷺ كان هاجرًا للشـرك ولموجبات العذاب حتَّى قبل النبوة. فقد عافت فطرته السليمة ذلك الانحراف، وهذا الركام من المعتقدات الشائهة، وذلك الرجس من الأخلاق والعادات، فلم يعرف عنه أنَّه شـارك في شيء من خوض الجاهليَّة. ولكن هذا التوجيه يعني المفاصلة وإعلان التميز الَّذي لا صلح فيه ولا هوادة. فهما طريقان مفترقان لا يلتقيان. كمـا يعني التحرز مـن دنس هذا الرجـز ـ والرجز فـي الأصل هو العذاب، ثمَّ أصبح يطلق على موجبات العـذاب ـ تحرُّزَ التطهر من مسِّ هذا الدنس»(١).

المبدأ الخامس: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾:

هذا هو «المبدأ الخامس» من مبادئ الدعوة، وهو يتضمن هذا النهي من الله تعالـى ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾. أي: لا تَمنُنْ بعطائـك على النَّاس مُسْـتكثرًا بما أعطيتَه، فأبطل ما كان عليه أهل الجاهليَّة التفاخر بالعطاء وإطعام الطعام، والتباهي به، فأمرهم أن يجعلوه لله لا للتباهي.

(١) في ظلال القرآن (٣٧٥٥/٦).

QaradawiBooks.com

«قال ابن عبَّاس: معناه: لا تُعْطِ عطاءً لتُعطَى أكثرَ منه. فكأنَّه من قولهم: منَّ إذا أعطى. قال الضحَّاك: وهذا خاص بالنبيِّ، ويباح لأمته، لكن لا أجر لهم فيه.

وقال ابن زيد: معناه: ولا تَمْنُن على النَّاس بِنبُوَّتِك، تستكثر بأجرٍ أو كسبٍ تطلبه منهم.

وقال الحسن بن أبي الحسن: معناه: ولا تَمْنُن على اللهِ بجِدِّك، تستكثرُ أعمالَك، ويقع لك بها إعجاب.

فهذه كلُّها من المنِّ، الَّذي هو تعديد اليد وذِكْرُها»(١).

قال الأستاذ الشهيد سيِّد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويوجهه سبحانه إلى إنكار ذاته، وعدم المن بما يقدِّمه من الجهد، أو استكثاره واستعظامه: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾..

وهو سيقدم الكثير، وسيبذل الكثير، وسيلقى الكثير من الجهد والتضحية والعناء. ولكن ربه يريد منه ألَّا يظل يستعظم ما يقدمه ويستكثره ويمتنَّ به.. وهذه الدعوة لا تستقيم في نفس تُحِسُّ بما تبذل فيها. فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلَّا حين تنساه. بل حين لا تستشعره من الأصل؛ لأنَّها مستغرقة في الشعور بالله، شاعرة بأن كل ما تقدمه هو من فضله ومن عطاياه. فهو فضل يمنحها إياه، وعطاء يختارها له، ويوفقها لنيله. وهو اختيار واصطفاء وتكريم يستحقُّ الشكر لله. لا المنّ والاستكثار»(٢).

---

(١) تفسير ابن عطية (٣٩٣/٥).

(٢) في ظلال القرآن (٣٧٥٥/٦).

QaradawiBooks.com

قال ابن كثير: «وعلى كلٍّ تقدير فلا يلزم تلبُّسه بشيء من ذلك. كقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]. ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]»(١).

المبدأ السادس: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾:

هذا هو المبدأ السادس والأخير في هذه المجموعة الأوليَّة من المبادئ والتَّوجيهات الربَّانية، لسيِّد الرُّسل وآخرِهم محمدٍ، وهو ختام هذه الوصايا من رب النَّاس، وملك النَّاس، وإله النَّاس، لرسوله تعالى إلى النَّاس، كلِّ الناس.

واللام هنا في قوله ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ إما للتعدية، أي: اصبر لأمر ربك، وهو ما أمره الله به تعالى من الصبر، الَّذي أمر به الرسل جميعًا، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وأولو العزم هم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وخامسهم محمَّد خاتم الرسل.

وقد تكون اللام في الآية للتعليل، أيْ: من أجله، أي: اجعلْ صبرَك لله تعالى، فالصبر يكون بالله، ويكون لله، وهذا يُعطيه قوةً في إمداد الإنسان بالطاقة على مواجهة الشدائد والآلام.

وقال الإمام ابن عطيَّة في تفسير ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾: «أي: لوجْه ربِّك وطلب رضاه، كما تقول: فعلتُ لله تعالى. والمعنى: على الأذى من الكفَّار، وعلى العبادة، وعن الشهوات، وعلى تكاليفِ النُّبُوَّة. وقال ابن

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٦٤).

QaradawiBooks.com

زيد: على حرب الأحمر والأسود ـ أي: على إعلانهم الحرب على الدعوة والدعاة ـ لقد حُمِّل أمرًا عظيمًا»[١].

المهمُّ أنَّ كلَّ من كُلِّف بأمانة؛ فعليه أن يَرُدَّها إلى أهلها، وأن يتحمَّل في سبيل حملها وحفظها ما ينبغي لها، وكلَّما كبُرَت الأمانة وطال طريقُها، كان ميثاقها أعظم، وكان الصبر عليها أوجب وأعظم.

وإنَّ أعظم أمانة حملها البشر هي الأمانة أو الرسالة، الَّتي أُمِر محمَّد ﷺ بتبليغها إلى البشر، وتعليمها للناس، وتدريبهم عليها، وعلى تبليغها إلى الآخرين، وتوصيلها للعالمين. ولهذا تطلَّبت صبرًا أكثر من غيرها، قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

أُمِر الرسول أن يصبر على هذه الدعوة، ويصابر عليها، بحيث يكون صبرُه أقوى من صبر المشركين على حمل الوثنيَّة والدفاع عنها، ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. وقال المشركون عن محمد: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢]. وقال تعالى مبيِّنًا تواصيهم بالصبر على باطلهم: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٦]. فلا بد أن يكون صبر النَّبيِّ والمؤمنين أعظم وأرسخ وأثقل من صبر المشركين، وهذا هو الَّذي رأيناه من النبيِّ ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم طوال العهدين المكي والمدني، من صبر، لا حدَّ له، ولا نظيرَ له، في مقاومة الشرك والباطل، والصبر على الحق، في مقابل تطاوُل الجبَّارين والمستكبرين في الأرض.

(١) تفسير ابن عطية (٣٩٣/٥).

QaradawiBooks.com

من أهوال يوم القيامة:

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾

الفاء في قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾ للتَّسبيب، كأنَّه قال: اصبِر على أذاهم فبين أيديهم يوم عسير يلقون فيه عاقبة أذاهم، وتلقى فيه عاقبة صبرك عليه. والفاء في قوله: ﴿فَذَٰلِكَ﴾ للجزاء[1].

﴿ٱلنَّاقُورِ﴾ فاعول من النقر، وهو الَّذي ينفخ فيه، وهو الصُّور. قالوا: وهو كهيئة القَرْن. وقال الشاعر[2]:

إذا ناقورهم يومًا تبدَّى أجاب الناسُ من غربٍ وشرقٍ

والمَلَك إسرافيلُ هو الَّذي جاءت الأحاديث أنَّه هو الموكل بالنفخ في الصور، وهناك نفختان ذكرهما القرآن: إحداهما نفخة الصعق، والأخرى نفخة البعث؛ نفخة الصعق تصعق وتُميت كلَّ مَن بقي في الدنيا، ثمَّ تأتي نفخةُ البعث ليحيا الجميع، إلى ربهم ينسلون، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. وفي سورة القمر يقول تعالى: ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ [القمر: ٧، ٨].

عسر يوم القيامة على الكافرين:

وهنا يقول تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ [المدثر: ٨ ـ ١٠]. أي: هذا اليوم عسير، وما وصفه الله

---

(١) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرِّيَب للطيبي (١١٦/١٦)، نشر جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط١، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.
(٢) هو خُفَافُ بن نَدْبَة، كما في التحرير والتنوير (٣٠٠/٢٩).

QaradawiBooks.com

بالعسـر فلا بد أن يكون في غايـة الصعوبة، وهـذه الصعوبة تبدو أول ما تبدو في طول هذا اليوم، كما قال تعالى: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [المعارج: ٤].

وفي هذا اليوم تدنو الشمس من الرؤوس، ويتزاحم النَّاس زحامًا لم يَرَ الناسُ مثلَه، ويتصبَّب النَّـاس عرقًا، بطول الزمـان، وكثرة الإرهاق، وتذهب الخلائق إلى الرسـل يسـألونهم الشـفاعة لهم عند الله، ليفصل بينهم، ولا يدعهم في هذا التزاحم المرير، الَّذي نسـأل الله تبارك وتعالى أن يعافيَنـا منه، وأن يرحمنا ويرحـم أمتَنا، ويرحـم المؤمنين ممَّا يلقى النَّاس فيه، فقد عرفنا أنَّ هناك من يُظلهم الله في ظله يومَ لا ظلَّ إلَّا ظلُّه، ولذلك قال الله تعالى في هذه السورة: ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ [المدثر: ١٠]. ومفهوم هذا أن هناك تيسـيرًا على المؤمنين. اللهم اجعلنا منهم، ويسِّـر علينا في هذا اليوم العظيم ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦].

وعَسُر ذلك اليوم على الكافرين؛ لأنَّهم يُناقَشون في الحساب، ويُعطَوْن كتبَهم بشـمائِلِهم، ومِن وراء ظهورِهم، وتَسْوَدُّ وجوهُهم، ويحشرون زُرْقًا، وتشهد جوارحهم عليهم، فيُفتضحون على رؤوس الأشهاد.

وأمَّا المؤمنون، فإن هذا اليوم عليهم يسـير؛ لأنَّهم لا يُناقشـون في الحِساب، ويُحشرون بيضَ الوُجوه، ثِقالَ الموازينَ.

التصدِّي لموقف الوليد بن المغيرة مع القرآن:

﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ⑪ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ⑫ وَبَنِينَ شُهُودٗا ⑬ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ⑭ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ⑮ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ⑯ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ⑰ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ⑱ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ⑲ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ⑳ ثُمَّ نَظَرَ ㉑ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ㉒ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ㉓ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ㉔ إِنۡ

QaradawiBooks.com

هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗاۙ وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾

﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾

لا خلاف بين المفسِّرين: أنَّ أوائل هذه الآيات: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾، وما بعدها: نزلت في الثَّرِيِّ القُرَشِيِّ المخزومي المعروف في مكة وما حولها، وهو الوليد بن المغيرة، الَّذي آتاه الله من آلاء الدنيا ونعيمِها، ما يتمنَّاه الكثيرون ولا يجدونه، ولكنَّه عز وجل آتاه المال الكثير، والولد الذكور أبناءً وأحفادًا.

وفي اللغة «ذَرْني»: تأتي في الوعيد والتهديد، كما نقول: «ذرني وفلانًا» أو «ذروني وفلانًا»، كما قال فرعون المتكبِّر الجبار، الَّذي زعم لأهل مصر: أنَّه ربُّهم الأعلى، وقال لهم: ما علمتُ لكم من إلٰه غيري! قال فرعون، كما حكى عنه القرآن: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

وقد رأينا ربَّنا الكبيرَ المتعاليَ، الَّذي بيده ملكوت كل شيء، يقول في سورة المزمِّل يتوعد المشركين المكذِّبين لله ولرسالاته، ويهدِّدهم بهذه الصيغة المتفرِّدة: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١].

QaradawiBooks.com

وفي هذه السورة «المدَّثِّر» الَّتي جاء فيها ما فيها من الوعيد والتهديد لهذا الثري القرشي المخزومي، الَّذي أنعم الله عليه بكثرة المال والولد، والثروة والنعيم، فلم يزده ذلك إلَّا طغيانًا وظلمًا للناس، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

والمعنى: دعني يا محمَّد وهذا المغرور الَّذي ظنَّ أنَّه شيء، وهو ليس بشيء؛ لأني أنا الَّذي خلقته وحيدًا (وحدي) لم يخلقه معي أحد[١]، وخلقته حين كان وحيدًا فريدًا، لا مال له ولا ولد، مجردًا من كل شيء حتَّى من ثيابه. وهو الَّذي كان يلقب بـ «الوحيد»، ويقول: أنا «الوحيد» ابن الوحيد، ليس لي في العرب نظير، ولا لأبي نظير. وكانوا يعتبرونه مثالًا للرجل العظيم في المجتمعات العربيَّة، كما قالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. يريدون بالقَرْيَتَين: مكة والطائف، ومثَّلُوا للعظيم في مكة بالوليد بن المغيرة، وللعظيم في الطائف بعُروة بن مسعود الثَّقَفي.

قال الرازي: «وطعن كثير من المتأخِّرين في هذا الوجه، وقالوا: لا يجوز أن يُصدِّقه الله في دعواه: أنَّه وحيد لا نظير له. وهذا السؤال ذكره الواحدي[٢] وصاحب الكشَّاف[٣]، وهو ضعيف من وجوه:

---

(١) ﴿وَحِيدًا﴾: حال من الله ﷻ، أو حال من المخلوق.

(٢) انظر: التفسير البسيط للواحدي (٤١٨/٢٢)، نشر عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٣٠هـ.

(٣) قال الزمخشري في الكشاف (٦٤٧/٤): (وكان يلقب في قومه بالوحيد، ولعله لقب بذلك بعد نزول الآية؛ فإن كان ملقبًا به قبل، فهو تهكُّم به وبلقبه، وتغيير له عن الغرض الذي كانوا يؤمُّونه من مدحه والثناء عليه بأنه وحيد قومه لرياسته ويساره وتقدُّمه في الدنيا إلى وجه الذمِّ والعيب، وهو أنَّه خلق وحيدًا لا مال له ولا ولد، فآتاه الله ذلك، فكفر بنعمة الله وأشرك به واستهزأ بدينه). وليس في كلامه ما يفيد طعنه بهذا الوجه الذي تعقبه فيه الرازي.

QaradawiBooks.com

الأوَّل: أنَّا لمَّا جعلنا الوحيد اسمَ عَلَمٍ، فقد زال السؤال؛ لأنَّ اسم العلم لا يفيد في المُسمَّى صِفَةً، بل هو قائم مقام الإشارة.

الثاني: لم لا يجوز أن يُحمل على كونه وحيدًا في ظنِّه واعتقاده؟ ونظيره قوله تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

الثالث: أنَّ لفظ «الوحيد» ليس فيه أنَّه وحيد في العلُوِّ والشَّرَف، بل هو كان يدَّعِي لنفسه أنَّه وحيد في هذه الأمور. فيمكن أن يقال: أنت وحيد، لكن في الكُفر والخُبْث والدَّناءة.

الرابع: أنَّ «وحيدًا» مفعولٌ ثانٍ لـ «خَلَقَ». في قوله: ﴿خَلَقۡتُ﴾.

قال أبو سعيد الضَّرِير: الوحيد الَّذي لا أبَ له، وهو إشارة إلى الطعن في نسبِه، كما في قوله تعالى: ﴿عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣]»(١).

﴿وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا﴾

يقول الله تعالى لهذا الخبيث، الَّذي أنعم الله عليه بكثير من نِعَم الدنيا، فكفر بأنعم الله وبدَّلها كفرًا، وقابلها بالجحود بآيات الله، والافتراء عليها، حتَّى جعل القرآن العظيم من قول البشر. فبعد أن قال الله تعالى: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾؛ قال تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا﴾ أي: مبسوطًا كثيرًا.

ذكر الإمام الرازي في تفسير المال الممدود وجوهًا:

«**الأول:** المال الَّذي يكون له مدَدٌ، يأتي من الجُزء بعد الجزء على الدوام، فلذلك فسَّره عمر بن الخطاب بغَلَّة شهرٍ شهرٍ (يعني: المال

---

(١) تفسير الرازي (٣٠/٧٠٤).

QaradawiBooks.com

المُنتِجُ بطبيعتــه، فهو لا ينفد بمجرَّد اســتهلاكه، ولكنَّه يُعطي كلَّ حين ما هيَّأ اللهُ له).

والثاني: أنَّــه المال الَّــذي يمُدُّ بالزيــادة، كالضَّرْع والــزَّرْع وأنواع التِّجَارات (أيْ: الَّذي يمُدُّ بالزيادة طبيعيًّــا، كالضَّرْع والزَّرْع، أو صناعيًّا كما في التجارات).

والثالث: أنَّه المال الَّذي امتدَّ مكانه (يعني: اتَّسع نطاقُه وبلادُه).

قال ابن عبَّاس: كان مالُه ممدودًا ما بين مكةَ إلى الطائف، من الإبل والخيل، والغنم والبساتين الكثيرة بالطائف، والأشجار والأنهار، والنقْد الكثير.

قال مقاتل: كان له بُســتان لا ينقطع نفعه شتاءً ولا صيفًا، فالممدود هنا كما في قوله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]».

أقول (القرضاوي): وهذا التوسُّع والامتداد المكاني، جعل هناك نوعًا من التكامل بين هذه الأشــياء، بحيث إذا انقطع صِنفٌ ظهر صنفٌ غيره في بعض المــكان، أو في مــكان آخر، وقد لا يوجد هــذا الصنف في مكان، ولكن يمكن شراؤه بما معه من نقدٍ كثيرٍ من بساتين أخرى.

«**ورابعها**: أنَّه المال الكثير؛ وذلك لأنَّ المال الكثير إذا عُدِّد فإنَّه يمتد تعديده.

ومن المفسِّــرين من قدَّر المال الممدود، فقال بعضهم: ألف دينار. وقال آخرون: أربعة آلاف. وقال آخرون: ألف ألف.

قال الرازي: وهذه التحكُّمات ممَّا لا يميل إليها الطبعُ السليم»[1].

(١) تفسير الرازي (٣٠/٧٠٤).

QaradawiBooks.com

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾

ومن نِعَم الله تعالى على الوليد بن المغيرة الَّتي كفرها، ولم يقُم بحقِّ واهبها له، بعد نعمة الخلق، ونعمة المال الممدود: نعمة «البنين الشهود».

فقد كان العرب يهتمُّون غاية الاهتمام بالبنين خاصَّة، لا يهتمُّون بمجرد الأولاد، وكانوا إذا هنَّأ بعضهم بعضًا بالزواج يقولون: بالرَّفَاء والبنين. وكانوا إذا رُزِق أحدهم بأنثى وبُشِّر بها قال في جاهليَّته: ما هي بنِعم الولد؛ نصرُها بكاء، وبرُّها سرقة!

فمن أُولِي الأبناءَ الذكور فقد ضاعف الله له النِّعمة، ومع هذا وصف الله هؤلاء البنين من أولاد الوليد، بأنَّهم شُهودٌ.

معنى الشهود أو الشهادة في بنيه:

فما معنى هذا الشهود، أو هذه الشهادة في هؤلاء البنين؟

وفي ذلك وجوه:

الأول: أنَّهم حضور معه باستمرار بمكة، لا يفارقونه البتَّة؛ لأنَّهم كانوا أغنياء، فما كانوا محتاجين إلى مفارقته لطلب كسب ومعيشة، وكان هو مستأنسًا بهم، طيِّب القلب بسبب حضورهم الدائم معه وعدم مفارقتهم له.

والثاني: أنَّهم كانوا رجالًا يشهدون معه المجامع والمحافل، إذا نظر إليهم أبوهم من حوله قرَّت عينُه بهم.

وعن مجاهد: كانوا عشرة. وبعضهم قال: سبعةٌ، كلهم رجال:

QaradawiBooks.com

الوليد بن الوليد، وخالد، وعمارة، وهشام، والعاص، وقيس، وعبد شمس. أسلم منهم ثلاثة: خالد وعمارة وهشام[(١)].

والثالث: أنَّهم كانوا فرسانًا، يشهدون الحروب، ولا يفرُّون منها، بل كانوا دائمًا في المقدِّمة، ومنهم خالد بن الوليد، القائد المقدَّم في الجاهليَّة والإسلام. وهذا لم أجده للمفسِّرين، وهو جدير أن يُذكَر.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾

ومن النِّعم الَّتي أوْلاه الله إيَّاها، ولم يشكُرْها لمُنعِمها: هذا التمهيد والتوطئة. ومعنى ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾ أي: بسطتُ له في العيش بسطًا، حتَّى أقام ببلدته مترفِّهًا، يُرجع إلى رأيه. والتمهيد عند العرب: التوطئة والتهيئة، ومنه: مَهْدُ الصبيِّ. ولهذا امتنَّ الله على عباده، فقال: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾ [النبأ: ٦].

وقال ابن عبَّاس: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾ أي: وسَّعْتُ له ما بين اليمن والشام.

وقال مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾: إنَّه المال بعضه فوق بعض، كما يُمَهَّد الفراش[(٢)].

﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾

ثم إنَّ الوليد يطمع بعد هذا كلِّه أن أزيده في المال والولد، دون أن يقدِّم ما يستوجب المزيد، وهو شكر النعمة. وقد قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ [إبراهيم: ٧]. وهو

(١) تفسير الزمخشري (٦٤٨/٤).
(٢) تفسير القرطبي (٧٢/١٩).

نسخة مجانية غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

ممَّن كفر، وليس ممَّن شكر، فكيف يطمع في الزيادة، وهو لم يستحقَّ بقاءَ الأصل؟!

﴿كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴾

قال تعالى ردًّا على الوليد في تطلُّعاته الَّتي لا يستحقها: ﴿كَلَّآ﴾ ردع له وقطع لرجائه وطمعه، أيْ: لا يكون ذلك مع كفره بالنِّعم.

وقال الحسن وغيره: ثمَّ يطمع أن أُدخله الجنَّة(١).

فهؤلاء الطامعون لم يكتفوا بما نالوه من نِعَم الدنيا، فطمعوا أن يدخلوا الجنَّة أيضًا، والجنَّة حرَّمها الله على المشركين، فما لهم إلَّا النَّار.

وكان الوليد يقول: إنْ كان محمَّد صادقًا، فليست الجنَّة إلَّا لي؛ فقال الله تعالى ردًّا عليه وتكذيبًا له: ﴿كَلَّآ﴾ أي: لستُ أزيده، فلم يزل يرى النقصان في ماله وولده حتَّى هلك، إلَّا من آمن منهم؛ خالدٌ وأَخَوَاه.

قال القرطبي: «و﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ﴾ ليست بـ «ثم» الَّتي للنَّسَق [أي: العطف]، ولكنَّها تعجيب؛ وهي كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]. وذلك كما تقول: أعطيتُك ثمَّ أنتَ تجفوني! كالمُتَعَجِّب من ذلك. وقيل: يطمع أن أترك ذلك في عقبه. وذلك أنَّه كان يقول: إنَّ محمَّدًا مبتورٌ؛ أي: أبتر، وينقطع ذكره بموته.

وكان يظنُّ أنَّ ما رزق لا ينقطع بموته. وقيل: أي: ثمَّ يطمع أنْ أنصره على كفره!

(١) تفسير القرطبي (١٩/٧٢).

QaradawiBooks.com

و﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ وقطعٌ للرجاء عمَّا كان يطمع فيه من الزيادة؛ فيكون متَّصِلًا بالكلام الأوَّل»[١].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ تعليل للرَّدع، أيْ: معانِدًا مخالِفًا، كالبعير الَّذي يعند ويجور عن الطريق، ويعدل عن القصد والسواء.

وقد جاء عن المفسِّرين أقوالٌ في تفسير ﴿عَنِيدًا﴾:

قال أبو صالح: معناه: مباعِدًا. قال الراجز:

إذا رَكِبتُ فاجعلاني وَسَطًا إنِّي كَبيرٌ لا أطيقُ الْعُنَّدَا[٢]

وقال آخرُ:

أرَاني على حالٍ تُفَرِّقُ بيننا نوَى غَرْبَةٍ إنّ الفِرَاقَ عَنُودُ[٣]

وقال بعضهم: جاحدًا. وبعضهم: جحودًا، وبعضهم معرِضًا. وغيرهم: المجاهِر بعداوته. وقال بعضٌ: عنيدًا، أيْ: مخالِفًا للحقِّ، معانِدًا له، مُعرِضًا عنه.

والمعنى كلُّه متقارب. والعرب تقول: عَنَد الرجل إذا عَتا وجاوز قدرَه. والعَنُود من الإبل: الَّذي لا يخالط الإبل، إنَّما هو في ناحيةٍ أبدًا. ورجل عَنُود: إذا كان يحُلُّ وحده، لا يخالط الناس[٤].

وفي سورة إبراهيم: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥].

---

(١) تفسير القرطبي (٧٢/١٩).

(٢) ذكره من غير نسبة أبو عبيدة في مجاز القرآني (٢٧٥/٢)، تحقيق محمد فواد سزكين، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨١هـ. قال أبو عبيدة قبله: وقال الحادي. ونقل الماوردي البيت عن أبي عبيدة، غير أن فيه أنَّه من قول الحارثي. انظر: النكت والعيون (١٤١/٦)، وكذا فعل القرطبي في تفسيره (٧٣/١٩).

(٣) ذكره الماوردي من غير نسبة في النكت والعيون (١٤١/٦).

(٤) تفسير القرطبي (٧٣/١٩).

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾

وهذه الآية تضمَّنت وعيدًا للوليد بن المغيرة ولمَنْ كان مثله في عِناده لآيات الله، بعذابٍ ذي صفة خاصَّة في جهنَّم، وهو تحميله ما لا يُطيق صاعدًا على عقبةٍ كؤود.

ومعنى «سأرهقه» أي: سأكلِّفه، أو سألجئه؛ والإرهاق في كلام العرب: أن يُحَمل الإنسان على الشيء الَّذي ليس بخفيف عليه، يقول سيِّدُنا موسى لصاحبه: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ [الكهف: ٧٣].

والصَّعُود: قالوا: إنَّه صخرة ملساء عالية يُكلَّف صعودها، فإذا صار في أعلاها حَدِر في أسفلها، ويُكَلَّف أن يصعدها ثانية.

قال ابن عبَّاس: المعنى سأكلفه مشقَّةً من العذاب لا راحة له فيه. ونحوه عن الحسن وقتادة(١).

قال الأستاذ الأديب الشهيد سيِّد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند هذه الآية: «وهو تعبير مصوَّر لحركة المشقَّة. فالتصعيد في الطريق هو أشق السير وأشده إرهاقًا. فإذا كان دفعًا من غير إرادة من المُصَعِّد كان أكثر مشقة وأعظم إرهاقًا. وهو في الوقت ذاته تعبير عن حقيقة، فالذي ينحرف عن طريق الإيمان السهل الميسر الودود، يندبُّ في طريق وعر شاقٍّ مبتوت، ويقطع الحياة في قلق وشدة وكربة وضيق، كأنَّما يصَّعَّد في السماء، أو يصَّعَّد في وعر صلْد لا ريّ فيه ولا زاد، ولا راحة ولا أمل في نهاية الطريق!»(٢).

---

(١) تفسير القرطبي (٧٤/١٩).

(٢) في ظلال القرآن (٣٧٥٧/٦).

QaradawiBooks.com

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾

قال تعالى في تعليله للوعيد: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ «يعني الوليد؛ فكَّر في شأن النبيِّ ﷺ والقرآن، و﴿وَقَدَّرَ﴾ أي: هيَّأ الكلام في نفسِه، والعرب تقول: قدَّرتُ الشيءَ: إذا هيَّأته. وذلك أنَّه لما نزل: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر: ١ - ٣] على رسول الله ﷺ، سمعه الوليد يقرؤها، فقال: والله لقد سمعتُ منه كلامًا ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجنِّ، وإنَّ له لحَلاوةً، وإنَّ عليه لطَلاوة، وإنَّ أعلاه لمُثْمِر، وإنَّ أسفله لمُغدِق، وإنَّه ليعلو ولا يُعْلَى عليه، وما يقول هذا بشر.

فقالت قريش: صَبأ الوليدُ، لتَصْبَأَنَّ قريش كلُّها. وكان يقال للوليد: ريحانةُ قريش. فقال أبو جهل: أنا أكفيكُموه. فانطلق إليه حزينًا، فقال له: ما لي أراك حزينًا؟ فقال له: وما لي لا أحزن، وهذه قريش يجمعون لك نفقةً يُعينُونك بها على كِبَر سِنِّكَ، ويزعمون أنَّك زيَّنْتَ كلامَ محمد، وتدخل على ابن أبي كَبْشَة، وابنِ أبي قُحافة، لتنالَ من فَضْلِ طعامِهما؟ فغضب الوليد وتكبَّر، وقال: أنا أحتاج إلى كِسَر محمَّدٍ وصاحبه، فأنتم تعرفون قدْرَ مالي، واللَّات والعُزَّى ما بي حاجة إلى ذلك، وإنَّما أنتم تزعمون أنَّ محمَّدًا مجنون، فهل رأيتموه قطُّ يَخْنُق[1]؟ قالوا: لا، واللهِ.

قال: فتزعمون أنَّه كذَّاب، فهل جرَّبتُم عليه كذبًا قط؟ قالوا: لا، والله.

---

(١) قال الطيبي في حاشيته على الكشاف (١٢٧/١٦): كانوا يعتقدون أنَّ الجن تخنق المجنون وتتخبَّطه. في (المُغرِب): «الخَنِق، بكسر النون: مصدر (خَنَقه)؛ إذا عصر حلقه. يقال: خنقته العبرة، يعني: غَصَّ بالبكاء حتى كأنَّ الدموع أخذت بمُخنَّقِهِ».

QaradawiBooks.com

قال: فتزعمون أنَّه كاهن، فهل رأيتموه تكهَّنَ قط؟ ولقد رأينا للكَهَنَة أسجاعًا وتَخالُجًا، فهل رأيتموه كذلك؟ قالوا: لا، واللهِ.

قال: فتزعمون أنَّه شاعر، فهل رأيتموه نطقَ بشِعْرٍ قطُّ؟ قالوا: لا.

قال: فتزعمون أنَّه كذَّاب، فهل جرَّبتم عليه كذبًا قط؟ قالوا: لا.

وكان النبيُّ ﷺ يُسَمَّى الصادق الأمين من كثرة صدقه.

فقالت قريشٌ للوليد: فما هو؟ ففكَّر في نفسه، ثمَّ نظر، ثمَّ عبس، فقال: ما هو إلَّا ساحر! أمَّا رأيتموه يُفرِّق بين الرجل وأهله، وولده ومواليه[1]؟! فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ﴾ أي: في أمر محمَّد والقرآن. ﴿وَقَدَّرَ﴾ في نفسه ماذا يمكنه أن يقول فيهما.

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾

﴿فَقُتِلَ﴾ أي: لُعِن. وكان بعض أهل التأويل يقول: معناها فقُهر وغُلِب، وكل مُذَلَّل مُقتَّل؛ قال الشاعر:

وَمَا ذَرَفَتْ عيناكِ إلَّا لِتَقْدَحِي بسَهْمَيْكِ في أَعْشارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ[2]

وقال الزهريُّ: عُذِّب؛ وهو من باب الدعاء.

﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ قال ناسٌ: (كَيْفَ) تعجيب؛ كما يقال للرجل تَتَعَجَّب من صنيعه: كيف فعلتَ هذا؟ وذلك كقوله: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الإسراء: ٤٨].

---

(١) رواه الحاكم في التفسير (٢/٥٠٦)، وصحَّحه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/١٩٨)، عن ابن عباس. وانظر: تفسير القرطبي (١٩/٧٥).

(٢) من معلقة امرئ القيس، انظر: ديوانه صـ ٣٤.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾

﴿ثُمَّ قُتِلَ﴾ أي: لُعن لعنًا بعدَ لَعن. وقيل: فقُتِل بضَرْب من العقوبة، ثمَّ قتل بضرب آخر من العقوبة.

﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أيْ: على أيِّ حال قَدَّر؟

و﴿ثُمَّ﴾ الداخلة في تكرير الدعاء؛ للدلالة على أنَّ الكرَّة الثانية أبلغ من الأولى[١].

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ بأيِّ شيءٍ يردُّ الحقَّ ويدفعه. وهذه الآية من سورة المدَّثر أقصر آية في القرآن الكريم.

قال الرازي: المعنى: أنَّه أولًا فكَّر، وثانيًا قـدَّر، وثالثًا نَظَر في ذلك المقدَّر، وهذه المراتب الثلاث متعلقة بأحوال قلبه[٢].

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾

ثم إنَّه تعالى وَصَفَ بعد ذلك أحوالَ وجهه المُنبِئة عن حالته النفسية، فقال: ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ أي: قَطَّب بين عينيه في وجوه المؤمنين؛ وذلك أنَّه لما حَمَل قريشًا على ما حملهم عليه من القول في محمَّد ﷺ بأنَّه ساحر، مرَّ على جماعة من المسلمين، فدَعَوْه إلى الإسلام، فعبس في وجوههم.

وقيل: ﴿عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ على النبيِّ ﷺ حين دعاه.

(١) تفسير الزمخشري (٤/٦٤٩).

(٢) تفسير الرازي (٣٠/٧٠٦).

QaradawiBooks.com

﴿وَبَسَرَ﴾ أي: كَلَح وجهُه وتغيَّر لونه؛ قاله قتادة والسُّديّ.

وقيل: إنَّ ظهور العُبوس في الوجه يكون بعد المحاورة، وظهور البُسور في الوجه قبل المحاورة.

وقال قوم: «بَسَر»: وَقَف لا يتقدَّم ولا يتأخَّر. قالوا: وكذلك يقول أهل اليمن إذا وقف المركبُ، فلم يَجِئْ ولم يذهب: قد بَسَرَ المركبُ وأَبْسَر، أي: وقف، وقد أبسرنا. والعرب تقول: وجهٌ باسِر بيِّن البسور: إذا تغيَّر واسودَّ.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ أي: ولَّى وأدار ظهره ذاهبًا إلى أهله. ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أي: تعظَّم عن أن يؤمن. وقيل: أدبر عن الإيمان، واستكبر حين دُعي إليه»[١].

قال الرازي: «هذا يدلُّ على أنَّه كان عارفًا في قلبه صِدْقَ محمَّد ﷺ، إلَّا أنَّه كان يكفر به عنادًا وكبْرًا»[٢].

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾

«﴿فَقَالَ﴾ عطف بالفاء بعد عطف ما قبله بـ ﴿ثُمَّ﴾؛ لأنَّ الكلمة لما خطرت بباله بعد التطلُّب، لم يتمالك أن نطق بها من غير تلبُّث»[٣].

«﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا الَّذي أتى به محمدٌ ﷺ ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي: يأثُره عن غيره.

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/٧٤ ـ ٧٦).

(٢) تفسير الرازي (٣٠/٧٠٦).

(٣) تفسير الزمخشري (٤/٦٥٠).

QaradawiBooks.com

والسِّحر: الخديعة. وقال قوم: السحر: إظهار الباطل في صورة الحق.

والأثر: مصدر قولك: أَثَرْت الحديث آثُره، إذا ذكرتَه عن غيرك؛ ومنه قيل: حديث مأثور، أي: ينقله خَلَفٌ عن سَلَف؛ قال امرؤ القيس:

ولـو عَنْ نَثَـا غَيـرِه جاءَنِي ... وجُرْحُ اللِّسـانِ كَجُـرْحِ اليدِ
لَقُلْتُ مِـن القولِ مـا لَا يَزا ... لُ يُؤثَـرُ عنِّي يَدَ الْمُسْـنَدِ[1]

يريد: آخرَ الدهر.

وقال الأعشى[2]:

إنّ الَّـذي فـيـه تماريْتُمَـا ... بُـيِّـنَ لِـلـسَّـامِعِ والآثِـرِ

ويُروى: بَيَّنَ»[3].

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾: «أي: ما هذا إلَّا كلامُ المخلوقين، يَختدِع به القلوب كما تُختدع بالسحر.

قال السُّـديُّ: يعنون أنَّه من قول سـيَّارٍ؛ عبدٍ لبني الحَضْرَميِّ، كان يُجالِس النبيَّ ﷺ، فنسبوه إلى أنَّه تعلَّم منه ذلك. وقيل: أراد أنَّه تلقَّنه من أهل بابِلَ. وقيل: عن مُسَيلِمَة. وقيل: عن عديٍّ الحضرميِّ الكاهن. وقيل: إنَّما تلقَّنه ممَّن ادَّعى النُّبُوَّة من قبل، فنسج على منوالهم.

قال أبو سعيد الضرير: إنْ هذا إلَّا أمرُ سِحْرٍ يُؤثَر؛ أي يُورث.

---

(١) البيتان في ديوانه صـ ٨٧.

(٢) ديوانه (١٤١/١)،

(٣) تفسير القرطبي (٧٦/١٩).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ولقد ردَّ الله على هذه الدعاوى الباطلة وما يشبهها في سورة النحل حين قال: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ۞ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۞ لَا تُبۡقِى وَلَا تَذَرُ ۞ لَوَّاحَةٌ لِّلۡبَشَرِ﴾

[الآيات: ٢٦ ـ ٢٩]

مصير الوليد بن المغيرة وأمثاله من الكفَّار المعاندين:

«﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ﴾ أي: سأدخله سَقَر كي يَصْلى حرَّها. وإنَّما سُمِّيت سقرَ؛ من سَقَرَتْه الشمسُ: إذا أذابته ولوَّحته، وأحرقت جِلْدَةَ وجهِه. ولا ينصرف للتعريف والتأنيث. قال ابن عبَّاس: هي الطبق السادس من جهنم...

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ هذه مبالغة في وصفها؛ أي: وما أعلَمك أي شيء هي؟ وهي كلمة تعظيم، ثمَّ فسَّر حالها، فقال: ﴿لَا تُبۡقِى وَلَا تَذَرُ﴾ أي: لا تترك لهم عظمًا ولا لحمًا ولا دمًا، إلَّا أحرقَتْه. وكُرِّر اللفظُ تأكيدًا. وقيل: لا تُبْقي منهم شيئًا، ثمَّ يعادون خلقًا جديدًا، فلا تَذَر أن تُعاوِد إحراقَهم، هكذا أبدًا.

وقال مجاهد: لا تُبقي مَنْ فيها حيًّا، ولا تذره مَيِّتًا، تحرقهم كلما جُدِّدُوا.

وقال السُّدِّيُّ: لا تُبقي لهم لحمًا، ولا تذر لهم عظمًا.

معنى ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلۡبَشَرِ﴾:

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلۡبَشَرِ﴾ أي: مُغَيِّرة، من لاحه: إذا غيَّره. وهي نعت لـ(سقر) في قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾...

QaradawiBooks.com

والعرب تقول: لاحه البَرْد والحرُّ والسُّقم والحُزْن: إذا غيَّره؛ ومنه قول الشاعر:

تَقولُ ما لَاحَك يا مُسافِرُ ... يَا ابْنةَ عَمِّي لَاحَنِي الْهَواجِرُ[1]

وقال آخر:

وتَعْجَبُ هِنْدٌ أَنْ رَأَتْنِي شاحِبًا ... تقول لِشَيْءٍ لَوَّحَتْه السَّمائمُ

وقيل: إنَّ اللَّوْحَ شدَّةُ العطَش؛ يقال: لاحَهُ العطشُ ولوَّحه. أي: غيَّره. والمعنى: أنَّها مُعَطِّشة للبشر، أي: لأهلها؛ قاله الأخفش، وأنشد:

سَقَتْنِي على لَوْحٍ منَ الماء شَرْبَةً ... سقاها بها اللهُ الرِّهامَ الغَواديا[2]

يعني باللَّوْح: شدَّةَ العطش. والْتَاحَ أي: عَطِش. والرِّهام جمع رِهْمة، بالكسر وهي: المطرة الضعيفة، وأرْهَمَت السحابةُ: أتَتْ بالرِّهام.

وقال ابن عبَّاس: ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ أي تلوح للبشر من مسيرة خمسمائة عام.

وقال الحسن وابن كَيْسان: تلوح لهم جهنمُ حتَّى يَرَوْها عِيانًا. نظيره: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١].

وفي (البَشَر) وجهان:

أحدهما: أنَّه الإنس من أهل النار؛ قاله الأخفش والأكثرون.

الثاني: أنَّه جمع بَشَرة، وهي جِلْدة الإنسان الظاهرة؛ قاله مجاهد وقتادة.

---

(١) الشعر لأبي عبيدة. انظر: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري صـ٥٤٢، تحقيق عبد السلام محمد هارون، نشر دار المعارف، ط ٥.

(٢) البيت لسحيم عبد بني الحسحاس، كما في الأمالي للمرزوقي صـ٣٩١، تحقيق د. يحيى وَهيب الجُبوري، نشر دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٥م.

QaradawiBooks.com

وجمع البَشَر أبشار، وهذا على التفسير الأوَّل، وأمَّا على تفسير ابن عبَّاس فلا يستقيم فيه إلَّا الناسُ لا الجلود؛ لأنَّه من لاح الشيءُ يَلُوح: إذا لمع»(١).

غير مرخصة للطباعة

﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾

يرى الإمام القرطبي أنَّ الصحيح في هؤلاء التسعة عَشَرَ، أنَّهم الرؤساء والنقباء، أمَّا الملائكة المُوَكَّلُون بأهل النار، المشرفون على تعذيبهم، فقد قال القرآن عنهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أمَّا جملتهم فالعبارة تعجِز عنها، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]. وقد ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُؤْتى بجهنَّمَ يومئذٍ لها سبعون ألفَ زمامٍ، مع كلِّ زمامٍ سبعون ألفَ مَلَك يجرُّونها**»(٢).

وقال ابن عبَّاس وقتادة والضحَّاك: لما نزل: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم! أسمعُ ابن أبي كبشة يخبرُكم أن خَزَنَةَ جهنمَ تسعةَ عشر، وأنتم الدَّهْمُ - أيْ: العَدَد - والشُّجْعان، فيعجِز كلُّ عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم(٣)؟!

(١) تفسير القرطبي (١٩/٧٦ - ٧٨) بتصرُّف يسير.

(٢) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٢)، والترمذي في صفة جهنم (٢٥٧٣)، عن ابن مسعود.

(٣) رواه الطبري في التفسير (٢٤/٢٨).

نسخة تجريبية

QaradawiBooks.com

قال السُّدِّيُّ: فقال أبو الأسود بن كِلْدَة الجُمَحِي: لا يَهُولَنَّكم التسعةَ عشرَ، أنا أدفع بمَنْكِبي الأيمنِ عشرةً من الملائكة، وبمنكبي الأيسر التسعةَ، ثمَّ تمرُّون إلى الجنة! يقولها مُستَهْزِئًا. في رواية: أنَّ الحارث بن كِلْدَةَ قال: أنا أكفيكم سبعةَ عشرَ، واكفوني أنتم اثنين. وقيل: إن أبا جهل قال: أفيعجِزُ كلُّ مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم، ثمَّ تخرجون من النار؟! فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: لم نجعلهم رجالًا فتتعاطَوْن مُغالَبَتَهم. وقيل: جعلهم ملائكةً؛ لأنَّهم خلافُ جنسِ المعذَّبين من الجنِّ والإنس، فلا يأخذهم ما يأخذ المُجانِس من الرَّأْفَة والرِّقَّة، ولا يسترْوِحُونَ إليهم؛ ولأنهم أَقْوَمُ خلق الله بحق الله، وبالغضب له، فتُؤمَنُ هوادَتُهم؛ ولأنهم أشدُّ خلقِ اللهِ بأسًا، وأقواهم بطشًا»[(١)].

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾

أي: وما جعلنا أصحاب النَّار وخزنتها والقائمين عليها من أمثالكم من الجن والإنس، ولكنَّا جعلناهم من جنس آخر، لا يقدر عليهم أحدٌ منكم، وإن تكاثرتم عليهم، فهم كما وصفهم الله في سورة التحريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. وهذه الغِلظةُ والشدَّةُ الَّتي وُصِفُوا بها، تجعل الجنَّ والإنسَ أمامهم ضعفاء، لا حَوْل لهم ولا طول.

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/٨٠، ٨١) بتصرُّف يسير.

نسخة مجانية غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً﴾ «أي: بَلِيَّة. وروي عن ابن عبَّاس من غير وجه قال: ضلالة للذين كفروا. يريد: أبا جهل وذويه.

وقيل: إلَّا عذابًا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤]. أي: جعلنا ذلك سببَ كفرِهم وسبب العذاب.

﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: ليُوقن الَّذين أعطوا التوراة والإنجيل أن عِدَّة خزنة جهنَّم موافِقَة لما عندهم، قاله ابن عبَّاس وقتادة والضحَّاك ومجاهد وغيرهم. ثمَّ يحتمل أنَّه يريد الَّذين آمنوا منهم؛ كعبد الله بن سلام. ويحتمل أنَّه يريد الكل.

﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ بذلك؛ لأنَّهم كُلَّما صدَّقوا بما في كتاب الله آمنوا، ثمَّ ازدادوا إيمانًا لتصديقهم بعدد خزنة جهنم»[1]. ويزداد إيمانهم أيضًا بعدل الله في تعذيب الكفَّار يوم الدين، ويزيد التزامهم بطاعة الله والعمل بمراضيه.

أقول (القرضاوي): وفي هذا دليل على أنَّ الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالعلم والمعرفة، ويزيد بالطاعات وفعل الخيرات، وينقص بالجهل والخرافة، وكذلك بالمعصية والانحراف، كما جاء ذلك كثيرًا في كتاب الله.

ثم أكَّد الاستيقانَ وازديادَ الإيمان بما ينفي كلَّ ما يعتري ذلك من شبهة، فقال: ﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾ أي: ولا يشكُّ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: أُعطوا الكتاب (والمراد به: التوراة والإنجيل). ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: المُصدِّقون من أصحاب محمَّد ﷺ في أن عِدَّة خزنة جهنَّم تسعة عشر.

(١) تفسير القرطبي (٨١/١٩، ٨٢) بتصرُّف.

QaradawiBooks.com

والمراد: لا يشـكُّ الَّذين أُعطوا الكتاب والمؤمنون مُستقبلًا في أيِّ خبر يُخبر به رسول الله ﷺ.

قال أبو السعود: «وإنَّما لم يَنْظُمِ المؤمنين في سلك أهل الكتاب في نفي الارتيـاب، فلم يقل فيهما معًـا: (ولا يرتابـوا)، للتنبيه على تباين النفيين حالًا؛ فإن انتفاءَ الارتياب من أهل الكتاب مقارِنٌ لِـمَا ينافيه من الجحود، ومـن المؤمنين مُقـارِنٌ لِـمَا يقتضيـه من الإيمـان»[1]. أي: فلا يجحده أهل الكتاب، ويقوى به إيمان المؤمنين.

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: فـي صدورهـم شـكٌّ ونفاق من منافقي أهل المدينة، الَّذين يَنْجُمُون في مستقبَل الزمان بعد الهجرة، ولم يكن بمكَّة نفاق، وإنَّمـا نَجَم بالمدينـة. وقيل: المعنـى، أي: وليقول المنافقون الَّذين ينجُمون في مسـتقبَل الزمان بعد الهجرة. ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: اليهود والنصارى ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ يعني: بعدد خزنة جهنم. وقال الحسين بن الفضل: السورة مكيَّة، ولم يكن بمكَّة نفاقٌ، فالمرض في هذه الآية: الخِلَاف، والكافرون أي: مشركو العرب.

وعلى القول الأول أكثر المفسرين.

ويجوز أن يـراد بالمرض: الشـكُّ والارتياب؛ لأن أهـل مكة كان أكثرهم شاكِّين، وبعضهم قاطعين بالكذب.

وقوله تعالى إخبارًا عنهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ العدد الَّذي ذكره حديثًا، أي: ما هذا من الحديث؟ قال الليث: المَثَل: الحديث. ومنه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥، محمد: ١٥]. أي: حديثها، والخبر عنها.

(١) تفسير أبي السعود (٩/٦٠).

QaradawiBooks.com

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كإضلال اللهِ أبا جهل وأصحابه المنكِرين لخزنة جهنم، ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ أي: يُخزي ويُعمي ﴿مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي﴾، أي: ويرشد ﴿مَن يَشَآءُ﴾، كإرشاد أصحاب محمَّد ﷺ. أي: يحكم بمشيئته على من ضلَّ بالضلالة، ويحكم بمشيئته لمن اهتدى بالهداية.

وقيل: كذلك يُضل الله عن الجنَّة منْ يشاء، ويهدي إليها منْ يشاء.

لا يعلم قوَّة جنود الله تعالى غير الله:

﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ أي: وما يدري عدد ملائكة ربِّك الَّذين خلقهم لتعذيب أهل النَّار إلَّا هو، أي: إلَّا الله جل ثناؤه. وهذا جواب لأبي جهل حين قال: أمَا لمحمدٍ من الجنود إلَّا تسعةَ عشر؟!

والجنود جمع جند، وجمع جندي، والجندي هو الفرد من أفراد العساكر المجندين في جيش، يتميز بالسلاح والتدريب والنظام والطاعة للقيادة، ملكًا كان أو رئيسًا أو أمير جند، يقلون أو يكثرون، والملك القوي جنوده أقوياء، والملك الضعيف جنوده ضعفاء. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۞ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣]. فجند الله دائمًا معروفون بأنَّهم دائمًا هم الغالبون؛ لأنَّهم الأكثر عددًا، كما قال تعالى هنا: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾. وقال تعالى لرسوله في سورة الفتح الَّتي بين له فيه أنَّه فتح له فتحًا مبينًا، ليغفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، ويتم نعمته عليه، ويهديه صراطًا مستقيمًا، وينصره نصرًا عزيزًا، قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤]. وقال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٧]. فمن كان عنده جنود السماوات والأرض ـ على سعتهما ـ فمن يملك مثل قوته؟ ومن يملك جندًا مثل جنده؟

QaradawiBooks.com

ومن مزايا جنود الله أنَّها يمكن أن تتسع للإنس والجن والطير، إذا جندها رسول من رسل الله، لإعلاء كلمته ونشر دينه في الأرض، كما في جند سليمان، قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧]. وقد رأينا كيف استخدم الهدهد في إيصال رسائله إلى من شاء من الملوك.

ومن هذه الجنود: الملائكة الَّذين أنزلهم الله تعالى لنصرة رسوله في بدر والأحزاب وحنين، قال عن غزوة بدر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٣ ـ ١٢٥]. وقال: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]. وقال عن غزوة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]. وقال تعالى في غزوة حنين: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٦]. وفي زمن الهجرة قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ [التوبة: ٤٠].

ولذلك ترى دائمًا جنود ربِّنا هم الأكثر عددًا، والأقوى مددًا، والأكثر كيدًا، وكيف لا وهم مع الله تعالى، والله تعالى معهم؟ قال تعالى:

QaradawiBooks.com

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]. وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠].

ولذلك دمَّر الله تعالى جنود الفراعنة والمستكبرين في الأرض، ولم تُغن عنهم أسلحتهم ولا كثرتهم ولا تدريبهم ولا تنظيمهم؛ لأن قوَّة الله أكبر من قوتهم، ومكر الله أعظم من مكرهم. قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٠ ـ ٥٢].

والقرآن الكريم يُبيِّن لنا: أنَّ دولة الجنود أو دولة العسكرية الَّتي تقوم على مجرد القوَّة والبطش وعدم رعاية العدل مع الشعب ومع النَّاس، هي دولة مهزومة أبدًا. ولذا قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۝ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ [البروج: ١٧، ١٨]. يسأل الله تعالى رسوله وكل من يتأتى خطابه هذا السؤال الكبير: هل أتاك حديث الجنود؟ أي: العسكر بلغتنا اليوم. فهو يسأل رسوله ليعرف عاقبتهم ونهايتهم بعد أن استكبروا في الأرض، وعرضوا فرعنتهم على النَّاس، فقال تعالى مبينًا حديث هؤلاء العسكر أو الجنود، فقال: (فرعون وثمود) هؤلاء هم العسكر، فرعون ذو الأوتاد، وثمود الَّذين جابوا الصخر بالواد. وهم الَّذين قالت فيهم سورة الفجر: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١١ ـ ١٤]. ولذا قال تعالى عن فرعون وجنوده ممن اتبعوا موسى وقومه ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨].

QaradawiBooks.com

وقال تعالى: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ أي: آثمين [القصص: ٨]. وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤٠، ٤١]. وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩].

ومن هنا نعلم علم اليقين: أنَّه إذا التقى جند من جنود الله، وآخرون من جنود الطاغوت، كيف تكون النهاية، ولمن تكون العاقبة، ولا شك أنَّ العاقبة للمتقين، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾:

﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ يعني: الدلائل والحجج والقرآن. وقيل: ﴿وَمَا هِىَ﴾ أي: وما هذه النَّار الَّتي هي سقر ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ أي: عِظة ﴿لِلْبَشَرِ﴾ أي: للخلق. وقيل: نار الدنيا تذكرة لنار الآخرة. قاله الزجَّاج(١).

وقيل: أي: ما هذه العِدَّة إلَّا ذكرى للبشر، أيْ: ليتذكروا ويعلموا كمال قدرة الله تعالى، وأنَّه لا يحتاج إلى أعوان وأنصار. فالكناية على هذا في قوله تعالى: ﴿وَمَا هِىَ﴾ ترجع إلى الجنود؛ لأنَّه أقرب مذكور(٢).

---

(١) معاني القرآن (٢٤٨/٥).

(٢) تفسير القرطبي (٨٢/١٩، ٨٣) بتصرُّف يسير.

نسخة مجانية

قسمه سبحانه على إنجاز ما ذكره من الوعيد بسَقَر:

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ٣٢ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ٣٤ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ٣٥ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾

﴿كَلَّا﴾ رَدْع وردٌّ على المشـركين الَّذين زعموا أنَّهم يقاومون خَزَنة جهنّم، أي: ليس الأمر كما زعم هؤلاء، الَّذين زعموا أنَّهم يقدرون على مقاومة خَزَنة النار.

ثم أقسم سبحانه بالقمر، فقال: ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾، وهو سبحانه يقسم بما يشاء من خلقه، ليلفت الأنظار إلى ما له من فوائد، وما به من عِبَر.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ وأقسم كذلك بالليل إذ أدبر، أي: تولَّى، وبالصبح إذا أسـفر، أي: أسـفر وأضاء وانكشف، وفي الحديث الَّذي رواه الترمذي والنسـائي عـن رافع بن خديج مرفوعًا: «**أسـفروا بالفجرِ، فإنَّه أعظمُ للأجر**»(١).

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ جـواب القسـم. أي: النّـار إحـدى الدواهي العظائم، و(الكُبَر) جمع (الكُبْرَى)، أي: لإحدى البلايا وإحدى الدواهي الكُبَر، على معنى أنَّ البلايا الكبر أو الدواهي الكبر كثيرة، وهذه واحدة في العِظَم والقَدْر، لا نظير لها.

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ أي: إنذارًا وتخويفًا للناس جميعًا.

(﴿نَذِيرًا﴾ تمييز من (إحدى) على معنى: إنَّها لإحدى الدواهي إنذارًا، وقيل: هي حال ممَّا دلَّت عليه «الكُبَر»، أي: كبُرت منذرةً(٢).

---

(١) رواه أحمد (١٧٢٧٩)، وقال مخرِّجوه: حديث صحيـح. والترمذي في الصلاة (١٥٤)، وقال: حسن صحيح. والنسائي في المواقيت (٥٤٨).

(٢) الكشاف (٤/٦٥٣)، وحاشية الطيبي (١٦/١٤٠).

QaradawiBooks.com

ثم أبدل من قولــه: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ قولَه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ أي: نذيرًا لمن شاء منكم أن يسير إلى الخير، فيهديه الله إليه، ويفتح له الطريق، أو لم يشــأ ذلك وتأخَّر، وعطَّل مشــيئته الحُرَّة، فأوقع نفسه في الضلال، فهو كقول الله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقفات في معاني هذه الآيات مع ابن القيِّم:

ونقف للتأمُّل مع هذا الجزء من الســورة بعض الوقفات مع الإمام ابن القيِّم إذ يقول: «قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ۝ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٢ ـ ٣٧].

أقســم ســبحانه بالقمر الَّذي هو آيةُ الليل، وفيه من الآيات الباهرة الدالَّة على ربوبيَّةِ خالقه وبارئه، وحكمته وعلمه، وعنايته بخلقه؛ ما هو معلوم بالمُشاهَدَة.

وهو سبحانه أقسم بالســماء وما فيها ممَّا لا نراه من الملائكة، وما فيها ممَّا نراه مِن الشَّــمس والقمر والنجوم، وما يحدث بسبب حركات الشــمس والقمر، من الليل والنهار، وكل ذلك آية من آياته، ودلالة من دلائل ربوبيته.

ومَن تدبَّر أمــر هذين النيِّرَيْــن العظيمين (يعني: الشــمس والقمر) وجدَهما مــن أعظم الآيات في خلقهما وجِرْمهمــا ونورهما، وحركتهما على نهج واحد، لا يَنِيَــان، ولا يَفْتُران، دائبَيْــن، ولا يقع في حركتهما اختلافٌ بالبطءِ والسرعة، والرجوع والاستقامة، والانخفاض والارتفاع،

QaradawiBooks.com

ولا يجري أحدهما في فَلَك صاحبه، ولا يدخل عليه في سلطانه، ولا تدرك الشمسُ القمرَ، ولا يجيء الليلُ قبلَ انقضاء النهار، بل لكلٍّ حركة مُقدَّرة، ونهج مُعيَّن لا يَشْرَكُه فيه الآخرُ، كما أنَّ له تأثيرًا ومنفعة لا يشركه فيها الآخرُ، وذلك ممَّا يدلُّ من له أدنى عقل، على أنَّه بتسخيرِ مُسخِّرٍ، وأمْرِ آمِرٍ، وتدبير مُدَبِّرٍ، بَهَرت حكمتُه العقول، وأحاط علمُه بكلِّ دقيقٍ وجليلٍ، وفرَّق ما علَّمه الناسُ من الحِكَم، الَّتي في خلقهما ما لا تصل إليه عقولهم، ولا تنتهي إلى مبادئها أوهامُهم، فغايتنا الاعتراف بجلال خالقهما، وكمال حكمته، ولُطف تدبيره، وأن نقول ما قاله أولو الألباب قبلنا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

ولو أنَّ العبدَ وُصِفَ له جِرْم أسودُ مستديرٌ، عظيمُ الخلقِ، يبدو فيه النور كخيطٍ متسخِّن، ثمَّ يتزايد كلَّ ليلةٍ حتَّى يتكامل نوره، فيصير أضوَأَ شيءٍ وأحسنَه وأجملَه، ثمَّ يأخذ في النُّقصان حتَّى يعود إلى حاله الأول، فيحصل بسبب ذلك معرفة الأشهُر والسنين، وحساب آجال العالَم، من مواقيت حَجِّهم وصَلاتهم، ومواقيت أَجَائِرِهم (جمع إجارة) ومُدَايَنَاتهم ومعاملتهم الَّتي لا تقوم مصالحهم إلَّا بها، فمصالح الدنيا والدين متعلِّقَة بالأهلة.

وقد ذكر سبحانه ذلك في ثلاث آيات من كتابه: أحدها قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]. والثانية قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]. والثالثة قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

QaradawiBooks.com

فلولا ما يُحدِثه الله سبحانه في آيات الليل، من زيادة ضوئها ونقصانه؛ لم يُعلَم ميقات الحجِّ والصوم، والعِدَّة ومُدَّة الرَّضاع ومدَّة الحَمْل، ومدَّة الإجارة، ومدَّة آجال الحاملات.

فإن قيل: كان يمكن هذا بحركة الشمس والأيام الَّتي تُحفظ بطلوع الشمس وغروبها، كما يعرف أهل الكِتَابَيْن مواقيت صيامهم وأعيادهم بحساب الشمس.

قيل: هذا وإن كان مُمكنًا، إلَّا أنَّه يَعْسُر ضبطُه، ولا يقف عليه إلَّا الآحاد من النَّاس، ولا ريب أنَّ معرفة أوائل الشهور وأوساطها وأواخرها بالقمر أمر يشترك فيه النَّاس، وهو أسهل من معرفة ذلك بحساب الشمس، وأقل اضْطرابًا واختلافًا، ولا يحتاج إلى تكلُّفِ حساب، وتقليد مَن لا يعرفه من النَّاس لمن يعرفه، فالحكمة البالغة الَّتي في تقدير السنين والشهور بِسَيْر القمر، أظهر وأنفع وأصلح، وأقل اختلافًا من تقديرها بسَيْر الشمس.

فالرَّبُّ ﷻ دبَّر الأهِلَّة بهذا التدبير العجيب، لمنافع خلقه في مصالح دينهم ودنياهم، مع ما يتصل به من الاستدلال به على وحدانيَّة الربّ، وكمال حكمته، وعلمه وتدبيره، فشهادة الحقِّ بتغيُّر الأجرام الفلَكية، وقيام أدلَّة الحدوث والخلق عليها، فهي آيات ناطقة بلسان الحال على تكذيب الدهريَّة، وزنادقة الفلاسفة، والملاحدة القائلين بأنَّها أزليَّة أبديَّة، لا يتطرَّق إليها التغيير، ولا يمكن عدمها.

فإذا تأمَّل البصير القمر مثلًا وافتقاره إلى محلٍّ يقوم به، وسيره دائبًا لا يفتُر، مسيَّرٌ مُسخَّرٌ مدبَّرٌ، وهبوطُه تارة، وارتفاعه تارة، وأفوله تارة، وظهوره تارة، وذهاب نوره شيئًا فشيئًا، ثمَّ عَوْده إليه كذلك، وسبب

QaradawiBooks.com

ضوئه جملة واحـدة، حتَّى يعودَ قطعة مظلِمة بالكسـوف؛ عَلِمَ قطعًا أنَّه مخلوقٌ مربوبٌ مُسخَّر، تحت أمر خالِق قاهِر مُسخِّر له كما يشاء، وعلم أنَّ الربَّ سـبحانه لم يخلق هذا باطلًا، وأنَّ هذه الحركـة فيه لا بدَّ أنْ تنتهي إلى الانقطاع والسكون، وأنَّ هذا الضوء والنور لا بدَّ أنْ ينتهي إلى ضدِّه، وأنَّ هذا السـلطان لا بدَّ أنْ ينتهي إلى العزل، وسـيجمع بينهما جامع المُتَفَرِّقات بعد أنْ لم يكونا مجتمِعَيْن ويذهب بهما حيث شـاء، ويُرِي المشـركين مِنْ عَبَدَتِهما حالَ آلهتهم الَّتـي عبدوها من دونه، كما يُرِي عُبَّـاد الكواكبِ انتثارَها، وعُبَّاد السـماء انفطارَها، وعُبَّاد الشـمسِ تكويرَها، وعُبَّـاد الأصنام إهانتَهـا وإلقاءَها في النَّار أحقرَ شـيءٍ وأذلَّه وأصغرِه، كمـا أرى عُبَّادَ العِجْل في الدنيا حالَه ومَبَارِد عِبَادِه[1] تسـحقُه وتمحقُه، والريح تمزِّقه وتذرُوه وتنسفه في اليمِّ، وكما أرى عُبَّاد الأصنام في الدنيا صورَها مُكسَّـرة مخَردلـة، مُلقاة بالأمكنة القـذرة، ومعاول المُوَحِّدين قد هَشَّمَت منها تلك الوجوه، وكسرت تلك الرؤوس، وقطعت تلك الأيدي والأرجل، الَّتي كانت لا يوصل إليها بغير التقبيل والاستلام، وهذه سـنَّة الله الَّتي لا تُبَدَّل، وعادته الَّتي لا تُحوَّل، أنَّه يُري عابد غيرِه حالَ معبوده في الدنيا والآخرة، وإن كان المعبود غير راضٍ بعبادة غيره، ويُريه تَبَرِّيه منه، ومعاداتِه له أحوج ما يكون إليه: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]. ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٩].

تأمَّـلْ سـطورَ الكائنـاتِ فإنها ... من المَلِك الأعلى إليكَ رسـائلُ
وقد خُطَّ فيها لـو تأمَّلْتَ خطَّها ... ألا كُلُّ شـيءٍ ما خـلا اللهَ باطلُ

---

(١) في المطبوع: (ومبارد وعباده) وهو تصحيف، والمثبت فهو على قراءة من قرأ ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾: (لنَحْرُقَنَّهُ) من حَرَقَه يَحْرُقه بضم الراء وكسرها، أي: بردَه. وهي قراءة أبي جعفر. انظر: تفسير الطبري (٣٦٥/١٨)، وتفسير القرطبي (٢٤٢/١١).

QaradawiBooks.com

ولو شاء تعالى لأبقى القمر على حالة واحدة، لا يتغيَّر، وجعل التغيير في الشمس، ولو شاء لغيَّرهما معًا، ولو شاء لأبقاهما على حالة واحدة، ولكن يُرِي عبادَه آياتِه في أنواع تصاريفِها؛ ليدلهم على أنَّه الله الَّذي لا إلٰه إلَّا هو، الملك الحقُّ المبين، الفعَّال لما يريد ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وأمَّا تأثير القمر في ترطيب أبدان الحيوان والنبات، وفي المياه، وجَزْر البحر ومدِّه، وبُحْرَانَات الأمراض(١)، وتنقُّلها من حال إلى حال، وغير ذلك من المنافع؛ فأمرٌ ظاهر.

وما إقسامه سبحانه بـ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ فلِمَا في أدبارِه وإقبالِ النهار من أبْين الدَّلَالات الظاهرة على المبدأ والمعاد، فإنه مبدأٌ ومَعادٌ يوميٌّ مشهودٌ بالعِيَان؛ بينما الحيوان في سكون الليل قد هدأت حركاتُهم، وسكنت أصواتهم، ونامت عيونهم، وصاروا إخوانَ الأمواتِ؛ إذ أقبل من النهار داعِيه، وأسمعَ الخلائقَ مناديه، فانتشرت منهم الحركاتُ، وارتفعت منهم الأصوات، حتَّى كأنَّهم قاموا أحياءً من القبور، يقول قائلهم: الحمد لله الَّذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور. فهو مَعَاد جديد، بدأه وأعاده الَّذي يُبدئ ويُعيد، فمن ذهب بالليل، وجاء بالنهار، سوى الواحدِ القهَّار؟!

فمن تأمَّل حال الليل إذا عَسْعَس وأدبر، والصبح إذا تنفَّس وأسفر، فهزم جيوش الظلام بنَفَسه، وأضاء أُفُق العالم بقَبَسِه، وفلَّ كتائب الكواكب بعساكره، وأضحك نواحي الأرض بتباشِيره وبشائره؟! فيا لهما آيتين شاهدتين بوحدانيَّة مُنشِئهما، وكمال ربوبيَّته، وعِظَم قدرته

(١) بحران المريض: هو التغير الذي يحدث للعليل فجأة في الأمراض الحمية الحادة، ويصحبه عرق غزير وانخفاض سريع في الحرارة. المعجم الوسيط مادة (ب. ح. ر). وكون القمر له تأثير في هذا الأمر يحتاج إلى دليل.

QaradawiBooks.com

وحكمته!! فتبارك الَّذي جعل طلوعَ الشـمس وغروبها مقيمًا لسـلطان الليل والنهار، فلـولا طلوعُها لبَطَل أمرُ العالم كلِّـه، فكيف كان النَّاس يسـعون في معاشـهم، ويتصرَّفون في أمورهم والدنيـا مظلمة عليهم؟ وكيف كانت تُهْنِيهم الحياة مع فقدِ لذَّة النور ورَوْحه؟ وأيُّ ثمارٍ ونباتٍ وحيوان كان يوجد؟ وكيف كانت تتمُّ مصالـحُ أبدانِ الحيوانِ والنباتِ؟ ولولا غروبُها لم يكن للناس هُدُوٌّ ولا قَرار، مع علم حاجتِهم إلى الهُدُوِّ؛ لراحةِ أبدانهم، وجُمُومِ حواسِّهم، فلولا جُثُوم هذا الليل عليهم بظلمته، ما هدؤوا، ولا قرُّوا، ولا سكنوا، بل جعله أحكمُ الحاكمين سَكَنًا ولِبَاسًا، كما جعل النهارَ ضياءً ومعاشًا.

ولولا الليلُ وبَرْدُه لاحترقت أبدانُ النبات والحيوان، من دوامِ شـروقِ الشـمسِ عليها، وكان يُحرَق ما عليها من نبات وحيوان، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن جعلها سراجًا يطلُع على العالم في وقت حاجتهم إليه، ويغيب في وقت استغنائهم عنه، فطلوعه لمصلحتهم، وغَيْبته لمصلحتهم.

وصار النُّور والظلمة على تَضادِّهما متعاونَيْن متضافرَيْن على مصلحة هذا العالَم وقِوَامه، فلو جعل الله سـبحانه النهار سرْمدًا إلى يوم القيامة، والليلَ سرْمدًا إلى يوم القيامة؛ لفاتت مصالح العالم، واشْتَدَّت الضرورة إلى تغيير ذلك وإزالته بضدِّه.

وتأمَّل حكمتَه سـبحانه في ارتفاع الشـمس وانخفاضها، لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السَّـنَة، وما في ذلك من مصالح الخلق، ففي الشـتاء تغور الحرارة في الشجر والنبات، فيتولَّد منها موادُّ الثمار، ويكثُف الهواء، فينشأ منه السَّحاب، وينعقد، فيحدُث المطر، الَّذي به حياة الأرض، ونَمَاء أبدان الحيوان والنبات، وحصول الأفعال والقوى وحركات الطبائع.

QaradawiBooks.com

وفي الصيف يحتدم[1] الهواء، فيُنضِج الثمار، وتشتدُّ الحبوب، ويجفُّ وجه الأرض، فيتهيَّأ العملُ.

وفي الخريف يصفو الهواء، وتبرُد الحرارة، ويمتدُّ الليل، وتستريح الأرض والشجر للحَمْل والنبات مرَّة ثانية، بمنزلة راحة الحامل بين الحَمْلين.

ففي هذه الأزمنة مبدأ ومَعاد مشهود، وشاهد بالمبدأ والمعاد الغَيْبِي.

والمقصود: أنَّ بحركة هذين النيِّرَيْن تتمُّ مصالح العالم، وبذلك يظهر الزمان، فإنَّ الزمان مقدار الحركة، فالسَّنَة الشمسيَّة مقدار سَيْر الشمس من نقطة الحَمَل إلى مثلها، والسنة القمريَّة مقدَّرة بسَيْرِ القمر، وهو أقرب إلى الضبط، واشترك النَّاس في العلم به، وقدَّر أحكم الحاكمين تنقُّلَهما في منازلهما؛ لما في ذلك من تمام الحكمة، ولُطف التدبير؛ فإنَّ الشمس لو كانت تَطْلُع وتغرُب في موضع واحد، لا تتعدَّاه، لما وصل ضوؤها وشعاعها إلى كثير من الجهات، فكان نفعُها يُفقد هناك، فجعل الله سبحانه طلوعَها دُوَلًا بين الأرض؛ لينال نفعُها وتأثيرها البقاعَ، فلا يبقى موضع من المواضع الَّتي يمكن أن تطلع عليها، إلَّا أخذ بقسطه من نفعها، واقتضى هذا التدبير المُحكَم أن وقع مقدار الليل والنهار على أربعة وعشرين ساعة، ويأخذ كلٌّ منهما من صاحبه، ومنتهى كلٍّ منهما إذا امتدَّ خمس عشرة ساعة، فلو زاد مقدار النهار على ذلك إلى خمسين ساعة مثلًا أو أكثر، لاختلَّ نظام العالم، وفسد أكثر الحيوان والنبات، ولو نقص مقداره عن ذلك لاختلَّ النظام أيضًا، وتعطَّلت المصالح، ولو استويا دائمًا لما

(١) في المطبوعة التي بين أيدينا: يخرم. ولا معنى لها في هذا السياق. والمثبت أليق بالسياق، والاحتدام: شدة الحر.

QaradawiBooks.com

اختلفت فصول السنة، الَّتي باختلافها مصالح العباد والحيوان، فكان في هذا التقدير والتدبير المحكم من الآيات والمصالح والمنافع ما يشهد بأن ذلك تقدير العزيز العليم، ولهذا يذكر سبحانه هذا التقدير، ويضيفه إلى عزته وعلمه؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۞ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧، ٣٨]. وقال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۞ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۞ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٢]. وقال تعالى ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]. فهذه ثلاثة مواضع يُذكر فيها أن تقدير حركات الشمس والقمر والأجرام العلوية، وما ينشأ عنها؛ كان من مقتضى عِزَّته وعِلْمه، وأنَّه قدَّره بهاتين الصِّفَتَيْن، وفي هذا تكذيبٌ لأعداء الله الملاحدة، الَّذين ينفُون قدرتَه واختياره وعلمه بالمغيَّبات.

وأقسم سبحانه بهذه الأشياء الثلاثة؛ وهي ﴿وَٱلْقَمَرِ ۝٣٢ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾؛ على المعاد، لما في القسم من الدلالة على ثبوت المُقسَم عليه؛ فإنَّه يتضمن كمال قدرته وحكمته، وعنايته بخلقه، وإبداء الخلق وإعادته، كما هو مشهود في إبداء النهار والليل وإعادتهما، وفي إبداء النور وإعادته في القمر، وفي إبداء الزمان وإعادته، الَّذي هو حاصل بسَيْر الشمس والقمر، وإبداء الحيوان والنبات وإعادتهما، وإبداء فصول السنَة وإعادتها، وإبداء ما يحدث في تلك الفصول وإعادته؛ فكل ذلك دليل ظاهر على المبدأ والمعاد، الَّذي أخبرَتْ به الرسل كلهم عنه،

QaradawiBooks.com

فصرف سبحانه الآيات الدالَّة على صدق رسله ونوَّعها، وجعلها للفِطَر تارةً، والسمع تارة، والمشاهدة تارة، فجعلها آفاقيَّة ونفسية، ومنقولة ومعقولة، ومشهودة بالعيان ومذكورة بالجنان، فأبى الظالمون إلَّا كفورًا، ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]»[1].

وقفة مع سيِّد قطب:

ونتبع كلام ابن القيِّم الرائع حول آيات الله في القمر والليل والصبح بما كتبه الشهيد سيِّد قطب رحمه الله تعالى في ظلال هذه الآيات: «﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾..

ومشاهد القمر، والليل حين يدبر، والصبح حين يسفر.. مشاهد موحية بذاتها، تقول للقلب البشري أشياء كثيرة وتهمس في أعماقه بأسرار كثيرة، وتستجيش في أغواره مشاعر كثيرة. والقرآن يلمس بهذه الإشارة السريعة مكامن هذه المشاعر والأسرار في القلوب الَّتي يخاطبها، على خبرة بمداخلها ودروبها!

وقلَّ أن يستيقظ قلب لمشهد القمر حين يطلع وحين يسري وحين يغيب.. ثمَّ لا يعي عن القمر شيئًا يهمس له به من أسرار هذا الوجود! وإن وقفة في نور القمر أحيانا لَتغسل القلب كما لو كان يستحم بالنور!

وقلَّ أن يستيقظ قلب لمشهد الليل عند إدباره، في تلك الهدأة الَّتي تسبق الشروق، وعند ما يبدأ هذا الوجود كله يفتح عينيه ويفيق.. ثمَّ لا ينطبع فيه أثر من هذا المشهد وتدبُّ في أعماقه خطرات رفافة شفافة.

(١) التبيان في أقسام القرآن صـ ١٦٣ ـ ١٧٣.

نسخة مجانية غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

وقلّ أن يستيقظ قلب لمشهد الصبح عند إسفاره وظهوره، ثمَّ لا تنبض فيه نابضة من إشراق وتفتُّح وانتقال شعوري من حال إلى حال، يجعله أشد ما يكون صلاحية لاستقبال النور الَّذي يشرق في الضمائر مع النور الَّذي يشرق في النواظر.

والله الَّذي خلق القلب البشري يعلم أن هذه المشاهد بذاتها تصنع فيه الأعاجيب في بعض الأحايين، وكأنها تخلقه من جديد.

ووراء هذه الانبعاثات والإشراقات والاستقبالات: ما في القمر، وما في الليل، وما في الصبح من حقيقة عجيبة هائلة، يوجِّه القرآن إليها المدارك، وينبه إليها العقول. ومن دلالة على القدرة المبدعة والحكمة المدبرة، والتنسيق الإلهي لهذا الكون، بتلك الدقة الَّتي يحير تصورها العقول.

ويقسم الله سبحانه بهذه الحقائق الكونية الكبيرة لتنبيه الغافلين لأقدارها العظيمة، ودلالاتها المثيرة. يقسم على أن «سَقَرَ» أو الجنود الَّتي عليها، أو الآخرة وما فيها، هي إحدى الأمور الكبيرة العجيبة المنذرة للبشر بما وراءهم من خطر ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾..

والقسم ذاته ومحتوياته، والمقسم عليه بهذه الصورة.. كلها مطارق تطرق قلوب البشر بعنف وشدة، وتتسق مع النقْر في الناقور، وما يتركه من صدى في الشعور. ومع مطلع السورة بالنداء الموقظ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ والأمر بالنذارة: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾.. فالجو كله نقر وطرق وخطر!!»[1].

(١) في ظلال القرآن (٦/٣٧٦٠، ٣٧٦١).

QaradawiBooks.com

الجزاء بالخير والشر مُرتَّبٌ على ما يعمله الإنسان من أسبابهما باختياره ومَحْض إرادته:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩ فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾

يؤكد القرآن في أول هذه الآيات: أنَّ كل إنسان مسؤول عن عمله الاختياري، خيرًا كان أم شرًّا، يَجْني ثوابَه، ويتحمَّل عقابه، لا يُحاسب على عمل غيره، ولا يحاسب غيره على عمله. والأصل في هذه المسؤوليَّة أنَّها فرديَّة، مبنيَّة على وجود العقل والإرادة، وأنَّ الله أعطاهما للإنسان، فهو حرٌّ بهما، وعليه أن يتحمَّل المسؤولية، لذا قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أي: مرتهَنة بكسبها، مأخوذة بعملها، إما أن يعتِقَها أو يُوبقها. والرهينة: اسم بمعنى الرهن، كالشتيمة بمعنى الشتم.

قال القاضي أبو محمَّد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره «المُحرَّر الوجيز»:

«هو بيانٌ في النِّذارة، وإعلام أن كلَّ أحد يسلك طريق الهدى والحق، إذا حقَّق النَّظر، أي هو بعينه يتأخَّر عن هذه الرتبة بغفلته، وسوء نظره، ثمَّ قوَّى هذا المعنى بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾، إذ ألزم بهذا القول أنَّ المقصِّر مُرتهَنٌ بسوء عمله.

وقال الضحَّاك: المعنى كل نفس حقَّت عليها كلمةُ العذاب، ولا يَرتَهِن تعالى أحدًا من أهل الجنَّة إن شاء الله.

والهاء في (رَهِينَةٌ) للمبالغة، أو على تأنيث اللفظ لا على معنى الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾، استثناء ظاهر الانفصال، وتقديره: لكن أصحاب اليمين؛ وذلك لأنَّهم لم يكتسبوا ما هم به مُرْتَهنون»[1].

---

(١) تفسير ابن عطية (٥/٣٩٨).

QaradawiBooks.com

وجاء عن أبي ظبيان، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أنَّهم المسلمون[١]. أي: كل المسلمين بمن فيهم المطيعون والعاصون.

وقيل: أصحاب الحق وأهل الإيمان. فهنا اختص أهل اليمين الَّذين ذكرهم القرآن بأهل الإيمان في أوائل سورة الأنفال والمؤمنون وغيرهما. أي: الَّذين شهدت لهم كتبهم بالصدق والصلاح.

وقيل: هم الَّذين يقبضون كتبهم بأيمانهم.

«وقال الحسن وابنُ كيسان: هم المسلمون المخلصون، وليسوا بمرتَهَنِين.

ثم ذكر تعالى حالَ أصحاب الْيَمِينِ، وأنَّهم ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ أي: هم في جنات لا يُكتنه وصفها ﴿يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يسأل بعضهم بعضًا عمَّن غاب عنهم من معارفهم، فإذا علموا أنَّ أصحاب اليمين في نعيم الجنات، والمجرمين في جحيم الدرَكات، قالوا لهم أو قالت الملائكة: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾[٢]؟

وسلك معناه: أدخل، ومنه قول أبي وَجْزَةَ السعدي:

حتى سَلَكْنَ الشَّوَى منهن في مَسَكٍ   من نَسْلِ جوَّابة الآفاقِ مِهْدَاجِ»[٣]

---

(١) تفسير القرطبي (٨٧/١٩).

(٢) قال الطيبي في بيان معنى التساؤل عن المجرمين في حاشيته على الكشاف (١٤٣/١٦): هو حكاية قول المسؤولين عنهم. يعني: لما سألوا أصحابهم عن أحوال المجرمين، أجابوا بأنا سألناهم عن أحوالهم، وقلنا لهم: ما سلككم في سقر؟ قالوا: لم نك من المصلين، وجيء بالكلام على الحذف.

(٣) تفسير ابن عطية (٣٩٨/٥).

QaradawiBooks.com

والمعنى: ما الَّذي نـزل بكم وأدخلكم هذه النَّار المستعرة؟ يسألونهم وهم عالمـون بحالهم، توبيخًا لهم وتحسـيرًا، ولتكون حكاية الله ذلك تذكرة للسامعين.

﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾

فأجابهم هؤلاء الَّذين اسـتحقُّوا عقاب الله تعالى بأسباب دخولهم في سقر بجواب مِلْؤُه الأسف والندم، وذكروا لذلك أربعة أسباب عدُّوها لهم:

السـبب الأول: ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾، أي: أنَّهم أضاعوا الحق الأول لله، وهو الصلاة.

السـبب الثاني: ﴿وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ﴾ ـ وهو الفقير الَّذي لا يجد ما يأكله ـ وضيَّعوا حق الفقراء.

السبب الثالث: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ﴾. الخوض: الشروع في الباطل وما لا ينبغي. أي: كنَّا نخوض فـي مَخاضات الإثم والمعاصي، ونتلبَّس في مُحرَّمـات المظالم في الأنفس والأمـوال والأعراض، مع الخائضين من الظالمين وقادة الشرِّ والضلال، دون خوف ولا وجل.

لقد فقدوا شخصيتهم، وسـاروا في ركاب أهل الباطل، وخاضوا مع الخائضين في الباطل، كأنَّما ليسـت لهم عقول يفكرون بها، أو ضمائر يرجعون إليها.

السـبب الرابع: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ كانوا يكذِّبـون بيوم الجزاء والحساب، فلا يؤمنون أن بعد الموت بعثًا، وأن بعد البعث حسابًا، وأن بعد الحساب جنَّة ونارًا.

QaradawiBooks.com

قال الإمام ابن عطيَّة عن هذا المقطع من السورة: «هذا هو اعتراف الكفَّار على أنفسهم.

وفي معنى الصلاة يدخل الإيمان بالله تعالى، والمعرفة به، والخشوع له والعبادة. والصلاة تنتظم مُعظَم الدين وأوامر الله تعالى، وواجبات العقائد.

وإطعام المساكين ينتظم الصدقة فرضًا وطواعية، وكل إجمال ندبت إليه الشريعة بقول أو فعل.

والخوض مَعَ الْخائِضِينَ عُرْفُه في الباطل. قال قتادة: المعنى كلما غوى غاوٍ غَوَوْا معه[1].

والتكذيب بِيَوْمِ الدِّينِ كفرٌ صُرَاح بالله تعالى»[2]؛ لأنَّ الإيمان بيوم الدين، أحد أركان الإيمان بكل الأديان.

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾

قال ابن عطيَّة: «واليقين معناه عندي: صحَّة ما كانوا يكذِّبون به من الرجوع إلى الله تعالى والدار الآخرة.

وقال المفسِّرون: (اليقين): الموت، وذلك عندي هنا متعقَّب؛ لأن نفس الموت يقين عند الكافر وهو حيٌّ، فإنما اليقين الَّذي عَنَوْا في هذه الآية الشيء الَّذي كانوا يكذِّبون به وهم أحياء في الدنيا، فتيقَّنُوه بعد الموت.

وإنَّما يُفسَّر اليقينُ بالموت في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. وفي حديث وفاة عثمان بن مظعون، حيث قال

(١) رواه الطبري في التفسير (٣٧/٢٤).
(٢) تفسير ابن عطية (٣٩٩/٥).

QaradawiBooks.com

رسـول الله: «**أمَّا هو فقد جـاءه اليقين، والله إنِّي لأرجو لـه الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعل بي**»(١).

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾

فمـا تنفع المكذِّبين بيوم الدين، شـفاعة الشـافعين مـن الملائكة والنبيِّين والشُّهداء والصَّالحين وجميع المؤمنين.

أخبر تعالى أنَّ شـفاعة الشَّـافِعِينَ لا تنفعهم، فتقرَّر من ذلك أنَّ ثَمَّ شافعين تنفع شفاعتهم، وأن هؤلاء المشـركين لا تنفعهم شفاعة شافع، وفي صحَّة هذا المعنى أحاديث:

قال ﷺ: «**تشـفع الملائكةُ، ثمَّ النبيُّون، ثمَّ العلماء، ثمَّ الشهداء، ثمَّ الصالحون، ثـمَّ يقول الله تعالى: شـفع عبـادي وبقِيَت شـفاعة أرحم الراحمين. فلا يبقى في النَّار من كان له إيمان**»(٢).

وروى الحسنُ أنَّ الله تعالى يُدخل الجنةَ بشفاعةِ رجلٍ من هذه الأمة مثلَ ربيعةَ ومُضَرَ(٣). وفي رواية أبي قِلَابة: أكثر من بني تميم(٤).

وقال الحسـن: كُنَّا نتحدثُ أنَّ الشـهيدَ يشفع في سـبعين من أهل بيته»(٥).

---

(١) رواه البخاري في التعبير (٧٠١٨)، عن أم العلاء الأنصارية.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٤٣٩)، ومسلم في الإيمان (١٨٣)، عن أبي سعيد الخدري.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في الفضائل (٣٣٠٠٩) مرسلًا. ورواه موصولًا الإمام أحمد (٢٢٢١٥)، وقال مخرِّجوه: صحيح بطرقه وشواهده. عن أبي أمامة الباهلي.

(٤) رواه مسدد في مسـنده كما في المطالب العالية لابن حجر (٤٥٨٧) مرسلًا. ورواه موصولًا الإمام أحمد (١٥٨٥٧)، وقال مخرِّجوه: إسناده صحيح. عن عبد الله بن أبي الجذعاء.

(٥) تفسير ابن عطية (٣٩٩/٥).

غير مرخصة للطباعة

QaradawiBooks.com

والشفاعة قضية كبيرة، فيها لأهل الإسلام كلام كثير مع أهل الشرك، وفيها لأهل السُّنَّة كلام كثير مع المعتزلة، فالأصل أنَّه تعالى هو خالق الخلق، ومالك الملك، يُعذِّب من يشاء، ويعفو عمَّن يشاء، ولكنَّه لا يُعذِّب إلَّا بعدل، ولا يعفو إلَّا بفضل. كما قال الناظم(1):

ومن يمت ولم يتب من ذنبه فأمره مفوَّض لربِّه
فإنْ يُثِبْه فبِمْحْض الفضل وإن يُعذِّبْ فبمَحْض العَدْلِ

ومن عدله أنَّه سبحانه لا يقبل الشفاعة لمن أشرك به، ولا يرضاها إلَّا لأهل توحيده.

ولا تقبل عنده الشفاعة إلَّا من بعد إذنه، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

ومن مات على الشِّرك بالله لا تنفعه شفاعة شافع، كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: ما للمشركين ﴿مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]. ولذا قال هنا: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾.

إعراض المشركين وفرارهم عن وسائل النجاة المعروضة عليهم:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾

قال صاحب «المحرَّر الوجيز»: «ثم قال ﷻ: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أي: والحال المنتظَرة هي هذه الموصوفة، وقوله تعالى في صفة الكفَّار المعرضِين في تولٍّ، واجتهاد في نفور: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾

(1) صاحب منظومة جوهرة التوحيد إبراهيم اللقَّاني المالكي، وقد كان شرحُها مقرَّرًا في المعاهد الثانوية بالأزهر، ونحن طلاب.

QaradawiBooks.com

إثباتٌ لجهالتهم؛ لأنَّ الحُمُر (جمع حمار، وهي الحمر الوحشيَّة) من جاهلِ الحيوان جدًّا.

قال الزمخشري: وفي تشبيههم بالحُمُر مذمّة ظاهرة، وتهجين لحالهم بيّن، كما في قوله تعالى ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، وشهادة عليهم بالبلَه وقلة العقل[1].

﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾

واختلف المفسرون في معنى القسورة، فقال ابن عبَّاس وأبو موسى الأشعري وقتادة وعكرمة: القَسْوَرَة: الرُّمَاة[2].

وقال ابن عبَّاس أيضًا وأبو هُرَيرة وجمهور من اللُّغويِّين: القَسوَرة: الأسد[3]. ومنه قول الشاعر:

مضمَّر تحذره الأبطالُ كأنه القسورةُ الرِّئْبَالُ»[4]

الكِبْر والحسد من أسباب الجحود:

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾

أيْ: يريد كل إنسان منهم، أن يُنزل عليه كتاب من الله تعالى يخصُّه، ويُكتَب باسمه. كما قال مجاهد: أرادوا أن ينزل على كل واحد منهم كتاب فيه: من الله ﷻ إلى فلان بن فلان[5]!

(١) تفسير الزمخشري (٤/٦٥٦).

(٢) رواه الطبري في التفسير (٢٤/٤٠).

(٣) قال الزمخشري: يقال: ليوث قساور، وهي فَعْوَلَة من القسْر، وهو القهر والغَلَبة، وفي وزنه (الحَيْدرة) من أسماء الأسد. الكشاف (٤/٦٥٦).

(٤) تفسير ابن عطية (٥/٣٩٩).

(٥) تفسير القرطبي (١٩/٩٠).

نسخة مجانية غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

قال ابن كثير: «يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل الله عليه كتابًا، كما أنزل على النبي محمد، كما قال مجاهد وغيره، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]»(١).

علَّة الكفَّار النفسيَّة أنَّهم لا يخافون عذاب الآخرة:

﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لهم عن تلك الإرادة، وردٌّ عليهم، وزجرهم عن اقتراح الآيات.

﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ فلذلك أعرضوا عن التذكرة لا لامتناع إيتاء الصحف.

أيْ: إنَّما أفسدهم عدم إيمانهم بالآخرة، وتكذيبهم لوقوعها، وكأنه تعالى قال: لا أعطيهم ما يتمنَّوْنَ؛ لأنَّهم لا يخافون الآخرة، اغترارًا بالدنيا.

وآفة هؤلاء القاتلة هي: حبُّهم للدنيا حُبًّا أنساهم آخرتَهم، وأنساهم ربَّهم، وأنساهم أنفسَهم، ولذلك أعرضوا عن التأمُّل، فإنه لما حصلت المعجزات الكثيرة، كَفَتْ في الدلالة على صحَّة النبوَّة، فطلب الزيادة يكون من باب التعنُّت.

القرآن تذكرة لمن أراد أن يذَّكَّر:

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾

ثم قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾: ردْع لهم عن إعراضهم عن التذكرة أنَّ القرآن عظة وعبرة بليغة كافية، وأي عظة؟ وأي عبرة؟!

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٧٤).

QaradawiBooks.com

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾. أيْ: جعله نُصْب عينيه، فإنَّ نفع ذلك راجعٌ إليـه. أيْ: ليس هناك مانع يمنع أحدًا أعطاه الله المشـيئةَ والإرادة، أن يتَّعظ وَيَتَذكَّر.

﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾

أيْ: ولا يقدرون على أن يتَّعظوا، ويذكروا إلَّا بمشيئة الله تعالى ذلك لهم، فمشيئة الإنسان من مشيئة الله تعالى، كما قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]. وليس المراد من هذه المشيئة القسر والإجبار لما يقول، فإنَّ المقسور والمُجبَر لا إرادة له، فلا إثم عليه. ولهذا رفع الإثم عن المُكْرَه على شيء، ولو كان الكفر، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

الله سبحانه حقيقٌ بأن يتقيَهُ عباده، وهو حقيقٌ بأن يغفر لهم:

﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾

أيْ: هو أهلٌ أن يَخاف منه من عصاه، وهـو أهلٌ أن يغفر لمن تاب إليه وأناب.

روى الإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ...﴾، فقال رسول الله ﷺ: «**يقول ربُّكم جلَّت قدْرتُه وعظمته: أنا أهلٌ أن أُتَّقى فلا يُجعَلَ معي إلٰه غيري، ومن اتَّقى أن يجعل معي إلهًا غيري، فأنا أغفر له**»[1].

(١) رواه أحمد (١٢٤٤٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في التفسير (٣٣٢٨)، وقال: هذا حسن غريب، وسهيل ليس بالقوي في الحديث، وقد تفرد سهيل بهذا الحديث عن ثابت. وابن ماجه في الزهد (٤٢٩٩)، والنسائي في الكبرى في التفسير (١١٥٦٦).

QaradawiBooks.com

وفي بعض التفسـير: هو أهـل المغفرة لمن تاب إليـه من الذنوب الكبائر، وأهل المغفرة أيضًـا للذنوب الصغار، باجتناب الذنوب الكبار، كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وقال محمَّد بن النضر الحارثي: أنا أهـل أن يتقيَني عبدي، فإن لم يفعل كنتُ أهلًا أن أغفر له وأرحمه، وأنا الغفور الرحيم(١).

وقال ابن عطيَّة في تفسـيره في هذه الآية: «معناه: أنَّ الله تعالى أهلٌ بصفاته العُلَى، ونعمه الَّتي لا تُحصى، ونقمه الَّتـي لا تُدفع؛ لأن يُتَّقى ويُطاع، ويُحذر عصيانه، وخلاف أمـره، وأنَّه بفضله وكرمه أهل أن يغفِر لعباده إذا اتَّقوه»(٢).

كلام قَيِّم لابن القيم:

يقول ابن القيِّم معلِّقًا على هذا المقطع الأخير من السورة: «ولما أقام الحُجَّة، وبيَّن المَحَجَّة؛ ارتهنَ كلَّ نفس بكسبها، وآخَذَها بذَنْبها، واستثنى من أولئك من قَبِل هُداه، واتَّبع رضاه، وهم أصحاب اليمين الَّذين آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين، وسلكوا غير سبيل المجرمين، الَّذين ليسوا من المُصلِّيـن، ولا من مُطْعِمي المسـكين، وهـم من أهـل الخَوْض مع الخائِضِين، المُكذِّبين بيوم الدين. فهذه أربع صفات أخرجتهم من زمرة المُفلِحين، وأدخلتهم في جُملة الهالكين:

الأولى: ترك الصلاة، وهي عمود الإخلاص للمعبود.

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/٢٢١).

(٢) تفسير ابن عطية (٥/٤٠٠).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الثانية: ترك إطعام المسكين، الَّذي هو من مراتب الإحسان للعبيد، فلا إخلاص للخالق[1]، ولا إحسان للمخلوق؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٦، ٧]. وقال: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤]. وهذا ضدُّ ما وصف به أصحاب اليمين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣]. وقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

وقرن سبحانه بين هذين الأصلين في غير موضع في كتابه، فأمر بهما تارة، وأثنى على فاعِلِيهما تارةً، وتوعَّد بالويل والعقاب تاركَهما تارة، فإنَّ مدار النجاة عليهما، ولا فلاح لمن أخلَّ بهما.

الصفة **الثالثة والرابعة**: الخوض الباطل، والتكذيب بالحق، فاجتمع لهم عدم الإخلاص والإحسان والخوض بالباطل والتكذيب بالحق، واجتمع لأصحاب اليمين الإخلاص والإحسان والتصديق بالحق والتكلم به، فاستقام إخلاصهم وإحسانهم ويقينهم وكلامهم، واستبدل أصحاب الشمال بالإخلاص شركًا، وبالإحسان إساءة وباليقين شكًّا وتكذيبًا، وبالكلام النافع خوضًا في الباطل، فلذلك لم تنفعهم شفاعة الشافِعين. أي: لم يكن لهم من شفيعٍ فيهم؛ لأنَّ الشفاعة تقع فيهم، ولا تنفع، وهذا لما أعرضوا عن التذكرة، ولم يرفعوا بها رأسًا، وجَفَلوا عن سماعها، كما تجفُل حُمُر الوحشِ من الأسدِ أو من الرُّمَاة.

ثم ختم السورة بأنَّه جمع فيها بين شرعه وقَدَره وإقامة الحُجَّة عليهم بإثبات المشيئة لهم، وبيان مقتضى التوحيد والربوبيَّة، وأن ذلك إليه

---

(١) في المطبوع: الخلق، وما أثبتناه هو ما يقتضيه السياق.

QaradawiBooks.com

لا إليهم، فالأول عدلُه، والثاني فضلُه، فالأول يوجب السَّــعيَ والطلبَ والحِرصَ على ما ينجيهم، كما يفعلون ذلك في مصالح دنياهم، بل أشد. والثاني: يوجب الاستعانة والتوكل والتفويض والرغبة إلى من ذلك بيده، ليُسَهِّلَ لهم، ويُوفِّقهم، والله المستعان، وعليه التُّكْلان»(١).

انتهى تفسير سورة المدَّثر، ولله الحمد والمنة.

* * *

نسخة مجانية
غير مخصصة للطباعة

(١) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم صـ ١٧٣، ١٧٤.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

تفسير سورة القيامة

ملامح حول السورة:

السورة مكيَّة بإجماع أهل التأويل وعلماء القرآن، وموضوعها يدلُّ عليها.

وآياتها في المصحف على قراءة حفص عن عاصم أربعون آية.

وأغراضها أغراض السُّـور المكيَّة الَّتي تُعنى بإثبات الأصول الدينية ـ ومنها التعبد والخُلُق ـ والعقائد الإسلامية، وخصوصًا ما يتعلق بالمبدأ والمعاد، وخصوصًـا يوم القيامة، وما جاء من الإقسـام بـه، وبالنفس اللوَّامة، وإن كان في صورة النفي، وإثبات الجزاء على ما عمله الإنسان في الدنيا، فهو سـيُجازى به ثوابًـا ـ وأعظمه رؤية الله فـي الآخرة ـ أو عقابًا، خصوصًـا لتلك الوجوه الباسـرة الَّتي تظن أن يُفعـل بها فاقرة، وسيختلف النَّاس باختلاف أعمالهم وأحوالهم.

كما ذكرت السـورةُ ما للآخرة من مقدِّمات، هي: الموت، ومراتب النَّاس واختلاف النَّاس في لقائه، ﴿**كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ**﴾ ورؤيـة الله فـي الآخرة، وتغير الوجوه بعد ذلك إلى وجوه ناضرة ووجوه باسرة.

والتذكير بالآخرة لمن عاش الدنيا وأنكر آخرته، ﴿**فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ**﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢].

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

والتأكيد بأن الإنسان لن يترك سُدًى، لا يُؤمر ولا يُنهى، فليس ذلك بلائق بحياة الإنسان المكرَّم، الَّذي خلقه الله للخلود.

بداية تفسير السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾

القسم المنفي في القرآن:

بدأ الله تبارك وتعالى هذه السورة بالقسم في صورة النفي، بالنسبة للأمرين الَّذين ذكرهما، وبدأ بهما السورة، وهما: يوم القيامة، والنفس اللوامة. فهو يبدأ كل جملة منهما بحرف (لا) النافية: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ وهذا التركيب في العربية لا شك أنَّه للنفي، لا للإثبات، ولكن هذا في الظاهر، أمَّا في الحقيقة، فهو يدل على أن هذا النفي الظاهر إنَّما هو في النهاية للإثبات، كأنَّه يقول لنا ـ أيْ: للناس المخاطَبين ـ: لا أقسم بيوم القيامة، ولا أقسم بالنفس اللوامة؛ لأنَّ القضية الَّتي أقسم على إثباتها وتحقيقها أصْرَح وأوضح وأثبت من أن تحتاج إلى قسم.

وهذا ينطبق على كل ما جاء في القرآن العظيم بالقسم المنفي، كما في قوله تعالى في الجزء السابع والعشرين: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٧٩]. وما جاء في هذا الجزء نفسه (التاسع والعشرين)

QaradawiBooks.com

في سورة الحاقَّة: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۞ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۞ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۞ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۞ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۞ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٤٣]. وفي سورة البلد من جزء (عمَّ) في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۞ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۞ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد: ١ ـ ٣].

وقال العلَّامة ابن كثير في تفسير أوائل السورة: «قد تقدَّم غيرَ مرَّة أنَّ المُقْسَم عليه إذا كان منتفِيًا؛ جاز الإتيان بـ(لا) قبل القَسَم لتأكيد النفي. والمُقسَم عليه هاهنا هو إثبات الميعاد، والرد على ما يزعمه الجَهَلة من العباد من عدم بعث الأجساد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾. قال الحسن: أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة. وقال قتادة: بل أقسم بهما جميعا.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والصحيح أنَّه أقسم بهما جميعًا كما قاله قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو المروِيُّ عن ابن عبَّاس، وسعيد بن جبير، واختاره ابن جرير[1].

النفس اللوامة:

فأمَّا يومُ القيامة فمعروفٌ، وأمَّا النفس اللوَّامة؛ فقال قرَّة بن خالد، عن الحسن البصري في هذه الآية: إنَّ المؤمنَ ـ والله ـ ما نراه إلَّا يلوم نفسه: ما أردتُ بكلمتي؟ ما أردتُ بأكلتي؟ ما أردتُ بحديثِ نفسي؟ وإنَّ الفاجر يمضي قُدُمًا ما يعاتب نفسَه.

وقال جويبر: بلغنا عن الحسن أنَّه قال في قوله: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ قال: ليس أحد من أهل السماوات والأرض إلَّا يلوم نفسه يوم القيامة.

---

(١) روى هذه الآثار ابن جرير في التفسير (٢٤/٤٨، ٤٩).

QaradawiBooks.com

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح بن مسلم، عن إسرائيل، عن سِمَاك: أنَّه سأل عكرمة عن قوله: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ قال: يلوم على الخير والشر؛ لو فعلتُ كذا وكذا.

ورواه ابن جرير، عن أبي كريب، عن وكيع عن إسرائيل به.

وذكر ابن جرير الطبري عدَّة أقوال ثمَّ قال: والأشبه بظاهر التنزيل: أنَّها الَّتي تلوم صاحبها على الخير والشر، وتندم على ما فات[1]»[2].

قال الأستاذ الشهيد سيِّد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ: «ونحن نختار في معنى ﴿بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ قول الحسن البصري: إنَّ المؤمن والله ما تراه إلَّا يلوم نفسه: ما أردت بكلمتي؟ ما أردت بأكلتي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ وإنَّ الفاجر يمضي قُدُمًا ما يعاتب نفسه.

فهذه النفس اللَّوامة المتيقظة التقيَّة الخائفة المتوجسة الَّتي تحاسب نفسها، وتتلفت حولها، وتتبين حقيقة هواها، وتحذر خداع ذاتها هي النفس الكريمة على الله، حتَّى ليذكرها مع القيامة. ثمَّ هي الصورة المقابلة للنفس الفاجرة. نفس الإنسان الَّذي يريد أن يفجر ويمضي قُدُمًا في الفجور، والذي يكذب ويتولى ويذهب إلى أهله يتمطَّى دون حساب لنفسه ودون تلوُّم ولا تحرج ولا مبالاة!»[3].

أسماء يوم القيامة في القرآن:

اسم (يوم القيامة) هو أشهر أسماء هذا اليوم، الَّذي يقوم النَّاس فيه لنداء ربِّ العالمين؛ للحساب والميزان ولقاء الأهوال، كما قال تعالى:

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٢٤/٥٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/٢٧٥، ٢٧٦).

(٣) في ظلال القرآن (٣/٣٧٦٨).

QaradawiBooks.com

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]. ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۞ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٧، ٨]. ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۞ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤، ٦].

وهو **يوم البعث** حيث يبعث الله النَّاس فيه بعد موتهم، كما يُحيي الأرض بعد موتها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧]. وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦].

وهو **يوم تقوم الساعة**، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥].

وهو **اليوم الموعود**، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۞ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ [البروج: ١، ٢].

وهو **يوم الفتح**، كما في القرآن: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [السجدة: ٢٨، ٢٩].

وهو **يوم الخلود**، كما قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤].

وهو **يوم الوعيد**، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٠].

وهو **يوم التلاقي**، حيث يتلاقى فيه المؤمنون والكافرون، والبغاة والمبغِيّ عليهم، عند ربهم يختصمون، كما قال تعالى في سورة غافر:

QaradawiBooks.com

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٥، ١٦].

وهو **يوم الآزفة**، كما قال تعالى في سورة غافر: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وهو **يوم التغابُن ويوم الجمع**، قال تعالى في السورة الَّتي سميت بهذا الاسم نفسه (التغابن): ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

وهو **يوم يقوم الأشهاد**، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وهو **يوم الوقت المعلوم**، كما قال تعالى لإبليس: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٧، ٣٨].

وهو **يوم الدِّين**، كما في سورة الفاتحة: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] كما في قراءة عاصم، و﴿مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ في قراءة نافع وغيره. وفي سورة الانفطار: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧ ـ ١٩].

وهو **يوم الحساب**، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وهو **يوم الخروج**؛ الخروج من الأجداث، كما يقول تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤١، ٤٢].

QaradawiBooks.com

وهو **يوم التنادي**، حيث ينادي أهلُ الجنَّة أهلَ النار، وينادي أهلُ النَّار أهلَ الجنة. كما قال مؤمن آل فرعون لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ۝ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣].

وهو **يوم الفصل**، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ۝ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ۝ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ [المرسلات: ١١ ـ ١٤].

وهو **الطامَّة الكُبرى**، كما قال تعالى في سورة النازعات: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٤ ـ ٣٦].

وهو **الصاخَّة**، كما قال في سورة عبس: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ [عبس: ٣٣ ـ ٣٧].

وهو **الحاقَّة**، الَّتي تحِقُّ على الإنسان، ولا يستطيع أن يدفعها أو يتخلص منها. وهذه الألفاظ بضخامتها وصيغتها وقراءتها، من الطامَّة والصاخَّة والحاقَّة، بإيقاعها وتركيبها؛ لها تأثيرها في الأنفس والقلوب، وهو ما يحسُّه كل إنسان ذي روح ومشاعر.

ويؤيِّد ما اخترناه في معنى (لا) في قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ ما ذكره الإمام الرازي في تفسيره احتمالًا ثانيًا، ووكَّده، وانتصر له، حيث يقول: «الاحتمال الثاني: أن (لا) هاهنا لنفي القسم، كأنَّه قال: لا أقسم عليكم بذلك اليوم، وتلك النفس، ولكنِّي أسألك غير مقسم: أتحسب أنَّا لا نجمع عظامك إذا تفرقت بالموت؟ فإن كنت تحسب ذلك، فاعلم أنا قادرون على أن نفعل ذلك.

وهذا القول اختيار أبي مسلم، وهو الأصح.

QaradawiBooks.com

ويمكن تقدير هذا القول على وجوه أُخر: أحدها: كأنَّه تعالى يقول: لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب؛ فإن هذا المطلوب أعظم وأجلُّ من أن يقسم عليه بهذه الأشياء، ويكون الغرض من هذا الكلام تعظيم المقْسَم عليه، وتفخيم شأنه.

وثانيها: كأنَّه تعالى يقول: لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب، فإن إثباته أظهر وأجلى، وأقوى وأحرى، من أن يحاول إثباته بمثل هذا القسم.

ثم قال بعده: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]. أي: كيف خطر بباله هذا الخاطر الفاسد مع ظهور فساده؟»(١).

معنى النفس اللوامة:

ثم قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا معنى النفس اللوَّامة وعلاقتها بيوم القيامة: «ذكروا في النفس اللوَّامة وجوهًا:

أحدها: قال ابن عبَّاس: كل نفس؛ فإنَّها تلوم نفسها يوم القيامة سواء كانت بَرَّة أو فاجرة، أمَّا البَرَّة، فلأجل أنَّها لم تزد على طاعتها، وأمَّا الفاجرة، فلأجل أنَّها لِمَ لم تشتغل بالتقوى؟

وثانيها: أنَّ النفس اللوَّامة هي النفوس المُتَّقِية، الَّتي تلوم النفسَ العاصية يوم القيامة بسبب أنَّها تركت التقوى.

ثالثها: أنَّها هي النفوس الشريفة الَّتي لا تزال تلوم نفسها، وإن اجتهدت في الطاعة.

---

(١) تفسير الرازي (٣٠/٧٢٠).

QaradawiBooks.com

وعن الحسن: أنَّ المؤمنَ لا تراه إلَّا لائمًا نفسَه، وأمَّا الجاهل؛ فإنه يكون راضيًا بما هو فيه من الأحوال الخسيسة.

ورابعها: أنَّها نفس آدم لم تزل تلوم على فعلها الَّذي خرجت به من الجَنَّة».

أقول (القرضاوي): هذا القول مضى على أنَّ (أل) التعريف في (النفس) في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ للعهد، مع أن نفس آدم لم تذكر هنا.

«**وخامسها**: المراد نفوس الأشقياء حين شاهدت أحوال القيامة وأهوالها، فإنَّها تلوم نفسها على ما صدر عنها من المعاصي، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

وسادسها: أنَّ الإنسان خلق ملُولًا، فأيُّ شيء طلبه إذا وجده ملَّه، فحينئذ يلوم نفسه على أنّي لِمَ طَلَبْتُه؟ فلكثرة هذا العمل سُمِّي بالنفس اللوَّامة، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢١].

واعلم أنَّ قوله: (لوَّامة) ينبئ عن التكرار والإعادة، وكذا القول في لوَّام وعذَّاب وضرَّار»(١).

(أي: إنَّ (لوَّامة) صيغة مبالغة من لائمة، أي: كثيرة اللوم).

ثم بيَّن الرازي المناسبة بين القيامة والنفس اللوامة فقال: «اعلم أن في الآية إشكالات:

(١) تفسير الرازي (٣٠/٧٢٠، ٧٢١).

QaradawiBooks.com

أحدها: ما المناسبة بين القيامة وبين النفس اللوَّامة، حتَّى جمع الله بينَهما في القسم؟

وثانيها: المقسَم عليه، هو وقوع القيامة، فيصير حاصله أنَّه تعالى أقسم بوقوع القيامة.

وثالثها: لِمَ قال: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ ولم يقل: والقيامة. كما قال في سائر السور، ﴿وَٱلطُّورِ﴾ ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾؟

والجواب عن الأول من وجوه:

أحدها: أنَّ أحوال القيامة عجيبة جدًّا، ثمَّ المقصود من إقامة القيامة إظهار أحوال النفوس اللوَّامة، أعني: سعادتَها وشقاوتها، فقد حصل بين القيامة والنفوس اللوَّامة هذه المناسبة الشديدة.

وثانيها: أنَّ القسم بالنفس اللوَّامة تنبيه على عجائب أحوال النفس.

ومن أحوالها العجيبة، قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقوله: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وقال قائلون: القسم وقع بالنفس اللوَّامة على معنى التعظيم لها من حيث إنَّها أبدًا تستحقر فعلها وجدَّها واجتهادَها في طاعة الله...

وأمَّا **السؤال الثاني**: فالجواب عنه ما ذكرنا، أنَّ المحقِّقين قالوا: القسم بهذه الأشياء قسم بربها وخالقها في الحقيقة، فكأنه قيل: أقسم بربِّ القيامة على وقوع يوم القيامة.

QaradawiBooks.com

وأمَّا **السؤال الثالث**: فجوابه أنَّه حيث أقسم قال: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ [الطور: ١]، ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ [الذاريات: ١]. وأمَّا هاهنا فإنه نفى كونه تعالى مقسِمًا بهذه الأشياء، فزال السؤال والله تعالى أعلم»[1].

وأقول (القائل القرضاوي): قال الإمام الرازي: قال تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾. ولم يقل: (والقيامة)، كما قال في سائر السور: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾. ونقول أيضًا: أقسم الله بمواقع النجوم فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]. وأقسم بالليل ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١، ٢]، وقال أيضًا: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ [الشمس: ٣، ٤]. فهناك تنوع في القسم، كما في قوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ [التين: ١ ـ ٣]. فكل هذا لا حرج فيه، ولا كلام فيه.

كلام الإمام ابن القيم:

وقال الإمام ابن قيم الجوزية عليه رحمة الله في كتابه (التبيان في أقسام القرآن): «قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ قد تضمَّن الإقسامُ ثبوتَ الجزاء، ومستحَقَّ الجزاء، وذلك يتضمَّن إثباتَ الرسالة والقرآن والمعاد.

وهو سبحانه يقسم على هذه الأمور الثلاثة ويقررها أبلغ التقرير؛ لحاجة النفوس إلى معرفتها والإيمان بها، وأمر رسوله أن يقسم عليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ [سبأ: ٣].

(١) تفسير الرازي (٣٠/٧٢١).

QaradawiBooks.com

وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧]. فهذه ثلاثة مواضع لا رابع لها، يأمر نبيَّه أن يقسم على ما أقسم عليه هو سبحانه من النبوة والقرآن والمعاد.

فأقسم سبحانه لعباده، وأمر أصدقَ خلقِه أن يُقسم لهم، وأقام البراهين القطعيَّة على ثبوت ما أقسم عليه، فأبى الظالمون إلَّا جحودًا وتكذيبًا.

رأي ابن القيِّم في المراد بالنفس اللوامة:

واختُلف في النفس المُقسَم بها هاهنا: هل هي خاصَّة أو عامَّة؟ على قولين، بناء على الأقوال الثلاثة في اللوَّامة، فقال ابن عبَّاس: كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة، يلوم المحسنُ نفسه أن لا يكون ازداد إحسانًا، ويلوم المسيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته. واختاره الفرَّاء، قال: ليس من نفس بَرَّة ولا فاجرة إلَّا وهي تلوم نفسها؛ إن كانت عملت خيرًا قالت: هلَّا ازددتِ خيرًا. وإن كانت عملت سوءًا قالت: يا ليتني لم أفعل[١].

والقول الثاني: أنَّها خاصَّة. قال الحسن: هي النفس المؤمنة، وإنَّ المؤمن ـ واللهِ ـ لا تراه إلَّا يلوم نفسه على كل حالة؛ لأنَّه يستقصرها في كل ما تفعل، فيندم ويلوم نفسه، وإنَّ الفاجر يمضي قُدُمًا لا يعاتب نفسه.

والقول الثالث: أنَّها النفس الكافرة وحدها. قاله قتادة ومقاتل، وهي النفس الكافرة تلوم نفسها في الآخرة على ما فرَّطَت في أمر الله.

قال شيخُنا (يعني: ابن تيمية): والأظهر أنَّ المراد نفسُ الإنسان مطلقًا، فإن نفس كل إنسان لوَّامة، كما أقسم بجنس النفس في قوله: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨]؛ فإنَّه لا بدَّ لكل إنسان أن

(١) معاني القرآن (٢٠٨/٣).

QaradawiBooks.com

يلوم نفسه أو غيره على أمره، ثمَّ هذا اللوم قد يكون محمودًا، وقد يكون مذمومًا، كما قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ [القلم: ٣٠، ٣١]. وقال تعالى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]. فهذا اللَّوْم غير محمود، وفي الصحيحين في قصَّة احتجاج آدم وموسى: «**أتلومني على أمرٍ قدَّره اللهُ عليَّ قبل أن أُخلَق. فحجَّ آدمُ موسى**»(١).

فهو سبحانه يُقسم على صفة النَّفس اللوَّامة، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]. (وهنا أقسم بالعاديات ضبحا وما بعدها). وعلى جزائها كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]. وعلى تباين عملها، كقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤].

وكلُّ نفس لوَّامة، فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشرِّ وترك الخير، فتبادر إلى التوبة، والنفس الشقية بالضدِّ من ذلك.

وجمع سبحانه في القَسَم بين محَلِّ الجزاء، وهو يوم القيامة، ومحلِّ الكسبِ، وهو النفس اللوَّامة، ونبَّه سبحانه بكونها لوَّامة، على شدَّة حاجتها وفاقتها وضرورتها إلى مَن يُعرِّفها الخير والشرَّ، ويدلُّها عليه، ويُرشدها إليه، ويُلهمها إيَّاه، فيجعلها مُريدةً للخير، مُرْشَدة له، كارهةً للشرِّ، مُجانبةً له، لتخلُص من اللوم، ومن شَرِّ ما تَلَوَّمُ عليه، ولأنها متلوِّمة متردِّدة، لا تثبت على حال واحدة، فهي محتاجة إلى من يُعرِّفها ما هو أنفع لها في معاشها ومعادها، فتؤثره، وتَلُوم نفسَها عليه إذا فاتها، فتتوب منه إن كانت سعيدة، ولتقومَ عليها حجةُ عدلِه، فيكون لومُها في القيامة لنفسها عليه لومًا بحقٍّ، قد أعذر اللهُ خالقُها وفاطرها إليها فيه.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢)، كلاهما في القدر، عن أبي هريرة.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ففي صفة اللوم تنبيه على ضرورتها (أي: احتياجها) إلى التصديق بالرسالة والقرآن، وأنَّها لا غنى لها عن ذلك، ولا صلاح ولا فلاح بدونه البتة.

ولمَّا كان يوم معادِها هو محل ظهور هذا اللوم، وترتَّب أثره عليه قرن بينهما في الذكر»[1].

مراحل النَّفس الإنسانيَّة في الترقي:

وعلماء السلوك أو التصوف يعتبرون (النفس اللوامة) هي المرحلة المتوسطة من مراحل تطور النفس الإنسانيَّة وترقِّيها.

وذلك أن مرحلتها الأولى وهي الأساس فيها، الَّتي سمَّاها القرآن على لسان امرأة العزيز في سورة يوسف (الأمَّارة بالسوء)، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٣].

والمرحلة الثانية أو الوسطى: مرحلة (النفس اللوامة)، الَّتي ذُكِرت هنا في سورة القيامة.

والمرحلة الثالثة، وهي العليا: (النفس المطمئنة) الراضية المرضية، وهي الَّتي تحدثت عنها سورة الفجر. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۞ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۞ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۞ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

(١) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم صـ ١٤ ـ ١٨.

QaradawiBooks.com

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه:

وعلى كُلِّ وجهٍ، فالمناسبة بين المُقْسَم به والمُقْسَم عليه ـ وهو الحشر والحساب ـ هي أنَّه سبحانه يحذِّر من لَوْمها لصاحبها يوم القيامة على إنكار البعث والنشور. والمُقْسَم عليه محذوف، أقام الجملةَ الآتية مقامَه، على نهج القرآن في مثله. والتقدير: أنَّ البعث واقعٌ، والمُنكِر له سيلوم نفسَه إذ ذاك.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾

قال العلَّامة ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ أيْ: يومَ القيامة، أيظنُّ أنَّا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرِّقة؟ ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾.

وقال سعيد بن جبير والعَوْفي عن ابن عبَّاس: أن نجعله خُفًّا أو حافِرًا. وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحَّاك وابن جرير[(١)].

ووجَّهَه ابن جرير بأنَّه تعالى لو شاء لجعل ذلك في الدنيا، والظاهر من الآية أن قوله تعالى: ﴿قَٰدِرِينَ﴾ حال من قوله تعالى: ﴿نَّجْمَعَ﴾، أي: أيظُنَّ الإنسان أنَّا لا نجمع عظامه؟ بلى سنجمعها قادرين على أن نُسوِّيَ بنانه، أي: قدرتُنا صالحة لجمعها، ولو شِئْنا لبعثناه أزيد ممَّا كان، فنجعل بنانه ـ وهي أطراف أصابعه ـ مستوية. وهذا معنى قول ابن قُتَيْبة[(٢)] والزجَّاج[(٣)]»[(٤)].

(١) روى هذه الآثار ابن جرير في التفسير (٥١/٢٤).
(٢) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة صـ ٢٠٦، ٢٠٧.
(٣) معاني القرآن للزجاج (٢٥١/٥).
(٤) تفسير ابن كثير (٢٧٦/٨).

QaradawiBooks.com

قال ابن عطيَّة في «المُحَرَّر الوجيز»: «ثم قال تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ وهي: إيجاب ما نُفِي، وبابها أن تأتي بعد النفي، والمعنى: بل نجمعها قادرين. فنصب (قَادِرِينَ) على الحال..

وقال القُتَبي[1]: ﴿نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ معناه: نتقنها سَوِيَّة. والبنان: الأصابع. وكأن الكفَّار لما استَبْعدوا جمعَ العظام بعد الفناء والإرمام، قيل لهم: إنَّما تُجمع ويُسوَّى أكثرُها تفرُّقًا، وأدقُّها أجزاءً، وهي عظام الأنامل ومفاصلها، وهذا كله عند البعث»[2].

وهذا الكلام أحرى مع رصف الكلام، وإن كان على القول الآخر جمهور المُفسِّرين.

كلام ابن القيِّم في تفسير هذه الآية: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾:

قال ابن القيِّم في تفسير هذه الآية: «ثم أنكر على الإنسان بعد هذه الآية حِسْبَانَه وظَنَّه أنَّ الله لا يجمع عظامه بعدما فرَّقها البِلَى، ثمَّ أخبر سبحانه عن قدرته على جمع غيرها من عظامه.

وعلى هذا فيكون سبحانه قد احتجَّ على فعله لِمَا أنكره أعداؤه بقدرته عليه، وأخبر عن فعله بأنَّه لا يلزمهم من القدرة وقوع المقدور، والمعنى: بل نجمعها قادرين على تسوية بنانه.

ودلَّ على هذا المعنى المحذوف قوله: ﴿بَلَىٰ﴾، فإنَّها حرف إيجاب لِمَا تقدَّم من النفي، فلهذا يستغنى عن ذكر الفعل بذكر الحرف الدالِّ عليه، فدلَّت الآية على الفعل، وذكرت القدرة لإبطال قول المكذِّبين.

(١) أي ابن قتيبة، وتقدم توثيق كلامه في تأويل مشكل القرآن.

(٢) تفسير ابن عطية (٥/٤٠٢).

QaradawiBooks.com

وفي ذكر البنان لطيفة أخرى، وهي: أنَّها أطرافه، وآخر ما يتمُّ به خلقه، فمن قَدَر على جمع أطرافه وآخر ما يتمُّ به خلقه، مع دِقَّتها وصغرها ولطافتها؛ فهو على ما دون ذلك أقدر، فالقوم لمَّا استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والإرمام، قيل: إنا نجمع ونسوِّي أكثرها تفرُّقًا وأدقَّها أجزاء، وآخر أطراف البدن، وهي عظام الأنامل ومفاصلها.

وقالت طائفة: المعنى نحن قادرون على أن نسوِّي أصابعَ يديه ورجليه، ونجعلها مستوية شيئًا واحدًا، كخُفِّ البعير، وحافر الحمار، لا نفرِّق بينهما، ولا يمكنه أن يعمل بها شيئًا ممَّا يعمل بأصابعه المفرَّقة ذات المفاصل والأنامل، من فنون الأعمال، والبسط والقبض، والتأتِّي لما يريد من الحوائج، وهذا قول ابن عبَّاس وكثير من المفسِّرين.

والمعنى على هذا القول: أنَّا في الدنيا قادرون على أن نجعل عظام بنانه مجموعة دون تفرُّق، فكيف لا نقدر على جمعها بعد تفريقها؟!

فهذا وجهٌ من الاستدلال غيرُ الأوَّل، وهو الاستدلال بقدرته سبحانه على جمع العظام الَّتي فرَّقها ولم يجمعها، والأول: استدلال بقدرته سبحانه على جمع عظامه بعد تفريقها.

وهما وجهان حَسنان، وكلٌّ منهما له ترجيح من وجه، فيرجح الأول أنَّه هو المقصود، وهو الَّذي أنكره الكفَّار، وهو إجراء على نَسَق الكلام واطِّراده؛ ولأنَّ الكلام لم يُسَق لجمع العظام وتفريقها في الدنيا، وإنَّما سيق لجمعها في الآخرة بعد تفرُّقها بالموت.

ويُرجِّح القولَ الثانيَ ـ ولعله قول جمهور المفسِّرين، حتَّى إن فيهم من لم يذكر غيره ـ وأنَّه استدلال بآية ظاهرة مشهورة، وهي تفريق البنان مع انتظامها في كفٍّ واحد، وارتباط بعضها ببعض، فهي متفرقة في عضو

QaradawiBooks.com

واحد، يقبض منها واحدة، ويبسط أخرى، ويُحرِّك واحدة، والأخرى ساكنة، ويعمل بواحدة، والأخرى مُعطَّلة. وكلُّها في كفٍّ واحد، قد جمعها ساعد واحد، فلو شاء سبحانه لسوَّاها فجعلها صفة واحدة كباطن الكفِّ، ففاته هذه المنافعُ والمصالح الَّتي حصلت بتفريقها، ففي هذا أعظم الأدلَّة على قدرته سبحانه على جمع عظامه بعد الموت»(١).

التفسير العلمي لتسوية البنان:

ولم يستطع المفسِّرون القُدامى للقرآن حتَّى أوائل القرن العشرين، أن يدركوا السر في تخصيص القرآن (تسوية البنان) بالحديث عنه دون غيره، عندما تحدث عن البعث وعن القيامة.

لقد قرأت كثيرًا ما قاله المفسِّرون الكبار، القدامى والمُحدَثُون، من أهل الرواية، ومن أهل الدِّرَاية، فلم أجدهم وَفَّوْا الموضوعَ حقَّه؛ لأنَّه لم يكن في أيديهم، ولكن كان في أيدي علماء الطبيعة والأحياء، الَّذين علَّمهم الله ما لم يعلِّم غيرهم من العلماء، وعرفوا خصائص هذا البنان (طرف الإصبع)، وما فيه من تقاسيم، ومن مضامين بليغة، غاية في الدِّقَّة والإحكام، يُسمُّونها (البصمة)، تختلف ما بين إصبع كل شخص وآخر، بحيث لا يمكن أن يتَّفِق اثنان في إصبع واحدة على شكل واحد أبدًا، وهو ما جرَّبوه بالتصوير في شتَّى البلدان، وشتَّى الأزمان، وشتَّى الأشخاص، من رجال ونساء، ومن كبار وصغار، فلم يجدوا قطُّ إلى اليوم إصبعين اشتبهت إحداهما بالأخرى.

ولهذا اعتمدت جميع دول العالم المعاصر البصمة في إثبات الشخصيَّة، والاهتداء إلى الجناة والمجرمين في الوقائع المعينة، لدقتها البالغة وتميُّزها.

(١) التبيان في أقسام القرآن صـ ١٤٧ ـ ١٤٩.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وهذا من صُنع الله الَّذي أتقن كل شيء، والذي أحسن كل شيء خلقه. فرغم أنَّ العالم اليوم فيه ما يقارب ثمانية مليارات من البشر، لا توجد فيها بصمتان متشابهتان تمامًا.

نماذج من بصمات اليد

والتحدِّي الإلهي في هذه السورة (القيامة) أنَّ الله تبارك وتعالى يعيد إحياء هذه البنانات ـ أي: أطراف الأصابع ـ على ما فيها من اللَّطافة والدِّقَّة والتمايز والخصوصيَّة الباهرة؛ كما كانت في الدنيا، بلا زيادة ولا نقصان، ولا تغيير ولا تبديل، ولا يقدر على ذلك إلَّا الخالق الأوَّل، الَّذي لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [ق: ١٥]. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

وننقل هنا من كلام الأستاذ الدكتور زغلول النجار، العالم الكبير في علوم الأرض وغيرها من العلوم الطبيعية ما يحكي في هذه القضية، يقول: «ومن أعظم الدلالات على طلاقة القدرة الإلهيَّة المبدعة على بعْث الأموات من رُفاتهم المتحلِّلَة، هو خلقهم الأول من خليَّتَيْن مُتناهِيَتَيِ الضآلة في الحجم، لتُعطيا هذا الجسد المكوَّن من تريليونات الخلايا المتخصصة، في أنسجة وأعضاء متخصصة، تعمل في توافق تامٍّ

QaradawiBooks.com

لخدمة هذا الجسد البشري، الَّذي أعطى الخالق سبحانه وتعالى لكل واحد من بلايينه عبر الزمن عددًا من المميزات الفردية الَّتي منها بصمة البَنان.

و﴿بَلَىٰ﴾ في الآية الكريمة الرابعة من سورة القيامة هي حرف ردّ للنفي الَّذي جاء في الآية السابقة ﴿أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ وإلغاء له، وهو جواب للتحقيق يوجب ما جاء في تلك الآية السابقة، بمعنى: أنَّ الله تعالى قادر على جمع العظام بعد تحلُّلِها، بل هو سبحانه وتعالى قادر على ما هو فوق ذلك، ألا وهو إعادة تسوية بنان الميِّت عند بعثه، بتفاصيل بصمته الَّتي ميَّزته طيلةَ حياته عن غيره من بني جنسه، والَّتي تمثل الخاتَم الَّذي خُتِم به بناء جسده، وهو لم يزل جنينًا في بطن أمه لم يتجاوز الشهر الثالث من عمره.

ومعني الآية الكريمة: أنَّ الله تعالى قادر على إعادة بعث رُفات الميت مهما كانت درجات تحلُّلها وبعثرتها في تراب الأرض، وقادر على جمع ذرَّات كلٍّ من عظامه ولحمه، وجلده وشعره، وكلِّ صفة كانت في جسده قبل الموت، وقادر على التأليف بين ذلك كلِّه، وإعادة بعْث الرُّوح فيه، ليردَّه حيًّا كما كان قبل الموت.

وتخصيص (البنان) بالذكر يعود إلى كونها من أبرز الصفات الظاهرة في الجسم، وآخر ما يتمُّ من المراحل الأساسية في خلق الجنين، وأنَّه الخاتَم الرباني لكلِّ فرد من بني الإنسان. وتأكيد القدرة على إعادته، إشارة إلى قدرةِ الله سبحانه وتعالى على إعادة بعث الجسد كاملًا دون أدنى نقص.

ومن معاني التَّسوية: إتمام الأشياء على ما اقتضت من كمال الإتقان في الصنعة.

والخالق العظيم قد أتمَّ خلق الإنسان على أكمل ما يقتضي الخلق من

QaradawiBooks.com

الإتقان، وختم خلقَ كلٍّ فرد من بني الإنسان بتسوية بنانِه؛ أي: بصمات أصابعه بصفة عامة، وبصمات أنامل تلك الأصابع بصفة خاصة.

والبصمة عبارة عن شـكل محدَّد من تبادلات واضحة بين عدد من الخطوط البارزة والغائرة في بشرة جلد أصابع كلٍّ من اليدين والقدمين، كما توجد في راحتَي اليدين، وفي بطْني القدمين، وفي جبين الإنسان.

وهذه الخطوط تتخذ أشـكالًا مميِّزة لـكلٍّ فرد من أفـراد الجنس البشـري، فلا تتطابق في فردين أبدًا، حتَّى لو كانا من التوائم المتماثلة، بل لا يمكن لها أن تتطابق بين إصبعين من أصابع اليد الواحدة، أو القدم الواحدة في الفرد الواحد.

ومن الثابت أنَّ بصمة الإنســان تزداد في الحجم مع نمو الجســم، ولكنها تظل محتفظة برسمها وشــكلها وتفاصيلها المميزة لشخصه طيلة حياته، ممَّا يجعلها دليلًا قاطعًا عليه، وميزة ثابتة له؛ لأنَّه حتَّى لو تقاربت في الشــكل بصمتا بنانين مختلفين، فإنه لا يمكن لهما أن تتطابقا تطابقًا كاملًا في التفاصيل.

والأشكال الهندسية للبصمات، سواء كانت لأصابع اليدين أو القدمين، أو على راحتي اليدين أو بطنـي القدمين، أو على الجبيـن؛ هي نمطٌ من الكتابة الدقيقة الَّتي لا يعلمها إلَّا الله تعالى والمَلَك الَّذي أُمِر بخَطِّها انطلاقًا من قول رسـول الله ﷺ: «**إذا خلق الله النَّسـمة قال مَلَك الأرحـام مُعْرِضًا: يا ربّ، أذَكَرٌ أم أُنثى؟ فيقضي الله أمره، ثمَّ يقول: يا ربّ، شـقيٌّ أم سعيد؟ فيقضي الله أمره، ثمَّ يكتب بين عَيْنَيْه ما هو لاقٍ، حتي النَّكْبة يُنْكَبها**»[1].

---

(١) رواه أبو يعلى (٥٧٧٥)، وابن حبان في التاريخ (٦١٧٨)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح. عن عبد الله بن عمر.

QaradawiBooks.com

وقد ميَّز الله الخالق البارئ المصوِّر، كل فردٍ من عباده بهذه الكتابة على الجَبِين، وعلى أصابع كل من اليَدَيْن والقدمَيْن، وعلى راحَتَي اليدَيْن، وبطنَيِ القدمين؛ بصورة تجعله منفردًا عن غيره، ومميَّزًا عن جميع من هم سواه من بني البشر، فيختلف في ذلك الأخ عن أخيه، والولد عن أبيه، والبنت عن كل من أمِّها وشقيقاتها، رغم روابط الرحم والدم، وبعض الصفات الوراثية.

بصمة البنان خاتَم مميِّز لكل إنسان:

و(البنانة) كما سبق أن أشرنا واحدة (البنان)، وهي أطراف الأصابع، وكل جمع ليس بينه وبين واحده إلَّا الهاء؛ فإنه يوحَّد ويُذَكَّر، فيقال: بنان مخضَّب. وقد ثبت بالدراسة المستفيضة أنَّ لكلِّ بنان في جسم كلِّ فرد من بني الإنسان بصمةً خاصة به، لها من الأشكال والهيئات والتفاصيل المحددة ما يميِّزها عن غيرها من البصمات.

و(البصمة) عبارة عن خطوط بارزة تفصِّلها منخفضات غائرة في بَشْرة جلد أصابع كل من اليدين والقدمين، وراحتي اليدين، وبَطْني القدمين، وتُعرف خطوط الأصابع باسم (بصمة البنان)، كما تُعرف بصمات راحتَي اليدين وبطْني القدمين والجبين، كما يُعرف عن الإنسان بصمةُ العينَيْن والبصمة الوراثيَّة، وإن كانت بصمات البنان أكثرها شيوعًا لسهولة استخدامها، والخطوط البارزة في البصمة تحمل المسام العرقية. وتتكون بشرة الجلد من خمس طبقات أسفلها الطبقة الملاصقة للجلد، وهي الَّتي تجدد البصمة إذا تأثرت بعارض خارجي.

وقد أثبتت دراسات الجنين البشري أن هذه الخطوط المميزة لكل فرد ترسم بعناية فائقة، في نهايات الشهر الثالث وبدايات الشهر الرابع

QaradawiBooks.com

من عمر الجنين، وهو لا يزال في بطن أمه، وقد اكتمل هيكله العظمي، وتمَّت كسوته باللحم (العضلات والجلد)، واكتملت أعضاؤه وأجهزته، وأخذت الملامح البشريَّة في الظهور عليه، وأصبح في الطريق إلى إنشائه خلقًا آخر، وتُمَثِّل هذه الخطوط البصمِيَّة ختمًا خاصًّا لكل فرد من أفراد الجنس البشـري، أعطاه الله تعالى إيَّاه، وخُصَّ الإنسـان به دون سـائر المخلوقات، وهـذا الختم الإلهي، لا يمكن تقليـده، وقد أعطاه الله ﷻ القدرة على الثبات وعدم التغيُّر، وعلى إعادة التشـكل بنفس الهيئة عند تعرضه لأية مؤثرات خارجية من مثل الحرق أو القطع أو بعض الأمراض الجلدية، أو بعـض المزاولات المهنية الشـاقَّة، وتبقي هـذه الخطوط بأشـكالها وتفرعاتها، ومواضع اتصالها أو انفصالها ثابتة لا تتغيَّر أبدًا، حتَّى تبقـى هُويّة ربانيّة دائمـة لكل واحد من بني الإنسـان، إلَّا إذا تمَّ تشويه الأنامل تشويهًا كاملًا، ووصل هذا التشويه إلى الطبقة السفلى من الجلد، وهي الطبقة المعوِّضة للبصمة، فإذا دُمِّرت هذه الطبقة فإنَّ البصمة لا تُعَوَّض، ويتمُّ التحام الجلـد ليبقى علامة مميزة أخرى بما يحمل من آثار التشوُّه.

ومن الثابت علميًّا: أنَّ البصمات هي صفات فرديِّة محْضة لا تُورث، ولا تتأثـر بعامل النَّسـب، ومن هنا كانـت أهميتها في مجـال تحقيق الشخصية، ويمكن استخدامها كذلك في التعرُّف على شيءٍ من صفات تلك الشـخصية من مثل الجنس (ذكر أم أنثى)، العمر، الحالة الصحية، الحجم (وذلك لتناسب حجم البصمة مع حجم الجسم)، والمهنة، وغير ذلك، والبصمات تترك آثارها على كل جسـم تلمسـه، سـواء كان هذا الجسم ذا سطح خشـن أو أملس، ومن هنا يمكن الاستفادة بإبرازها في تتبُّع العديد من المجرمين، ومعرفة تفاصيل حدوث الجريمة.

QaradawiBooks.com

والبنان تحمل بصمتها الَّتي تعتبر ختمًا إلهيًّا جعله الخالق ﷻ علامة جماعية فارقة للإنسان دون غيره من المخلوقات المعروفة لنا، كما جعله ميزة فردية لكل واحد من بني الإنسان، تُحدِّدُ شخصيته تحديدًا قاطعًا، وتُفرِده عن غيره إفرادًا مميِّزًا، يتجاوز حدودَ الإرث والنسب والعرق، وذلك طيلة حياته.

والآية الكريمة الَّتي نحن بصددها تؤكد على إعادة بصمة كل بنان مع بعث كل ميِّت، تأكيدًا على طلاقة القدرة الإلهيَّة المبدعة في كلٍّ من الخلق والبعث، كما تشير إلى دقّة تسوية البنان وإلى أهمية ذلك في حياة الإنسان، وهي أهمية لم تدركها العلوم المكتسبة، إلَّا في مطلع القرن العشرين (١٩٠١م)، حين استخدم المحتلون البريطانيون بصمات الأصابع في تتبُّع بعض مقْترفي الجرائم في الهند، ثمَّ أصبحت وسيلة من أهم وسائل التشخيص لبني الإنسان في كل دول العالم.

وسَبْقُ القرآنِ الكريم بثلاثة عشر قرنًا لجميع المعارف المكتسبة، وذلك بالإشارة إلى معجزة تسوية البنان في الأحياء، ثمَّ التأكيد على المقدرة الإلهيَّة بإعادة تلك التسوية عند البعث؛ لَمِمَّا يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشريَّة، بل هو كلام الله الخالق الَّذي أنزله بعلمه على خاتَم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الَّذي قطعه على ذاته العلية في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية، وحفظه بعهده الَّذي قطعه على ذاته العلِيَّة في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) وحفظه حفظًا كاملًا على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية، وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها»[1].

(١) موسوعة الإعجاز العلمي (١٥٥/٥ ـ ١٥٩).

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾

ليس صحيحًا أنَّ هـذا الإنسـان الكافـر شـاكٌّ في قُدرة الربِّ على إحياء الموتى، بل يريد هذا الإنسـان ليدوم على تدفُّقه الوقح إلى فعل الشرور والآثام فيما يستقبله من الزمان، دون أن يشعر في أعماق وجدانه بوخز من ضمير، وفي نفسـه بعقبة خوف من المصير، فيسـأل سـؤال متعنِّت مُسْتَبْعِد ليوم القيامة الَّذي يكون فيه الحسابُ والجزاء: متى يكون يوم القيامة هذا، وقـد خلت القرون العديـدة دون أن يحدث هذا اليوم الموعود به؟!

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾، قال سعيد، عن ابن عبَّاس: يعني: يمضي قُدُمًا.

وقال العَوْفِي، عن ابـن عبَّاس: ﴿لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ يعنـي: الأمل؛ يقول الإنسان: أعمل ثمَّ أتوب قبل يوم القيامة.

ويقال: هو الكفر بالحق بين يدي القيامة.

وقال مجاهد: ﴿لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾: ليمضي أمامه راكِبًا رأسَه.

وقال الحسن: لا يُلقَى ابنُ آدم إلَّا تَنزعُ نفسُـه إلى معصية الله قُدُمًا قُدُمًا، إلَّا من عصمه الله تعالى.

ورُوِيَ عن عكرمة وسـعيد بن جُبَير والضحَّاك والسُّدِّي وغير واحد من السلف: هو الَّذي يُعجِّل الذنوب، ويسوِّف التوبة[1].

وقال علي بن أبي طلحـة، عن ابن عبَّاس: هـو الكافر يكذِّب بيوم الحسـاب. وكذا قال ابن زيد، وهذا هو الأظهر من المـراد، ولهذا قال

(١) روى هذه الآثار ابن جرير في التفسير (٢٤/٥٣).

QaradawiBooks.com

بعده: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أيْ: يقول: متى يكون يوم القيامة؟ وإنَّما سؤاله سؤالُ استبْعادٍ لوقوعه، وتكذيبٍ لوجوده، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٢٩، ٣٠]»[1].

وقال القرطبي في قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾: «قال ابن عبَّاس: يعني الكافر، يُكذِّب بما أمامه من البعث والحساب. وقاله عبد الرحمن بن زيد؛ ودليله: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: يسأل متى يكون؟! على وجه الإنكار والتكذيب. فهو لا يقنع بما هو فيه من التكذيب، ولكن يأثم لما بين يديه.

وممَّا يدلُّ على أنَّ الفجور التكذيب؛ ما ذكره القُتَبي وغيره: أنَّ أعرابيًّا قصد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، وشكا إليه نَقَب إبله ودَبَرَها، وسأله أن يحمله على غيرها، فلم يحمِلْه، فقال الأعرابي:

أقسمَ باللهِ أبو حفص عمرْ ... ما مسَّها من نَقَب ولا دَبَرْ

فاغفِرْ له اللَّهُمَّ إن كان فجرْ

يعني: إنْ كان كذَّبني فيما ذكرت[2].

وعن ابن عبَّاس أيضًا: يُعجِّل المعصيةَ ويسوِّف التوبة. أي: يقول: سوف أتوب، سوف أتوب، حتَّى يأتيه الموت على أشرِّ أحواله.

وقال بعضهم: هو الأمل، يقول: سوف أعيش، وأصيب من الدنيا. ولا يذكر الموت.

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) تأويل مشكل القرآن صـ ٢٠٧.

QaradawiBooks.com

وقيل: أي يعزم على المعصية أبدًا، وإن كان لا يعيش إلَّا مدة قليلة.

فالهاء (في: ليفجر أمامه) على هذه الأقوال للإنسان، وقيل: الهاء ليوم القيامة. والمعنى: بل يريد الإنسان ليكفر بالحق بين يدي يوم القيامة. والفجور أصله الميل عن الحق»(١).

أقول: لكن كلمة (أمامه) تعني: ما بعده، وهل بعد يوم القيامة من تكليف؟!

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾

قال ابن القيِّم في تفسير هذه الآيات: «أخبر سبحانه عن سُوء حال الإنسان، وإصراره على المعصية والفجور، وأنَّه لا يَرْعَوِي، ولا يخاف يومًا يجمع الله فيه عظامه، ويبعثه حيًّا، بل هو مريد للفجور ما عاش، فيفجر في الحال، ويريد الفجور في غدٍ وما بعدَه، وهذا ضدُّ الَّذي يخاف الله والدار الآخرة، فهذا لا يندم على ما مضى منه، ولا يُقلع في الحال، ولا يعزم في المستقبل على الترك، بل هو عازم على الاستمرار، وهذا ضدُّ التائب المنيب.

ثم نبَّه سبحانه على الحامل له على ذلك، وهو استبعاده ليوم القيامة، وليس هذا استبعادًا لزمنه مع إقراره بوقوعه، بل هو استبعادٌ لوقوعه، كما حكى عنه في موضع آخر قوله: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]. أي بعيدٌ وقوعه، وليس المراد أنَّه واقعٌ بعيدٌ زمنه. هذا قول جماعة من المفسرين، منهم ابن عبَّاس وأصحابه، قال ابن عبَّاس: يقدِّم الذَّنْب ويؤخر التوبة. وقال قتادة وعكرمة: قُدُمًا قُدُمًا في معاصي الله لا ينزع عن فجوره.

(١) تفسير القرطبي (١٩/٩٤، ٩٥).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وفي الآية قولٌ آخرُ، وهو أنَّ المعنى: بل يريد الإنسان ليكذِّب بما أمامه من البعث ويوم القيامة. وهذا قول ابن زيد، واختيار ابن قُتَيْبة وأبي إسحاق.

قال هؤلاء: ودليل ذلك قوله ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٦].

ويرجِّح هذا القول لفظة (بل)؛ فإنَّها تعطى أنَّ الإنسان لم يؤمن بيوم القيامة مع هذا البيان والحُجَّة، بل هو مريد للتكذيب به.

ويُرجِّحه أيضًا: أنَّ السياق كلَّه في ذمِّ المُكذِّب بيوم القيامة، لا في ذمِّ العاصي والفاجر.

وأيضًا: فإنَّ ما قبل الآية وما بعدها، يدلُّ على المراد، فإنه قال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾، فأنكر سبحانه عليه حِسْبَانه أنَّ الله لا يجمع عظامَه، ثمَّ قرَّر قدرتَه على ذلك، ثمَّ أنكر عليه إرادة التكذيب بيوم القيامة، فالأول: حِسْبَانٌ منه أن لا يُحييه بعد موته، والثاني: تكذيب منه بيوم البعث، وأنَّه يريد أن يُكذِّب بما وضح وبان دليلُ وقوعِه وثبوته، فهو مريدٌ للتكذيب به، ثمَّ أخبر عن تصريحه بالتكذيب فقال: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

فالأول: إرادة التكذيب. والثاني: نطقٌ بالتكذيب وتكلُّمٌ به.

وهذا قول قويٌّ كما ترى، لكن ينبغي إفراغ هذه الألفاظ في قوالب هذا المعنى؛ فإنَّ لفظة (يفجر) إنَّما تدلُّ على عمل الفجور، لا على التكذيب، وحذف الموصول مع ما جرَّه، وإبقاء الصلة خلافُ الأصل؛ فإنَّ أصحاب هذا القول؛ قالوا: تقديره: ليكفر بما أمامه. وهذا المعنى صحيح، لكن دلالة هذا اللفظ عليه ليست بالبيِّنة.

QaradawiBooks.com

فالجواب: أنَّ الأمر كذلك، لكن الفعل إذا ضُمِّن معنى فعل آخر لم يلزم إعطاؤه حكمه من جميع الوجوه، بل من جلالة هذه اللغة العظيمة الشأن وجزالتها: أن يذكر المتكلم فعلًا ما ويضَمِّنه[1] معنى فعل آخر، ويجري على المضمَّن أحكامه لفظًا، وأحكام الفعل الآخر معنى فيكون في قوَّة ذكر الفِعْلين مع غاية الاختصار، ومن تدبَّر هذا؛ وجدَه كثيرًا في كلام الله تعالى.

فلفظ (يفجر) اقتضت (أمامه) بلا واسطة حرف ولا اسم موصول، فأُعطيت ما اقتضته لفظًا، واقتضى ما تضمَّنه الفعل من ذكر الحرف والموصول فأعطيته معنى، فهذا وجه هذا القول لفظًا ومعنى، والله أعلم»[2].

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾

أي: إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة، حينئذ يريد أن يفر ويقول: أين المفر؟ أي: هل من ملجأ أو مَوْئل؟

قال ابن كثير: «وقال تعالى هاهنا: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ قرأ أبو عمرو بن العلاء[3] ﴿بَرِقَ﴾ بكسر الراء، أي: حَارَ. وهذا الَّذي قاله شبيه بقوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، أي: بل ينظرون من الفزع هكذا وهكذا، لا يستقرُّ لهم بصر على شيء من شِدَّة الرعب.

---

(١) كانت في المطبوع الذي بين أيدينا: وما يضمنه. ولم نجد لها معنى، والمثبت أليق بالسياق.

(٢) التبيان في أقسام القرآن صـ ١٤٩ ـ ١٥١.

(٣) هي قراءة جمهور القراء غير نافع وأبي جعفر، انظر: المبسوط في القراءات العشر لأبي بكر النيسابوري (٤٥٣/١).

QaradawiBooks.com

وقرأ آخـرون: ﴿بَرَقَ﴾ بالفتح، وهـو قريب في المعنـى من الأول، والمقصود أنَّ الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخشـع، وتحار وتذلُّ من شدة الأهوال، ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور.

قوله تعالى: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ أي: ذهب ضوؤه.

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، قال مجاهد: كُوِّرا[1].

وقرأ ابن زيد عند تفسير هذه الآية: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١، ٢]. ورُوِيَ عن ابن مسعود أنَّه قرأ: وجُمِعَ بين الشمس والقمر[2].

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾

والوَزَر: ما يُتحصَّنُ به أو يُستوزَرُ ويُستَنصَر.

والمعنى: أي: زَجْرًا وردعًا، لا مَلْجأ لك ـ أيها الكافر ـ تلتجئ إليه، ولا شـيء يعصمك من عذاب الله تعالى، إنَّ الحكم يوم القيامة بمكان استقرارك في جهنَّم الَّذي سوف تسـتقرُّ فيه خالدًا مُخلَّدًا هو إلى ربِّك، لا مُعقَّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه.

قال الله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾، قال ابن مسعود وابن عبَّاس وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف: أي: لا نجاة.

وهـذه الآيـة كقولـه تعالـى: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧]. أي: ليـس لكم مكان تتنكّـرون فيه، وكذا قال

(١) رواه الطبري في التفسير (٢٤/٥٧).
(٢) تفسير القرطبي (١٩/٩٧).

QaradawiBooks.com

هاهنا: ﴿لَا وَزَرَ﴾، أي: ليس لكم مكان تعتصمون فيه. ولهذا قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ أي: المرجع والمصير»[(١)].

﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾

قال ابن كثير في تفسير هذه الآيات: (﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي: يُخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها، أولها وآخرها، صغيرها وكبيرها، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وهكذا قال هاهنا:

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾

أي: هو شهيد على نفسه، عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر، كما قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس يفسر معنى (الإنسان) في قوله: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾، يقول: سمعُه وبصرُه، ويداه ورجلاه، وجوارحُه[(٢)].

وقال قتادة: شاهدٌ على نفسه.

وفي رواية قال: إذا شئتَ ـ والله ـ رأيتَه بصيرًا بعيوب النَّاس وذنوبهم، غافلًا عن ذنوبه. وكان يقال: إن في الإنجيل مكتوبًا: يا ابن آدم، تبصر القَذَاة في عين أخيك، وتترك الجِذْل في عَيْنِك لا تبصرُه[(٣)].

(١) تفسير ابن كثير (٢٧٧/٨).

(٢) رواه الطبري في التفسير (٦٢/٢٤).

(٣) المصدر السابق (٦٣/٢٤).

QaradawiBooks.com

وقال مجاهد: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾، ولو جادل عنها، فهو بصير عليها.

وقال قتادة: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾، ولو اعتذر يومئذ بباطلٍ، لا يُقبَل منه.

وقال السُّدِّي: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ حُجَّته. وكذا قال ابن زيد، والحسن البصري، وغيرهم. واختاره ابن جرير(١).

والصحيح قول مجاهد وأصحابه؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. وكقوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

وقال العَوْفي، عن ابن عبَّاس: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ هي الاعتذار. ألم تسمع أنَّه قال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [غافر: ٥٢]. وقال: ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ [النحل: ٨٧]. ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ [النحل: ٢٨]. وقولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾؟

﴿مَعَاذِيرَهُۥ﴾: جمع مَعذِرة على غير قياس؛ لأن مَعذِرة تجمع على: مَعاذِر، بدون ياء، فزيادة الياء خروج على القياس للمبالغة. أي: لو أُحضِر وبَسَط أعذارَه وحججَه لتسويغ ما كان من التقصير أو العصيان. ومعنى الآية: بل الإنسان كثير البصر والمعرفة بمرادات نفسه وأهوائها وشهواتها ونياتها، وسائر ما يصدر عنها، ولو ألقى حُجَجه الكاذبة، وأقواله الَّتي يحاول بها تبرئة نفسه، وستر ذنوبه.

---

(١) كذا ذكر الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وفي تفسير الطبري (٦٥/٢٤): وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: معناه: ولو اعتذر لأنَّ ذلك أشبه المعاني بظاهر التنزيل، وذلك أنَّ الله جلّ ثناؤه أخبر عن الإنسان أن عليه شاهدًا من نفسه بقوله: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤] فكان الذي هو أولى أن يتبع ذلك، ولو جادل عنها بالباطل، واعتذر بغير الحقّ، فشهادة نفسه عليه به أحقّ وأولى من اعتذاره بالباطل.

QaradawiBooks.com

تلقي النبي ﷺ الوحي وطمأنته بحفظه وبيانه:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾

هذا تعليم من الله ﷻ لرسوله ﷺ في كيفيَّة تلقِّيه الوحي من المَلَك؛ فإنه كان يبادر إلى أخذِه، ويسابق المَلَك في قراءته، فأمره الله عزوجل إذا جاءه المَلَك بالوحي أن يستمع له، وتكفَّل له أن يجمعَه في صدره، وأن ييسِّره لأدائه على الوجه الَّذي ألقاه إليه، وأن يبيِّنه له ويفسِّره ويوضِّحه. فالحالة الأولى: جمعه في صدره، والثانية: تلاوته، والثالثة: تفسيره وإيضاح معناه؛ ولهذا قال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أي: بالقرآن، كما قال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

ثم قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ أي: في صدرك، ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: أن تقرأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي: إذا تلاه عليك مَلَكنا المتحدث عن الله ﷻ، ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي: فاستمع له، ثمَّ اقرأه كما أقرأك، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ ثُمَّ إنَّ علينا ـ بعد حفظه وضبط تلاوته ـ بيان ما يشتمل عليه القرآن من دلالات وعلوم في الأزمنة المستقبلة.

صفة النبي ﷺ في تلقيه الوحي:

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن أبي عَوَانة، عن موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شِدَّة، فكان يحرِّك شفتيه ـ قال: فقال لي ابنُ عبَّاس:

QaradawiBooks.com

أنا أحرِّك شفتَيَّ كما كان رسولُ الله ﷺ يحرِّك شفتيه. وقال لي سعيد: وأنا أحرِّك شفتي كما رأيتُ ابن عبَّاس يحرِّك شفتَيْه ـ فأنزل الله ﷻ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قال: جمعه في صدرك، ثمَّ تقرأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ فاستمع له وأنصت، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريلُ، قرأه كما أقرأه[١].

وقد رواه البخاري ومسلم من غير وجه، عن موسى بن أبي عائشة، به. ولفظ البخاري: فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله ﷻ[٢].

وذكر ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عبَّاس قال: كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي يلقى منه شِدَّة، وكان إذا نزل عليه عُرف في تحرِيكِهِ شفتَيْه، يتلقَّى أوَّلَه، ويحرِّك به شفتَيْه، خشيةَ أن ينسى أوَّلَه قبل أن يفرغ من آخره، فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾[٣].

وهكذا قال الشعبي، والحسن البصري، وقتادة، ومجاهد، والضحاك، وغير واحد: إن هذه الآية نزلت في ذلك.

وقد روى ابن جرير من طريق العَوْفِي، عن ابن عبَّاس: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ قال: كان لا يفتُر من القراءة مخافةَ أن ينساه، فقال الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ أن نجمعه لك. ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أن نقرِئَك فلا تنسى[٤].

---

(١) رواه أحمد (٣١٩١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٩٢٩)، ومسلم في الصلاة (٤٤٨).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١٩٠٦٠).

(٤) رواه الطبري في التفسير (٢٤/٦٧).

QaradawiBooks.com

وقال ابنُ عبَّاس وعطيــة العَوْفِيُّ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾: تبيِين حلالِه وحرامه. وكذا قال قتادة[1]»[2].

معنى آخر في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾:

وذهب القفَّال والبلخي إلى توجيه الخطاب في الآيات للجاحد الَّذي يدلي بحُججه ويعتذر منها، وهذا هـو المعنى الراجح، وفي ذلك يقول الأستاذ سيِّد قطب: «تعترض أربع آيات تحتوي توجيهًا خاصًّا للرسول ﷺ وتعليمًا له في شأن تلقِّي هذا القرآن.

ويبدو أنَّ هذا التعليم جاء بمناسبة حاضرة في السورة ذاتها؛ إذ كان الرسول ﷺ يخاف أن ينسى شيئًا ممَّا يُوحى إليه، فكان حرصه على التحرُّز من النسيان يدفعه إلى استذكار الوحي، فقرة فقرة، في أثناء تلقِّيه وتحريك لسانه به ليستوثق من حفظه. فجاءه هذا التعليم:

﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾

جاءه هذا التعليم ليطمئنه إلى أنَّ أمْر هذا الوحي، وحفظ هذا القرآن، وجمعه، وبيان مقاصده.. كل أولئك موكول إلى صاحبه. ودوره هو، هو التلقي والبلاغ. فليطمئن بالًا، وليتلقَّ الوحي كاملًا، فيجده في صدره منقوشًا ثابتًا.. وهكذا كان.

فأمَّا هذا التعليم فقد ثبت في موضعه حيث نزل.. أليس من قول الله؟ وقول الله ثابت في أي غرض كان؟ ولأيِّ أمر أراد؟ وهذه كلمة من

(١) روى هذه الآثار ابن جرير في التفسير (٢٤/٧٠).
(٢) تفسير ابن كثير (٨/٢٧٧ ـ ٢٧٩) بتصرف يسير.

QaradawiBooks.com

كلماته تثبت في صلب الكتاب شـأنها شأن بقية الكتاب.. ودلالة إثبات هذه الآيات في موضعها هذا من السورة دلالة عميقة موحية على حقيقة لطيفة في شـأن كل كلمات الله في أي اتجاه.. وفي شـأن هـذا القرآن وتضمُّنه لكل كلمات الله الَّتي أوحى بها إلى الرسـول ﷺ لم يخرم منها حرف، ولم تندّ منها عبارة. فهو الحق والصدق والتحرُّج والوقار»(١).

حب الدنيا العاجلة ونسيان الآخرة الباقية:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾

أي: ارتدعـوا وازدجـروا ـ أيها النَّـاس ـ عن ادِّعـاء المعاذير الَّتي تصرفكم عن السـعي للآخرة، بل أنتـم تُحبُّون الدنيـا العاجلة الفانية السريعة الزوال، وتُوجِّهون لها كلَّ اهتماماتكم، وتتركون الآخرة ونعيمها.

فقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي: إنَّما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة، ومخالفة ما أنـزله الله ﷻ على رسوله ﷺ من الوحي الحقِّ والقرآن العظيم، أنَّهم إنَّما هِمَّتُهم إلى الدار الدنيا العاجلة، وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة.

قال الطيبي في بيـان اتصال هذه الآيـة ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾: (أي: يقال للإنسان عند إلقاء المعاذير: كلَّا، إنَّ أعذارك غير مسموعة؛ لأنك فجرت وفسقت، وظننت أنَّك تدوم على فجورك، وأن لا حشـر ولا عقاب، وذلك من حبك العاجلةَ والإعراض عن الآخرة.. وكان من عادته ﷺ إذا لُقِّنَ الوحي، أن ينازع جبريل القراءة، وقد اتفق عند التلقين بالآيات السـابقة، ما جرت به عادته من العجلة،

(١) في ظلال القرآن (٦/٣٧٦٧).

QaradawiBooks.com

فلما وصل إلى قوله: ﴿أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾، أوحى الله تعالى إلى جبريل بتأديبه في أخذ القراءة، وألقى إليه تلك الكلمات، ثمَّ عاد إلى إتمام ما بُدئ به بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾»(١).

وما أجمل ما قاله الشهيد سيِّد قطب رحمه الله في ظلال هذه الآية: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾: «وأول ما يُلحظ من ناحية التناسق في السياق، هو تسمية الدنيا بالعاجلة في هذا الموضع. ففضلًا عن إيحاء اللفظ بقِصر هذه الحياة وسرعة انقضائها ـ وهو الإيحاء المقصود ـ فإن هناك تناسقًا بين ظلِّ اللفظ وظل الموقف السابق المعترِض في السياق، وقول الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ...﴾.

فهذا التحريك وهذه العجلة هي أحد ظلال السمة البشريَّة في الحياة الدنيا.. وهو تناسق في الحسِّ لطيف دقيق يلحظه التعبير القرآني في الطريق»(٢).

وجوه أهل السعادة ووجوه أهل الشقاوة:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ من النضارة، أي حسنة بهية مسرورة. أي: وجوهُ أهل السعادة يوم القيامة حسنة ناعمة مُشْرِقةٌ مُضيئة بالنعيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٢ ـ ٢٤].

(١) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرَّيب للطيبي (١٦٨/١٦).

(٢) في ظلال القرآن (٣٧٧٠/٦).

QaradawiBooks.com

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ إلى ربِّها وخالقها ومربيها بنعمه ناظرة عِيانًا بلا حجاب. كما رواه البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في صحيحه: «**إنَّكم ستَرَوْن ربَّكم عِيَانًا**»[1].

رؤية الله تعالى يوم القيامة:

قال ابن كثير: «وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عَزَّوَجَلَّ في الدار الآخرة في الأحاديث الصِّحاح، من طرق متواترة عند أئمة الحديث، لا يمكن دفعُها ولا منعُها؛ لحديث أبي سعيد[2] وأبي هريرة[3] ـ وهما في الصحيحين ـ: أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ فقال: «**هل تضارُّون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب؟**» قالوا: لا. قال: «**فإنَّكم ترون ربَّكم كذلك**».

وفي الصحيحين عن جريرٍ قال: نظر رسولُ الله ﷺ إلى القمر ليلةَ البدر، فقال: «**إنَّكم تَرَوْن ربَّكم كما ترون هذا القمر، فإن استطعتم ألا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا**»[4].

وفي الصحيحين عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «**جَنَّتان من ذهبٍ، آنيتُهما وما فيهما، وجنَّتان من فِضَّة، آنيتُهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله إلَّا رداءُ الكبرياءِ على وجهه في جنَّة عَدْن**»[5].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٤٣٥)، ومسلم في المساجد (٦٣٣)، عن جرير بن عبد الله.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٥٨١)، ومسلم في الإيمان (١٨٣).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٨٠٦)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٦٨).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٤)، ومسلم في المساجد (٦٣٣).

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٨٧٨)، ومسلم في الإيمان (١٨٠).

QaradawiBooks.com

وفي أفراد مسلم عن صهيبٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**إذا دخل أهلُ الجنَّة الجنَّة**» قال: «**يقول الله تعالى: تريدون شيئًا أزيدُكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهَنا؟ ألم تُدخلْنا الجنَّةَ وتُنْجِنا من النَّار؟**» قال: «**فيُكشَف الحجاب، فما أُعطُوا شيئًا أحبَّ إليهم من النظر إلى ربِّهم، وهي الزيادة**». ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦](١).

وفي أفراد مسلم، عن جابر في حديثه: «**إنَّ الله يتجلَّى للمؤمنين يضحكُ**»(٢). يعني: في عَرَصَات القيامة.

ففي هذه الأحاديث أنَّ المؤمنين ينظرون إلى ربِّهم ﷻ في العَرَصات، وفي رَوْضات الجنَّات.

وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متَّفق عليه بين أئمة الإسلام، وهُدَاةِ الأنام.

بعض التأويلات المردودة:

ومن تأول ذلك بأنَّ المراد بـ ﴿إِلَىٰ﴾ مفرد الآلاء، وهي النعم، كما قال الثوري، عن منصور، عن مجاهد: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ فقال: تنتظر الثواب من ربِّها. رواه ابن جرير من غير وجه عن مجاهد(٣). وكذا قال أبو صالح أيضًا؛ فقد أبعد هذا القائل النَّجْعة، وأَبْطَلَ فيما ذهب إليه، وأين هو من قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾؟ [المطففين: ١٥].

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما حَجَب الفُجَّارَ إلَّا وقد علم أنَّ الأبرار يرونه ﷻ.

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٨١)، وأحمد (١٨٩٣٥).

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١٩١).

(٣) رواه الطبري في التفسير (٢٤/٧٢).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ثم قد تواترت الأخبار عن رسـول الله ﷺ بما دلَّ عليه سـياق الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، روى ابن جرير بسنده عن الحسن: «﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ قال: حسـنة. ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: تنظر إلى الخالق، وحُقَّ لها أن تنضُر، وهي تنظر إلى الخالق»[1].

قوله سبحانه: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾:

«هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسـرة عابسـة كالحة مُتغيِّرة مُسْوَدّة.

قال قتادة: كالحة[2].

وقال السُّدِّي: تغيَّرُ ألوانها. وقال ابن زيد ﴿بَاسِرَةٌ﴾ أي: عابسة[3].

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ داهية تقصم فَقَار الظهر. أي: تسـتيقن (وإنَّما عبر عن اليقين بالظن).

﴿فَاقِرَةٌ﴾ قال مجاهد: داهية. وقال قتادة: شر.

وقال السُّـدِّي: تسـتيقن أنَّها هالكة. وقال ابن زيد: تظن أن ستدخل النار.

وهـذا المقـام كقولـه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمـران: ١٠٦]. وكقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٣٨ ـ ٤٢]. وكقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ

(١) تفسير الطبري (٢٤/٧٢)، وتفسير ابن كثير (٨/٢٧٩، ٢٨٠).

(٢) رواه الطبري في التفسير (٢٤/٧٤).

(٣) المصدر السابق نفسه.

QaradawiBooks.com

﴿إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٢ ـ ١٠]. في أشباه ذلك من الآيات والسياقات»[1].

مشهد الاحتضار:

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝ ٢٦ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ۝ ٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝ ٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝ ٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾

(يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال ـ ثبَّتَنا الله هنالك بالقول الثابت ـ فقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾، إن جعلنا ﴿كَلَّآ﴾ رادعة فمعناها: لست يا ابن آدم تكذب هناك بما أُخْبِرْتَ به، بل صار ذلك عندك عِيانًا. وإن جعلناها بمعنى (حقًّا) فظاهر، أي: حقًّا ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾، أي: انتزِعت رُوحك من جسدك، وبلغت تراقِيَك.

والتراقي: جمع تَرْقُوة، وهي العظام الَّتي بين ثُغْرة النحر والعَاتِق، كقوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٧]. وهكذا قال هاهنا: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾. والتراقي: جمع ترقوة، وهي قريبة من الحلقوم.

﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾

«قال: عكرمة، عن ابن عبَّاس: أي مَنْ راقٍ يرقي؟ وكذا قال أبو قلابة.

﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ أي: من طبيب شاف. وكذا قال قتادة والضحَّاك وابن زيد.

(١) تفسير ابن كثير (٢٧٩/٨ ـ ٢٨١).

QaradawiBooks.com

وعن ابن عبَّاس: ﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ﴾ قال: قيل: مَن يَرْقَى برُوحه (مشتقة من الرُّقِيِّ): ملائكةُ الرحمةِ أم ملائكة العذاب؟ فعلى هذا يكون من كلام الملائكة»[1].

وقال الفخر الرازي في تفسيره لهذه الآية: (﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ﴾ في (راق) وجهان:

الأول: أن يكون من الرُّقْيَة. يقال: رقَاه يرقِيه رُقْيَة، إذا عوَّذه بما يشفيه، كما يقال: باسم الله أَرقيك.

وقائل هذا القول على هذا الوجه، هم الَّذين يكونون حول الإنسان المشرف على الموت، ثمَّ هذا الاستفهام، يحتمل أن يكون بمعنى الطلب، كأنهم طلبوا له طبيبًا يشفيه، وراقيًا يرقيه، ويحتمل أن يكون استفهامًا بمعنى الإنكار، كما يقول القائل عند اليأس: من الَّذي يقدر أن يرقي هذا الإنسان المشرف على الموت؟

الوجه الثاني: أن يكون قوله: ﴿مَنۡۜ رَاقٖ﴾ من رَقِـيَ يَرْقَى رُقِيًّا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣]. وعلى هذا الوجه يكون قائل هذا القول هم الملائكة.

قال ابن عبَّاس: إنَّ الملائكة يكرهون القرب من الكافر، فيقول مَلَك الموت: من يَرْقى بهذا الكافر؟»[2]. والوجه الأول هو الأرجح والأولى، كما سنذكر عن ابن القيم.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢٧٧/٨ ـ ٢٨٢) بتصرف وزيادة.

(٢) تفسير الرازي (٧٣٤/٣٠).

QaradawiBooks.com

ترجيح ابن القيِّم للمراد بقول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ﴾:

قال ابن القيم: «ويقول الحاضرون: (منْ راق؟) أي: منْ يرقي من هذه العلة الَّتي أَعْيَت على الحاضرين، أي: التمِسُوا له مَنْ يرقيه. والرُّقية آخرُ الطب.

وقيل: مَن يَرْقَى بها ويصعد؟ أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟

فعلى الأوَّل تكون مِن (رَقَى يرقي كرمى يرمي). وعلى الثاني مِن (رَقِيَ يَرْقَى، كشَقِيَ يشقى) ومصدره الرَّقَاء (أو: الرُّقِي)، ومصدر الأول الرُّقْيَة.

والقول الأول أظهر لوجوه:

أحدها: أنَّه ليس كل ميِّتٍ يقول حاضروه: من يَرْقَى بروحه؟ وهذا إنَّما يقوله من يؤمن برُقِيِّ الملائكة بروح الميت، وأنَّهم ملائكة رحمة وملائكة عذاب، بخلاف التماس الرقية، وهي الدعاء، فإنه قلَّ ما يخلو منه المحتضِر.

الثاني: أنَّ الرُّوح إنَّما يرقى بها المَلَـك بعد مفارقتها، وحينئذ يقال: مَن يَرقَى بها؟ وأمَّا قبل المفارقة، فطلبُ الرقيةِ للمريض من الحاضرين أنسب من طلب عِلْمِ من يَرْقَى بها إلى الله.

الثالث: أنَّ فاعل الرُّقية يُمكِن العلم به، فيحسـنُ السـؤالُ عنه، ويفيدُ السامعَ، وأمَّا الراقي إلى الله فلا يمكن العلم بتعيينه حتَّى يسأل عنه، و(مَنْ) إنَّما يُسأل بها عن تعيين ما يمكن السائل أن يصل إلى العلم بتعيينه.

الرابع: أنَّ مثل هذا السؤال إنَّما يراد به تحضيضٌ، وإثارة اهتمام إلى فعل يقع بعـد، من نحـو قولـه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥، الحديد: ١١]. أو يراد به إنكار فعل ما يذكر بعدها، كقوله: ﴿مَن ذَا

QaradawiBooks.com

ﵟٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦﵞ [البقرة: ٢٥٥]. وفعل الراقي إلى الله لا يحسن فيه واحد من الأمرين هنا، بخلاف فاعل الرُّقية؛ فإنه يحسن فيه الأول.

الخامس: أنَّ هذا خرج على عادة العرب وغيرهم في طلب الرُّقية لمن وصل إلى مثل تلك الحال، فحكى الله سبحانه ما جرت عادتهم بقوله، وحذف فاعل القول؛ لأنَّه ليس الغرض متعلِّقًا بالقائل، بل بالقول، ولم تجر عادة المخاطَبين بأن يقولوا: من يَرقى بروحه؟ فكان حمل الكلام على ما أُلِف وجرت العادةُ بقوله أولى؛ إذ هو تذكير لهم بما يشاهدونه ويسمعونه.

السادس: أنَّه لو أريد هذا المعنى؛ لكان وجه الكلام أن يقال: مَن هو الراقي؟ ومَن الراقي؟ ولا وجه للكلام غير ذلك، كما يقال: من هو القائل منكما كذا وكذا؟ وفي الحديث: «**من القائل كلمة كذا؟**»(١).

السابع: إنَّ كلمة (مَنْ) إنَّما يُسأل بها عن التعيين، كما يقول: مَن الَّذي فعل كذا؟ ومن ذا الَّذي قاله؟ فيعلم أن فاعلًا وقائلًا فعل وقال، ولا يعلم تعيينَه، فيسأل عن تعيينه بـ(مَنْ) تارة وبـ(أيّ) تارة، وهم لم يسألوا عن تعيين المَلَك الراقي بالروح إلى الله.

فإن قيل: بل علموا أن مَلَك الرحمة والعذاب صاعد بروحه، ولم يعلموا تعيينه، فيُسأل عن تعيين أحدهما. **قيل**: هم يعلمون أن تعيينه غير ممكن، فكيف يسألون عن تعيين ما لا سبيلَ للسامع إلى تعيينه، ولا إلى العلم به.

الثامن: أنَّ الآية إنَّما سِيقَت لبيانِ يأْسِه من نفسه، ويأس الحاضرين معه، وتحقُّق أسبابِ الموت، وأنَّه قد حضر، ولم يبق شيءٌ ينجعُ فيه، ولا مخلِّص

(١) رواه مسلم في المساجد (٦٠١)، والنسائي في الافتتاح (٨٨٦)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

منه، بل هو قد ظنَّ أنَّه مُفارِقٌ لا محالـــة، فالحاضرون قد علموا أنَّه لم يبقَ لأسباب الحياة المعتادة تأثيرٌ في بقائه، فطلبوا أسبابًا خارجة عن المقدور، تُســتجلب بالرُّقى والدعوات، فقالوا: (مَن راق؟) أي: من يرقِي هذا العليل من أسباب الهلاك؟ والرقية عندهم كانت مستعمَلة؛ حيث لا يُجدي الدواء.

التاســع: أنَّ مثل هذا إنَّما يــراد به النفــي والاســتبعاد، وهو أحد التقديرين في الآية أي: لا أحد يرقي من هذه العلَّة، بعدما وصل صاحبُها إلى هذه الحال، فهو استبعادٌ لنفيِ الرُّقية، لا طلب لوجود الراقي، كقوله: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨]. أي: لا أحــد يحييهــا وقد صارت إلى هذه الحال، فإن أريد بها هذا المعنى؛ استحال أن يكون من الرُّقِي. وإن أريد بها الطلب؛ اســتحال أيضًا أن يكون منه، وقد بيَّنَّا أنَّها في مثل هذا إنَّما تســتعمل للطلب أو للإنكار، وحينئذ فتقول في **الوجه العاشــر**: إنَّها إما أن يراد بها الطلب أو الاستبعاد، والطلب إما أن يراد به طلب الفعل أو طلب التعيين، ولا سبيل إلى حمل واحد من هذه المعاني على الرُّقِيِّ لما بيَّنَّاه. والله أعلم»[1].

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾

قال المفسِّــرون: المراد أنَّه أيقن بمفارقته الدنيا، ولعله إنَّما عبر عن اليقين هاهنا بالظن؛ لأنَّ الإنســان ما دام يبقى روحه متعلِّقًا ببدنه، فإنه يطمع في الحياة؛ لشــدَّة حبِّه لهذه الحياة العاجلــة على ما قال: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [القيامــة: ٢٠]. ولا ينقطــع رجاؤه عنهــا، فلا يحصل له يقين الموت، بل الظن الغالب مع أمل باستمرار الحياة.

(١) التبيان في أقسام القرآن صـ ١٥٣ ـ ١٥٦.

QaradawiBooks.com

أو لعله سمَّاه بالظن على سبيل التهكُّم.

قال الإمام الرازي: «واعلم أنَّ الآية دالَّة علـــى أنَّ الرُّوح جَوْهر قائم بنفسه، باق بعد موت البدن؛ لأنَّه تعالى سمَّى الموت فِرَاقًا، والفراق إنَّما يكون لو كانت الروح باقية، فإنَّ الفراق والوصال صفة، والصفة تستدْعي وجودَ الموصوف.

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾

الالتفاف هو الاجتماع، كقوله تعالى: ﴿جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤].

وفي الساق قولان:

القول الأول: أنَّه الأمر الشـــديد. قال أهل المعاني: لأنَّ الإنســـان إذا دهمته شدَّة شمَّر لها عن ساقه، فقيل للأمر الشديد: ساق. وتقول العرب: قامت الحرب على ساق. أي اشتدت، قال الجعدي[1]:

أخو الحرب إن عضَّت به الحربُ عضَّها وإن شمَّرت عن ســاقها الحربُ شمَّرَا[2]

والمراد بقوله: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أي: التفت شـــدةُ مفارقة الدنيا ولذاتها وشدةُ الذَّهاب، أو التفت شـــدَّةُ ترك الأهل، وترك الولد، وترك المال، وترك الجاه، وشـــدَّةُ شـــماتة الأعداء، وغمِّ الأوليـــاء، وبالجملة فالشدائد هناك كثيرة، كشدة الذهاب إلى الآخرة والقدوم على الله.

(١) كذا عزاه الرازي، وقد نُســـب لحاتم الطائي، وهو في ديوانه شـــرح يحيى بن مدرك الطائي صـ١٣٢، تحقيق حنا نصر الحتي، نشر دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩٤م.

(٢) ونُسب لحاتم الطائي، انظر: ديوانه شرح يحيى بن مدرك الطائي صـ١٣٢، فهرسة وتحقيق حنا نصر الجتي، نشر دار الكتاب العربي، ط١، ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

أو التفت شدةُ ترك الأحباب والأولياء، وشدةُ الذهاب إلى دار الغربة.

والقول الثاني: أنَّ المراد من الساق هذا العضو المخصوص.

ثم ذكروا على هذا القول وجوهًا:

أحدها: قال الشعبي وقتادة: هما ساقاه عند الموت، أمَّا رأيته في النزع كيف يضربُ بإحدى رجليه على الأخرى؟

والثاني: قال الحسن وسعيد بن المسيِّب: هما ساقاه إذا التفَّتا في الكفن.

والثالث: أنَّه إذا مات يبست ساقاه، والتصقت إحداهما بالأخرى»[(١)].

وقال ابن كثير: «وعن ابن عبَّاس في قوله: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ قال: التفَّت عليه الدنيا والآخرة.

وكذا قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عبَّاس: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ يقول: آخر يوم في الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة، فتلتقي الشِّدَّة بالشِّدَّة إلَّا من رحم الله[(٢)].

وقال عكرمة: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ الأمر العظيم بالأمر العظيم.

وقال مجاهد: بلاء ببلاء.

وقال الحسن البصري في قوله: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ هما ساقاك إذا التفَّتَا.

وفي رواية عنه: ماتت رِجلاه فلم تحمِلَاه، وقد كان عليهما جوَّالًا.

وفي رواية عن الحسن: هو لفُّهما في الكَفَن[(٣)].

---

(١) تفسير الرازي (٣٠/٧٣٤، ٧٣٥).

(٢) رواه الطبري في التفسير (٢٤/٧٦).

(٣) المصدر السابق (٢٤/٧٨).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقال الضحَّاك: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ اجتمع عليه أمران: النَّاس يُجَهِّزون جسده، والملائكة يُجهِّزون رُوحَه[1].

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾

أي: المرجع والمَآب، وذلك أنَّ الرُّوح تُرفع إلى السماوات، فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ: «**رُدُّوا عبدي إلى الأرض، فإنِّي منها خلقتُهم، وفيها أعيدهم، ومنها أُخرِجهم تارة أخرى**». كما ورد في حديث البراء الطويل[2]. وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۞ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢]»[3].

وقد ذكر الرازي معنيين لهذه الآية: «الأول: أن يكون المراد أنَّ المَسُوق إليه هو الرب. والثاني: أن يكون المراد أنَّ السائق في ذلك اليوم هو الرب، أي سوق هؤلاء مفوَّض إليه»[4].

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾

صفات الكافر الَّتي استحَقَّ بها عذابَ الآخرة:

قال الحافظ ابن كثير: «هـذا إخبار عن الكافر الَّـذي كان في الدار الدنيا مكذِّبًا للحقِّ بقلبه، متولِّيًا عن العمل بقالبه، فلا خير فيه باطنًا ولا

(١) رواه الطبري في تفسيره (٧٧/٢٤).
(٢) سبق تخريجه صـ١٩٢.
(٣) تفسير ابن كثير (٢٨٢/٨).
(٤) تفسير الرازي (٧٣٥/٣٠).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ظاهرًا، ولهذا قال: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أي: جذلًا، أشِرًا بَطِرًا كسلانًا، لا هِمَّة له ولا عمل. كما قال: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣١]. وقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي: يرجع. ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٣ ـ ١٥]».

على حين نجد أهل الصلاح والخير، كما وصف الله تعالى على لسانهم: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦].

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾: يتبختر، وأصله: يتَمطّط، أي: يتمدّد؛ لأنَّ المتبختر يمدّ خطاه.

«قال الضحَّاك: عن ابن عبَّاس: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أي: يختال. وقال قتادة وزيد بن أسلم: يتبختر[1]»[2].

وقد ذمَّ الله تعالى في كتابه المختالين والمتبخترين في آيات كثيرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨، الحديد: ٢٣]. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

تفسير الرازي لهذه الآيات: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ..﴾:

قال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾

«وفيه مسائل:

---

(١) رواه الطبري في التفسير (٢٤/٨١).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/٢٨٢).

QaradawiBooks.com

المسألة الأولى: أنَّه تعالى شرح كيفيَّة عمله فيما يتعلق بأصول الدين وبفروعه، وفيما يتعلق بدنياه، أمَّا ما يتعلق بأصول الدين فهو أنَّه ما صَدَّق بالدين، ولكنَّه كذَّب به. وأمَّا ما يتعلق بفروع الدين، فهو أنَّه ما صَلَّى، ولكنَّه تولَّى وأعرض. وأمَّا ما يتعلَّق بدنياه، فهو أنَّه ذهب إلى أهله يتمطَّى ويتبختَر، ويختال في مِشيته.

واعلم أنَّ الآية دالَّة على أنَّ الكافر يستحق الذمَّ والعقاب بترك الصلاة، كما يستحقهما بترك الإيمان.

المسألة الثانية: قوله: ﴿**فَلَا صَدَّقَ**﴾. حكاية عمَّن؟ فيه قولان:

الأول: أنَّه كناية عن الإنسان في قوله: ﴿**أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ**﴾ [القيامة: ٣]. ألا ترى إلى قوله: ﴿**أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى**﴾ [القيامة: ٣٦]؟ وهو معطوف على قوله: ﴿**يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ**﴾ [القيامة: ٦].

والقول الثاني: أنَّ الآية نزلت في أبي جهل.

(ونقول: القول الأول أوْلى؛ لأنَّه أليق بعموم اللفظ، وعموم القرآن).

المسألة الثالثة: في ﴿**يَتَمَطَّىٰٓ**﴾ قولان:

أحدهما: أن أصله يتمطَّط، أي يتمدَّد؛ لأنَّ المتبختر يمدُّ خطاه، فقلبت الطاء فيه ياء، كما قيل في (تقصَّى): أصله تقصَّص.

والثاني: من المَطَا، وهو الظهر؛ لأنَّه يَلويه.

وفي الحديث: «**إذا مشت أُمَّتي المُطَيْطَى**»(١). أي: مِشْيَة المتبختِر.

---

(١) رواه الترمذي في الفتن (٢٢٦١)، وقال: حديث غريب. والبزار (٦١٤١)، والطبراني في الأوسط (٣٥٨٧)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩٥٦)، عن ابن عمر.

QaradawiBooks.com

المسألة الرابعة: قال أهل العربية: (لا) هاهنا في موضع (لم) فقوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ أي: لم يُصدِّق ولم يُصلِّ. وهو كقوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ [البلد: ١١] أي: لم يقتحم.

وكذلك ما رُوِي في الحديث: أرأيت مَن لا أكل ولا شرب ولا استهلَّ[(١)]؟

قال الكسائي[(٢)]: لم أرَ العرب قالت في مثل هذا كلمة وحدها حتَّى تُتبعها بأخرى، إما مصرَّحًا أو مقدَّرًا، أمَّا المصرَّح فلا يقولون: لا عبد الله خارج. حتَّى يقولوا: ولا فلان. ولا يقولون: مررت برجل لا يحسن. حتَّى يقولوا: ولا يُجمل. وأمَّا المقدَّر فهو كقوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ ثمَّ اعترض الكلام، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَـٰمٌ﴾ [البلد: ١٢ ـ ١٤]. وكان التقدير لا فك رقبة، ولا أطعم مسكينًا. فاكتفى به مرَّة واحدة.

ومنهم من قال التقدير في قوله: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ﴾ أي: أفلا اقتحم، وهلَّا اقتحم»[(٣)].

وعيد الكافر المكذِّب المتولي المتكبر المختال:

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ قال ابن كثير: «وهذا تهديد ووعيد أكيد منه تعالى للكافر به، المتبختِر في مِشـيَته، أي: يحقُّ لك أن تمشي هكذا، وقد كفرتَ بخالقك وبارئك، كما يقال في مثل هذا على سبيل التهكُّم والتهديد. كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الطب (٥٧٦٠)، ومسلم في (١٦٨٢)، عن المغيرة بن شعبة.
(٢) الكتاب (٦٠/١)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
(٣) تفسير الرازي (٧٣٦/٣٠).

QaradawiBooks.com

وكقوله: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦]. وكقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصًا لَّهُۥ دِينِي ۝ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ١٤، ١٥]. وكقوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]. إلى غير ذلك.

وذكر ابن أبي حاتم بسنده عن موسى بن أبي عائشة قال: سألتُ سعيد بن جبير قلتُ: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ﴾؟ قال: قاله النبي ﷺ لأبي جهل، ثمَّ نزل به القرآن[1].

وذكر أبو عبد الرحمن النسائي بسنده إلى سعيد بن جبير قال: قلتُ لابن عبَّاس: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ﴾؟ قال: قاله رسول الله ﷺ، ثمَّ أنزله الله عز وجل[2].

وذكر عن قتادة، قوله: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ﴾ وعيدٌ على إثر وعيد، كما تسمعون، وزعموا أن عدوَّ الله أبا جهل أخذ نبيُّ الله بمجامع ثيابه، ثمَّ قال: «﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ﴾». فقال عدوُّ الله أبو جهل: أتوَعَّدُني يا محمَّد؟ واللهِ لا تستطيع أنت ولا ربُّك شيئًا، وإنِّي لأعزُّ مَنْ مشى بين جبليها![3]»[4].

وقال الإمام الفخر الرازي: «ومعنى قوله: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ﴾ بمعنى وَيْل لك، وهو دعاء عليه، بأن يليَه ما يكرهه.

قال القاضي: المعنى: بعُد ذلك، فبُعْدًا لك في أمر دنياك، وبُعْدًا لك في أمر أخراك.

---

(١) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٣٤١٧).

(٢) رواه النسائي في الكبرى (١١٥٧٤)، والحاكم (٥١٠/٢)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، كلاهما في التفسير.

(٣) رواه الطبري في التفسير (٨٢/٢٤).

(٤) تفسير ابن كثير (٢٨٢/٨، ٢٨٣).

QaradawiBooks.com

وقال آخرون: المعنى: الويل لك مرَّة بعد ذلك.

وقال القفَّال: هذا يحتمل وجوهًا:

أحدها: أنَّه وعيد مبتدأ من الله للكافرين.

والثاني: أنَّه شيء قاله النبي ﷺ لعدُوِّه، فاستنكره عدو الله لعزَّته عند نفسه، فأنـزل الله تعالى مثل ذلك.

والثالـث: أن يكون ذلك أمرًا مـن الله لنبيِّه، بـأن يقولها لعدو الله، فيكون المعنى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٣]. فقل له: يا محمد: أوْلى لـك فأوْلى، أي: احـذر، فقد قـرُب منك ما لا قِبَـل لك به من المكروه»[١].

إثبات البعث وتقريره:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾

«قال السُّدِّيُّ: يعني: لا يبعث.

وقال مجاهد، والشـافعي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسـلم: يعني: لا يُؤمر ولا يُنهى.

والظاهر أنَّ الآية تعمُّ الحالَيْن، أي: ليس يترك في هذه الدنيا مهمَلًا لا يُؤمر ولا يُنهى، ولا يُترك في قبره سُدًى لا يبعث، بل هو مأمور منهيٌّ في الدنيا، محشور إلى الله في الدار الآخرة، والمقصود هنا إثبات المعاد،

(١) تفسير الرازي (٣٠/٧٣٦، ٧٣٧).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

والرد على من أنكره من أهل الزَّيْغ والجهل والعناد، ولهذا قال مستدِلًّا على الإعــادة بالبــداءة فقــال: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾؟ أي: أمَّا كان الإنســان نطفةً ضعيفة من ماء مهين؟ ﴿يُمۡنَىٰ﴾: يــراق من الأصلاب في الأرحام.

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾

أي: فصار علقة، ثمَّ مضغة، ثمَّ شُــكِّل ونُفِخَ فيه الرُوح، فصار خلقًا آخر سَوِيًّا سليم الأعضاء، ذكرًا أو أنثى بإذن الله وتقديره؛ ولهذا قال:

﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾

أي: فجعل من الإنسان ﴿ٱلزَّوۡجَيۡنِ﴾ الصنفين، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾ [النساء: ١].

ثم قال:

﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾

أي: أمَّا هذا الَّذي أنشأ هذا الخلق الســويَّ من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه؟

وتناول القدرة للإعادة، إما بطريق الأَوْلى بالنســبة إلى البداءة، وإما مســاوية على القولين في قولــه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم: ٢٧]. والأول أشهر»[١].

(١) تفسير ابن كثير (٢٨٢/٨، ٢٨٣)، مع زيادات.

نسخة مجانية غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

تفسير الرازي لهذه الآيات: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى..﴾:

قال الإمام الفخر الرازي: «واعلم أنَّه تعالى لما ذكر في أول السورة، قوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]. أعاد في آخر السورة ذلك، وذكر في صحَّة البعث والقيامة دليلين:

الأول: قوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]. ونظيره قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ١٥]. وقوله: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

وتقريره: أنَّ إعطاء القدرة والآلة والعقل بدون التكليف، والأمر بالطاعة والنهي عن المفاسد يقتضي كونه تعالى راضيًا بقبائح الأفعال، وذلك لا يليق بحكمته، فإذا لا بدَّ من التكليف، والتكليف لا يحسُن ولا يليق بالكريم الرحيم، إلَّا إذا كان هناك دار الثواب والبعث والقيامة.

الدليل الثاني على صحَّة القول بالحشر: الاستدلال بالخلقة الأولى على الإعادة، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾...

فإن قيل: ما الفائدة في ﴿يُمۡنَىٰ﴾ في قوله: ﴿مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾؟

قلنا: فيه إشارة إلى حقارة حاله. كأنَّه قيل: إنَّه مخلوق من المنيّ الَّذي جرى على مخرج النجاسة، فلا يليق بمثل هذا الشيء أن يتمرد عن طاعة الله تعالى، إلَّا أنَّه عبَّر عن هذا المعنى، على سبيل الرمز كما في قوله تعالى في عيسى ومريم: ﴿كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]. والمراد منه قضاء الحاجة»(١).

(١) تفسير الرازي (٧٣٧/٣٠).

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

كلام قيم لابن القيِّم في تناسب آيات السورة بعضها ببعض، وفي بعض أسرارها

ونختم تفسيرنا لهذه السورة بهذا الكلام القيِّم للإمام ابن القيِّم في خصائص هذه السورة وأهدافها حيث يقول: «﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ وقد تقدَّم ذِكْر هذين القَسَمَيْن، ومناسبة الجمع بينهما في الذكر، وكون الجواب غير مذكور، وأنَّه يجوز أن يكون ممَّا حُذِف لدلالة السياق عليه، والعلم به، ويجوز أن يكون من القسم المقصود به التنبيه على دلالة المُقسَم به، وكونه آيةً ولم يقصد به مقسمًا عليه معيَّنًا، فكأنَّه يقول: اذكر يوم القيامة والنفس اللَّوامة، مقسِمًا بها لكونها من آياتنا وأدلَّة ربوبيتنا.

ثم أنكر على الإنسان بعد هذه الآية حِسْبَانَه وظَنَّه أنَّ الله لا يجمع عظامه بعدما فرَّقها البِلَى، ثمَّ أخبر سبحانه عن قدرته على جمع غيرها من عظامه.

ثم أخبر سبحانه عن سوء حال الإنسان، وإصراره على المعصية والفجور، وأنَّه لا يَرْعَوِي، ولا يخاف يومًا يجمع الله فيه عظامه، ويبعثه حيًّا، بل هو مريد للفجور ما عاش، فيفجر في الحال، ويريد الفجور في غدٍ وما بعدَه، وهذا ضدُّ الَّذي يخاف الله والدار الآخرة، فهذا لا يندم على ما مضى منه، ولا يُقلع في الحال، ولا يعزم في المستقبل على الترك، بل هو عازم على الاستمرار، وهذا ضدُّ التائب المنيب.

ثم نبَّه سبحانه على الحامل له على ذلك، وهو استبعاده ليوم القيامة، وليس هذا استبعادًا لزمنه مع إقراره بوقوعه، بل هو استبعادٌ لوقوعه، كما حكى عنه في موضع آخر قوله: ﴿ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ [ق: ٣].

QaradawiBooks.com

اشتمال السورة على معاني الجمع والضم:

ثم أخبر سبحانه عن حال هذا الإنسان إذا شاهد اليوم الَّذي كذَّب به فقال: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ فبَرِق بصره، أي: يشخُص لما[1] يشاهده من العجائب، الَّتي كان يُكذِّب بها، ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ ذهب ضوؤه وانمحى، وجُمع الشمسُ والقمر، ولم يجتمعا قبل ذلك، بل يجمعهما الَّذي يجمع عظام الإنسان بعدما فرَّقها البِلَى ومزَّقها، ويجمع للإنسان يومئذ جميع عمله، الَّذي قدَّمه وأخَّره، من خيرٍ أو شرٍّ، ويجمع ذلك من جَمَع القرآن في صدر رسوله، ويجمع المؤمنين في دار الكرامة، فيكرم وجوههم بالنظر إليه، ويجمع المكذِّبين في دار الهوان، وهو قادر على ذلك كلِّه، كما جمع خلق الإنسان من نطفةٍ من منيٍّ يُمْنى، ثمَّ جعله علقةً مجتمِعةَ الأجزاءِ، بعدما كانت نطفة متفرِّقة في جميع بدن الإنسان، وكما يجمع بين الإنسان ومَلَك الموت، ويجمع بين الساق والساق، إما ساق الميِّت، أو ساق من يُجهِّز بدنه من البشر، ومَن يجهِّز رُوحَه من الملائكة، أو يجمع عليه شدائد الدنيا والآخرة، فكيف أنكر هذا الإنسان أن يُجمع بينه وبين عمله وجزائه، وأن يُجمع مع بني جنسه ليوم الجَمْع، وأن يُجمع عليه بين أمر الله ونهيه وعبوديته، فلا يترك سُدًى مهمَلًا معطَّلًا، لا يُؤمر ولا ينهى، ولا يُثاب ولا يُعاقب؛ فلا يجمع عليه ذلك.

فما أجمعَ هذه السورةَ لمعاني الجمع والضمِّ!

وقد افتتحت بالقَسَم بيوم القيامة الَّذي يجمع الله فيه بين الأوّلين والآخرين، وبالنفس اللوامة الَّتي اجتمع فيها همومها وغمومها وإرادتها واعتقاداتها، وتضمَّنت ذكرَ المبدأ والمعاد، والقيامة الصغرى والكبرى،

(١) زدنا لفظة: (لما) ليستقيم المعنى.

QaradawiBooks.com

وأحوال النَّاس في المعاد، وانقسـام وجوههم إلى ناظرة منعَّمة وباسرة معذَّبة، وتضمَّنت وصف الروح بأنَّها جسمٌ ينتقل من مكان إلى مكان، فتجمع من تفاريق البدن، حتَّى تبلغ التراقيَ.

الجمع بين جمال الظاهر وجمال الباطن:

ومن **أسرار** هذه السـورة أنَّه سـبحانه جمع فيها لأوليائه بين جمال الظاهر والباطـن، فزيَّن وجوههـم بالنَّضـرة، وبواطِنَهـم بالنظر إليه، فلا أجمل لبواطنهـم، ولا أنعم ولا أحلـى من النظر إليـه، ولا أجمل لظواهرهم من نضْرة الوجه، وهي إشراقه وتحسـينه وبهجته، وهذا كما قال في موضع آخر: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾ [الإنسان: ١١].

ونظيرُه قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ﴾ فهذا جمالُ الظاهر وزينته، ثمَّ قال: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: ٢٦]. فهذا جمال الباطن.

ونظيره قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾، فهذا جمال ظاهرها، ثمَّ قال: ﴿وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ﴾ [الصافات: ٦، ٧]. فهذا جمال باطنها.

ونظيره قوله عن امرأة العزيز بعد أن قالت ليوسف: ﴿ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ۝ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسـف: ٣١، ٣٢]. فذِكْرُهـا لهذا هو من تمام وصفها لمحاسنه، وأنَّه في غاية المحاسن ظاهرًا وباطنًا.

ويُنظر إلى هذا المعنى، ويناسبه قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ﴾ [طـه: ١١٨، ١١٩]. فقابل بين الجوع والعُري؛

QaradawiBooks.com

لأنَّ الجـوع ذلُّ الباطن، والعُري ذل الظاهر، وقابـل بين الظمأ وهو حر الباطن، والضُّحَى وهو حر الظاهر بالبروز للشمس. وقريب من هذا قوله: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]. في ذكر الـزاد الظاهر الحسـي، والزاد الباطن المعنوي، فهذا زاد سـفر الدنيا، وهذا زاد سفر الآخرة. ويَلُمُّ به قول هـود: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢]. فالأول: القوَّة الظاهرة المنفصلـة عنهم، والثاني: الباطنة المتَّصِلة بهم. ويشـبهُه قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطـارق: ١٠]. فنفـى عنهم الدافعَيْـن: الدافع من أنفسهم، والدافع من خارج، وهو الناصر.

قدرة الربِّ سبحانه على ما عُلم أنَّه لا يكون ولا يفعله:

ومن أسـرارها: أنَّهـا تضمنت إثبات قـدرة الرب علـى ما عُلم أنَّه لا يكون ولا يفعله، وهذا على أحد القولين في قوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾، فأخبر أنَّه قادر عليه ولم يفعله ولم يُرده.

وأصرح من هـذا قوله تعالـى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]. وهذا أيضًا على أحد القولين، أي: تغور العيون في الأرض، فلا يقدر على الماء.

قال ابن عبَّاس: يريد أن سيغيض فيذهب، فلا يكون من هذا الباب، بل يكون من باب القدرة على ما سيفعله، وأصرح من هذين الموضعين قولـه تعالـى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعـام: ٦٥]. وقد ثبت عن النبي أنَّه قـال عند نـزول هذه الآية: «**أعوذ بِوَجْهك**»(١).

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٦٢٨)، وأحمد (١٤٣١٦)، عن جابر بن عبد الله.

QaradawiBooks.com

ولكن قد ثبت عنه أنَّه ﷺ لا بدَّ أن يقع في أمته خسف[1]، ولكن لا يكون عامًّا، وهذا عذاب من تحت الأرجل. وروي أنَّـه كان في الأمة قذف أيضًا، وهذا عذاب من فوق، فيكون هذا من باب الإخبار بقدرته على ما سيفعله.

وإن أريد بـه القدرة على عذاب الاستئصال، فهو مـن القدرة على ما لا يريده، وقد صرَّح سبحانه بأنَّه لو شـاء لفعل ما لـم يفعله في غير موضع من كتابه؛ كقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]. وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، ونظائره.

وهذا ممَّا لا خفاء فيه بين أهل السنة، وبه تبيَّن فسادُ قولِ من قال: إنَّ القدرة لا تكون إلَّا مع الفعل لا قبله. وأنَّ الصواب التفصيل بين القدرة الموجِبة والمصحِّحة، فنفي القدرة عن الفاعل قبل الملابسة مطلقًا خطأ. والله أعلم.

التأني والتثبت في تلقي العلم:

ومن أسـرارها: أنَّها تضمنت التأنِّي والتثبُّت في تلقِّـي العلم، وأن لا يحمل السامعَ شدةُ محبَّتِه وحرصه وطلبه على مبادرة المعلِّم بالأخذ قبل فراغه من كلامه، بل من آداب الرب الَّتـي أدَّب بها نبيَّه: أمرُه بترك الاستعجال على تلقِّي الوحي، بل يصبر إلى أن يفرغ جبريلُ من قراءته، ثمَّ يقرأه بعد فراغه عليه، فهكذا ينبغي لطالب العلم ولسـامعه أن يصبر على معلِّمه حتَّى يقضي كلامه، ثمَّ يعيده عليه، أو يسأل عمَّا أشكل عليه منه، ولا يبادره قبل فراغه.

---

(١) إشارة إلى حديث: «... العجب إنَّ ناسًـا من أمتي يؤمون بالبيت برجل من قريش، قد لجأ بالبيت، حتى إذا كانوا بالبيداء خسـف بهم...». رواه مسـلم في الفتـن (٢٨٨٤)، وأحمد (٢٤٧٣٨)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في ثلاثة مواضع من كتابه: هذا أحدها.

والثاني قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۞ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٣، ١١٤].

والثالث قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]. فضمن لرسوله أن لا ينسى ما أقرأه إياه، وهذا يتناول القراءة وما بعدها.

ذمّ الاستعجال وإيثار العاجلة على الآجلة:

وقد ذمَّ اللهُ سبحانه في هذه السورة منْ يؤْثر العاجلة على الآجلة، وهذا لاستعجاله بالتمتُّع بما يُغني وإيثاره ما يبقى، ورتَّب كلَّ ذمٍّ ووعيد في هذه السورة، على هذا الاستعجال ومَحبَّة العاجلة، فإرادتُه أن يفجر أمامه هو من استعجاله، وحب العاجلة وتكذيبه بيوم القيامة من فرْط حب العاجلة وإيثاره لها، واستعجاله بنصيبه وتمتعه به قبل أوانه، ولولا حبُّ العاجلة وطلب الاستعجال لتمتّع به في الآجلة، أكمل ما يكون، وكذلك تكذيبه وتولِّيه.

وترك الصلاة هو من استعجاله ومحبَّته العاجلة، والربُّ سبحانه وصف نفسه بضدّ ذلك، فلم يعجل على عبده، بل أمهله إلى أن بلغت الروح التراقيَ، وأيقن بالموت، وهو إلى هذه الحال مستمرٌّ على التكذيب والتَّولِّي، والربُّ تعالى لا يُعاجله، بل يُمهله، ويُحدث له الذكر شيئًا بعد شيء، ويصرِّف له الآيات، ويضرب له الأمثال ويُنبِّهه على مبدئه، من كونه نطفة من مَنيٍّ يمنى، ثمَّ علقة، ثمَّ خلقًا سويًّا، فلم يعجل عليه بالخلق وهلة واحدة، ولا بالعقوبة؛ إذ كذَّب خبره، وعصى أمره، بل كان خلقه وأمره وجزاؤه بعد تمهيل وتدريج وأناة.

QaradawiBooks.com

ولهذا ذمَّ الإنسان بالعجلة بقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]. وقال: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

غير مرخصة للطباعة

إثبات النبوة والمعاد بطريق العقل:

ومن أسرارها: أنَّ إثبات النبوَّة والمعاد يُعلم بالعقل، وهذا أحد القولين لأصحابنا وغيرهم، وهو الصواب، فإنَّ الله سبحانه أنكر على مَن حسب أنَّه يُترك سُدًى، فلا يُؤْمَر ولا يُنهى، ولا يُثاب ولا يُعَاقب، ولم ينفِ سبحانه ذلك بطريق الخبر المجرَّد، بل نفاه نفيَ ما لا يليق نسبته إليه، ونفيَ منكِر على من حكم به وظنَّه، ثمَّ استدلَّ سبحانه على فساد ذلك، وبيَّن أن خلقه الإنسانَ في هذه الأطوار وتنقُّله فيها طوْرًا بعد طوْر، حتَّى بلغ نهايته يأبى أن يتركه سُدًى، فإنه يُنزه عن ذلك كما يُنزه عن العبث والعيب والنقص.

وهذه طريقة القرآن في غير موضع، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. فجعل كمالَ ملكه، وكونه سبحانه الحقَّ، وكونَه لا إلٰه إلَّا هو، وكونه ربَّ العرش، المستلزِم لربوبيته لكل ما دونه؛ مبطلًا لذلك الظنّ الباطل، والحكم الكاذب، وإنكار هذا الحِسْبان عليهم؛ مثل إنكاره عليهم حِسبَانهم أنَّه لا يسمع سرَّهم ونجواهم، وحِسْبَان أنَّه لا يراهم، ولا يقدر عليهم، وحِسبان أنَّه يسوِّي بين أوليائه وبين أعدائه في محياهم ومماتهم، وغير ذلك ممَّا هو منزهٌ عنه تنزيهَه عن سائر العيوب والنقائص، وأن نسبة ذلك كنسبة ما يتعالى عنه، ممَّا لا يليق من اتخاذ الولد والشريك، ونحو ذلك ممَّا ينكره سبحانَه على من حسبه أشدَّ الإنكار، فدلَّ على أن ذلك قبيح ممتنعٌ نسبته إليه، كما يمتنع أن ينسُب إليه سائر ما ينافي كمالَه المقدَّس.

QaradawiBooks.com

ولو كان نفيُ تركه سُـدًى، إنَّما يُعلَم بالسـمع المُجرَّد لم يقل بعد ذلك: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً﴾ إلى آخـره. ومما يدلُّ أن تعطيل أسـمائه وصفاته ممتنع، وكذلك تعطيل موجِبِها ومقتضاها، فإن ملكه الحق يستلزم أمره ونهيه، وثوابه وعقابه، وكذلك يستلزم إرسال رسله، وإنـزال كتبه، وبعث المعاد ليوم يجزى فيه المحسِن بإحسـانه، والمسيء بإساءته، فمن أنكر ذلك فقد أنكر حقيقة ملكه، ولم يُثبِت له الملك الحق....

وكذلك إذا اعتبَرْت اسمه الحيَّ، وجدته مقتضيًا لصفات كماله، من عِلمه وسـمعه وبصره، وقدرته وإرادته ورحمته، وفعله ما يشاء. واسمه القيوم مقتضٍ لتدبير أمـر العالم العلويِّ والسـفليِّ، وقيامه بمصالحه، وحفظه له، فمن أنكر صفـاتِ كماله لم يؤمن بأنَّه الحي القيوم، وإن أقرَّ بذلك ألحد في أسمائه، وعطَّل حقائقها؛ حيث لم يمكنه تعطيل ألفاظها، وبالله التوفيق»[1].

انتهى تفسير السورة، ولله الفضل والمنَّة.

* * *

(١) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم صـ ١٤٦ ـ ١٦٣ باختصار.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

تفسير سورة الإنسان

ملامح حول السورة:

السورة مكيَّة، كما قال أهل التأويل وعلماء القرآن، وإن ورد أنَّ بعضهم خالف في ذلك، فقال: إنَّها مدنيَّة، إلَّا قوله تعالى فيها: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ إلى آخر السورة، وبعضهم استثنى آية واحدة، وهي: قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾.

وكثيرًا ما نرى بعض المفسِّرين وعلماء القرآن ـ إن صحَّت الرواية عنهم ـ يدَّعون عن آية أو أكثر من السورة أنَّها مدنيَّة والسورة مكيَّة، أو أنَّها مكية والسورة مدنيَّة، وحين تقرأ السورة وحدك من غير أحد من حولك، تجد السورة سائغة، ليس فيها شيء خارج عن نسقها، ولا عن موضوعها، ولا عن روحها، والآية أو الأكثر الَّتي قيل عنها: إنَّها مخالفة للسورة في مدنيتها أو مكيّتها؛ ماضية مع السورة بلا خلل.

وقد روى مسلم في صحيحه عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة بـ ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ﴾ (أي: سورة السجدة) في الركعة الأولى، وفي الثانية: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾[1].

(١) رواه مسلم في الجمعة (٨٧٩)، وأحمد (٢٤٥٦).

نسخة إلكترونية

QaradawiBooks.com

أغراض السورة:

وأغراض هذه السورة مثل أغراض السور المكيَّة عامَّة، من إثبات العقائد، والمبادئ الأساسيَّة التوحيديَّة والعباديَّة والأخلاقيَّة، وأول ما بَدَأت به خلق الإنسان، وأنَّه أوَّلَ ما بدأ لم يكن شيئًا مذكورًا، ثمَّ خلق الله هذا الإنسان من نطفة أمشاج، مُكوَّنة من الرجل والمرأة؛ ليختبره، وأعطاه السمعَ والبصر، وهدى الله هذا المخلوق السبيل، ليشكرَ أو يفجُر، ويؤمن أو يكفر. فأما من كفر به فقد أعدَّ له سلاسل لتقيِّده، وأغلالًا لتخنقه، وسعيرًا لتحرقه، وأمَّا من آمن وبر في إيمانه، فقد هيَّأ الله له حياة أخرى تليق بالأبرار، الَّذين يوفون بالنذر، ويخافون يومًا كان شرُّه مستطيرًا، ويبذلون من أموالهم وطعامهم ـ وهم يشتهونها ويحبُّونها ـ للمساكين واليتامى والأسارى، وإن كانوا مشركين، لا يريدون منهم جزاء ولا شكورًا، إنَّما يعطونهم ويطعمونهم لوجْه الله وحده، دون أي عامل آخر. وقد جازاهم الله على ذلك خير الجزاء، فهيَّأ لهم في الجنَّة كل أسباب النعيم، والشراب الممزوج بكل ما يُحَبُّ، وحُلُّوا من الأساور ما لم يعهد النَّاس، وما لا يحلمون به، وكان هذا لهم جزاء، وكان سعيهم مشكورًا.

وبعد أَنْ ختمت السورة بالآيات الَّتي أمر فيها عباده المؤمنين بذكر الله تعالى ودعائه وتسبيحه والسجود له، بكرةً وأصيلًا، وفي أعماق الليل أن يسبِّحوه ليلًا طويلًا، بيَّن لهم أن أعداءهم ليسوا إلَّا مجموعة من عبيد الدنيا، الَّذين يحبُّون العاجلة، وينسون ما وراء ذلك من أمور الآخرة، وهي أمور ثقيلة، وخصوصًا على مَنْ لا يؤمن بالآخرة. ثمَّ بيَّن الله تعالى أنَّه خلقهم، وشدَّ أسْرهم، ولو شاء غيَّرهم وبدَّل أمثالهم تبديلًا، وبيَّن أن هذه السورة موعظة وتذكرة، فمن شاء أن يتَذكَّر تذكَّر، ولن يشاء الإنسان

QaradawiBooks.com

إلَّا أن يشـــاء الله، فهو الَّذي وهب له العلـــم والإرادة والقدرة، كلها من عنده، فمن شاء أدخله في رحمته، فيسَّر له فعل الخير، ولطف به، وأنعم عليه، ولكن من فرَّط، فليس له إلَّا العذاب الأليم.

بداية تفسير السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾

قال العلَّامة ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في «تفسير القرآن العظيم»، في أول تفسير سورة الإنسان: (يقول تعالى مخبِرًا عن الإنسان أنَّه أوجده بعد أن لم يكن شـيئًا يُذكَر لحقارته وضعفه، فقال تعالـــى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾.

ثم بيَّن ذلك فقـــال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي: أخلاط، والمشج والمشيج: الشـيء المختلِط بعضُه في بعض. قال ابن عبَّاس فـــي قوله تعالـــى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ يعني: مـــاءَ الرجل وماءَ المرأة، إذا اجتمعا واختلطا، ثمَّ ينتقل بعدُ مِن طَوْر إلى طور، وحال إلى حال، ولَوْن إلى لون.

وهكذا قول عكرمة ومجاهد والحسن والربيع بن أنس: الأمشاج هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة[1])[2].

(١) روى هذه الآثار ابن جرير في التفسير (٨٩/٢٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٢٨٥/٨).

QaradawiBooks.com

أقول: وماء الرجل وماء المرأة اللذان جاءا في التفسـير المأثور، هو ما يُعبِّر عنه فـي عصرنا رجالُ العلـم الطبيعي ـ أو علـم الأحياء ـ بما يسمُّونه (الحيوان المنوي)، وهو واحد من ملايين الحيوانات، أو مئات الملايين الَّتـي تحويها القذفة الواحدة من الرجـل، وبويضة المرأة الَّتي تفرز المرأة في كل دورة شهريَّة، والنطفة الأمشاج هي البويضة الملقّحة الناتجة عن تخصيب البويضة بالحيوان المنوي.

وقولـه تعالـى: ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ أي: نختبره، ونعاملـه معاملـة المختَبر والمُمْتَحن، كقوله جَلَّالَهُ: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [الملك: ٢]. أي: ليختبركم أيُّكم أفضل عملًا، وأكثر إحكامًا وإتقانًا.

﴿فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ أي: جعلنا له سمعًا وبصرًا، يتمكَّن بهما من الطاعة والمعصية.

وقد قال ربُّنا في سـورة النحل: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. فـزاد على ما ذكر هنا الأفئدة ـ وهي العقـول الَّتي قد يعبَّر عنها بالقلوب ـ بعد الأسماع والأبصار.

قال العلَّامة شهاب الدين محمود الآلوسي في تفسيره (روح المعاني): «والمراد بالإنسـان: الجنس، على ما أخرجه ابن المنذر عن ابن عباس. والحين: طائفة محدودة من الزمان، شاملة للكثير والقليل. والدَّهْر: الزمان الممتدُّ الغَيْر المحدود، ويقع على مُـدَّة العالم جميعها، وعلى كل زمان طويل غير معيَّن، والزمان عامٌّ للكلِّ، والدهر وعاء الزمان.

والمعنى هنـا: قد أتى ـ أو: هَلْ أَتَـى ـ عَلَى جنس الْإِنْسـانِ قبل زمان قريب، طائفة محدودة مقدرة كائنة من الزمان الممتد ﴿لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾،

QaradawiBooks.com

بل كان شيئًا غير مذكور بالإنسانيَّة أصلًا، أي: غير معروف بها، على أنَّ النفي راجع إلى القيد (أي: مذكورًا)، والمراد: أنَّه معدوم لم يوجَد بنفسه، بل كان الموجود أصله، ممَّا لا يُسمَّى إنسانًا، ولا يُعرف بعنوان الإنسانيَّة، وهو مادَّته البعيدة ـ أعني: العناصر ـ أو المتوسطة، وهي الأغذية، أو القريبة، وهي النُّطفة المتولِّدة من الأغذية المخلوقة من العناصر، وجملة: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ إلخ: حال من الإنسان، أي غير مذكور... وإطلاق الْإِنْسانِ على مادته مجاز بجعل ما هو بالقوة منزلًا منزلة ما هو بالفعل، أو هو من مجاز الأول، وقيل: المراد بالإنسان آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ. وأُيِّد الأول بقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾؛ فإنَّ الإنسان فيه معرِفة مُعادة[1]، فلا يفترقان، كيف وفي إقامة الظاهر مقام المضمَر[2] فضل التقرير والتمكين في النفس، فإذا اختلفا عمومًا وخصوصًا فاتت الملاءمة...

﴿أَمْشَاجٍ﴾ جمع مَشَج بفتحتين كـ(سبب وأسباب)، أو مَشِج بفتح فكسر كـ(كتف وأكتاف)، أو مَشيج كـ(شهيد وأشهاد، ونصير وأنصار) أي: أخلاط جمع خِلْط، بمعنى مختلط ممتزج. يقال: مَشَجْت الشيءَ: إذا خلطته ومزجته، فهو مشيج وممشوج. وهو صفة لـ ﴿نُّطْفَةٍ﴾ ووُصِف بالجمع، وهي مفردة؛ لأنَّ المراد بها مجموع ماء الرجل والمرأة، والجمع قد يقال على ما فوق الواحد، أو باعتبار الأجزاء المختلفة فيهما رقَّة وغِلَظًا، وصفرة وبياضًا، وطبيعة وقوة وضعفًا، حتَّى اختص بعضها ببعض الأعضاء على ما أراده الله تعالى بحكمته، فخلقه بقدرته.

(١) أي الاسم المعرف باللام إذا أعيد كان الثاني عين الأول، فحين أُعيد (الإنسان) وبيَّن أنَّ المراد بالإنسان جنس بني آدم، لقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾، عُلم أنَّ السابق كذلك.

(٢) أي (الإنسان) الثاني مظهر وضع موضع المضمر لإفادة الترقي، أي: كالشيء المنسيّ الذي لا يلتفت إليه ولا يذكر، فإنا قلبناه في الأطوار المتباينة والأحوال المتخالفة، وجعلناه ممَّا يذكر ويعتبر. انظر: حاشية الطيبي (١٦/١٨٠).

QaradawiBooks.com

وقوله تعالــى: ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ حال مــن فاعل ﴿خَلَقۡنَا﴾، والمــراد: مريدين ابتلاءه واختباره بالتكليف فيما بعد، على أنَّ الحال مقدَّرة. أو ناقلين له من حال إلى حال، ومن طَوْر إلى طوْر، على طريقة الاســتعارة؛ لأنَّ المنقول يظهر في كل طَوْر ظهورًا آخر، كظهور نتيجة الابتلاء والامتحان بعده.

وهذا الجَعْل كالمُسبَّب عن الابتلاء؛ لأنَّ المقصود من جعله كذلك أن ينظر الآيات الآفاقيَّة والأنفُســيَّة، ويســمع الأدلَّة السمعيَّة، فلذلك عطف على الخلــق المقيَّد به بالفــاء، ورتَّب عليه قولــه تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾»[١].

وممَّا ذكره المفسِّــرون في تفسير أوائل هذه الســورة، ما قاله الفخر الرازي عن معنى قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾: «فإن قيل: إنَّ الطين والصَّلصَال والحمأ المســنون قبل نفخ الروح فيه، ما كان إنسانًا، والآية تقتضي أنَّه قد مضى على الإنســان ـ حال كونه إنسانًا ـ حينٌ من الدهر، مع أنَّه في ذلك الحين ما كان شيئًا مذكورًا. قلنا: إنَّ الطين والصَّلْصَال إذا كان مُصوَّرًا بصورة الإنسان، ويكون محكومًا عليه بأنَّه سينفخ فيه الروح، وسيصير إنسانًا؛ صَحَّ تسميته بأنَّه إنسان»[٢].

كلام صاحب الظلال عن النطفة الأمشاج:

ولخَّص صاحب الظلال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ ما قاله علمــاء الأجنَّة المعاصرون في النطفة الأمشــاج بقلمه البليغ، فقال: «والأمشاج: الأخلاط. وربَّما كانت هذه إشارة إلى تكوُّن النُّطْفة من خلية الذكر، وبويضة الأنثى بعد التلقيح.

(١) تفسير الآلوسي (١٥/١٦٧ ـ ١٦٩)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.
(٢) تفسير الرازي (٣٠/٧٣٩).

QaradawiBooks.com

وربما كانت هذه الأخلاط تعني الوراثات الكامنة في النطفة، والَّتي يمثلها ما يسمُّونه علميًّا (الجينات)، وهي وحدات الوراثة الحاملة للصفات المُميِّزة لجنس الإنسان أولًا، ولصفات الجنين العائلية أخيرًا، وإليها يُعْزَى سَيْرُ النُّطفة الإنسانيَّة في رحلتها لتكوين جنينِ إنسانٍ، لا جنينِ أيِّ حيوان آخر، كما تُعزَى إليها وراثةُ الصفات الخاصَّة في الأسرة، ولعلها هي هذه الأمشاج المختلطة من وراثات شتَّى، خلقته يدُ القدرة هكذا من نطفة أمشاج، لا عبثًا ولا جُزافًا ولا تسلية، ولكنَّه خُلِقَ ليُبتلى ويُمتحن ويُختبر.

والله سبحانه يعلم ما هو؟ وما اختباره؟ وما ثمرةُ اختباره؟ ولكن المراد أن يظهر ذلك على مسرح الوجود، وأن تترتَّب عليه آثاره المُقدَّرة في كيان الوجود، وأن تَتْبعه آثاره المقدَّرة، ويُجزى وَفق ما يظهر من نتائج ابتلائه.

ومِنْ ثَمَّ جعله سميعًا بصيرًا، أيْ: زوَّده بوسائل الإدراك، ليستطيع التلقِّي والاستجابة. وليدرك الأشياء والقيم، ويحكم عليها ويختار، ويجتاز الابتلاء وَفق ما يختار.

إذن فإنَّ إرادة الله في امتداد هذا الجنس، وتكرُّر أفراده بالوسيلة الَّتي قدَّرها ـ وهي خِلْقَته من نطفةٍ أمشاجٍ ـ كانت وراءها حكمة، وكان وراءها قصد، ولم تكن فلتة، كان وراءها ابتلاءُ هذا الكائن واختباره، ومن ثَمَّ وُهِب الاستعداد للتلقِّي والاستجابة، والمعرفة والاختبار، وكان كل شيء في خلقه وتزويده بالمدارك وابتلائه في الحياة بمقدار»[1].

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب (٣٧٨٠/٦).

QaradawiBooks.com

كلام الدكتور زغلول النجار حول نطفة الرجل والمرأة في تكوّن الأجنّة:

يقول الدكتور زغلول النجار في موسوعته العلمية القرآنية: «على الرغم من أن قضية تكوُّن الأجنَّة قد شغلت بال الإنسان منذ أن وطئت قدماه سطح الأرض، إلَّا أنَّ العلوم المكتَسبة لم تصل إلى معرفة دور كل من نطفة الرجل (الحيوان المنوي ـ الحيمن) ونطفة المرأة (البييضة) في ذلك التكوُّن، إلَّا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وبعد مجاهدة استغرقت عشرات القرون، ومئات من العلماء.

ومن هنا، فإنَّ الإشارة القرآنيَّة إلى خلق الإنسان من نطفة أمشاج (أي مختلطة)، وفي أوائل القرن السابع الميلادي؛ يعتبر سبقًا علميًّا يشهد للقرآن الكريم بأنَّه لا يمكن أن يكون صناعة بشريَّة، بل هو كلام الله الخالق، الَّذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، كما يشهد للنبيِّ والرسول الخاتم، الَّذي تلقَّاه بالنبوة وبالرسالة، ويشهد له بذلك ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، حيث قال: مرَّ يهودي برسول الله ﷺ وهو يُحدِّث أصحابه، فقالت قريش: يا يهودي، إنَّ هذا يزعم أنَّه نبيٌّ. فقال: لأسألنَّه عن شيء لا يعلمه إلَّا نبيّ. قال: فجاء حتَّى جلس، ثمَّ قال: يا محمد، ممَّ يُخلق الإنسان؟ فقال رسول الله ﷺ: «**يا يهوديُّ، من كلٍّ يُخلَق، من نطفةِ الرَّجُل، ومن نُطفة المرأة**»[1]. والحديث مذكِّرة تفسيرية واضحة الدلالة للآية القرآنية الكريمة الَّتي نحن بصددها؛ وذلك لأن مصطلح (النطفة) كما يُطلق على (الحيمن) يطلق على (البُيَيضة)، ومصطلح النطفة

---

(١) رواه أحمد (٤٤٣٨)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. والنسائي في عشرة النساء (٩٠٢٧)، والبزار (٢٠٠٠)، والطبراني (١٧٢/١٠)، وقال الهيثمي (١٣٩٠١): رواه أحمد، والطبراني، والبزار بإسنادين وفي أحد إسناديه عامر بن مدرك، وثقه ابن حبان وضعفه غيره، وبقية رجاله ثقات، وفي إسناد الجماعة عطاء ابن السائب، وقد اختلط.

QaradawiBooks.com

(الأمشـاج) ـ أي: المختلطة ـ يُطلق على اتحاد هاتين النطفتين وتكوين النطفة المُخَصَّبة الَّتي تعرف باسـم اللُّقَيْحة (Fertilized Ovumor Zygote) الَّتي تسـتمر في الانقسـام حتَّى تنغرس في بطانة جدار الرحم، فتعرف حينئذ باسم الأرُومة الجُرثومية المُنغرِسة (Implanted Blastula) أو مرحلة العلقة (Leech_like stage).

والنطفة لغة هي الماء الصافي قلَّ أو كثر، والجمع (نِطَاف) و(نُطُف)، ويعبر بها عن ماء التكاثر (التناسل)»[1].

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾:

أي: إنّا أرشـدناه إلى طريق الهـدى بنصب الدلائل وبعثة الرسـل وإنـزال الكتـب؛ ليكون بعد ظروف الامتحان: إما شـاكرًا مُوَحِّدًا طائعًا مُقرًّا معترفًا بوجوب شكر خالقه سبحانه، وإمَّا أن يكون مبالغًا في كفره جحودًا نِعَمَ الله عليه، لا يُقدِّم من الشكر مقدار ذرَّةٍ من إيمان بالله وامتثال لتكاليفه، فهو يستحقُّ الخلود في عذاب النار.

قال الآلوسـي: «﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾؛ جملة مسـتَأْنفة تعليليَّة؛ في معنى: لأنَّا هدينـاه. أي: دللناه علـى ما يوصله: من الدلائل السـمعية كالآيات التنزيليَّة، والعقليَّة كالآيات الأفاقيَّة والأنفُسيَّة، وهو إنَّما يكون بعد التكليف والابتلاء.

﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ حالان من مفعول (هدينا)، وإما للتفصيل باعتبار تعـدُّد الأحوال مـع اتحاد الـذات، أي: هدينـاه ودللناه على ما يوصل إلى البُغية، في حالتيه جميعًا، من الشكر والكفر. أو للتقسيم

(١) موسوعة الإعجاز العلمي للدكتور زغلول النجار (١٨٥/٤).

QaradawiBooks.com

للمَهديِّ باختلاف الذوات والصفات، أي: هديناه السبيل، مقسومًا إليها، بعضهم شـاكر بالاهتداء للحق وطريقـه بالأخذ فيـه، وبعضهم كفور بالإعراض عنه، وحاصلـه: دللناه على الهداية والإسـلام، فمنهم مهتد مسلم، ومنهم ضال كافر.

وإيراد (الكَفُور) بصيغة المبالغة؛ لمراعاة الفواصل، والإشـعار بأنَّ الإنسان قلَّما يخلو من كفرانٍ ما، وإنَّما المُؤَاخَذ عليه الكفر المُفْرِط)[١].

قال البدر ابن جماعة في «كشـف المعاني في المتشابه من المثاني»: «قوله تعالى: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ولم يقل (شكورا) لمطابقة كفورا.

جوابه: أنَّه جاء باللفظ الأعم؛ لأن كل شكور شاكر وليس كل شاكر شـكورا، أو قصد المبالغة في جانب الكفر ذمًّا لـه لأن كل كافر كفور بالنسبة إلى نعم الله عليه»[٢].

وقال العلَّامة ابن كثير: «وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: بيَّنَّاه له ووضَّحنـاه وبصَّرناه به، كقوله جـل وعلا: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]. وكقوله جل وعلا: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]. أي: بيَّنَّا له طريق الخير وطريق الشر، وهذا قول عكرمة وعطية وابن زيد ومجاهد في المشهور عنه والجمهور.

ومعنى هذا: أنَّ الله تعالى منذ خلق الإنسـان، لـم يتركه مهملًا، بل زوَّده بما لا بدَّ له منه. فهداه السـبيل وبيَّن له الحـق، وهداه النَّجْدين، ليعمل وَفْق ما يختاره عقله، وتهدي إليه بصيرته؛ إما شاكرًا وإما كفورًا.

---

(١) تفسير الآلوسي (١٥/١٦٩).

(٢) كشف المعاني صـ ٣٦٩، ٣٧٠، تحقيق د. عبد الجواد خلف، نشر دار الوفاء، المنصورة، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

QaradawiBooks.com

وقوله تعالى: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ منصوب على الحال من الهاء في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ تقديره فهو في ذلك إمَّا شقيٌّ، وإمَّا سعيد. كما جاء في الحديث الَّذي رواه مسلم، عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل النَّاس يغدو، فبائعٌ نفسَه فمعتِقُها أو موبِقُها**»(١).

ورواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله، أنَّ النبيَّ ﷺ قال لكعب بن عُجْرَة: «**أعاذك اللهُ من إمارةِ السفهاء**». قال: وما إمارة السفهاء؟ قال: «**أمراءُ يكونون من بعدي، لا يهتدون بهداي، ولا يَستنُّون بسُنَّتي، فمن صَدَّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم؛ فأولئك ليسوا مِنِّي ولستُ منهم، ولا يَرِدُون عليَّ حوضي، ومن لم يصدِّقْهم بكذبهم، ولم يُعِنْهم على ظلمهم، فأولئك منِّي وأنا منهم، وسيَرِدُون عليَّ حوضي. يا كعب بن عُجْرة، الصوم جُنَّة، والصدقة تطفئ الخطيئة، والصلاة قُرُبان** ـ أو قال: بُرهَان ـ **يا كعبَ بن عُجْرة، إنَّه لا يدخل الجنَّة لحمٌ نَبَت من سُحْتٍ، النارُ أولى به. يا كعبُ، الناسُ غاديان: فمبتاعٌ نفسَه فمعتِقُها، وبائعٌ نفسَه فمُوبِقُها**»(٢).

ورواه عن عفَّان، عن وُهَيب، عن عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم به بلفظ: «**النَّاس غاديان: فغادٍ بائعٌ نفسَه وموبقٌ رقبتَه، وغادٍ مبتاعٌ نفسَه ومعتِقٌ رقبته**»(٣).

وقد ذكر العلماء في تفسير قوله جلَّ جلاله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] من سورة الروم، ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال

(١) رواه مسلم في الطهارة (٢٢٣)، وأحمد (٢٢٩٠٢)، والترمذي في الدعوات (٣٥١٧).

(٢) رواه أحمد (١٤٤٤١)، وقال مخرِّجوه: إسناده قوي على شرط مسلم. والترمذي في السفر (٦١٤)، وقال: حسن غريب. وابن حبان في الصلاة (١٧٢٣)، والحاكم في الفتن والملاحم (٤٢٢/٤)، وصحَّح إسناده ووافقه الذهبي.

(٣) رواه أحمد (١٥٢٨٤)، وقال مخرِّجوه: إسناده قوي على شرط مسلم.

QaradawiBooks.com

رسول الله ﷺ: «**كلُّ مولودٍ يُولَد على الفطرة، حتَّى يُعْرِب عنه لسانُه، فإذا أعرب عنه لسانُه، فـ ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾**»[(١)].

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي هُرَيرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**ما من خارجٍ يخرج إلَّا ببابِه رايتان: رايةٌ بيد مَلَك، ورايةٌ بيدِ شيطان، فإن خرج لِمَا يحبُّ الله اتَّبعه الملك برايتـه، فلم يزل تحت راية المَلَك حتَّى يرجع إلى بيته، وإن خرج لِمَا يُسخِط اللهَ اتَّبعه الشيطانُ برايته، فلم يزل تحت راية الشيطان حتَّى يرجع إلى بيته**»[(٢)][(٣)].

بيان سوء حال الكافرين وحُسن حال الأبرار الشاكرين:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾

قال ابن كثير رحمه الله: «يخبر تعالى عمَّا أرصـدَه للكافرين من خلقه به، من السلاسـل والأغلال والسـعير، وهو اللَّهَب والحريق في نار

---

(١) رواه أحمد (١٤٨٠٥)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٩٩٩).

(٢) رواه أحمد (٨٢٨٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. والطبراني في الأوسط (٤٧٨٦)، والبيهقي في الزهد الكبير (٧٠٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٥٦): رواه أحمد والطبراني في الأوسط، وفيه عبد الرحمن بن أبي الزناد، وثقه مالك، وضعفه أحمد ويحيى في رواية.

(٣) تفسير ابن كثير (٨/٢٨٥، ٢٨٦).

QaradawiBooks.com

جهنَّم، كما قال: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾»[1] [غافر: ٧٢، ٧٣].

وقد بيَّن تعالى نوع هذه السلاسل بذرعها في قوله تعالى: ﴿فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ [الحاقة: ٣٢].

وقال الآلوسي في تفسير هذه الآية: «﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾ هيَّأنا. ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ من أفراد الإنسان الَّذي هديناه السبيل. ﴿سَلَٰسِلَا۟﴾ بها يُقادون. ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾ بها يقيَّدون. ﴿وَسَعِيرًا﴾ بها يُحرقون.

وتقديم وعيدهم مع تأخُّرهم؛ للجمع بينهما في الذكر، كما في قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦] الآية، ولأنَّ الإنذار أنسبُ بالمقام، وحقيق بالاهتمام، ولأن تصدير الكلام وختمه بذكر المؤمنين أحسن، على أن وصفهم تفصيلًا ربَّما يُخلُّ تقديمه بتجارب أطراف النَّظْم الكريم»[2].

شراب الأبرار في الجنة:

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾

قال ابن كثير: «ولمَّا ذكر ما أعدَّه لهؤلاء الأشقياء من السعير قال بعده: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ وقد علم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة، مع ما يضاف إلى ذلك من اللَّذاذة في الجنة.

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٨٧).
(٢) تفسير الآلوسي (١٥/١٦٩).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

قال الحسن: بَرْد الكافور في طِيبِ الزَّنْجبيل. ولهذا قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: هذا الَّذي مُزِج لهؤلاء الأبرار من الكافور، هو عينٌ يشــرب بها المقرَّبون من عباد الله صَرْفًا بلا مَزْج، ويَرْوَوْن بها؛ ولهذا ضَمَّنَ (يشــرب) معنى (يروى) حتَّى عدَّاه بالباء، ونصب ﴿عَيْنًا﴾ على التمييز.

قال بعضهم: هذا الشــراب في طِيبه كالكافور. وقال بعضهم: هو من عَيْن كافور. وقال بعضهم: يجوز أن يكــون منصوبًا بـ ﴿يَشْرَبُ﴾، حكى هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير.

وقوله تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: يتصرَّفون فيها حيث شاؤوا وأين شاؤوا، من قصورهم ودورهم، ومجالسهم ومحالِّهم.

والتفجير هو الإنْباع، كما قالَ تَعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠]. وقال: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: ٣٣].

وقال مجاهد: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ يقودونها حيث شــاؤوا[(١)]. وكذا قال عكرمة، وقتادة. وقال الثوري: يصرفونها حيث شاؤوا[(٢)]»[(٣)].

وقال الآلوسي: «﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ شروع في بيان حُسن حال الشاكرين، إثر بيان حال سوء الكافرين. وإيرادهم بعنوان البر؛ للإشعار بما استحقُّوا به ما نالوه من الكرامة السَّنِيَّة، مع تجديد صفة مدحٍ لهم.

والأبرار جمع بَرّ، كـ(ربٍّ وأرباب) أو بارٍّ، كـ(شــاهد وأشهاد) بناء

(١) رواه الطبري في التفسير (٢٤/٩٤).

(٢) المصدر السابق (٢٤/٩٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٨/٢٨٧).

QaradawiBooks.com

على أن (فاعلًا) يُجمع على (أفعال)، والبَرُّ: المطيع المُتَوسِّع في فعل الخير، وقيل: مَنْ يُؤدِّي حقَّ الله تعالى، ويوفي بالنذر.

وعن الحسن: هو الَّذي لا يؤذي الذَّرَّ (أي: صغار النمل)، ولا يرضى الشرَّ»(١).

معنى البر وحقيقته:

قال القرضاوي: والقرآن الكريم قد شرح معنى الأبرار حين شرح معنى البر، وبيَّن حقيقته في سورة البقرة لليهود، الَّذين اهتمُّوا بالشكل، ونسُوا الموضوع، واهتموا بالمظهر ونسوا الجوهر، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

فذكرت الآية برَّ العقيدة: وهو الإيمان بالأركان الخمسة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وبر العمل: إيتاء المال على حبه ذوي القربى واليتامى، إلخ، وبر العبادة: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وبر الأخلاق: ويتمثل في الوفاء بالعهد، والصبر في السراء والضراء وحين البأس. ثمَّ قال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ بمعنى أن هؤلاء هم أهل الصدق وأهل التقوى، وهم أهل البر (أو الأبرار) الحقيقيون.

(١) تفسير الآلوسي (١٥/١٧٠).

QaradawiBooks.com

هل حسنات الأبرار سيئات المقربين كما قيل؟

فما معنى قولهم: حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين! مع أنَّ الله تعالى ذكر لنا في كتابه ما لأولي الألباب الَّذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، من منازل عالية في جناته ورضوانه، وهم الَّذين قالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩١ ـ ١٩٣]؟ فانظر هذا الدعاء الجامع الرائع، وما فيه من فهم رفيع لمقام الألوهيَّة، وانظر كيف سألوا ربَّهم سبحانه أن يتوفَّاهم مع الأبرار، دلالة على أن هؤلاء الأبرار في منزلة عالية، يتمنَّى الصالحون المتقون أن يكونوا فيها.

أمَّا قولهم: (حسنات الأبرار سيئات المقربين) فمبنيٌّ على أنَّ الأبرار هم الفئة المتوسطة، وهم أصحاب اليمين الَّذين ذكرهم الله في سورة الواقعة، الَّذين هم أقل رتبة من السابقين، الَّذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١]. وهم المقتصدون، الَّذين ذكرهم الله في سورة فاطر، حين قال: ﴿أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

ولكنَّ الأبرار الَّذين أشار إليهم أولو الألباب في سورة آل عمران، والذين ذكرهم الله في سورة الإنسان ووصفهم بأوصاف لا تعدّ من أوصاف المقتصدين، بل هي من أعلى الصفات وأرقاها، فقد وصفهم الله بالوفاء بالنذر، وبالخوف من يوم القيامة، وإطعام الطعام على حبه،

QaradawiBooks.com

مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا، لا ينتظرون جزاء ولا شكورًا، بل لوجه الله وحده، وقولهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ دلالة على أنَّهم في المقام الأعلى.

لذا فأنا أرى أن هؤلاء ليسوا أقل منزلة من أيِّ فئة سواهم، ندعو الله أن يجعلنا منهم ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وصف شراب الأبرار:

ثم قال الآلوسي في وصف شراب الأبرار: (﴿يَشْرَبُونَ﴾ في الآخرة ﴿مِن كَأْسٍ﴾ هي ـ كما قال الزجّاج ـ «الإناء إذا كان فيه الشراب، فإذا لم يكن لم يُسمَّ كأسًا»[1].

وقال الراغب: «الكأس: الإناء بما فيه من الشراب، ويُسمَّى كلُّ واحد منهما بانفراده كأسًا»[2]. والمشهور أنَّها تطلق حقيقة على الزجاجة إذا كانت فيها خمر، ومجازًا على الخمر بعلاقة المجاورة، والمراد بها هاهنا: قيل: الخمر. فـ(مِنْ) تبعيضية أو بيانية. وقيل: الزجاجة الَّتي فيها الخمر فـ(مِنْ) ابتدائية.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ أظهر ملاءمة للأول، والظاهر أن هذا على منوال ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]. والمجيء بالفعل للتحقيق والدوام، وقيل: كانَ تامَّة، من قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]. والمِزَاج: ما يُمزج به، كالحِزَام لما يُحْزَم به، فهو اسم آلة.

---

(١) معاني القرآن للزجاج (٥/٢٥٨).

(٢) المفردات غريب القرآن للراغب مادة: (ك. أ. س).

QaradawiBooks.com

وقوله تعالى: ﴿عَيۡنٗا﴾ بدل من كافور.

وقال قتادة: يُمزَج لهم بالكافور، ويُختم لهم بالمسك[1]؛ وذلك لبرودة الكافور وبياضه وطيب رائحته، فالكافور بمعناه المعروف. وقيل: إنَّ خمرَ الجنَّة قد أودعها الله تعالى إذ خلقها أوصاف الكافور الممدوحة، فكونه مِزاجًا مجازٌ في الاتِّصاف بذلك.

فـ ﴿عَيۡنٗا﴾ على هذين القولين بدل من محل ﴿مِن كَأۡسٖ﴾ على تقدير مضاف، أي: يشربون فيها خمرًا؛ خمرَ عين، أو نُصب على الاختصاص بإضمار أعني أو أخُصُّ، كما قال المبرد.

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾ صفة أخرى لـ(عَيْنًا) أي: يجرونها حيث شاؤوا من منازلهم إجراء سهلًا، لا يمتنع عليهم. على أنَّ التنكير للتنويع»[2].

صفات هؤلاء الأبرار وأحوالهم الَّتي استحقُّوا بها هذا النعيم:

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾

ثم ذكر الله سبحانه صفات الأبرار وأحوالهم الَّتي استحقوا بها هذا الجزاء، فقال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾

(١) تفسير عبد الرزاق (٣٥٤٠)، تحقيق د. محمود محمد عبده، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ.

(٢) تفسير الآلوسي (١٥/١٧١).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

قال ابن كثير: «وقولـــه: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ أي: يتعبَّدون لله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشــرع، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النُّذُر.

قال الإمام مالك، عن طلحة بن عبد الملك الأَيْلِي، عن القاسم بن مالك، عن عائشة، رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «**من نذر أن يُطيع الله فليطِعْــه، ومن نذر أن يعصــي اللهَ فلا يعصِــه**»[1]. رواه البخاري من حديث مالك.

ويتركون المحرمات الَّتي نهاهم عنها خيفةً من ســوء الحساب يومَ المعاد، وهو اليوم الَّذي شرُّه مســتطير، أي: منتشر عامٌّ على النَّاس، إلَّا من رحم الله.

قال ابن عبَّاس: فاشيًا[2].

وقال قتادة: استطار ـ والله ـ شرُّ ذلك اليوم حتَّى ملأ السماوات والأرض.

قال ابن جرير: ومنه قولهم: اســتطار الصَّدْع في الزجاجة واستطال. ومنه قول الأعشى[3]:

فَبَانَتْ وَقَدْ أَسْأَرَتْ في الفؤا ... دِ صَدْعًا على نَأْيِها مُسْتَطِيرَا

يعني: ممتدًّا فاشيًا[4]»[5].

---

(١) رواه مالك في الموطأ (٤٧٦/٢)، والبخاري في الأيمان والنذور (٦٦٩٦)، وأحمد (٢٤٠٧٥)، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٨٩).

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٣٧٠/٨) لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) ديوانه (٩٣/١) قصيدة رقم (١٢).

(٤) تفسير الطبري (٩٦/٢٤).

(٥) تفسير ابن كثير (٢٨٧/٨، ٢٨٨).

QaradawiBooks.com

مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾:

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ قيل: على حُبِّ الله تعالى. وجعلوا الضمير عائدًا إلى الله ﷻ لدلالة السياق عليه.

والأظهر أنَّ الضمير عائدٌ على الطعام، أي: ويطعمون الطعام في حال محبَّتِهم وشهوتهم له. قاله مجاهد، ومقاتل[١]، واختاره ابن جرير[٢]. كقوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧]. وكقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]»[٣].

ثم ساق ابن كثير في تفسير هذه الآية: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾: «ما رواه البيهقي، من طريق الأعمش عن نافع، قال: مرض ابنُ عمر، فاشتهى عنبًا، أوَّلَ ما جاء العنب، فأرسلت صفيَّة - يعني امرأته - فاشترت عُنقُودًا بدرهم، فاتَّبع الرسولَ السائلُ، فلما دخل به قال: السائل السائل. فقال ابن عمر: أعطوه إيَّاه. فأعطَوْه إيَّاه. ثمَّ أرسلت بدرهم آخر فاشترت عنقودًا، فاتَّبع الرسولَ السائلُ، فلمَّا دخل قال: السائل السائل. فقال ابن عمر: أعطُوه إيَّاه. فأعطَوْه إيَّاه. فأرسلت صفية إلى السائل فقالت: والله إنْ عُدْت لا تصيب منه خيرًا أبدًا. ثمَّ أرسلت بدرهم آخر فاشترت به[٤].

وفي الصحيح: «**أفضلُ الصدقة أن تَصَدَّقَ وأنت صحيحٌ شحيح، تأمل الغِنَى، وتخشى الفقر**»[٥]. أي: في حال محبَّتك للمال، وحرصك عليه،

---

(١) روى هذين الأثرين ابن جرير في التفسير (٩٦/٢٤، ٩٧).
(٢) المصدر السابق (٩٦/٢٤).
(٣) تفسير ابن كثير (٢٨٨/٨).
(٤) رواه البيهقي في الزكاة (١٨٥/٤).
(٥) متفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٤٨)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٢)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

وحاجتك إليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ أمَّا المسكين واليتيم، فقد تقدَّم بيانُهما وصفتهما»(١).

أقول: أمَّا المسكين، فهو الَّذي أسكنه الفقر وأخضعه، وهو الَّذي جاء فيه الحديث الصحيح: «**ليس المسكينُ الَّذي يطوف على النَّاس، تردُّه اللقمةُ واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الَّذي لا يجد غِنًى يُغنيه، ولا يُفطن به، فيُتصدَّق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس**»(٢). وفي لفظ آخر: «**إنَّما المسكينُ الَّذي يتعفَّف، اقرؤوا إن شئتم: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾** [البقرة: ٢٧٣]»(٣).

قال ابن كثير: «وأمَّا الأسير، فقال سعيد بن جُبَيْر والحسن والضحَّاك: الأسير من أهل القِبْلة. وقال ابن عبَّاس: كان أسراؤهم يومئذٍ مشركين. ويشهد لهذا أنَّ رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يُكرموا الأسارى، فكانوا يقدِّمونهم على أنفسهم عند الغداء(٤). وهكذا قال سعيد بن جبير وعطاء والحسن وقتادة.

وقد وصَّى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى الأرقَّاء في غير ما حديث، حتَّى إنَّه كان آخر ما أوصى أن جعل يقول: «**الصلاةَ، وما ملكت أَيْمانكم**»(٥).

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٨٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.

(٣) رواه البخاري في التفسير (٤٥٣٩).

(٤) رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٦٩١٨)، عن نبيه بن وهب، أخي بني عبد الدار أن رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى، فرقهم في أصحابه، فقال: «**استوصوا بالأسارى خيرًا**» ... كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا من بدر، وكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم، خصوني بالخبز، وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا.

(٥) رواه أحمد (٢٦٦٨٤)، وقال مخرِّجوه: صحيح لغيره. وابن ماجه في الجنائز (١٦٢٥)، والنسائي في الكبرى في وفاة النبي ﷺ (٧٠٦١)، عن أم سلمة.

QaradawiBooks.com

وقال عكرمة: هم العبيد ـ واختاره ابن جرير ـ لعموم الآية للمسلم والمشرك.

قال مجاهد: هو المحبـوس[١]، أي: يطعمون لهـؤلاء الطعام، وهم يشتهونه ويحبُّونه، قائلين بلسان الحال: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾ أي: رجاء ثواب الله ورضاه ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ أي: لا نطلب منكم مجازاة تكافئونا بها، ولا أن تشكرونا عند الناس.

(أقول: وإذا علمنا أنَّ السورة مكيَّة، فالأسير في تلك الحال لا يكون إلَّا من المشركين).

قال مجاهد وسعيد بن جبير: أمَا والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم الله به من قلوبهم، فأثنى عليهم به؛ ليرغَب في ذلك راغبٌ[٢].

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾ أي: إنَّمـا نفعل هـذا لعلَّ الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه، في اليوم العبوس القمطرير.

قـال علي بن أبـي طلحة، عـن ابـن عبَّـاس ﴿عَبُوسٗا﴾: ضيِّقًا. ﴿قَمۡطَرِيرٗا﴾: طويلًا[٣].

وقال عكرمة وغيره، عنه (أي: عن ابن عباس)، في قوله: ﴿يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾ أي: يعبس الكافر يومئذ، حتَّى يسـيل من بيـن عينيه عرقٌ مثل القَطِران[٤].

(١) رواه الطبري في التفسير (٩٨/٢٤).

(٢) المصدر السابق (٩٨/٢٤).

(٣) المصدر السابق (١٠٠/٢٤).

(٤) المصدر السابق (٩٩/٢٤).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقال مجاهد: ﴿عَبُوسًا﴾: العابس الشفتين. ﴿قَمْطَرِيرًا﴾، قال: تقبيض الوجه بالبُسور.

وقال سعيد بن جبير، وقتادة: تعبس فيه الوجوه من الهوْل، ﴿قَمْطَرِيرًا﴾: تقليص الجبين وما بين العينَيْن من الهول.

وقال ابن زيد: العبوس: الشر. والقمطرير: الشديد[1].

وأوضح العبارات وأجلاها وأحلاها، وأعلاها وأولاها؛ قول ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال ابن جرير: والقمطرير هو: الشديد؛ يقال: هو يوم قمطرير، ويوم قُماطر، ويوم عصيب وعُصُبْصُب، وقد اقمَطَرَّ اليوم يقمطِرُّ اقمطرارًا، وذلك أشدّ الأيام وأطولها في البلاء والشدَّة، ومنه قول بعضهم:

بني عمِّنا، هل تذكرون بلاءَنا؟ ... عليكمُ إذا ما كان يومٌ قُماطِرُ[2]

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾

قال الله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ وهذا من باب التجانس البليغ ـ أي: بين «وقاهم» و«لقّاهم» ـ ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ أي: آمنهم ممَّا خافوا منه. ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً﴾ أي: في وجوههم، ﴿وَسُرُورًا﴾ أي: في قلوبهم. قاله الحسن البصري، وقتادة، وأبو العالية، والربيع بن أنس.

---

(١) رواه الطبري في التفسير (١٠١/٢٤).

(٢) تفسير الطبري (٩٩/٢٤). والبيت للعطاف الكلبي، كما في الشكوى والعتاب للثعالبي صـ ١٢٧، تحقيق د. إلهام عبد الوهاب المفتي، نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ط ١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

QaradawiBooks.com

وهذه كقوله تعالـــى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]. وذلك أنَّ القلب إذا سُرَّ استنار الوجه، قال كعب بن مالك في حديثه الطويل: وكان رسول الله ﷺ إذا سُـرَّ اسـتنار وجهه، حتَّى كأنَّه قطعةُ قمر[١]. وقالت عائشة: دخل عليَّ رسول الله ﷺ مسرورًا تبرُق أسارير وجهه[٢]. الحديث.

وقولــه: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي: بسـبب صبرهم أعطاهـم ونوَّلهم وبوَّأهم ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أي: منزلًا رَحْبًا، وعَيْشًا رَغْدًا ولباسًا حسنًا.

مناسبة هذه الآيات لما قبلها:

وروى الحافظ ابن عسـاكر[٣] في ترجمة هشام بن سليمان الداراني قال: قرئ على أبي سليمان الداراني سورة: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾، فلما بلغ القارئ إلـى قوله: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ قـال: بما صبروا على ترك الشهوات في الدنيا. ثمَّ أنشد:

كَمْ قَتِيـلٍ بِشَـهْوَةٍ وَأَسِـيرٍ ... أُفٍّ مِنْ مُشْتَهِي خِلَافِ الجَمِيلِ
شهواتُ الإنسانِ تورثُه الذُّلَّ ... وتُلْقِيه في البَلَاءِ الطَّوِيلِ[٤]

وقال الآلوسـي في تفسـير صفات الأبرار: «﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ استئناف مَسُـوقٌ لبيان ما لأجله يُرزقون هذا النعيم، مشتملٌ على نوعِ تفصيلٍ لما يُنْبئ عنه اسـم الأبرار إجمالًا، كأنَّه قيل: ماذا يفعلـون حتَّى ينالوا تلك المرتبة العالية؟ فقيل: يوفون، إلخ.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٦٧٧)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٥٥٥)، ومسلم الرضاع (١٤٥٩).

(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر (٣٠٦/١٥، ٣٠٧)، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، نشر دار الفكر، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

(٤) تفسير ابن كثير (٢٨٨/٨ ـ ٢٩٠).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وأفيد: أنَّه استئناف للبيان، ومع ذلك عدل عن «أَوْفَوْا» إلى المضارع للاستحضار والدلالة على الاستمرار.

والوفاء بالنذر كناية عن أداء الواجبات كلها...[١] فإنَّ منْ أوفى بما أوجبه هو على نفْسه لوجه الله، كان إيفاء ما أوجبه الله تعالى عليه، أهم له وأحرى، وجَعْل ذلك كناية، هو الَّذي يقتضيه ما رُوِي عن قتادة وعن عكرمة ومجاهد إبقاؤه على الظاهر، قالا: أي: إذا نذروا طاعة فعلوها.

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ فاشيًا منتشرًا في الأقطار غاية الانتشار، مِن «استطار الحريقُ والفجرُ» وهو أبلغ مِنْ «طار»؛ لأنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، وللطلب أيضًا (الذي يدلُّ عليه صيغة استفعل) دلالة على ذلك؛ لأنَّ ما يُطلب من شأنه أن يُبالغ فيه.

وفي وصفهم بذلك إشعارٌ بحُسن عقيدتهم، واجتنابهم عن المعاصي.

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: كائنين على حب الطعام، أي مع اشتهائه والحاجة إليه، فهو من باب التتميم، ويجاوبه من القرآن قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. ورُوِيَ عن ابن عبَّاس ومجاهد.

أو على حبِّ الإطعام، بأن يكون ذلك بطيب نفس، وعدم تكلُّف. وإليه ذهب الحسن بن الفضل، وهو حَسَنٌ.

---

(١) زاد في المطبوع هنا: العلم ما عداه بالطريق الأولى وإشارة النص.. ولم يتبين لنا معناها، والغالب أنَّها أدرجت في النص، فالسياق يصح بدونها. وأظن أنَّ الآلوسي نقل العبارة من حاشية الشهاب على البيضاوي، إذ هي هكذا فيه.

QaradawiBooks.com

أو كائنين على حب الله تعالى، أو إطعامًا كائنًا على حبه تعالى، ولوجهه سبحانه، وابتغاء مرضاته ﷻ. وإليه ذهب الفضيل بن عياض، وأبو سليمان الداراني، فـ ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ من باب التكميل[1]...

ثمَّ الظاهر أنَّ المراد بإطعام الطعام حقيقته، وقيل: هو كناية عن الإحسان إلى المحتاجين والمواساة معهم بأيِّ وجه كان، وإن لم يكن ذلك بالطعام بعينه، فكأنه: ينفعون بوجوه المنافع ﴿مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾ قيل: أيَّ أسيرٍ كان.

فعن الحسن أنَّه ﷺ كان يؤتى بالأسير، فيدفعه إلى بعض المسلمين، فيقول: «**أَحْسِنْ إليه**»[2]. فيكون عنده اليومين والثلاثة، فيؤثره على نفسه.

وقال قتادة: كان أسيرهم يومئذ المشركَ، وأخوك المسلمُ أحقُّ أن تطعِمَه.

وأخرج ابن عساكر عن مجاهد أنَّه قال: لما صدر النبي ﷺ بالأسارى من بدر، أنفق سبعةٌ من المهاجرين أبو بكر وعمر وعليٌّ والزبير وعبد الرحمن وسعد وأبو عبيدة بن الجراح على أسارى مشركي بدر، فقالت الأنصار: قتلناهم في الله وفي رسوله ﷺ، وتعينونهم بالنفقة؟ فأنزل الله تعالى فيهم تسع عشرة آية: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا﴾ [الإنسان: ٥ ـ ١٨][3].

---

(١) أي: وصفهم أولًا بالجود والبذل وكمَّله بأن ذلك على إخلاص لا رياء فيه.

(٢) لم أجده إلا في تفسير الزمخشري (٤/٦٦٨). ولم يذكر ابن حجر في تخريجه على الكشاف من أخرجه (١٤٤١).

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٥/٢٨٦).

QaradawiBooks.com

ففيه دليل على أن إطعام الأسارى وإن كانوا من أهل الشِّرك حسَنٌ، ويُرجى ثوابه، والخبر الأول قال ابن حجر: لم يذكره من يعتمد عليه من أهل الحديث. وقال ابن العراقي: لم أقف عليه.

والخبر الثاني: لم أره لفرد غير ابن عساكر، ولا وثوق لي بصحّته، وهو يقتضي مدنيَّةَ هذه الآيات، وقد علمتَ الخلاف في ذلك، نعم عند عامة العلماء يجوز الإحسان إلى الكفَّار في دار الإسلام، ولا تصرف إليهم الواجبات (أي الزكاة المفروضة والكفارات الواجبة وما شابه).

وقال ابن جبير وعطاء: هو الأسير من أهل القِبْلة(١).

قال الطِّيبي: هذا إنَّما يستقيم إذا اتَّفق الإطعام في دار الحرب من المسلم لأسيرٍ في أيديهم(٢).

وقيل: هو الأسير المسلم تَرَك في بلاد الكفَّار رهينة، وخرج لطلب الفداء.

وروى مُحيي السُّنَّة عن مجاهد وابن جبير وعطاء أنَّهم قالوا: هو المسجون من أهل القِبْلة.

وفيه دليلٌ على أنَّ إطعام أهلِ المحبوس المسلمين حَسَنٌ.

وقد يقال: لا يَحْسُن إطعام المحبوس لوفاء دَيْن يقدر على وفائه، إنَّما امتنع عنه تعنُّتًا ولغرض من الأغراض النفسانيَّة.

وعن أبي سعيدٍ الخُدْري: هو المملوك والمسجون(٣).

(١) الكشاف (٤/٦٦٨).

(٢) حاشية الطيبي (١٦/١٩١).

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٥/١٠٥)، مرفوعًا.

QaradawiBooks.com

وتسمية المسجون أسيرًا مجاز لمنعه عن الخروج، وأمَّا تسمية المملوك فمجاز أيضًا، لكن قيل: باعتبار ما كان. وقيل: باعتبار شَبَهه به في تقييده بإسار الأمر، وعدم تمكُّنِه من فعل ما يهوى، وعُدَّ الغريمُ أسيرًا لقوله ﷺ: «**غريمُك أسيرُك، فأحسنْ إلى أسيرك**»(١).

وهو على التشبيه البليغ، إلَّا أنَّه قيل في هذا الخبر ما قيل في الخبر الأول، وقال أبو حمزة اليماني: هي الزوجة. وضعفُه هاهنا ظاهر.

﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ**﴾ على إرادة قول هو في موضع الحال من فاعل ﴿**يُطْعِمُونَ**﴾ أي: قائلين ذلك بلسان الحال، لما يظهر عليهم من أمارات الإخلاص.

وعن مجاهد: أَمَا إنهم ما تكلموا به، ولكن علمه الله تعالى منهم، فأثنى سبحانه به عليهم، ليَرْغَب فيه راغبٌ(٢)، أو بلسان المقال، إزاحة لتوهُّم المَنِّ المُبْطِل للصدقة، وتوقُّعِ المكافأة المُنقصة للأجر.

وعن الصِّدِّيقة رضي الله عنها: أنَّها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت، ثمَّ تسأل الرسولَ ما قالوا، فإذا ذكر دعاء دَعَت لهم بمثله، ليبقى لها ثواب الصدقة خالصًا عند الله عز وجل.

وجُوِّز أن يكون قولهم هذا لهم لطفًا وتفقيهًا، وتنبيهًا على ما ينبغي أن يكون عليه مَن أخلص لله تعالى. وليس بذاك.

وقوله سبحانه: ﴿**لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً**﴾ بالأفعال، ﴿**وَلَا شُكُورًا**﴾ ولا شكرًا وثناءً بالأقوال، تقرير وتأكيد لما قبله.

---

(١) لم أجده مسندًا، وذكره الزمخشري في تفسيره (٤/٦٦٨)، والرازي في تفسيره (٣٠/٧٤٨). ولم يذكر ابن حجر في تخريجه على الكشاف من أخرجه (١٤٤٢).

(٢) رواه الطبري في التفسير (٢٤/٩٨).

نسخة مجانية غير مخصصة للطباعة
QaradawiBooks.com

﴿نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا﴾ أي: عذابَ يومٍ، فهــو على تقدير مضاف، أو أن خوفه كناية عن خوف ما فيه.

﴿عَبُوسًا﴾ تعبس فيه الوجوه، على أنَّه من الإسناد المجازي، كما في «نهارُه صائمٌ»، فقــد رُوِيَ عن ابن عبَّاس: أنَّ الكافــر يعبس يومئذٍ حتَّى يسيل من بين عينيه عَرَق مثل القَطِران[1].

أو يشبه الأسد العبوس، على أنَّه من الاســتعارة المكنية التخييليَّة، لكن لا يخفى أنَّ العُبُوس ليس من لوازم الأسد، وإنَّما اشتهر وصفه به، ففي التخييليَّة ضعفٌ ما، وقيل: إنَّه من التشبيه البليغ.

﴿قَمۡطَرِيرًا﴾ شــديد العبوس، ويقال: شــديدًا صعبًا، كأنَّه التفَّ شــرُّه ببعضه، وقيل: طويلًا. وهو رواية عن ابن عبَّاس. وجاء قماطر، وأنشدوا لأسد بن ناعصة:

واصطليتُ الحروبَ في كُلِّ يَوْمٍ باسـلِ الشـرِّ قَمْطَرِيـرِ الصَّبَاحِ

وقول آخر:

بني عَمِّنا هَـلْ تَذْكُـرُونَ بَلَاءَنَا عَلَيْكُـمْ إِذَا مَا كَانَ يَـوْمٌ قُمَاطِرُ[2]؟

وهذه الجملة جُوِّز أن تكون علَّة لإحســانهم وفعلهم المذكور، كأنَّه قيل: نفعلُ بِكُم ما نفعل؛ لأنَّا نخاف يومًا صفته كيت وكيت، فنحن نرجو بذلك أن يقيَنا ربُّنا جلَّ وعلا شــرَّه، أو أن تكون علة لعدم إرادة الجزاء والشــكور، أي: إنَّا لا نريد منكم المكافأة، لخوف عقاب الله تعالى على طلب المكافأة بالصدقة.

(١) رواه الطبري في التفسير (٩٩/٢٤).
(٢) الشكوى والعتاب للثعالبي صـ١٢٧.

QaradawiBooks.com

وإلى الوجهين أشار في «الكشَّاف»[١].

وقال في «الكشف»: الثاني أوجه، ليبقى قوله: ﴿لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾ خالصًا غير مشوب بحظ النفس من جلب نفع أو دفع ضر.

ولو جُعِلَ علَّةً للإطعام المعلَّل، على معنى: إنَّما خصصنا الإحسان لوجهه تعالى؛ لأنَّا نخاف يوم جزائه، ومن خافه لازَم الإخلاص. لكان وجهًا.

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ بسبب خوفهم وتحفُّظهم عنه.

وقرأ أبو جعفر: ﴿فَوَقَّىٰهُمُ﴾ بشدِّ القاف، وهو أوفق بقوله تعالى ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةً وَسُرُورًا﴾ أي: أعطاهم بدلَ عُبوس الفجَّار وحزنهم نَضْرةً في الوجوه، وسرورًا في القلوب.

تفسير: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾ بصبرهم على مَشاقِّ الطاعات، ومُهاجَرة هَوى النفس في اجتناب المحرَّمات، وإيثار الأموال مأكلًا ومَلبسًا؛ ﴿جَنَّةً﴾ بستانًا عظيمًا يأكلون منه ما شاؤوا ﴿وَحَرِيرًا﴾ يلبسونه ويتزيَّنون به»[٢].

قال الزمخشري: «فإن قلتَ: ما معنى ذكر الحرير مع الجنَّة؟

قلتُ: المعنى وجزاهم بصبرهم على الإيثار وما يُؤدِّى إليه من الجوع والعُرْي بستانًا فيه مأكل هَنِيّ، وحريرًا فيه ملبس بهيّ. يعنى: أنَّ هواءها معتدل، لا حرَّ شمسٍ يحمي ولا شدَّة بردٍ تؤذي»[٣].

---

(١) الكشاف (٦٦٩/٤).

(٢) روح المعاني للآلوسي (١٧٠/١٥ ـ ١٧٣) بتصرُّف.

(٣) تفسير الزمخشري (٦٧٠/٤).

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة
QaradawiBooks.com

مجالس الأبرار في الجنَّة وشرابهم:

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ١٣ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ١٤ وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ١٦ وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ١٧ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ١٨ ۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ١٩ وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ٢٠ عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا﴾

بيَّن الله تعالى في كتابه صورًا من نعيم أهل الجنَّة فِي آياتٍ كَثِيرَةٍ، ومن ذلك: مَا يَتَّكِئُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْفُرُشِ وَالسُّرُرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، كقوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ﴾ [الرحمن: ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ۝ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ [الواقعة: ١٥، ١٦]. وَالسُّرُرُ الْمَوْضُونَةُ هِيَ الْمَنْسُوجَةُ بِقُضْبَانِ الذَّهَبِ.

وقوله تعالى: ﴿إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]. وقوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ﴾ [الغاشية: ١٣]. وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ﴾ [الرحمن: ٧٦]. إلى غير ذلك مِن الآيات[1].

يقول ابن كثير: «يخبر تعالى عن أهل الجنَّة وما هم فيه من النعيم المقيم، وما أسبغ عليهم من الفضل العميم، فقال: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾، وقد تقدَّم الكلام على ذلك في سورة «الصَّافَّات»[2]، وذكر الخلاف في

(١) أضواء البيان للشنقيطي (١٤٥/٧)، نشر دار الفكر للطباعة، بيروت، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

(٢) لم أقف عليه في تفسير (الصافات)، وإنَّما ذكرها في تفسير (الكهف) (١٥٦/٥): وقوله: =

QaradawiBooks.com

الاتِّـكاء: هل هـو الاضطجـاع، أو التمرفُـق، أو التربُّـع، أو التمكُّن في الجلوس؟ وأنَّ الأرائك هي السرر تحت الحِجَال.

وقوله: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي: ليس عندهم حَرٌّ مزْعِج، ولا بردٌ مؤْلِم، بل هي مزاج واحد، دائمٌ سَرمَديٌّ، ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]»[1].

كما قـال صاحب الظلال رَحِمَهُ اللَّهُ عن هـذه الآية: «فهم في جلسـةٍ مريحةٍ مطمئنَّـة، والجوُّ حولَهم رخاءٌ ناعـم دافئ في غير حرٍّ، نـديٌّ في غير برد. فلا شمس تلهب النسائم، ولا زمهرير، وهو البرد القارس! ولنا أن نقول: إنَّه عالَم آخر ليست فيه شمسنا هذه ولا شموس أخرى من نظائرها.. وكفى!»[2].

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾

وقال الآلوسي: «﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ عطف على الجملة، وحالُها حالُها.

أو صفة لمحذوفٍ معطوف على ﴿جَنَّةً﴾ في قوله: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ فيما سـبق، أي: وجنةً أخرى دانية عليهم ظلالها، على أنَّهم وعدوا جنتين، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]...

= ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ الاتكاء قيـل: الاضطجاع، وقيل: التربع في الجلوس. وهو أشـبه بالمراد هاهنا، ومنه الحديث في الصحيح: «أمَّا أنا فلا آكُلُ متَّكِئًا» فيه القولان. رواه البخاري في الأطعمة (٥٣٩٨).

والأرائك: جمع أريكة، وهي السرير تحت الحجلة، والحجلة كما يعرفه الناس في زماننا هذا بالباشخاناه، والله أعلم.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ قال: هي الحجال. قال معمر: وقال غيره: السرر في الحجال. تفسير عبد الرزاق (١٦٨٠، ١٦٨١).

(١) تفسير ابن كثير (٢٩٠/٨، ٢٩١).

(٢) في ظلال القرآن (٣٧٨٢/٦).

QaradawiBooks.com

والمراد: أنَّ ظلال أشجار الجنَّة قريبة من الأبرار، مُظلَّة عليهم زيادة في نعيمهم.

﴿وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾ أي: سُـخِّرت ثمارها لمتناولها، وسهُل أخذها من الذِّلِّ ـ بالكسر ـ وهو ضد الصُّعُوبة.

قال قتادة ومجاهد وسفيان: إن كان الإنسـان قائمًا تناول الثمر دون كلفة، وإن كان قاعدًا أو مضطجعًا فكذلك، فهذا تذليلها، لا يرُدُّ اليدَ عنها بُعْدٌ ولا شوك.

والجملة حال من ضمير «دانية» أي تدنـو ظلالها عليهم مذلَّلة لهم قطوفها. أو معطوفة على ما قبلها»[(١)].

آنية الأبرار وأكوابهم:

﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ١٥ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا﴾

أي: ويدورُ عليهم خدمهم بأواني الطعـام الفضيَّة، وبأكواب من فضة بيضاء في صفاء الزجاج، هذه الأكواب هي قوارير في صفائها يُرى ما في باطنها من ظاهرها، قدَّرها السُّقاة والخدم تقديرًا دقيقًا محكمًا في أشكالها، وحجومها، وعلى قدر ريِّ شاربيها وكفايتهم، لا تزيد ولا تنقص.

وفي قوله تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا﴾ تَوْجِيهٌ إِلَى حُسْنِ الصُّنْعِ فِي التَّسْوِيَةِ فِي التَّقْدِيرِ، وَالْمَقَاسَاتِ[(٢)].

قال الآلوسـي: «﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ﴾: جمع إناء، كـ «كساء وأكسية»، وهو ما يوضع فيه الشيء، والأواني جمع الجمع.

(١) تفسير الآلوسي (١٥/١٧٥، ١٧٦).
(٢) أضواء البيان للشنقيطي (٨/٣٩٦).

QaradawiBooks.com

﴿مِّن فِضَّةٍ وَأَكۡوَابٖ﴾: جمع كوب، وهو قَدَح لا عروة له، كما قال الراغب[١]. وفي القاموس: كوز لا عروة له، أو لا خرطوم له[٢]، وقيل: الكوز العظيم الَّذي لا أذن له ولا عروة.

﴿كَانَتۡ﴾ أي: تلك الأكواب. ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ جمع قارورة، وهي إناء رقيق من الزجاج، توضع فيه الأشربة. ونصبه على الحال، فإنَّ «كان» تامَّة، وهو كما تقول: خُلقَت قواريرَ.

وقوله تعالى: ﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ﴾ بدل. والكلام على التَّشبيه البليغ، فالمراد: تكوَّنت جامعة بين صفاء الزجاجة وشفيفها، ولين الفضة وبياضها.

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور والبيهقي، عن ابن عبَّاس قال: لو أخذتَ فضةً من فضة الدنيا، فضربتها حتَّى جعلتها مثل جناح الذباب، لم يُر الماء من ورائها، ولكنَّ قوارير الجنَّة ببياضِ الفِضة مع صفاء القوارير[٣].

وأخرج ابن أبي حاتم عنه أنَّه قال: ليس في الجنَّة شيء إلَّا قد أعطيتم في الدنيا شبهه، إلَّا قوارير من فضة[٤].

﴿قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا﴾ أي: قدَّروا تلك القوارير في أنفسهم، فجاءت حسب ما قدَّروا، لا مزيد على ذلك، ولا يمكن أن يقع زيادة عليه، وفي معناه قول أبي تمَّام الطائي:

وَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَزِدْهَا عَلَى مَا فِيكَ مِنْ كَرَمِ الطِّبَاعِ[٥]

---

(١) المفردات في غريب القرآن (كوب).

(٢) القاموس المحيط مادة (ك. و. ب).

(٣) رواه عبد الرزاق في التفسير (٣٤٣٢)، والبيهقي في البعث والنشور (٣١٤).

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١٩٠٨١).

(٥) من شعر أبي تمام في ديوانه بشرح الخطيب التبريزي (٣٤٠/٢)، تحقيق محمد عبده عزام، نشر دار المعارف، القاهرة، ط ٤.

QaradawiBooks.com

فإنه ينبئ عن كون نفسه خُلِقت على أتمِّ ما ينبغي من مكارم الصفات، بحيث لا مزيد على ذلك.

فضمير ﴿قَدَّرُوهَا﴾ للأبرار المطاف عليهم. أو قدَّروا شرابها على قدر الرِّي، وهو ألذُّ للشارب، قال ابن عبَّاس: أتوا بها على الحاجة، لا يُفضِلون شيئًا، ولا يشتهون بعدها شيئًا[1].

وعن مجاهد: تقديرها أنَّها ليست بالملأى الَّتي تَفيض، ولا بالناقصة الَّتي تَغيض.

فالضمير على ما هو الظاهر للسُّقاة الطائفين بها، المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم﴾

وقد روى عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عبَّاس أنَّه قال: قدَّرتها السقاة»[2].

شراب الأبرار والمقربين:

﴿وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾

أي: ويُسقى الأبرار في الجنَّة كأسًا مملوءة خمرًا مُزِجَت بالزنجبيل، يشرب المقرَّبون من عينٍ في الجنَّة ويرتوون بها ريًّا كاملًا، تُسمَّى هذه العين سَلْسَبيلًا؛ لأنَّها سَلِسَةٌ مُنقادةٌ لهم، تسيل عليهم في طرقهم ومنازلهم.

وقد أشار بهذا الاسم (سلسبيلًا) إلى أنَّ هذا الزنجبيل ليس فيه لَذْعة كما في زنجبيل الدنيا، وإنَّما هو سائغ، لأنَّ السلاسة هي نقيض اللذع.

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٣٧٥/٨) إلى الفريابي.
(٢) تفسير الآلوسي (١٧٦/١٥).

QaradawiBooks.com

قال الآلوسي: «وقوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ يجري فيه معظم ما جرى في قوله تعالى: ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ..﴾ إلخ من الأوجه.

والزنجبيل: قال الدِّينَوَرِي: نبت في أرض عُمَان، وهو عروق تسري في الأرض، وليس بشجرة، ومنه ما يُحمل من بلاد الزَّنْج والصِّين، وهو الأجود، وكانت العرب تحبُّه؛ لأنَّه يوجب لذعًا في اللسان إذا مُزِجَ بالشراب، فيلتذُّون، ولذا يذكرونه في وصف رُضاب النساء (أي: ريقهن)، قال الأعشى:

كأنَّ القَرَنْفُلَ والزَّنْجَبِيلَ باتا بفِيهَا وأَرْيًا مَشُورَا[1]

وقال المسيَّب بن عَلَس:

وكأنَّ طَعْمَ الزَّنجبيلِ به إِذْ ذُقْتَه وسُلافةَ الخَمْرِ[2]!

وعدَّه بعضهم في المُعرَّبات.

وكون الزَّنجبيل اسمًا لعين في الجنَّة، مرويٌّ عن قتادة، وقال: يشرب منها المقرَّبون صِرْفًا، وتمزج لسائر أهل الجنة.

والظاهر أنَّهم تارة يشربون من كأس مزاجها كافور، وتارة يُسقون من كأس مزاجها زنجبيل.

ولعلَّ ذكر ﴿يُسْقَوْنَ﴾ هنا دون «يشربون»؛ لأنَّه الأنسب بما تقدمه من

(١) أي: عسلًا مستخرجًا من بيت النحل.

(٢) السُّلاف: السائل من عصير العنب قبل أن يعصر. وقيل: السُّلافة أول كلِّ شيء عصرْتَهُ. انظر: لسان العرب مادة (س. ل. ف). والبيت لزهير بن علس المسيب، كما في الشعر والشعراء (١٧٣/١)، نشر دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ.

QaradawiBooks.com

قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ إلخ. ويمكن أن يكــون فيه رمز إلى أنَّ هذه الكأس أعلى شأنًا من الكأس الأولى.

وعن الكلبيِّ يُسقَى بِجَامَيْن: الأول: مزاجُه الكافور، والثاني: مزاجُه الزنجبيل»[1].

﴿عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا﴾

قال الآلوسي: «والسلسبيل: كالسَّلسَل والسَّلْسال، قال الزجَّاج: ما كان من الشراب غاية في السلاسة وسهولة الانحدار في الحلق[2].

وقال ابن الأعرابي: لم أسمع السلســبيل إلَّا في القرآن، وكأنَّ العين إنَّما سمِّيت بذلك لسلاستها وسهولة مساغها.

قال عكرمة: عينٌ سَلْسلٌ ماؤُها.

وقال مجاهد: حَدِيدَة الجَرْي (يعني: حادَّة ســريعة) سَلْسَلَةٌ، سهلة المَساغ.

وقال مقاتل: عينٌ يتسلســـل عليهم ماؤها في مجالسهم كيف شاؤوا، وهي على ما روي عن قتادة: عين تنبع من تحت العرش، من جنَّة عدن، تتسلسل إلى الجنان.

وفي «البحر المحيط»[3]: الظاهر أنَّ هذه العين تسَمَّى سلسبيلًا، بمعنى: توصف بأنَّها سلسة الانسياغ، سهلة في المذاق، ولا يُحمَل سلسبيل على أنَّه اسم حقيقة؛ لأنَّه إذ ذاك كان ممنوع الصرف للتأنيث والعلمية.

---

(١) تفسير الآلوسي (١٧٧/١٥).
(٢) انظر: معاني القرآن (٢٦١/٥).
(٣) البحر المحيط (٣٦٥/١٠).

QaradawiBooks.com

وقد روي عن طلحة: أنَّه قرأه بغير ألف، جعله علمًا لها، فإن كان علمًا، فوجه قراءة الجمهور بالتنوين المناسبة للفواصل، كما قيل في «سلاسلًا» و«قواريرًا»»[(١)].

خدم أهل الجنة:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾

قال الآلوسي في تفسير هاتين الآيتين: «﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: للخدمة. ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: دائمون على ما هم فيه من الطراوة والبهاء، وقيل: مُقَرَّطون بخِلْدة، وهي ضرب من القِرَطَة.

وجاء في حديث أخرجه ابن مَرْدويه عن أنس مرفوعًا: «**إنَّهم ألفُ خادم**»[(٢)].

وفي بعض الآثار أضعاف ذلك، والجود أعظم، والمواهب أوسع، ويختلف ذلك قلة وكثرة باختلاف أعمال المخدومين.

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾: لحُسْنهم، وصفاء ألوانهم، وإشراق وجوههم، وانْبثاثهم في مجالسهم ومنازلهم، وانعكاس أشعَّة بعضهم إلى بعض، وقيل: شُبِّهوا باللؤلؤ الرَّطْب إذا نُثِر من صَدَفه؛ لأنَّه أحسن وأكثر ماء. وعليه: هو من تشبيه المفرد؛ لأنَّ الانْبثاث غير ملحوظ.

والخطاب في ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ للنبي ﷺ، أو لكلِّ واقف عليه، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ أي: هناك. يعني في الجنة. وهو في موضع

(١) تفسير الآلوسي (١٥/١٧٨).
(٢) رواه الدارمي أيضًا (٤٩)، وقال محققه: إسناده ضعيف.

QaradawiBooks.com

النصب على الظرف، و﴿رَأَيْتَ﴾ مُنزل منزلة اللازم، فيفيد العموم في المقام الخطابي، فالمعنى: أنَّ بصرك أينما وقع في الجنَّة ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ عظيم القدر، لا تحيط به عبارة، وهو يشمل المحسوس والمعقول.

وقال عبد الله بن عمرو الكلبي: ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ عريضًا واسعًا، يبصر أدناهم منزلةً في الجنَّة في مُلْكه الواسع الفسيح، يَرى أقصاه كما يرى أدناه، وذلك لما يعطي من حِدَّة النظر، أو هو من خصائص الجنة.

وقال مجاهد: هو استئذان الملائكة عليهم السلام، فلا يدخلون عليهم إلَّا بإذن.

وقال الترمذي ـ وأظنه كما ظن أبو حيان: الحكيمَ، لا أبا عيسى المحدِّثَ صاحب الجامع ـ هو ملك التكوين والمشيئة، إذا أرادوا شيئًا كان. وقيل: هو النظر إلى الله عز وجل، وقيل غير ذلك، وقيل: الملك الدائم الَّذي لا زوال له»[(١)].

ثياب أهل الجنة:

﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾

قال الآلوسي: «﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ قيل: ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ ظرف بمعنى: فوقهم على أنَّه خبر مقدم و﴿ثِيَابُ﴾ مبتدأ مؤخَّر، والجملة حال من الضمير المجرور في ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ فهي شرح لحال الأبرار المَطُوف عليهم.

وقال أبو حيَّان: إنَّ «عَالِيَ» نفسَه حالٌ من ذلك الضمير، وهو اسم فاعل، و﴿ثِيَابُ﴾ مرفوع على الفاعليَّة به، ويُحتاج في إثبات كونه ظرفًا إلى أن يكون منقولًا من كلام العرب: عَالِيَك ثوبٌ. مثلًا[(٢)]»[(٣)].

---

(١) تفسير الآلوسي (١٧٨/١٥).

(٢) البحر المحيط (٣٦٦/١٠، ٣٦٧).

(٣) تفسير الآلوسي (١٧٩/١٥).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

حلي أهل الجنَّة:

﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ﴾ جمع سوار، وهو معروف، وهو ما تحلى به الأيدي. ﴿مِن فِضَّةٍ﴾، هي فضة لائقة بتلك الدار.

والظاهر أنَّ هذا عطف على ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾ واختلافهما بالمُضِيِّ والمضارعة؛ لأنَّ الحالية مقدمة على الطواف المتجدِّد، ولا ينافي ما هنا قوله تعالى: ﴿أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١، الحج: ٢٣، فاطر: ٣٣]، لإمكان الجمع بتعدُّد الأساور لكلٍّ، والمعاقبة بلبس الذهب تارة والفضة أخرى، والتبعيض بأن يكون أساور بعضٍ ذهبًا، وبعضٍ فضة، لاختلاف الأعمال.

ثم إنَّ التحلية إن كانت لِلوِلْدان، فلا كلام، ويكونون على القول الثاني في ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾: مسوَّرين مقرَّطين. وهو من الحُسن بمكان.

وإن كانت لأهل الجنَّة المخدومين، فقد استُشكِل بأنَّها لا تليق بالرجال، وإنَّما تليق بالنساء والوالدان، وأجيبَ: بأنَّ ذلك ممَّا يختلف باختلاف العادات والطبائع، ونشأة الآخرة غير هذه النشأة. ومن المشاهد في الدنيا أنَّ بعض ملوكها يتحلَّوْن بأعضادهم، وعلى تيجانهم، وعلى صدورهم، ببعض أنواع الحُلِيِّ، ممَّا هو عند بعض الطباع أولى بالنساء والصبيان، ولا يرون ذلك بِدْعًا ولا نَقْصًا، كلُّ ذلك لمكان الإلْفِ والعادة، فلا يبعد أن يكون من طباع أهل الجنَّة في الجنَّة الميل إلى الحلي مطلقًا، لا سيما وهم جُرْد مُرْد أبناء ثلاثين، ولعل ممَّا يقرِّب ذلك إلى أذواقنا ومشاعرنا، ما نراه في عصرنا مِن لُبس كثير مِن الرجال الساعات في الأيدي، وما لها من مقابض جميلة رائعة، يتباهى بها المتباهون.

QaradawiBooks.com

الشراب الطهور:

قال ابن كثير: «ولمَّا ذكر تعالى زينةَ الظَّاهر بالحرير والحُلِيِّ قال بعده: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا﴾ أي: طَهَّرَ بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرَّديَّة»(١).

وقال الآلوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا﴾: «هو نوعٌ آخر يفوق النوعين السابقين(٢)، وهما ما مزج بالكافور، وما مزج بالزنجبيل، كما يرشد إليه إسناد سَقْيِه إلى ربِّ العالمين، ووصفه بالطُّهُورِيَّة»(٣).

قال أبو قلابة: يؤتون بالطعام والشراب، فإذا كان آخر ذلك أُتُوا بالشراب الطَّهور، فيطهر بذلك قلوبهم وبطونهم، ويفيض عرقًا من جلودهم، مثل ريح المسك(٤).

وقال غير واحد: أريد أنَّه في غاية الطهارة؛ لأنَّه ليس برجس كخمر الدنيا الَّتي هي في الشرع رجس؛ لأنَّ الدار ليست دار تكليف، أو لأنَّه لم يعصر فتمسه الأيدي الوَضِرة، وتدوسه الأقدام الدَّنِسة. ولم يجعل في الدِّنَان والأباريق الَّتي لم يُعْنَ بتنظيفها، أو لأنَّه لا يؤول إلى النجاسة؛ لأنَّه يرشح عرقًا من أبدانهم، له ريحٌ كريح المسك»(٥).

---

(١) تفسير ابن كثير (٢٩٣/٨).

(٢) المذكورين في الآيتين (٥، ١٧).

(٣) إرشاد العقل السليم (٧٥/٩).

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد (٧٧/٢).

(٥) تفسير الآلوسي (١٨١/١٥).

QaradawiBooks.com

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾

أي: يقال لأهل الجنَّة ـ بعد دخولهم فيها ومشاهدتهم نعيمها ـ: إنَّ هذا النعيم كان لكم جزاءً لأعمالكم، قد أعدَّه الله لكم، وكان سعيُكم محمودًا مرضيًّا مقبولًا عندنا. فما أعظَمَ هذه التهنئة والكرامة! وما أسعَدَ مَنْ نالها بسلامة!

قال الآلوسي: «﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الَّذي ذكر من فنون الكرامات الجليلة الشأن، ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ بمقابلة أعمالكم الصَّالحة الَّتي اقْتضاها حُسن استعدادكم واختياركم، والظاهر أنَّ المجيء بالفعل للتحقيق والدوام، وجُوِّز أن يكون المراد: كان في علمي وحكمي، وكذا في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ أي: مرضيًّا مقبولًا، أو مجازى عليه غير مُضيَّع، والكلام ـ على ما رُوِيَ عن ابن عبَّاس ـ على إضمار القول أي: ويقال لهم بعد دخولهم الجنَّة ومشاهدتهم ما أعد لهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ والغرض أن يزداد سرورهم، فإنه يقال للمعاقب: هذا بعملك الرديء. فيزداد غمُّه، وللمثاب: هذا بطاعتك وعملك الحسن. فيزداد سرورُه، ويكون ذلك تهنئة له.

وجُوِّزَ أن يكون خطابًا من الله تعالى في الدنيا، كأنَّه سبحانه بعد أن شرح ثواب أهل الجنة، قال: إن هذا كان في علمي وحكمي جزاءً لكم يا معشر عبادي، وكان سعيكم مشكورًا.

وقيل: وهو لا يغني عن الإضمار، ليرتبط بما قبله، وقد ذكر سبحانه من الجزاء ما تهشُّ له الألباب»[1].

(١) تفسير الآلوسي (١٥/١٨٢).

QaradawiBooks.com

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا ٢٣
فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾

﴿نَزَّلۡنَا﴾ ﴿تَنزِيلٗا﴾: يَدُلُّ عَلَى التَّكْرَارِ بِخِلافِ ﴿أَنزَلۡنَا﴾، وقد بَيَّنَ تَعالَى أَنَّهُ أَنزلَ الْقُرْآنَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ فِي سُورَةِ القدرِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١]، وتقدم الكلام على نزول القرآن في تفسير تلك السورة، وهنا إثبات التنزيل.

وبيَّن تعالى كيفية التنزيل في قوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وبيَّن تعالى الْحِكْمَةَ في هذا التفريق مُكْثٍ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان: ٣٢].

قال الآلوسي: «ولمَّا ذكر سبحانه أولًا حال الإنسان، وقسَّمه إلى الطائع والعاصي، وأمْعن جلَّ شأنه فيما أعدَّه للطائع، مشيرًا إلى عِظَم سَعَة الرحمة؛ ذكر ما شرَّف به نبيَّه ﷺ إزالة لوحشته، وتقوية لقلبه فقال عز قائلًا: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا﴾.

أي: أنزلناه مفرَّقًا منجَّمًا في نحو ثلاث وعشرين سنة، لحِكَم بالغة مقتضية له، لا غيرنا، كما يعرب عنه تكرير الضمير مع «إنَّ» سواء كان المنفصل تأكيدًا، أو فصلًا، أو مبتدأً»(١).

(١) تفسير الآلوسي (١٥/١٨٢).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

دعوة النبي ﷺ إلى الصبر والذكر وقيام الليل:

قال الآلوسي رحمه الله تعالى: «﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ بتأخير نصرك على الكفار، فإن له عاقبة حميدة.

﴿وَلَا تُطِعۡ﴾ لقلة صبرٍ منك على أذاهم، وضجَرًا من تأخُّر نصرك. ﴿مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾ قيل: إن «أَوْ» لأحد الشيئين في جميع مواقعها، ويعرض لها معان أُخَر، كالشك والإباحة وغيرهما، فيكون أصل المعنى هنا: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ﴾ أحد النوعين. ولما كان أحد الأغلب عليه في غير الإثبات العموم واحتمال غيره احتمال مرجوح؛ صار المعنى على النهي عن إطاعة هذا وهذا، ولم يؤتَ بالواو لاحتمال الكلام عليه النهي عن المجموع، ويحصل امتثاله بالانتهاء عن واحد دون الآخر، فلا يرد أن لا تطلع أحد النوعين يحصل الامتثال به بترك إطاعة واحد من إطاعة الآخر، إذ يقال لمن فعل ذلك: إنَّه لم يطع أحدهما، ومن هنا قيل: إن «أَوْ» في الإثبات تفيد أحد الأمرين، وفي النفي تفيد نفي كلا الأمرين جميعًا.

ولعل ما ذُكِر في معنى كلام ابن الحاجب حيث قال: إن وضع «أَوْ» لإثبات الحكم لأحد الأمرين، إلَّا أنَّه إن حصلت قرينة يفهم معها أن أحد الأمرين غير حاجز عن الآخر، مثل قولك: جالِسْ الحسنَ أو ابن سيرين. سُمِّي إباحةً، وإن حجزَ، فهو لأحد الأمرين.

من هو الآثم والكفور؟

والمراد بـ«الآثم والكفور» جنسهما، وتعليق النهي بذلك مشعر بعِلِّية الوصفين له، فلا بدَّ أن يكون النهي عن الإطاعة في الإثم والكفر، لا فيما ليس بإثم ولا كفر.

QaradawiBooks.com

والمراد: ولا تطع مرتكب الإثم الداعي لك إليه، أو مرتكب الكفر الداعي إليه، أي: لا تتبع أحدًا من الآثم إذا دعاك إلى الإثم، ومن الكفور إذا دعاك إلى الكفر، فإنه إذا قيل: لا تطع الظالم. فُهِمَ منه: لا تتبعه في الظلم إذا دعاك إليه. ومَنْع هذا الفهم مكابرة، فلا يتم الاستدلال بالآية على عدم جواز الاقتداء بالفاسق إذا صلى إمامًا.

ثم إنَّ التقسيم باعتبار ما يدعوان إليه من الكفر والإثم المقابل له، لا باعتبار الذوات، حتَّى يكون بعضهم آثمًا وبعضهم كفورًا. فيقال: كيف ذلك وكلهم كفرة؟!

والمبالغة في «كفور» قيل: لموافقة الواقع. وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عمران: ١٣٠]، واعتبار رجوعها إلى النهي كاعتبار رجوعها إلى النفي على ما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]. كما ترى.

وقيل: الآثم: المنافق، والكفور: المشرك المجاهر. ووضع الظاهر موضع الضمير للتنديد بالوصف.

وفي النهي مع العصمة: إرشاد لغير المعصوم إلى التضرُّع إلى الله تعالى والرغبة إليه سبحانه في الحفظ عن الوقوع فيما لا ينبغي»(١).

ذكر الله تعالى وقيام الليل والسجود والتسبيح:

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾

قال الآلوسي: «﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ وداوِمْ على ذكره

(١) تفسير الآلوسي (١٨٢/١٥، ١٨٣).

QaradawiBooks.com

سبحانه في جميع الأوقات، أو دُم على صلاة الفجر والظهر والعصر، فإنَّ الأصيل قد يطلق على ما بعد الزوال إلى المغرب، فينتظمهما.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: بعضه ﴿فَٱسۡجُدۡ﴾ فصلِّ له ﷻ، على أنَّ السجود مجاز عن الصلاة، بذكر الجزء وإرادة الكل، وحمل ذلك على صلاة المغرب والعشاء، وتقديم الظرف للاعتناء والاهتمام لما في صلاة الليل من مزيد كلفة وخلوص.

﴿وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا﴾ وتهجد له تعالى قِطَعًا من الليل طويلًا، فهو أمر بالتهجد على ما اختار له بعضهم. وتنوين ﴿لَيۡلًا﴾ للتبعيض.

وأصل التسبيح: التنزيه، ويطلق على مطلق العبادة القوليَّة والفعليَّة.

وعن ابن زيد وغيره: أن ذلك كان فرضًا ونُسِخ، فلا فرض اليوم إلَّا الخمس.

وقال قوم: هو مُحْكَم في شأنه عليه الصلاة والسلام.

وقال آخرون: هو كذلك مطلقًا على وجه الندب.

وفي تأخير الظرف، قيل: دلالة على أنَّه ليس بفرض. كالَّذي قبله، وكذا في التعبير عنه بالتسبيح (بمعنى أنَّه مشتقٌّ من السُّبْحة وهي النافلة) وفيه نظر.

وقال الطِّيبي: الأقرب من حيث النَّظم أنَّه تعالى لمَّا نهى حبيبَه ﷺ عن إطاعة الآثم والكفور، وحثَّه على الصبر على أذاهم، وإفراطِهم في العداوة، أراد سبحانه أن يرشده إلى متاركتهم، عقَّب ذلك الأمرَ باستغراق أوقاته بالاشتغال بالعبادة ليلًا ونهارًا، بالصلوات كلِّها من غير تخصيص،

QaradawiBooks.com

وبالتسبيح بما يُطيق، على منوال قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ۝ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٩]. انتهى[(١)]. وهو حسن»[(٢)].

محبة العاجلة ونسيان اليوم الثقيل:

﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾:

قال الآلوسي: «﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ الكفرة ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي: الدنيا، كما يسمِّيها القرآن، وكما قال تعالى في سورة القيامة: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١]. وينهمكون في لذاتها الفانية، ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾ أي: بعدهم، ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ هو يوم القيامة، وكونه بعدهم ظاهر، أو يَذَرون وراء ظهورهم يومًا ثقيلًا لا يعبَؤون به.

ووَصَف اليوم بالثقيل لتشبيه شِدَّته وهَوْله بثقل شيء فادح باهظ لحامله، بطريق الاستعارة، والجملة كالتعليل لما أمر به، ونهى عنه، كأنَّه قيل: لا تُطِعْهم، واشتغل بالأهم من العبادة؛ لأن هؤلاء تركوا الآخرة للدنيا، فاترك أنت الدنيا وأهلها للآخرة.

وقيل: إنَّ هذا يفيد ترهيب مُحبِّ العاجل، وترغيب مُحبِّ الآجل، والأول: علة للنهي عن إطاعة الآثم والكفور، والثاني: علَّة للأمر بالعبادة»[(٣)].

---

(١) حاشية الطيبي المسماة فتوح الغيب (١٦/٢١٢، ٢١٣).
(٢) تفسير الآلوسي (١٥/١٨٣).
(٣) تفسير الآلوسي (١٥/١٨٣، ١٨٤).

QaradawiBooks.com

الافتراق بين منهج الإسلام ومنهج الجاهليَّة:

يقول الشهيد الأستاذ سيِّد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ظلال هذه الآية: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾:

«ثمَّ يمضي السياق في توكيد الافتراق بين منهج الرسول ﷺ ومنهج الجاهليَّة، بما يقرِّره من غفلتهم عن رؤية الخير لأنفسهم، ومن تفاهة اهتماماتهم، وصِغَر تَصوُّراتهم.. يقول:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾..

إنَّ هؤلاء القريبي المطامح والاهتمامات، الصغار المطالب والتصوُّرات.. هؤلاء الصغار الزهيدين الَّذين يستغرقون في العاجلة ويذرون وراءهم يومًا ثقيلًا، ثقيلًا بتبعاته، ثقيلًا بنتائجه، ثقيلًا بوزنه في ميزان الحقيقة..

إنَّ هؤلاء لا يطاعون في شيء، ولا يتَّبعون في طريق، ولا يلتقون مع المؤمنين في هدف ولا غاية، ولا يؤْبه لما هم فيه من هذه العاجلة، من ثراء وسلطان ومتاع، فإنما هي العاجلة، وإنَّما هو المتاع القليل، وإنَّما هم الصغار الزهيدون! ثمَّ توحي الآية بغفلتهم عن رؤية الخير لأنفسهم. فهم يختارون العاجلة، ويذرون اليوم الثقيل الَّذي ينتظرهم هناك بالسلاسل والأغلال والسعير، بعد الحساب العسير! فهذه الآية استطراد في تثبيت الرسول ﷺ والمؤمنين معه، في مواجهة هؤلاء الَّذين أوتوا من هذه العاجلة ما يحبون. إلى جانب أنَّها تهديد ملفوف لأصحاب العاجلة باليوم الثقيل»[1].

(١) في ظلال القرآن (٣٧٨٦/٦).

QaradawiBooks.com

قدرة الله سبحانه على النشأة الأخرى:

﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا﴾

قال الآلوسي: «﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ﴾ لا غيرنا، ﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡ﴾ أي: أحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق. والأسر في الأصل: الشدّ والربط. وأُطلق على ما يُشَدُّ به ويُربط، كما هنا، وإرادة الأعصاب والعروق لشبهها بالحبال المربوط بها، ووجه الشبه ظاهر، ومن هنا قد يقول العارف: من كان أسرُه من ذاته، وسجْنُه دنياه في حياته؛ فليشكُ مدةَ عمره، وليتأسف على وجوده بأسره. والمراد: شدة الخَلْق، وكونه مَوْثِقًا حسنًا. ومنه: فرس مأسور الخَلق، إذا كان مَوْثِقه حسنًا.

﴿وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ أي: أهلكناهم، وبدَّلنا أمثالهم في شدَّة الخَلْق ﴿تَبۡدِيلًا﴾ بديعًا، لا ريب فيه. يعني: البعث والنَّشأة الأخرى، فالتبديل في الصِّفات؛ لأنَّ المعاد هو المبتدَأ، ولكون الأمر مُحقَّقًا كائنًا جيء بـ «إذا»، وذكَّر المشيئة لإبهام وقته، ومثله شائع، كما يقول العظيم لمن يسأله الإنعام: إذا شئتُ أحسن إليك»[1].

ويقول الأستاذ المفكر الشهيد سيِّد حول هذه الآية في التهوين من أمرهم عند الله الَّذي أعطاهم ما هم فيه من قوَّة وبأس، وهو قادر على الذهاب بهم وتبديل غيرهم منهم: ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا﴾:

«وهذه اللفتة تذكر هؤلاء الَّذين يعتزون بقوتهم، بمصدر هذه القوة،

(١) تفسير الآلوسي (١٥/١٨٤).

QaradawiBooks.com
غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

بل مصدر وجودهم ابتداء. ثمَّ تطمئن الَّذين آمنوا ـ وهم في حالة الضعف والقلة ـ إلى أن واهب القوَّة هو الَّذي ينتسبون إليه وينهضون بدعوته. كما تقرر في نفوسهم حقيقة قدر الله وما وراءه من حكمة مقصودة، هي الَّتي تجري وفقها الأحداث حتَّى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾.. فهم لا يعجزون الله بقوتهم، وهو خلقهم وأعطاهم إيّاها. وهو قادر على أن يخلق أمثالهم في مكانهم.. فإذا أمهلهم ولم يبدل أمثالهم فهو فضله ومنّته، وهو قضاؤه وحكمته.

ومن هنا تكون الآية استطرادًا في تثبيت الرسول ﷺ ومن معه، وتقريرًا لحقيقة موقفهم وموقف الآخرين.. كما أنَّها لمسة لقلوب هؤلاء المستغرقين في العاجلة، المغترين بقوة أسرهم، ليذكروا نعمة الله، الَّتي يتبطَّرون بها فلا يشكرونها، وليشعروا بالابتلاء الكامن وراء هذه النعمة. وهو الابتلاء الَّذي قرَّره لهم في مطلع السورة»(١).

رسالة القرآن رسالة هداية وإرشاد وتذكير وليست رسالة إكراه وإلزام:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾

قال الآلوسي: «﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ إشارة إلى السورة، أو الآيات القرآنية القريبة، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أيْ: فمن شاء أن يتخذ إليه تعالى سبيلًا ـ أي: وسيلة توصله إلى ثوابه ـ اتخذه. أي: تقرَّب إليه بالطاعة.

(١) في ظلال القرآن (٣٧٨٦/٦، ٣٧٨٧).

QaradawiBooks.com

﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ أي: شيئًا، أو اتِّخاذ السبيل. ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلَّا وقت مشيئة الله تعالى لمشيئتكم. يعني: أن مشيئة الإنسان للأشياء الَّتي يريدها ليست إلَّا جزءًا من مشيئة الله تعالى العامة، وليست خارجة عليها، ولا منفصلة عنها».

ونقل الآلوسي عن الزمخشري: «أي: وما تشاؤون الطاعة إلا أن يشاء الله تعالى قسْركم عليها. وهو تحريف للآية بلا دليل، ويلزمه على ما في «الانتصاف» أنَّ مشيئة العبد لا توجد، إلَّا إذا انتفت، وهو عن مذهب الاعتزال بمعزل، وأبعد منزل»[١].

ثم قال: «والظاهر ما قرَّرنا؛ لأنَّ المفعول المحذوف هو المذكور أولًا كما تقول: لو شئتَ لقتلتُ زيدًا. أي: لو شئتُ القتل، لا لو شئتُ زيدًا. ولا يمكن للمعتزلة أن ينازعوا أهل الحقِّ في ذلك؛ لأنَّ المشيئة ليست من الأفعال الاختياريَّة، وإلَّا لتسلسلت، بل الفعل المقرون بها منها، فدعوى استقلال العبد مكابرة، وكذلك دعوى الجبر المطلق مهاترة، والأمر بين الأمرين، لإثبات المشيئتين، وحاصله على ما حقَّقه الكوراني: أنَّ العبد مختار في أفعاله، وغير مختار في اختياره، والثواب والعقاب لحسن الاستعداد النفسي الأمري وسوئه، فكلٌّ يعمل على شاكلته، وسبحان من أعطى كلَّ شيءٍ خلقه ثمَّ هدى»[٢].

قال الآلوسي في آخر تفسير هذه السورة: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ مبالغًا في العلم، فيعلم مشيئات العباد المتعلقة بالأفعال الَّتي سألوها بألسنة استعداداتهم ﴿حَكِيمًا﴾ مبالغًا في الحكمة، فيفيض على كلٍّ ما هو الأوفق

(١) تفسير الزمخشري (٦٧٦/٤).
(٢) تفسير الآلوسي (١٨٤/١٥).

QaradawiBooks.com

باستعداده، وما هو عليه في نفس الأمر من المشيئة، أو أنَّه تعالى مبالغ في العلم والحكمة، فيعلم ما يستأهله كل أحد من الطاعة وخلافها، فلا يشاء لهم إلَّا ما يستدعيه علمه سبحانه، وتقتضيه حكمته عَزَّ وَجَلَّ.

وقيل: ﴿عَلِيمًا﴾ أي: يعلم ما يتعلق به مشيئة العباد من الأعمال. ﴿حَكِيمًا﴾ لا يشاء إلَّا على وَفق حكمته، وهو أن يشاء العبد فيشاء الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا العكس، ليتأتى التكليف من غير انفراد لأحد المشيئتين عن الأخرى، وفيه بحث.

وقوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ...﴾ بيان لما تضمَّنته الجملة، قيل: أي يدخل سبحانه في رحمته من يشاء أن يدخله فيها، وهو الَّذي علم فيه الخير، حيث يوفِّقه لما يؤدي إلى دخول الجنَّة من الإيمان والطاعة.

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لأنفسهم، وهم الَّذين علم فيهم الشر. ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ متناهيًا في الإيلام. ونصب ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بإضمار فعل يفسره «أعدَّ» إلخ، وقُدِّر «يعذِّب» وقد يقدَّر «أوعد» أو «كافأ» أو شبه ذلك، ولم يقدر «أعد»؛ لأنَّه لا يتعدَّى باللام»(١).

تفسير سيِّد قطب لختام السورة:

يقول الأستاذ الشهيد سيِّد قطب في ختام تفسير هذه السورة الَّتي توقظ المستغرقين في العاجلة، المغترين بقوة أسرهم إلى الفرصة المتاحة لهم، والقرآن يعرض عليهم، وهذه السورة منه تذكرهم:

«﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

(١) تفسير الآلوسي (١٥/١٨٥).

QaradawiBooks.com

ويُعَقِّب على هذه اللفتة بإطلاق المشيئة، وردِّ كل شيء إليها، ليكون الاتجاه الأخير إليها، والاستسلام الأخير لحكمها وليبرأ الإنسان من قوته إلى قوتها، ومن حوله إلى حولها.. وهو الإسلام في صميمه وحقيقته:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

ذلك كي تعلم قلوب البشر أنَّ الله هو الفاعل المختار، المتصرِّف القهار، فتتعلَّم كيف تتَّجه إليه وتستسلم لقدره. وهذا هو مجال هذه الحقيقة الَّذي تجري فيه في مثل هذه النصوص. مع تقرير ما شاءه الله لهم من منحهم القدرة على إدراك الحق والباطل والاتجاه إلى هذا أو ذاك وَفْق مشيئة الله، العليم بحقيقة القلوب، وما أعان به العباد من هبة الإدراك والمعرفة، وبيان الطريق، وإرسال الرسل، وتنزيل القرآن... إلَّا أن هذا كله ينتهي إلى قدر الله، الَّذي يلجأ إليه الملتجئ، فيوفقه إلى الذكر والطاعة، فإذا لم يعرف في قلبه حقيقة القدرة المسيطرة، ولم يلجأ إليها لتعينه وتيسره، فلا هدى ولا ذكر، ولا توفيق إلى خير...

ومن ثمَّ فهو: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فهي المشيئة المطلقة تتصرف بما تريد. ومن إرادتها أن يدخل في رحمته من يشاء، ممن يلتجئون إليه، يطلبون عونه على الطاعة، وتوفيقه إلى الهدى.. ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. وقد أملى لهم وأمهلهم لينتهوا إلى هذا العذاب الأليم!

وهذا الختام يلتئم مع المطلع، ويصور نهاية الابتلاء، الَّذي خلق الله له الإنسان من نطفة أمشاج، ووهبه السمع والأبصار، وهداه السبيل إمَّا إلى جنَّة وإمَّا إلى نار»[1].

(١) في ظلال القرآن (٣٧٨٧/٦).

QaradawiBooks.com

سَعَة رحمة الله وعظيم جلاله:

قال العلَّامة الآلوسي في خاتمة تفسير هذه السورة: «ثُمَّ إِنَّ هذه السورة وإن تضمَّنت من سعة رحمة الله ﷻ ما تضمَّنت، إلَّا أنَّها أشارت من عظيم جلاله سبحانه وتعالى إلى ما أشارت.

أخرج أحمد والترمذي وحسَّنه، وابن ماجه والضياء في المختارة، والحاكم وصحَّحه وغيرهم، عن أبي ذر قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ حتَّى ختمها، ثمَّ قال: «**إنِّي أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أَطَّت السماءُ وحُقَّ لها أن تئطَّ، ما فيها موضع أربعِ أصابع إلَّا ومَلَكٌ واضعٌ جبهته ساجدًا لله تعالى، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا، وما تلذَّذتم بالنساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الصُعُدات تجأرون إلى الله** ﷻ»[1].

وهذا كالظاهر فيما قلنا، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الأبرار والمقربين الأخيار، فيرزقنا جنَّة وحريرًا، ويجعل سعْينا لديه مشكورًا»[2].

* * *

(١) رواه أحمد (٢١٥١٦)، وقال مخرِّجوه: حسن لغيره. والترمذي (٢٣١٢)، وحسَّنه، وابن ماجه (٤١٩٠) كلاهما في الزهد، والحاكم في الفتن (٥١٠/٢)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي.

(٢) روح المعاني للآلوسي (١٨٥/١٥، ١٨٦) بتصرُّف.

QaradawiBooks.com

سورة المرسلات

كلمات حول السورة:

سورة المرسَلات خمسون آية، وهي مكيَّة في قول جمهور المفسِّرين وعلماء القرآن.

وحكى النقَّاش أن فيها من المدني قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ على تأويل من قال: إنَّها حكاية عن حال المنافقين، وإنَّها بمعنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢]. وهذه الآية في سورة القلم، وهي ـ كما بيَّنَّا ـ من أوائل السور المكية الَّتي نزلت مبكرة.

ولا وجه لاستثناء هذه الآيات من سورها المكية ـ كما سبق أن أوضحنا ـ فالحقيقة أنَّها جزء أصيل منها، وليس لدينا دليل قاطع ولا راجح ولا مقنع، يدل على استثناء هذه الآيات، وهي أوهام من ناحيةِ منْ نظر نظرة عَجْلى، ولم يُدقِّق في تكامل السور، كما جاء بها الكتاب العزيز.

وآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ في سورة المرسلات خاصة، لا يمكن استثناؤها من مكية السورة، لأن استثناءها، يعني تأخر نزولها، ما يجعل قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ مكرر مرتين، قبل نزولها، على خلاف نمط السورة كلها.

QaradawiBooks.com

روى البخاري ومسلم والنسائي عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: بينما نحن مع النبي ﷺ في غارٍ بمِنًى، إذ نزل عليه: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ وإنَّه ليتلوها، وإنِّي لأتلقَّاها مِنْ فيه، وإن فاه لرطْبٌ بها، إذ وثبَتْ علينا حيَّة، فقال النبيُّ ﷺ: «**اقتلوها**». فابتدرناها، فذهبت، فقال النبيُّ ﷺ: «**وُقِيَتْ شرَّكم، كما وُقِيتُم شرَّها**»[1].

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، أنَّه قال: إنَّ أمَّ الفضل سمعته وهو يقرأ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات: ١]. فقالت: يا بُنيَّ، والله لقد ذكَّرْتني بقراءتِكَ هذه السورةَ؛ إنَّها لآخِر ما سمعتُ من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب[2].

بهذا ثبت لنا أنَّ سور جزء تبارك كلها سور مكيَّة، وأنَّها لم يثبت فيها استثناء آية واحدة غير مكيَّة، وهذا هو الأصل في السور، إلَّا القليل النادر.

أغراض السورة:

وأغراض هذه السورة، كأغراض السور المكيَّة، الَّتي تُهيِّئ المسلمين لتلقِّي القرآن العظيم والحفاظ عليه، وتبليغه إلى المشركين، والدفاع عنه، والإيمان بما أجمعت عليه هذه السور كلها، من تقرير عقيدة الإلهيَّة والربوبيَّة، وأنَّ الله وحده هو خالق السماوات والأرض، والمهيمن على هذا الكون كله.

وفي هذه السورة ما فيها من إقسام الله بالرياح الَّتي أرسلها بالرحمة والخير للناس، أو بالملائكة الَّتي أرسلها الله بأمره ووحيه، وله سبحانه

(١) متفق عليه: رواه البخاري في جزاء الصيد (١٨٣٠)، ومسلم في السلام (٢٢٣٤)، عن ابن مسعود.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٧٦٣)، ومسلم في الصلاة (٤٦٢).

QaradawiBooks.com

أن يقسم بما شاء من خلقه، ليلفت الأنظار إلى ما لهذه المخلوقات من فوائد وآثار، وما فيها من نِعم الله على النَّاس، وأن هذا القَسَم إنذار بيوم الفصل، وما أدراك ما يوم الفصل.

وفي السورة إعلام وتذكير وتأكيد لهذا اليوم العظيم، الَّذي كان مشركو العرب ينكرونه، ويستبعدونه على قدرة الله تعالى أن يعيد النَّاس بعد موتهم، وهو الَّذي خلقهم من ماء مَهين، فجعله في قرار مكين، إلى قدَر معلوم، كما قال تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾. قال تعالى هذا بعد أن أخبرنا بإهلاكه المكذِّبين الأوَّلين، ثمَّ إتباعهم الآخرين، وأنَّه كذلك يفعل بالمجرمين.

وقد أقام ﷻ الدلائل الواضحات والآيات البيِّنات على قدرته تعالى على البعث والإحياء، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾.

وقد اتَّخذت هذه السورة من الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ لازمة تعيدها وتكرِّرها بعد كل مجموعة آيات، لغرس فكرة مهمة، وبيان حقيقة كبيرة، والرد على باطل ردَّدُوه، وقد تكرَّرت هذه الآية في هذه السورة عشر مرات.

وهو يتحدَّى المشركين بقوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، ويتوعَّدهم بما أعدَّ للكافرين المُكذِّبين في الآخرة، ويقول تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾. وبيَّن لهم عجزهم عن أن يكيدوا كيدًا، أو يفعلوا شيئًا، إذ هم لا يستطيعون، فعليهم أن يعلموا ما أعدَّ الله للمجرمين، وما أعدَّ للمؤمنين، وأن يؤمنوا بما أنزل الله من القرآن، وإلا فبأي حديث بعده يؤمنون؟

QaradawiBooks.com

بداية تفسير السورة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۝١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٥ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾

﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾

جمهور المفسرين على أنَّ المراد بالمرسلات هنا: الرياح.

ونحن نعلم أنَّ هذا النوع من الأقسام هو أحد الأقسام الخمسة الَّتي جاءت كلها في القرآن المكي بهذه الصيغة (صيغة جمع المؤنث السالم المختوم بالألف والتاء.

بدأ **أولها** في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾ [الصافات: ١، ٢].

وثانيها قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾ [الذاريات: ١، ٢].

وهذه الآيات من هذه السورة «المرسلات» **ثالثها**.

ورابعها: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ [النازعات: ١، ٢].

وخامسها: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ۝ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا﴾ [العاديات: ١، ٢].

وقد تحدثنا عن القَسَمين الأخيرين في تفسيرنا لجزء «عمَّ يتساءلون»، والآن نتحدث عن تفسير هذا القسم العظيم، الَّذي فسره جمهور المفسِّرين على أنَّ المراد بالمقسَم به هنا: الرياح. فعن ابن عبَّاس وابن مسعود: إنَّها الرياح[1]. كما قال تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]. وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧].

---

(١) تفسير القرطبي (١٥٤/١٩).

QaradawiBooks.com

فهذه الرياح مرسلة بنصِّ القرآن من الله تعالى، وهي تحمل البشرى للناس، بما تسوقه من السحاب، وما ينزل منه من الأمطار، فتَحيا به الأرض بعد موتها. وهذا أمر تحتاج إليه الأرض، وتحتاج إليه النباتات، ويحتاج إليه الأنعام والكائنات الحيَّة، ويحتاج إليه بنو الإنسان الَّذين لا يستغنون عن الحبوب والثمار من المزروعات وغير المزروعات، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣ ـ ٣٥].

ومعنى ﴿عُرْفًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾: أي: متتابعة يتبع بعضها بعضًا، كعُرْف الفرس، تقول العرب: النَّاس إلى فلانٍ عُرفٌ واحد. إذا توجَّهوا إليه فأكثروا. فمعنى ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ أي: والرياحِ الَّتي أرسلت متتابعة.

﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾

هذه الرياح المتتابعة المتلاحقة الَّتي أقسم الله بها، الَّتي تسوق السحاب، وتحمل اللقاح، كثيرًا ما تكون شديدة في هبوبها، عاصفة في شدَّتها، كما وصف القرآن بعضها كأنها: ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾ [البقرة: ٢٦٦]. أو كما وصف الله الريح الَّتي أهلكت عادًا قوم هود، الَّذين استكبروا في الأرض بغير الحق، وقالوا: مَنْ أشدُّ منا قوة؟ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥، ١٦]. وكما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٨ ـ ٢١].

QaradawiBooks.com

﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا﴾

لم يعطف الله هذه على ما قبلها بالفاء، كما في الآية السابقة عليها؛ تنويهًا بأنَّها يمكن أن تكون نوعًا آخر ممَّا يخلقه الله تعالى، ويُجنِّده من مخلوقاته المسخرة بأمره، لذلك بعضهم فسَّرها بالملائكة، الَّتي أقسم الله بها هنا، لنشر الوحي بين رسل الله نشرًا في الأرض، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا﴾

حُملت على الملائكة، الَّذين يرسلهم الله إلى الأنبياء، فيفرقون بين المُحقِّين والمبطلين، وبين المؤمنين والكافرين، فتتضح الحقائق وتظهر الأباطيل، ويبين أهل الهدى من أهل الضلال، ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الرعد: ١٧].

﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾

عطفها بالفاء على ما قبلها، دلالة على شدَّة الارتباط بها، وأنَّها معها، بل منها، فهذه الملائكة الَّتي فرَّقت بما تحمله بين الحق والباطل، تلقي من الذكر والوحي والقرآن ما يتم به هذا النور، فهذا القرآن قد سمَّاه الله تعالى ذكرًا، في مناسبات كثيرة من القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: ٤٤].

وقال لنبيِّه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

QaradawiBooks.com

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾

أي: ما يلقونه من الذكر، يكون إعذارًا من الله تعالى، أو إنذارًا إلى خلقه من عذابه.

وهذا واضح إذا كان الَّذين يُلْقُون هذا الذكر هم الملائكة.

وبعض النَّاس قال: هم رسل الله تعالى من البشر، مثل نوح وهود وصالح وإبراهيم وشعيب وموسى وعيسى وسائر الأنبياء. فهؤلاء الرسل يُعذِرون وينذرون.

وروى الضحَّاك عن ابن عبَّاس، قال: ﴿عُذْرًا﴾ أي: ما يلقيه الله جلَّ ثناؤه من معاذير أوليائه، وهي التوبة، ﴿أَوْ نُذْرًا﴾ ينذر أعداءه(١).

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾

هذا جواب لما تقدَّم من القسم، بما أقسم تعالى به من الأمور الأربعة، أي: ما توعدون من أمر القيامة، واقعٌ بكم، ونازل عليكم في المستقبل حتمًا.

مشاهد الانقلاب الكوني قبل يوم القيامة وأحداثه:

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

(١) تفسير القرطبي (١٩/١٥٦).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾

ثم بيَّن تعالى وقت وقوعه فقال: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ أي: ذهب ضوؤها، ومُحي نورها، كطَمْس الكتاب، يقال: طُمِس الشيء إذا دَرَس ومُحِي، فهو مطموس، والريح تطمسُ الآثار، فتكون الريح طامسة، والآثر طامسًا بمعنى المطموس.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾

أي: فُتِحت وشُقَّت. ومنه قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ [النبأ: ١٩]. وروى الضحاك عن ابن عبَّاس قال: فُرِجت للطَّيِّ[١].

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾

جعلت كالحبِّ الَّذي يُنسف بالمِنْسَف ونحوه. أي: هذه الجبال الراسيات الشامخات، الهائلة في أنظار البشر تصبح هكذا. وقيل: سُوِّيت بالأرض. وقيل: نُسِفَت أي قُلِعت من موضعها، يقول الرجل للرجل يقتلع رجليه من الأرض: أَنُسِفَتْ رجلاه؟ وقيل: النسف تفريق الأجزاء حتَّى تذروها الرياح.

وفي القرآن: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧]. وقال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ۝ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾ [الواقعة: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

(١) تفسير القرطبي (١٩/١٥٧).

نسخة مجانية غير صالحة للطباعة
QaradawiBooks.com

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ﴾

أي: عُيِّن لهم الوقت الَّذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم، وذلك عند مجيئه وحضوره، إذ لا يتعيَّن لهم قبله. أو بلغوا الميقات الَّذي كانوا ينتظرونه. فمعنى أنَّ الرسل أُقِّتت، أيْ: جُمعت لوقتها يوم القيامة. والوقت: الأجل الَّذي يكون عنده الشيء المؤخَّر إليه.

فالمعنى: جُعل لها وقت وأجل للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

وقد بيَّن العلَّامة الفخر الرازي أنَّ «المراد بهذا التأقيت تحصيل الوقت وتكوينه، وهذا أقرب إلى مطابقة اللفظ؛ لأنَّ بناء التفعيلات على تحصيل تلك الماهيَّات، فالتسويد تحصيل السواد، والتحريك تحصيل الحركة، فكذا التأقيت تحصيل الوقت. ثمَّ إنَّه ليس في اللفظ بيان أنَّه تحصيل لوقت أي شيء، وإنَّما لم يبيِّن ذلك ولم يعيِّن؛ لأجل أن يذهب الوهم إلى كل جانب، فيكون التهويل فيه أشد، فيَحتمِل أن يكون المراد تكوين الوقت الَّذي يحضرون فيه للشهادة على أممهم، وأن يكون هو الوقت الَّذي يجتمعون فيه للفوز بالثواب، وأن يكون هو وقت سؤال الرسل عما أجيبوا به، وسؤال الأمم عما أجابوهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]. وأن يكون هو الوقت الَّذي يشاهدون الجنة والنار، والعرضَ والحساب، والوزنَ وسائرَ أحوال القيامة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠].

QaradawiBooks.com
غير مرخصة للطباعة
نسخة إلكترونية

﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾

أي: أُخِّرت، كأنَّه تعالى يُعَجِّب العباد من تعظيم ذلك اليوم، فقال: لأيِّ يوم أُخِّرت الأمور المتعلقة بهؤلاء؛ وهي تعذيب من كذَّبهم (أي: كذَّب الرسلَ المذكورين في الآية السابقة)، وتعظيم من آمن بهم، وظهور ما كانوا يدعون الخلق إلى الإيمان به من الأهوال والعرض والحساب، ونشر الدواوين، ووضع الموازين»[١].

﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾

ثمَّ إنَّه تعالى بيَّن ذلك فقال: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾. قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: يوم يفصل الرحمن بين الخلائق[٢]، وهذا كقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠].

وهو اليوم الَّذي قال فيه في سورة النبأ: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ۝ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٧، ١٨].

قال القرطبي: «﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ أي: أُخِّرَت، وهذا تعظيم لذلك اليوم، فهو استفهام على التعظيم.

﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: ليوم الفصل أُجِّلت.

وروى سعيد عن قتادة، قال: يُفصل فيه بين النَّاس بأعمالهم[٣] إلى الجنَّة أو إلى النار.

---

(١) تفسير الرازي (٣٠/٧٦٩).

(٢) تفسير الرازي (٣٠/٧٧٠).

(٣) رواه الطبري في التفسير (٢٢/٤١).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وفي الحديث: «**إذا حُشر النَّاس يوم القيامة، قاموا أربعين عامًا، على رؤوسهم الشمس، شاخصة أبصارهم إلى السماء، ينتظرون الفصل**»(١).

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾

أتبَع التعظيمَ تعظيمًا، أي: وما أعلمك ما يوم الفصل؟ وهذا خطاب للنبيِّ، ولكل من يتوجه إليه الخطاب من أمته.

﴿وَيۡلٌ يَوۡمَئِذٍ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي: عذاب وخزيٌ لمن كذَّب بالله تعالى وبرسله وكتبه، وبيوم الفصل، فهو وعيد. وكرَّره في هذه السورة عند كل آية لمن كذَّب؛ لأنَّه قسَّمه بينهم على قدر تكذيبهم، فإنَّ لكل مكذب بشيءٍ عذابًا على قدره، سوى تكذيبه بشيء آخر، ورُبَّ شيء كذَّب به هو أعظم جرمًا من تكذيبه بغيره؛ لأنَّه أقبح في تكذيبه، وأعظم في الرد على الله، فإنما يُقسم له من الويل على قدر ذلك، وعلى قدر وِفاقه، وهو قوله: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]»(٢).

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾:

ثم أتبع ذلك تعظيمًا ثانيًا فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾؟ أي: وما علمك بيوم الفصل وشدَّته ومَهابته؟

وقد تتبعنا في القرآن ما جاء من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ ـ وهي ١٢ مرَّة ـ فوجدناها كلها تدل على تعظيم المخاطَب بشأنه. مثل: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ٣]. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ [المدثر: ٢٧]. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧]. ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ٣]، إلخ.

---

(١) رواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢٨١)، وأورده ابن حجر في المطالب العالية (٤٥٣٩)، ونسبه إلى إسحاق بن راهويه، وقال: هذا إسناد صحيح متصل رجاله ثقات. عن ابن مسعود.

(٢) تفسير القرطبي (١٩/١٥٨).

QaradawiBooks.com

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾

ثم أتبعه بتهويل ثالث فقال: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي: للمكذِّبين بالتوحيد والنبوَّة والمعاد، وبكل ما ورد عن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وأخبروا به.

تكرار: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾:

وفي هذه السورة اتَّخذ القرآن هذه الآية لازمة يذكرها بعد كل مقطع من مقاطع السورة، يذكر القرآن فيه نعمة كبيرة من نِعَم الله على عباده، مثل: إهلاك الظلمة المتجبرين على الله ورسله، المكذِّبين لهم، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٧ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ ثمَّ يقول: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٦ ـ ١٩]. وبعدها يقول: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٢٠ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ٢١ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢٢ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾ ثمَّ يقول: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٢٠ ـ ٢٤]. وهكذا تتكرَّر هذه الآية، كما تكررت ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرَّة، وكما تتكرر في سورة الشعراء بعد قصص الرسل الكرام: موسى وإبراهيم، ونوح وهود وصالح، ولوط وشعيب: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾. وكما تكررت في سورة القمر: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾.

قال أبو حيَّان الأندلسي: «وجاء في هذه السورة بعد كل جملة قوله: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾؛ لأنَّ كل جملة منها فيها إخبار الله تعالى عن أشياء من أحوال الآخرة، وتقريرات من أحوال الدنيا، فناسب أن يذكر الوعيد عَقِيب كلِّ جملة منها للمكذِّب بالويل في يوم الآخرة»[1].

(١) البحر المحيط (١٠/٣٧٩، ٣٨٠).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

معنى الويل، وما قيل من أن «ويلًا» واد في جهنَّم:

و«الويل» سواء أكانت منكَّرة أم معرفة، هي الهلاك والعذاب، استعملها النَّاس في الجاهليَّة كما استعملوها في الإسلام.

وقد وردت «الويل» في القرآن سبعًا وعشرين مرَّة، كما وردت الكلمة مضافة مرات أخرى.

وقد كُرِّرت ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مرات في سورة المرسلات، ووردت مرَّة في سورة الطور، ومرة في سورة المطففين، وكلها من السور المكيَّة.

ومن هنا لم يصحَّ ما جاء في بعض الأحاديث المرفوعة والموقوفة من أنَّ «ويلًا» وادٍ في جهنم، يُعَذِّب الله فيه بعض عباده[(١)]. فهذا خروج عن المعنى الَّذي وضعه العرب للكلمة.

ولهذا لم يصحَّ حديث في هذا عن النبي ﷺ من ناحية السند، ولا من ناحية النظر في المتن.

ومثل هذا ما قيل عن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ [الرعد: ٢٩]، من أن «طوبى» شجرة في الجنَّة يسير الراكب في ظلها مائة أو أكثر من مائة من الأعوام[(٢)]. فـ «طوبَى» كلمة مدح، كما أنَّ ﴿وَيۡلٞ﴾ كلمة ذمّ، وهذا في الجاهليَّة والإسلام.

---

(١) المرفوع رواه أحمد (١١٧١٢)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في التفسير (٣١٦٤)، وقال: غريب. عن أبي سعيد الخدري. والموقوف عن ابن مسعود، رواه الطبراني (٢٢٨/٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٤٧٥): فيه يحيى الحِمَّاني وهو ضعيف.

(٢) رواه أحمد (١١٦٧٣)، وقال مخرِّجوه: إسناده ضعيف. عن أبي سعيد الخدري.

QaradawiBooks.com

المكذِّبون الَّذين توعدتهم الآيات:

والمُكذِّبون الَّذين توعّدتهم هذه الآيات هم الَّذين كذَّبوا محمَّدًا ﷺ، وكذَّبوا بآيات كتابه القرآن، وكذَّبوا بلقاء الله، وهؤلاء الَّذين كذَّبوا محمَّدًا يعتبرون كأنهم كذبوا المرسلين جميعًا نوحًا وهودًا وصالحًا وشعيبًا وغيرهم، كما قال الله تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]. ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]. ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١]. ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠]. ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦]. فبتكذيب كل قوم من هذه الأقوام لرسولهم الَّذي أرسل إليهم، كذَّبوا الرسل جميعًا.

ولقد جاء الوعيد الشديد، والتهديد والتخويف، والإنذار المتكرر في القرآن الكريم بما يزلزل كلَّ من كان له عقل يعي، وكل من كان له ضمير يُحِسُّ، وكل من كان له قلب يشعر.

وهدَّدَ القرآن هؤلاء المُكذِّبين في آيات كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٠ ـ ٧٢].

سؤالان للإمام الفخر الرازي:

يقول الرازي: «بقي هاهنا سؤالان:

السؤال الأول: كيف وقع النكرة مبتدأ في قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾؟

الجواب: هو في أصله مصدر منصوب، سادٌّ مَسدَّ فعلِه، ولكنَّه عُدِل به إلى الرفع للدلالة على معنى ثبات الهلاك ودوامه للمَدعُوِّ

QaradawiBooks.com

عليه، ونحوه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الزمر: ٧٣]. ويجوز: ويلًا بالنصب، ولكن لم يُقرأ به.

السؤال الثاني: أين جواب قوله: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾؟

الجواب: من وجهين: أحدهما: التقدير: إنَّما توعدون لواقع، إذا النجوم طمست. وهذا ضعيف؛ لأنَّه يقع في قوله: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾.

الثاني: أنَّ الجواب محذوف، والتقدير فإذا النجوم طمست وإذا وإذا، فحينئذ تقع المجازاة بالأعمال وتقوم القيامة»[(١)].

إهلاك الكفرة المتقدّمين وسنَّة الله في المجرمين:

﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٧ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٨ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾

قال الفخر الرازي في تفسيره الكبير الَّذي سمَّاه «مفاتيح الغيب»:

«اعلمْ أنَّ المقصود من هذه السورة تخويف الكفَّار وتحذيرهم عن الكفر.

فالنوع الأول من التخويف: أنَّه أقسم على أنَّ اليوم الَّذي يوعَدون به ـ وهو يوم الفصل ـ واقعٌ، ثمَّ هوَّل فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾. ثمَّ زاد في التهويل فقال: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

والنوع الثاني من التخويف: ما ذُكِر في هذه الآية، وهو أنَّه أهلك الكفرة المتقدِّمين بسبب كفرهم (وقد سمعوا عن عاد وثمود، وماذا نزل بهم، وقد

(١) تفسير الرازي (٣٠/٧٧٠).

QaradawiBooks.com

مرُّوا على ديارهم بعد هلاكهم بقرون ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٤ ـ ٦])، فإذا كان الكفر حاصلًا في هؤلاء المتأخرين، فلا بدَّ وأن يهلكهم أيضًا.

ثم قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ كأنَّه يقول: أمَّا الدنيا فحاصلهم الهلاك، وأمَّا الآخرة فالعذاب الشديد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

والصحيح: أنَّ المراد بالأوَّلين جميع الكفَّار الَّذين كانوا قبل محمَّد ﷺ.

وقوله: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ على الاستئناف، على معنى سنفعل ذلك، ونُتبع الأوَّلَ الآخِرَ، ويدلُّ على الاستئناف قراءة عبد الله: «سنُتْبِعهم»[1].

﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

ثم إنَّه تعالى لما بيَّن أنَّه يفعل بهؤلاء المتأخرين مثل ما يفعل بأولئك المتقدمين، قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: هذا الإهلاك إنَّما نفعله بهم لكونهم مجرمين، فلا جرم في جميع المجرمين؛ لأنَّ عموم العلة يقتضي عموم الحكم.

ثم قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: هؤلاء وإن أهلكوا وعُذِّبوا في الدنيا، فالمصيبة العظمى والطامَّة الكبرى مُعَدَّة لهم يوم القيامة»[2].

(١) انظر: معاني القرآن للفراء (٣/٢٢٣).

(٢) تفسير الرازي (٣٠/٧٧٠، ٧٧١).

QaradawiBooks.com

المراد بالإهلاك في الآية:

قال الرازي: «هل المراد من الإهلاك في قوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ هو مطلق الإماتة، أو الإماتة بالعذاب؟

فإن كان ذلك هو الأول لم يكن تخويفًا للكفار؛ لأن ذلك أمر حاصل للمؤمن والكافر، فلا يصلح تحذيرًا للكافر، وإن كان المراد هو الثاني، وهو الإماتة بالعذاب، فقوله: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ۝١٧ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يقتضي أن يكون الله قد فعل بكفار قريش مثل ذلك، ومن المعلوم أنَّه لم يوجد ذلك، وأيضًا فلأنه تعالى قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

الجواب: لِمَ لا يجوز أن يكون المراد منه الإماتة بالتعذيب؟ وقد وقع ذلك في حقِّ قريش وهو يوم بدر.

سلمنا ذلك، فلِمَ لا يجوز أن يكون المراد من الإهلاك معنى ثالثًا مغايرًا للأمرين اللذين ذكروهما، وهو الإماتة المستعقِبة للذمِّ واللعن؟ فكأنه قيل: إنَّ أولئك المتقدِّمين لحرصهم على الدنيا عاندوا الأنبياء وخاصموهم، ثمَّ ماتوا، فقد فاتتهم الدنيا، وبقي اللعن عليهم في الدنيا والعقوبة الأخروية دائمًا سرمدًا، فهكذا يكون حال هؤلاء الكفَّار الموجودين، ومعلوم أنَّ مثل هذا الكلام من أعظم وجوه الزجر»(١).

قال العلَّامة الطاهر بن عاشور: «ووقعت جملة ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ موقع البيان لجملة ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾ [المرسلات: ١٦، ١٧]، وهو كالتذييل يُبيِّنُ سببَ وقوع إهلاك الأوَّلين، وأنَّه

---

(١) تفسير الرازي (٣٠/٧٧١).

QaradawiBooks.com

سبب لإيقاع الإهلاك بكل مجرم، أَي: تلك سُنَّة الله في معاملة المجرمين، فلا محيص لكم عنها.

وذكر وصف «المجرمين» إيماء إلى أن سبب عقابهم بالإهلاك هو إجرامهم.

والإشارة في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إلى الفعل المأخوذ من نفعل، أي مثل ذلك الفعل نفعل.

و«المجرمون» من ألقاب المشركين في اصطلاح القرآن. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩]. وسيأتي في هذهِ السورة: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦]»[١].

نوع ثالث من تخويف الكفار:

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

قال الرازي: «اعلم أنَّ هذا هو النوع الثالث من تخويف الكفار، ووجْهُ التخويف فيه من وجهين:

الأول: أنَّه تعالى ذكَّرهم عظيمَ إنْعامِه عليهم، وكلَّما كانت نعمة الله عليهم أكثر كانت جنايتهم في حقِّه أقبحَ وأفحش، وكلما كان كذلك كان العقاب أعظم، فلهذا قال عَقِيب ذِكْر هذا الإنعام: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

الوجه الثاني: أنَّه تعالى ذكَّرهم كونَه قادرًا على الابتداء، وظاهرٌ في العقل أنَّ القادر على الابتداء قادرٌ على الإعادة، فلمَّا أنكروا هذه الدلالة الظاهرة، لا جرم قال في حقهم: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٤٢٩).

QaradawiBooks.com

وأمَّا التفسير فهو أن قوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ أي: من النطفة، كقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨]».

أقول (القائل القرضاوي): ومَهَانَة هذا الماء؛ لأنَّه يختلط ويجري في مجرى البول؛ لأنَّ الجهاز التناسلي لكلٍّ من الذكر والأنثى لصيق بالجهاز البولي، ولذلك يتلوث أحدهما بما يتلوث به الآخر، ولهذا قال أحد العلماء لأحد الأثرياء المستكبرين حين قال له: ألا تعرفني؟ قال: بلى أعرفك، أوَّلُك نطفة مَذِرة، وآخرك جِيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمِل العَذِرة[1]!

﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾:

«أي: فجعلنا هذا الماء في مكان استقرار، حيث يتمُّ تلقيحه لبييضة الأنثى، ويتمُّ علوقه بجدار الرحم؛ لأن ما يخلق منه الولد لا بدَّ أن يثبت في الرحم ويتمكَّن، بخلاف ما لا يُخلق منه الولد.

﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾:

والمراد: كونه في الرَّحم إلى وقت الولادة، وذلك الوقت معلوم لله تعالى لا لغيره، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤].

وهو معلومٌ لنا أيضًا بحكم العادة والتجربة، فقد عرفنا أنَّ الجنين الآدمي يستقر في رحم أمه نحو تسعة أشهر عادة، أو نحو سبعة أشهر نادرًا.

ويشمل قوله سبحانه: ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ إلى تحقيق قدَرٍ معلومٍ للهِ تعالى، يشملُ المقادير الزمانيةَ والمكانيّة والذاتيّة والوصفيّة في خلق كلِّ جنين.

(١) من قول مالك بن دينار للمهلب بن أبي صفرة. رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/٣٨٤).

QaradawiBooks.com

﴿فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾:

أي: فأحكمنا تحديد المقادير كلها، دون زيادة ولا نقص عن مقْتضى الإتقان والتَّسوية المُحكمة، فنِعْمَ القادرون المُحَدِّدون للمقادير الحكيمة نحن.

﴿فَقَدَرۡنَا﴾ قرأ نافع وعبد الله بن عامر بالتشديد، وقرأ الباقون بالتخفيف، وهي قراءة حفص المشهورة(١).

أمَّا التشديد فالمعنى: إنا قدَّرنا ذلك تقديرًا، فنِعم المقدِّرون له نحن. ويتأكد هذا الوجه بقوله تعالى: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: ١٩]، ولأن إيقاع الخلق على هذا التقدير والتحديد نعمة من المُقدِّر على المخلوق، فحَسُن ذِكرُه في موضع ذكر المِنَّة والنعمة.

ومَن طَعَن في هذه القراءة قال: لو صحَّت هذه القراءة لوجب أن يقال: فقدَّرنا فنعم المقدِّرون!

وأجيب عنه بأنَّ العرب قد تجمع بين اللغتين، قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ [الطارق: ١٧].

وأمَّا القراءة بالتخفيف ففيها وجهان:

الأول: أنَّه من القُدرة. أي: فقَدَرنا على خلقه وتصويره كيف شئنا وأردنا، فنِعْم القادرون حيث خلقناه في أحسن الصور والهيئات.

والثاني: أنَّه يقال: قَدَرْتُ الشيءَ بالتخفيف على معنى قَدَّرته.

(١) انظر: حجة القراءات صـ ٧٤٣، تحقيق سعيد الأفغاني، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

قال الفرَّاء: العرب تقول: قَدَر عليه الموتَ، وقَدَّر عليه الموتَ، وقَدَر عليه رزقَه، وقدَّر، بالتخفيف والتشديد[1]. قال تعالى: ﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾ [الفجر: ١٦]»[2].

ثناء الله تعالى على ذاته:

والآية وصف يصف الله به نفسه، وثناء يثني به على نفسه، وما أصدق ما يثني الله به على نفسه، وعلى ذاته، على كماله وجماله وجلاله! والنبي ﷺ يقول: «**لا أُحْصِي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ على نَفْسِك**»[3].

وهذه الآية: ﴿فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾ شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧، ٤٨]. وبقوله تعالى في سورة الصافات: ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥]. وهي أشبه بما جاء في سورة الأنفال: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠]. وفي سورة الحج: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

ثم قال تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي: هلاكٌ ودمارٌ يوم القيامة للمنكرين للبعث؛ لأنَّ القادر على الابتداء قادرٌ على إعادة الموتى إلى الحياة، للحساب، وتحقيق الجزاء.

---

(١) معاني القرآن للفراء (٣/٢٢٣).

(٢) تفسير الرازي (٣٠/٧٧٠ ـ ٧٧٢) بتصرف وزيادة.

(٣) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٦)، وأحمد (٢٤٣١٢)، عن عائشة.

QaradawiBooks.com

النوع الرابع من تخويف الكفار:

﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ﴿٢٧﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾

قال الفخر الرازي: «هذا هو النوع الرابع من تخويف الكفار؛ وذلك لأنَّه ذكَّرهم بالنِّعم الَّتي له عليهم في الأنفس، وفي هذه الآية ذكَّرهم بالنعم الَّتي له عليهم في الآفاق، ثمَّ قال في آخر الآية: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ والسبب فيه ما قدَّمنا، أنَّ النِّعم كلما كانت أكثر كانت الجناية أقبح، فكان استحقاق الذمِّ عاجلًا والعقابُ آجِلًا أشدَّ، وإنَّما قدَّم تلك الآية على هذه الآية؛ لأنَّ النعم الَّتي في الأنفس كالأصل للنِّعَم الَّتي في الآفاق، فإنه لولا الحياة والسمع والبصر والأعضاء السليمة لما كان الانتفاع بشيء من المخلوق ممكنًا.

واعلم أنَّه تعالى ذكر هاهنا ثلاثة أشياء:

أوّل نعمة من نعم الآفاق هي الأرض:

أوَّلها: الأرض؛ وإنَّما قدَّمها؛ لأن أقرب الأشياء إلينا من الأمور الخارجية هو الأرض، ومعنى الكِفَات في اللغة: الضمُّ والجمع. يقال: كَفَتُّ الشيءَ أي: ضَمَمْتُه. ويقال: جراب كَفِيتٌ وكِفْتٌ، إذا كان لا يُضيع شيئًا ممَّا يجعل فيه. ويقال: للقِدْر: كِفْت.

قال صاحب «الكشَّاف»: هو اسمُ ما يَكْفِتُ، كقولهم: الضِّمَام والجِمَاع لما يُضَمُّ ويُجْمَع، ويقال: هذا الباب جِماع الأبواب[1]. وتقول: شددتُ الشيءَ، ثمَّ تسمِّي الخيط الَّذي تشدُّ به الشيءَ شِدادًا.

(١) تفسير الزمخشري (٦٧٩/٤).

QaradawiBooks.com

وبه انتصب ﴿أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا﴾ كأنَّه قيل: ألم نجعل الأرض كافتةً أحياءً وأمواتًا؟ أو بفعل مضمَر يدلُّ عليه، وهو: تَكْفِت، ويكون المعنى: تكفِتُكم أحياء وأمواتًا. فيُنصبان على الحال من الضمير، هذا هو اللغة.

ثم في معنى الآية وجوه:

أحدها: أنَّها تكفِتُ أحياءً على ظهرها، وأمواتًا في بطنها. والمعنى: أنَّ الأحياء يسكنون في منازلهم، والأموات يُدفنون في قبورهم.

ولهذا كانوا يسمون الأرض أُمًّا؛ لأنَّها في ضمِّها للناس كالأمِّ الَّتي تضمُّ ولدها وتكفله، ولمَّا كانوا يُضَمُّون إليها جُعِلَتْ كأنَّها تضمُّهم.

وثانيها: أنَّها كِفَاتُ الأحياء، بمعنى أنَّها تكفت ما ينفصل عن الأحياء من الأمور المستقذَرة، فأما أنَّها تكفت الأحياء حال كونهم على ظهرها فلا.

وثالثها: أنَّها كِفات الأحياء، بمعنى: أنَّها جامعة لما يحتاج الإنسان إليه في حاجاته من مأكل ومشرب؛ لأن كل ذلك يخرج من الأرض، والأبنية الجامعة للمصالح الدافعة للمضار مبنية منها.

ورابعها: أنَّ قوله: ﴿أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا﴾ معناه راجع إلى الأرض، والحي: ما أَنْبَت، والميِّت ما لم يُنْبِت.

بقي في الآية سؤال:

لِمَ قيل: ﴿أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا﴾ على التنكير، وهي كفاتُ الأحياء والأموات جميعًا؟

QaradawiBooks.com

الجواب: هو من تنكير التفخيم، كأنَّـه قيل: تكفتُ أحياءً لا يُعَدُّون، وأمواتًا لا يُحْصَرون»[١].

قال ابن جزي في «التسـهيل»: وإنَّما نكَّـر ﴿أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا﴾ للتفخيم ودلالة على كثرتهم[٢].

إثبات إمكان البعث وأدلَّة ترجيحه:

وقال العلَّامة ابن عاشـور حول هذه الآيات: «وقـد تصدى الكلام لإثبات البعث بشواهد ثلاثة:

أحدها: بحال الأمم البائدة في انقراضها.

الثاني: بحال تكوين الإنسان.

الثالث: مصير الكل إلى الأرض.

وفي كل ذلك إبطال لإحالتهم وقوع البعث؛ لأنَّهم زعموا استحالته، فأبطلت دعواهـم بإثبات إمكان البعـث، فإنه إذ ثبـت الإمكان بطلت الاستحالة، فلم يبق إلَّا النظر في أدلَّة ترجيح وقوع ذلك الممكن»[٣].

النوع الثاني من نعم الآفاق: الرواسي الشامخات:

قال الرازي: «النـوع الثاني من النعم المذكورة فـي هذه الآية: قوله تعالـى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ﴾، أي: وجعلنـا فـي الأرض جبالًا

(١) تفسير الزمخشري (٦٧٩/٤، ٦٨٠).
(٢) التسـهيل لابن جزي (٤٤٢/٢)، تحقيق د. عبد الله الخالدي، نشر شـركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.
(٣) التحرير والتنوير (٤٣٣/٢٩).

QaradawiBooks.com

راسخات عاليات؛ تُثبِّت قشرة الأرض من أن تكون عُرضة للتشقُّقات والزلازل، والتحرُّك والاضطراب. فقوله: ﴿رَوَٰسِيَ﴾ أي: ثوابت على ظهر الأرض لا تزول. ﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾ أي: عاليات، وكل عال فهو شامخ. ويقال للمتكبر: شامخ بأنفه.

ومنافع خِلقة الجبال قد بيَّنها الله تعالى من خلال هذا القرآن.

النعمة الثالثة من نعم الآفاق: الماء الفرات:

النوع الثالث من النعم: قوله تعالى: ﴿وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا﴾. الفرات: هو الغاية في العذوبة، وهو مثل قوله: ﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ﴾ [فاطر: ١٢]»(١).

ومعنى ﴿وَأَسۡقَيۡنَٰكُم﴾ خلقناه لكم في أصول الأرض، وأجريناه لكم منها في أنهار، وأنبعناه في منابع، وواحات كبيرة وصغيرة، وآبار، أو جعلناكم تستخرجونه من باطن الأرض بواسطة الطلمبات وغيرها، وكلها تستمد ممَّا استودعناه فيها، وقد يفسر بما هو أعم من ذلك، وهو الماء المنزل من السماء، وهو أيضًا أصله من الأرض، كما قال تعالى: ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣١].

والمعروف عندنا الآن معرفة يقينية أنَّ الماء المُنزل من السماء عن طريق المطر، إنَّما هو من تبخُّر ماء البحار، الَّذي هو نحو ثلاثة أرباع الكرة الأرضية، وقد عبر الشاعر العربي عن ذلك فقال:

كالبحر يُمطِرُه السَّحابُ وما له ... فَضْلٌ عَلَيه لأنَّه من مَائِهِ(٢)

---

(١) تفسير الرازي (٣٠/٧٧٢، ٧٧٣) بتصرُّف.

(٢) من شعر هبة الله بن الحسين بن يوسف، المشهور بالبديع الأَسْطُرْلابي. كما في معجم الأدباء (٦/٢٧٧١)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

QaradawiBooks.com

الوجه الخامس من وجوه تخويف المشركين:

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٩ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ٣٠ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ٣١ إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ٣٢ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ٣٣ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾

قال الرازي: «هذا هو النوع الخامس: من وجوه تخويف الكفار، وهو بيان كيفية عذابهم في الآخرة.

فأما قوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ فالمعنى: أنَّه يقال لهم: انطلقوا إلى ما كنتم به تكذِّبون من العذاب، والظاهر أنَّ القائلين هم خزَنة النار.

و﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ الثاني تكرير.

قال المفسِّرون: إنَّ الشمس تقرب يوم القيامة من رؤوس الخلائق، وليس عليهم يومئذ لباس ولا كِنَان، فتلفحهم الشمس، وتسفَعهم، وتأخذ بأنفاسهم، ويمتد ذلك اليوم، ثمَّ يُنجِّي اللهُ برحمته مَن يشاء إلى ظلِّه، يومَ لَا ظلَّ إلَّا ظله، فهناك يقولون: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ۝ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٦، ٢٧]. ويقال للمكذِّبين: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ من عذاب الله وعقابه»[(١)].

وفي دعوتهم إلى الانطلاق إلى ظلٍّ هو من دخان جهنم، لا إلى جهنَّم ذاتها - مع أنَّهم مدعوون إليها أصلًا - في هذا استهزاء بهم، وسخرية منهم، ومبالغة في إيلامهم، حيث يلوِّح لهم بالظل، الَّذي يفتح لهم بابًا من الأمل، فإذا هذا الظل لا يتمتع به إلَّا من أخذ مقعده من النار!

(١) تفسير الرازي (٣٠/٧٧٣، ٧٧٤).

QaradawiBooks.com

صفات نار جهنَّم:

قال الرازي: «وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ يعني دخان جهنَّم، كقوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٣]. ثمَّ إنَّه تعالى وصف هذا الظل بصفات:

الصفة الأولى: قوله: ﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ وفيه وجوه:

أحدها: قال الحسن: ما أدري ما هذا الظل، ولا سمعت فيه شيئًا.

وثانيها: قال قوم: المراد بقوله: ﴿إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ كون النارِ من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، ومحيطة بهم. وتسمية النَّار بالظل مجاز، من حيث إنَّها محيطة بهم من كل جانب كقوله: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]. وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

وثالثها: قال قتادة: بل المراد الدخان، وهو من قوله: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]. وسرادق النَّار هو الدخان، ثمَّ إنَّ شعبةً من ذلك الدخان على يمينه، وشعبة أخرى على يساره، وشعبة ثالثة من فوقه.

وأقول (القائل الرازي): هذا غير مستبعد؛ لأنَّ الغضب عن يمينه، والشهوة عن شماله، والقوة الشيطانية في دماغه، ومنبع جميع الآفات الصادرة عن الإنسان في عقائده، وفي أعماله، ليس إلَّا هذه الثلاثة، فتولدت من هذه الينابيع الثلاثة أنواع من الظُّلُمات. ويمكن أيضًا أن يقال: هاهنا درجات ثلاث، وهي: الحس، والخيال، والوهم. وهي مانعة للروح عن الاستنارة بأنوار عالم القدس والطهارة، ولكلٍّ واحد من تلك المراتب الثلاثة نوع خاصٌّ من الظلمة.

QaradawiBooks.com

ورابعها: قال قوم: هذا كناية عن كون ذلك الدخان عظيمًا، فإنَّ الدخان العظيم ينقسم إلى شعب كثيرة.

وخامسها: قال أبو مسلم: ويحتمل في ثلاث شعب ما ذكره بعد ذلك، وهو أنَّه غير ظليل، وأنَّه لا يغني من اللهب، وبأنها ترمي بشرر كالقصر.

الصفة الثانية للنار: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾:

الصفة الثانية لذلك الظل: قوله: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ وهذا تهكُّم بهم، وتعريض بأن ظلَّهم غيرُ ظلِّ المؤمنين، والمعنى: أن ذلك الظل لا يمنع حرَّ الشمس.

الصفة الثالثة للنار: ﴿وَلَا يُغۡنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾:

الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَا يُغۡنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ يقال: أغنِ عنِّي وجهك. أي: أبعده؛ لأنَّ الغَنِيَّ عن الشيء يباعده، كما أنَّ المحتاج يقاربه.

قال صاحب «الكشَّاف»: إنَّه في محل الجر. أي: وغير مغْنٍ عنهم، من حرِّ اللهب شيئًا[1]. قال القفَّال: وهذا يحتمل وجهين:

أحدهما: أن هذا الظل إنَّما يكون في جهنم، فلا يظلهم من حرِّها، ولا يسترهم من لهيبها، وقد ذكر الله في سورة الواقعة الظل فقال: ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝ وَظِلٍّ مِّن يَحۡمُومٍ ۝ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٢ ـ ٤٤]. وهذا كأنَّه في جهنَّم إذا دخلوها، ثمَّ قال: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾. فيحتمل أن يكون قوله: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ في معنى: ﴿لَّا بَارِدٍ﴾. وقوله: ﴿وَلَا يُغۡنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ في معنى: ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾. أي: لا رَوْح له يُلجأ إليه من لهب النار.

(١) تفسير الزمخشري (٦٨٠/٤).

QaradawiBooks.com

والثاني: أن يكون ذلك إنَّما يكـــون قبل أن يدخلوا جهنَّم، بل عندما يحبسون للحساب والعرض، فيقال لهم: إن هذا الظل لا يظلكم من حر الشمس، ولا يدفع لهب النار.

وفي الآية وجه آخر: وهو الَّذي قاله قُطرب: وهو أنَّ اللهب هاهنا هو العطش، يقال: لهِب لَهَبًــا، ورجلٌ لَهْبَان، وامرأة لَهْبِى. وذلك عند العطش.

الصفة الرابعة للنار الَّتي يخوِّف الله بها الكفار:

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾. قال الواحدي: يقال: شَرَرة وشَرَر، وشَرَارة وشَرَار، وهو ما تطاير من النَّار مُتبدِّدًا في كل جهة[1]، وأصله من شـــرَرْتُ الثوبَ: إذا أظهرته وبســطته للشــمس، والشَّرار ينبسط متبدِّدًا.

واعلم أنَّ الله تعالى وصف النَّار الَّتي كان ذلك الظل دخانًا لها بأنَّها ترمي بالشـــرارة العظيمة، والمقصود منه بيان أن تلك النَّار عظيمة جدًّا، ثمَّ إنَّه تعالى شبَّه ذلك الشَّرر بشيئين:

الأول: بالقصر. وفي تفسـيره: أنَّ المراد منه البناء المرتفع المسمَّى بالقصر. قال ابـــن عبَّاس: يريد القصـــور العظام. وقـــد ورد في القرآن: ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

التشبيه الثاني: قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾. جِمالة ـ بكسر الجيم ـ هي جمع جمل. مثل حَجَر وحِجَــارة. قال أبو علي: والتاء إنَّما لحقت جمالًا لتأنيث الجمع، كما لحقت في فحل وفحالة.

(١) التفسير الوسيط للواحدي (٤٠٩/٤).

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

أمَّا قولــه: ﴿صُفۡرٞ﴾ فالأكثرون على أنَّ المراد منه سُــود تضرب إلى الصفرة. قال الفرَّاء: لا ترى أســود من الإبل، إلَّا وهو مشوب صفرة(١). والشرر إذا تطاير فسقط وفيه بقية من لون النَّار كان أشبه بالجمل الأسود الَّذي يشوبه شيء من الصفرة.

وزعم بعض العلماء أنَّ المراد هو الصفرة لا السواد؛ لأنَّ الشرر إنَّما يسمَّى شــررًا، ما دام يكون نارًا، ومتى كان نارًا كان أصفر، وإنَّما يصير أسود إذا انطفأ، وهناك لا يسمَّى شررًا».

قال الرازي: «وهذا القول عندي هو الصواب.

واعلم أنَّه تعالى شبَّه الشــرر في العِظَم بالقَصْر، وفي اللون والكثرة والتتابع وسرعة الحركة بالجِمَالة الصُّفْر.

وقيل أيضًا: إن ابتداء الشرر يعظم فيكون كالقصر، ثمَّ يفترق فتكون تلك القطع المتفرقة المتتابعة كالجِمَالة الصفر.

واعلم أنَّه نُقِل عن ابن عبَّاس أنَّه قال في تفسير قوله: ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ﴾: إنَّ هذا التشــبيه إنَّما ورد فــي بلاد العــرب، وقصورهم قصيرة السُّمْك، جاريةٌ مجرى الخيمة، فبيَّن تعالى أنَّها ترمي بشررٍ كالقصر»(٢).

تفسير الآلوسي لهذه الآيات: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ...﴾

قال الآلوسي: «﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بأمثال هذه النعم العظيمة.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ أي: يقال لهم يومئــذ للتوبيخ والتقريع: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا من العذاب. ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ أي: خصوصًا، فليس

(١) معاني القرآن (٣/٢٢٥).

(٢) تفسير الرازي (٣٠/٧٧٥) بتصرُّف.

QaradawiBooks.com

تكرارًا للأول. وقيل: هو تكرار له، وإن قُيِّد بقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ هو ظل دخان جهنم، كما قاله جمهور المفسـرين، فهو كقوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٣] وفيه استعارة تهكمية...

﴿إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ مُتشعِّب لعِظَمه ثلاثَ شُعَب، كما هو شأن الدخان العظيم، تراه يتفرق الذوائب.

وفي بعض الآثار: يخرج لسان من النَّار فيحيط بالكفار كالسُّرَادق، ويتشعب من دخانها ثلاث شعب، فتُظِلُّهم حتَّى يفرغ من حسابهم، والمؤمنون في ظل العرش(١).

وخصوصية الثلاث؛ قيل: إما لأنَّ حجاب النفس عن أنوار القُدُس: الحس، والخيال، والوهم. وقيل: لأن تكذيبهم بالعذاب يتضمن تكذيب الله تعالى، وتكذيب رسوله ﷺ، وتكذيبهم بالعذاب، فهناك ثلاثة تكذيبات.

وعن ابن عبَّاس: يقال ذلك لعبَدَة الصليب، فالمؤمنون في ظلِّ الله ﷻ، وهم في ظل معبودهم، وهو الصليب له ثلاث شعب(٢).

أقول: وهو جزاء قولهم بالتثليث، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ أي: لا مظلِّل، وهو صفة ثانية لـ ﴿ظِلٍّ﴾ في قوله: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾، ونفى كونَه مُظلِّلًا عنه ـ والظل لا يكون إلَّا مظلِّلًا ـ للدلالة على أن جعله ظلًّا تهكُّم بهم؛ ولأنَّه ربَّما يتوهم أن فيه راحة لهم، فنفى هذا الاحتمال بذلك، وفيه تعريض بأن ظلَّهم غير ظل المؤمنين.

---

(١) انظر: تفسير الزمخشري (٤/٦٨٠).

(٢) البحر المحيط لأبي حيان (١٠/٣٧٧).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ وغير مفيد في وقت من الأوقات من حرِّ اللهب شيئًا، وعدَّى «يغني» بـ «مِن» لتضمُّنه معنى «يُبعِد».

﴿إِنَّهَا﴾ أي: النَّار الدال عليها الكلام، وقيل: الضمير للشُّعَب.

﴿تَرۡمِي بِشَرَرٖ﴾ هو ما تطاير من النار، سُمِّيَ بذلك لاعتقاد الشر فيه، وهو اسم جنس جمعي، واحده: شَرَرَة.

﴿كَٱلۡقَصۡرِ﴾ كالدار الكبيرة المَشِيدة، والمراد: كلُّ شَرَرة كذلك في العِظَم»[1].

«وقيل: ﴿بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ﴾ ولم يقل: كالقصور. والشَّرر جمع، كما قيل: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥] ولم يقل: الأدبار؛ لأنَّ الدبر بمعنى الأدبار؛ وفعل ذلك توفيقًا بين رؤوس الآي ومقاطع الكلام؛ لأنَّ العرب تفعل ذلك كذلك وبلسانها نزل القرآن»[2].

﴿كَأَنَّهُۥ﴾ أي: الشرر، ﴿جِمَٰلَتٞ﴾ بكسر الجيم، وهو جمع جَمَل، والتاء لتأنيث الجمع، يقال: جمل وجمال وجمالة، أو اسم جمع له، كما قيل في حجر وحِجَارة. والتنوين للتكثير.

﴿صُفۡرٞ﴾ فإنَّ الشرر لما فيه من الناريّة والهوائيّة يكون أصفر، فالصُّفرة على معناها المعروف. وقيل: سود. والتعبير بـ «صُفْر»؛ لأن سواد الإبل يضرب إلى الصفرة، شبه الشرر حين ينفصل من النَّار في عِظَمِه بالقصر. وحين يأخذ في الارتفاع والانبساط ـ لانشقاقه عن أعداد غير محصورة ـ بالجمال، لتصور الانشقاق والكثرة والصفرة والحركة المخصوصة.

(١) تفسير الآلوسي (١٥/١٩٣، ١٩٤).

(٢) محاسن التأويل للقاسمي (٩/٣٨٥)، تحقيق محمد باسل عيون السود، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وقد روعي الترتيب في التشبيه رعاية لترتيب الوجود، وأفيد أنَّ القصور والجمال يُشَبَّه بعضها ببعض، ومنه قوله:

فَوَقَفْتُ فيها ناقتي وكأنَّها فَدْنٌ لأقضيَ حَاجَةَ الْمُتَلَوِّمِ[(١)]

فالتشبيه الثاني «كأنَّه جمالة» بيان للتشبيه الأول «كالقصر»، على معنى أنَّ التشبيه بالقصر كان المتبادر منه إلى الفهم العِظَم فحسب، فلما قيل: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ وهو قائم مقام التخصيص في القصر، تكَثَّر وجه الشبه، كأنَّه قيل: كأنَّه قصر من شأنه كذا وكذا. والتشبيه بالجِمَال في الكثرة والتتابع، وسرعة الحركة أيضًا»[(٢)].

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

قال الحافظ ابن كثير: «﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي: لا يتكلمون.

﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ أي: لا يقدرون على الكلام، ولا يؤْذن لهم فيه ليعتذروا، بل قد قامت عليهم الحجة، ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون.

وعَرَصات القيامة حالات، والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة، وعن هذه الحالة تارة؛ ليدل على شدة الأهوال والزلازل يومئذ. ولهذا يقول بعد كل فصل من هذا الكلام: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾»[(٣)].

---

(١) من شعر عنترة بن شداد العبسي، والبيت في معلقته، انظر: ديوانه مع شرح الخطيب التبريزي صـ ١٤٩، نشر دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م. والشاهد الذي أورده الآلوسي من أجله تشبيه الناقة بالفدن وهو القصر.

(٢) روح المعاني للآلوسي (١٩٥/١٥) بتصرُّف.

(٣) تفسير ابن كثير (٣٠٠/٨).

QaradawiBooks.com

النوع السادس من أنواع التخويف للكفار:

وقال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾: «اعلمْ أنَّ هذا هو النوع السادس من أنواع تخويف الكفار، وتشديد الأمر عليهم؛ وذلك لأنَّه تعالى بيَّن أنَّه ليس لهم عذر ولا حجَّة، فيما أتَوْا به من القبائح، ولا قدرة لهم على دفع العذاب عن أنفسهم، فيجتمع في حقِّه في هذا المقام أنواع من العذاب:

أحدها: عذاب الخَجَالة؛ فإنَّه يفتضح على رؤوس الأشهاد، ويظهر لكلٍّ قصورُه وتقصيره، وكل من له عقل سليم علم أن عذاب الخجالة أشد من القتل بالسيف والاحتراق بالنار.

وثانيها: وقوف العبد الآبق على باب المولى، ووقوعه في يده، مع علمه بأنَّه الصادق الَّذي يستحيل الكذب عليه، على ما قال تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٩].

وثالثها: أنَّه يرى في ذلك الموقف خصماءه الَّذين كان يستخفُّ بهم ويستحقرهم فائزين بالثواب والتعظيم، ويرى نفسه فائزًا بالخزي والنَّكال.

وهذه الثلاثة أنواع من العذاب الرُّوحاني.

ورابعها: العذاب الجسماني، وهو مشاهدَة النَّار وأهوالها، نعوذ بالله منها.

فلما اجتمعت في حقِّه هذه الوجوه من العذاب، بل ما هو ممَّا لا يصف كُنْهَه إلَّا الله، لا جرم قال تعالى في حقهم: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

QaradawiBooks.com

وفي الآية ثلاثة أسئلة:

السؤال الأول: كيف يمكن الجمع بين قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١]. وقوله: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]؟ ويُروَى أن نافع بن الأزرق سأل ابن عبَّاس عن هذا السؤال.

والجواب عنه من وجوه:

أحدها: قال الحسن: فيه إضمار، والتقدير: هذا يوم لا ينطقون فيه بحُجّة، ولا يؤْذَن لهم فيعتذرون؛ لأنَّه ليس لهم فيما عملوه عذر صحيح، وجواب مستقيم، فإذا لم ينطقوا بحجَّة سليمة وكلام مستقيم، فكأنهم لم ينطقوا؛ لأنَّ مَن نطق بما لا يفيد، فكأنه لم ينطق، ونظيره ما يقال لمن ذكر كلامًا غير مفيد: ما قلتَ شيئًا.

وثانيها: قال الفرَّاء: أراد بقوله: ﴿يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ تلك الساعةَ، وذلك القدر من الوقت، الَّذي لا ينطقون فيه. كما يقول: آتيك يومَ يَقْدَم فلان[1]. والمعنى: ساعة يقدم، وليس المراد باليوم كله؛ لأنَّ القدوم إنَّما يكون في ساعة يسيرة، ولا يمتد في كل اليوم.

وثالثها: أن قوله: ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ لفظ مطلق، والمطلق لا يفيد العموم، لا في الأنواع، ولا في الأوقات، بدليل أنَّك تقول: فلان لا ينطق بالشر، ولكنَّه ينطق بالخير. وتارة تقول: فلان لا ينطق بشيء البتة. وهذا يدل على أن مفهوم (لا ينطق) قدر مشترك بين أن لا ينطق ببعض الأشياء،

(١) معاني القرآن للفراء (٣/٢٢٦).

QaradawiBooks.com

وبين أن لا ينطق بكل الأشـياء. وكذلك تقول: فـلان لا ينطق في هذه الساعة. وتقول: فلان لا ينطق البتة. وهذا يدل على أن مفهوم «لا ينطق» مشترك بين الدائم والمؤقت.

وإذا كان كذلك، فمفهـوم «لا ينطق» يكفي في صدقـه عدم النطق ببعض الأشياء، وفي بعض الأوقات. وذلك لا ينافي حصول النطق بشيء آخر في وقت آخر، فيكفي في صدق قوله: «لا ينطقون» أنَّهم لا ينطقون بعذر وعلة في وقت السؤال.

وهذا الَّذي ذكرناه إشـارة إلى صحَّة الجوابين الأولين بحسـب النظر العقلي.

ورابعها: أنَّ هذه الآية وردت عَقِيب قول خزنة جهنَّم لهم: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾ فينقـادون ويذهبـون. فكأنه قيـل: إنهم كانوا يؤمرون في الدنيا بالطاعات، فما كانوا يلتفتون. أمَّا في هذه الساعة فقد صاروا منقادين مطيعين، في مثل هذا التكليف الَّذي هو أشـق من كل شيء، تنبيهًا على أنَّهم لو تَركوا الخصومة في الدنيا لما احتاجوا في هذا الوقت إلى هذا الانقياد الشاقِّ»[1].

السؤال الثاني: هل كان عند الكافرين عذر مُنِعوا من إظهاره؟

سأل الرازي هنا سؤالًا عن قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾: هل هذا يوهم أن لهم عذرًا وقد منعوا من ذكره؟

ثم أجاب قائلًا: «والجواب: أنَّه ليس لهم فـي الحقيقة عذر، ولكن ربَّما تخيَّلوا خيالًا فاسدًا أن لهم فيه عذرًا، فهم لا يؤذن لهم في ذكر ذلك

(١) تفسير الرازي (٣٠/٧٧٧، ٧٧٨) بتصرف واختصار.

QaradawiBooks.com

العذر الفاسد، ولعل ذلك العذر الفاسد هو أن يقول: لمَّا كان الكل بقضائك وعلمك، ومشيئتك وخلقك، فلِمَ تعذِّبني عليه؟

فإن هذا عذر فاسد؛ إذ ليس لأحد أن يمنع المالك عن التصرُّف في ملكه كيف شاء وأراد.

فإن قيل: أليس أنَّه قال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. وقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]. والمقصود من كل ذلك: أن لا يبقى في قلبه أن له عذرًا، فهب أن عذره في موقف القيامة فاسد، فلِمَ لا يؤذن له في ذكره حتَّى يذكره، ثمَّ يُبيَّن له فساده؟

قلنا: لمَّا تقدَّم الإعذار والإنذار في الدنيا، بدليل قوله: ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾ [المرسلات: ٥، ٦]. كان إعادتها غير مفيدة.

السؤال الثالث: لِمَ لَمْ يقل: ولا يؤْذن لهم فيعتذروا[1]؟ كما قال: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ﴾ [فاطر: ٣٦].

الجواب: الفاء هاهنا للنَّسق فقط، ولا يفيد كونه جزاء البتة[2]، ومثله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٤٥] بالرفع والنصب، وإنَّما رفع «يعتذرون» بالعطف؛ لأنَّه لو نصب لكان ذلك يوهم أنَّهم ما يعتذرون؛ لأنَّهم لم يُؤذَنُوا في الاعتذار، وذلك يوهم أن لهم فيه عذرًا منعوا عن ذكره، وهو غير جائز، أمَّا لما رفع كان المعنى: أنَّهم لم يؤذنوا في العذر، وهم أيضًا لم يعتذروا، لا لأجل عدم الإذن بل لأجل عدم العذر في نفسه.

(١) في المطبوع الذي بين أيدينا: فيعتذرون. وهو خطأ واضح.

(٢) يعني أنَّ الفاء لعطف النسق، وليست للسببية.

QaradawiBooks.com

ثم إن فيه فائدة أخرى، وهي حصول الموافقة في رؤوس الآيات؛ لأنَّ الآيات بالواو والنون، ولو قيل: «فيعتذروا». لم تتوافق الآيات، ألا ترى أنَّه قال في سورة (اقتربت الساعة): ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر: ٦] فثقَّل لأن آياتها مثقَّلة. وقال في موضع آخر: ﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الطلاق: ٨]. وأجمع القراء على تثقيل الأول، وتخفيف الثاني[1]، ليوافق كلٌّ منهما ما قبله»[2].

النوع السابع من أنواع التخويف للكفار:

﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

قال الرازي: «هذا هو النوع السابع من أنواع تهديد الكفار، وهذا القسم من باب التعذيب بالتقريع والتخجيل، فأما قوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ فاعلم أن ذلك اليوم يقع فيه نوعان من الحكومة:

أحدهما: ما بين العبد والربِّ، وفي هذا القسم كل ما يتعلق بالرب، فلا حاجة فيه إلى الفصل، وهو ما يتعلق بالثواب الَّذي يستحقه المرء على عمله، وكذا في العقاب، إنَّما يحتاج إلى الفصل فيما يتعلق بجانب العبد، وهو أن تُقرَّر عليهم أعمالُهم الَّتي عملوها حتَّى يعترفوا.

والقسم الثاني: ما يكون بين العباد بعضهم مع بعض، فإنَّ هذا يدَّعي على ذاك أنَّه ظلمني، وذاك يدَّعي على هذا أنَّه قتلني، فهاهنا لا بدَّ فيه من الفصل.

---

(١) التثقيل والتخفيف هنا: بمعنى الحركة والسكون.

(٢) تفسير الرازي (٣٠/٧٧٨، ٧٧٩) بتصرُّف.

QaradawiBooks.com

وقوله: ﴿جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ كلام موضِّح لقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾؛ لأنَّه لما كان هذا اليوم يوم فصل حكومات جميع المكلفين، فلا بدَّ من إحضار جميع المكلَّفين، لا سيما عند من لا يُجوِّز القضاء على الغائب.

ثمَّ قال: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ يشير به إلى أنَّهم كانوا يدفعون الحقوق عن أنفسهم بضروب الحيل والكيد، فكأنه قال: فهاهنا إن أمكنكم أن تفعلوا مثل تلك الأفعال المنكرة من الكيد والمكر والخداع والتلبيس؛ فافعلوا. وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]. ثمَّ إنهم يعلمون أنَّ الحيل منقطعة، والتلبيسات غير ممكنة، فخطاب الله تعالى لهم في هذه الحالة بقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ نهاية في التخجيل والتقريع، وهذا من جنس العذاب الرُّوحاني. فلهذا قال عَقِيبه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾»(١).

وقال ابن كثير في تفسير هذه الآيات: «وهذه مخاطبةٌ من الخالق لعباده يقول لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني: أنَّه جمعهم بقدرته في صعيد واحد، يُسمِعهم الداعي، وينْفُذهم البصر.

وقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، أي: إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتي، وتنجوا من حكمي فافعلوا، فإنكم لا تقدرون على ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ [هود: ٥٧]. وفي الحديث: «**يا عبادي، إنَّكم لن تبلغوا نفْعي فتنفعوني، ولن تَبْلغوا ضرِّي فتضرُّوني**»(٢)»(٣).

---

(١) تفسير الرازي (٧٧٩/٣٠) بتصرُّف.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧)، عن أبي ذر.

(٣) تفسير ابن كثير (٣٠٠/٨).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

النوع الثامن من أنواع التخويف للكفَّار:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا هو النوع الثامن: من أنواع تهديد الكفَّار وتعذيبهم؛ وذلك لأنَّ الخصومة الشديدة والنُّفْرَة العظيمة كانت في الدنيا قائمة بين الكفَّار والمؤمنين، فصارت تلك النُّفرة بحيث إنَّ الموت كان أسهل على الكافر من أن يرى للمؤمن دَوْلة وقوة، فلما بيَّن الله تعالى في هذه السورة اجتماع أنواع العذاب والخِزي والنَّكال على الكفار، بيَّن في هذه الآية اجتماع أنواع السعادة والكرامة في حقِّ المؤمن، حتَّى إنَّ الكافر حال ما يرى نفسه في غاية الذال والهوان، والخزي والخسران، ويرى خَصمه في نهاية العز والكرامة، والرفعة والمَنْقَبة، تتضاعف حسرته، وتتزايد غمومه وهمومه، وهذا أيضًا من جنس العذاب الروحاني. فلهذا قال في هذه الآية: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾»(١).

جزاء المؤمنين في مقابل جزاء الكافرين:

وذكر تعالى حالة المتقين بعقب ذكر حالة أهل النار؛ ليبين الفرق بين مصير هؤلاء ومصير أولئك.

والظلال: جمع ظل، وهو ضد الضِّحِّ (أي: ما برز من الأرض للشمس).

والظل أعمُّ من الفيء؛ فإنَّه يقال: ظل الليل، وظل الجنة، ويقال لكل موضع لم تصل إليه الشمس: ظل، ولا يقال: الفيء، إلَّا لما زال عنه الشمس، ويعبر بالظل أيضًا عن الرفاهة، وعن العزة والمناعة، فيقولون:

(١) تفسير الرازي (٣٠/٧٧٩، ٧٨٠) بتصرُّف.

QaradawiBooks.com

فلان في ظلِّ فلان. أي: في كنفه وعزِّه. وفــلان في ظلِّ النعمة، أي: في رفاهية النعمة. وما في هذه الآية يدخل في هذا المعنى أيضًا.

قال ابن عطيَّة: «والظلال في الجنَّة: عبارة عن تكاثف الأشـجار، وجودة المباني، وإلا فلا شـمس تؤْذي هناك، حتَّى يكون ظلٌّ يجير من حَرِّها»(١).

وهذا الوصف مقابلٌ لما وصف به حال المشركين: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ٣٠ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾.

قال الآلوسي: «المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ أنَّهم مستقرون في فنون التَّرَفُّه، وأنواع التنعّم.

﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ مقدَّر بقول هو حال من ضمير ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ في الخبر، كأنَّه قيل: مسـتقرون في ذلك، مَقُولًا لهم: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فـي الدنيا من العمـل الصالح بالإيمان وغير ذلك.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء العظيم ﴿نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، لا جزاء أدنى منه، والمراد بالمحسـنين المتَّقون السـابق ذكرهم، إلَّا أنَّه وضع الظاهر موضع الضمير؛ مدحًا لهم بصفة الإحسـان أيضًا، مع الإشعار بعلة الحُكم.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ حيث نال أعداؤهم هــذا الثواب العظيم، وهم بقوا في العذاب الأليم»(٢).

---

(١) تفسير ابن عطية (٥/٤٢١).

(٢) تفسير الألوسي (١٥/١٩٧).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

قال العلَّامة الطاهر بن عاشــور في تفســير هذه الآيات: «وظلال: جمع ظل، وهي ظلال كثيرة لكثرة شــجر الجنَّة وكثرة المســتظلين بظلها، ولأن لكل واحد منهم ظلا يتمتع فيه هو ومن إليه، وذلك أوقع في النعيم. والتعريف في المتقين للاستغراق فلكل واحد من المتقين كون في ظلال.

و«في» للظرفيَّة وهي ظرفية حقيقية بالنســبة للظلال لأنَّ المســتظل يكون مظروفًا في الظل، وظرفية مجازية بالنسبة للعيون والفواكه تشبيهًا لكثرة ما حولهم من العيــون والفواكه بإحاطة الظـروف، وقوله: ﴿مِمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ صفة فواكه. وجمع فواكه الفواكــه وغيرها، فالتبعيض الَّذي دلَّ عليه حرف «من» تبعيض من أصناف الشــهوات لا من أصناف الفواكه؛ فأفاد أن تلك الفواكه مضمومة إلى ملاذَّ أخرى ممَّا اشتهوه»[١].

من هم المتَّقون المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾؟

المتَّقون هم أهل التقــوى الَّذين يتقون الله في ســرِّهم وعلنهم، في أقوالهم وأفعالهم، في عبادتهم وفي معاملتهم.

وهم يتقون فــي تعاملهم مع الله، ومع أنفســهم، ومــع الناس: كل ما لا يحبه الله ولا يرضاه، ففي عقيدتهم يتقون الشِّــرك بالله تعالى، وفي عبادتهم يتقــون الابتداع، وفي نياتهم يتقون الريــاء، وفي علمهم يتقون ما لا بيِّنة عليه، وفــي أخلاقهم يتقون الكذب في القــول، والخيانة في العمل، والغدر في العهد، وفــي معاملاتهم يحرصون على إقامة العدل، وإنصاف المظلوم، والرحمة بالضعيف.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/٤٤٣).

QaradawiBooks.com

هؤلاء هـم المتقون الَّذين كتب الله لهم دخول الجنـة، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وكتب الله لهم النجاة مـن النار: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

وهم الَّذين هيَّأ الله لهم أسباب السـلامة من كيد الكائدين، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ [آل عمران: ١٢٠]. وكما قال يوسـف في مواجهة إخوانه بعد أن كشـف لهم عن نفسه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

والتقوى سبب البركة في الرزق، قال عزَّ مِن قائل: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وقـال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

والتقوى سبب التيسـير على الناس: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤].

والتقوى سـبب الفتـح والنصـر والتوفيق في كسـب العلم وفهمه والإصابة فيه، كما قال تعالـى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩]. وقال: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]. وقال على لسـان يوسـف: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]

والتقوى هي السبب في معيَّة الله للإنسـان، وخصوصًا عندما تشتد عليه الأزمات، وتتراكم عليه الخطـوب، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]. فالله جلَّ شـأنه مع هؤلاء بعلمه ورعايته، وتأييده ونصره، وهم معه بتقواهم له سبحانه، وإحسانهم لخلقه.

QaradawiBooks.com

ظلال الجنَّة وعيونها:

والقرآن يؤكد في أكثر من آية وجود الظل والظلال في الجنة، وبلاد العرب يغلب عليها الجو الحار، وخصوصًا في الصيف، ولذلك هم يتشوَّفون إلى الظلال، ويستمتعون بها، وينعمون بأطيافها ونسائمها، وبيَّن القرآن ما تتميز به الجنات الَّتي أعدها الله للمؤمنين في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥].

وقال تعالى في وصف الجنَّة الَّتي يستحقها الأبرار الأصفياء: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤].

ولهذا كان أول ما منحه الله للمتقين «الظلال»، فما أحلاها! وما أجمل بردها على الجسم والفؤاد!

العيون الَّتي وعد الله المتقين:

وممَّا وعد الله به المتقين في الجنات: العيون، فما أحوج الإنسان، وخصوصًا من كان يعيش في بيئة العربي الحارة الَّتي تقِلُّ فيها الأنهار، وتقل فيها الواحات والعيون، فيشتاق المرء إلى عين فائرة في قلب الصحراء، ينْبع الماء منها، فيحيي الأرض بعد موتها، ويبث فيها من كل دابَّة، وينبت الزرع والثمار والأعشاب والأزهار من حولها، ويُسقى الإنسان والحيوان والطير من مائها.

ولذا قال هنا في وصف النعيم الَّذي أعده الله لعباده المتقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١]. ووصف الجنات أنَّها تجري من تحتها الأنهار.

ووصف القرآن الجنتين المثمرتين اللتين أعدهما الله لمن خاف مقام ربه، قال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۞ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۞

QaradawiBooks.com

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦ ـ ٥١]. ثمَّ قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ مُدْهَآمَّتَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٦٢ ـ ٦٧]. وهاتان الجنتان دون الجنتين السابقتين، ولكنهما عامرتان بالمياه والعيون، والفواكه والنخل والرمان.

وفي هذه الجنَّات كلها من ألوان النعيم والرفاهية كل ما يحتاج إليه من كان محرومًا منه في الدنيا، ومن ذلك: العيون المائيَّة الَّتي تجري، والَّتي تنضح بالماء، وتسقي الظمآن، وتملأ الحياة بالري والحنان.

ومن ذلك أيضًا الفاكهة الَّتي يشتهونها: ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾:

يقول الأستاذ سيِّد رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ المتَّقين في ظلال.. ظلال حقيقية في هذه المرة! لا ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب! وفي عيون من ماء لا في دخان خانق يبعث الظمأ الحرور.

﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾.. وهم يتلقون فوق هذا النعيم الحسي التكريم العلوي على مرأى ومسمع من الجموع: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. ويا لطف هذا التكريم من العلي العظيم! ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ يقابل هذا النعيم والتكريم!»(١).

المتقون في ثلاثة أنواع من النعم:

نجد هذا النعيم للمتقين في مقابل ما أعدَّه الله للكفار، حيث بعثهم إلى ظل ذي ثلاث شعب.

فالمؤمنون في ثلاثة أنواع من النعمة:

(١) في ظلال القرآن (٣٧٩٤/٦).

QaradawiBooks.com

أولها: قوله تعالى: ﴿فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١]. كأنَّه قيل: ظلال الكافرين ما كانت ظليلة، وما كانت مغنية لهم عن اللهب والعطش، أمَّا المتقون فظلالهم ظليلة، وعندهم عيون عذْبة، مغنية لهم عن العطش، وحاجزة بينهم وبين اللهب.

والنعمة الثانية: أن لديهم الفواكه حلوة المذاق، الَّتي تشتهيها الأنفس، وتلذُّها الأعين، وتتمنَّاها القلوب: ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣].

والنعمة الثالثة: أنَّه تعالى كما قال للكفار: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾، قال هنا للمتقين: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وهذا الخطاب إما أن يكون إذنًا من جهة الله تعالى لهم بلا واسطة، تكريمًا وودًّا لهم، فما أكرمه! وما أعظمه! أو من جهة الملائكة على وجه الإكرام والإعزاز.

ومعنى ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ أي: خالص اللّذة، لا يشوبه سقم ولا تنغيص.

وهذا الكلام للمتقين في الجنَّة جاء في صيغة الأمر، ولكنَّه أمر في الصيغة فقط؛ لأن زمن التكليف انتهى، فكل ما كان من هذا النوع في الدار الآخرة، فإنما يقوله الله ﷻ على وجه الإكرام.

هل يصح الاستدلال بقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على وجوب الثواب على الله؟

قوله سبحانه: ﴿هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: هذه الجنَّة وما أعدَّ لكم فيها، جزاء بما كنتم تعملون، وقد احتج بعض النَّاس ـ وهم المعتزلة ـ

QaradawiBooks.com

بقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وبقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ـ الَّذي سيأتي تفسيره ـ على أنَّ العمل يُوجب على الله الثواب، وأهل السنة مذهبهم لا يقبل الإيجاب على الله تعالى، فالله سبحانه هو الَّذي يوجب على النَّاس، ولا يوجب عليه أحد شيئًا، وقد قال الناظم في بيان مذهب أهل السنة وردهم على المعتزلة:

وقولهم: إنَّ الصلاحَ واجبُ   عليه، زُورٌ، ما عليه واجبُ[1]

وضعَّف الإمام الرازي الاعتماد على الباء في قوله: ﴿هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المرسلات: ٤٣]، وأنَّها للعِوَض، قائلًا: «وهذا ضعيف؛ لأنَّ الباء للإضافة، ولمَّا جعل الله تعالى ذلك العمل علامة لهذا الثواب، كان الإتيان بذلك العمل كالآلة الموصلة إلى تحصيل ذلك الثواب.

وقوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المقصود منه أن يذكر الكفَّار ما فاتهم من النعم العظيمة، ليعلموا أنَّهم لو كانوا من المتقين المحسنين لفازوا بمثل تلك الخيرات، وإذا لم يفعلوا ذلك لا جرم وقعوا فيما وقعوا فيه»[2].

وقال الحافظ ابن رجب في رسالته «المحجَّة في سير الدُّلَجة» الَّتي شرح فيها حديث: «**لن يُنَجِّيَ أحدًا منكم عملُه**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قَالَ: «**ولا أنا إلَّا أن يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ برحمتِهِ، سَدِّدوا وقاربوا واغدوا ورُوحوا، وشيءٌ من الدُّلجة، والقصدَ القصدَ تبلغوا**»[3]، قال

---

(١) تحفة المريد على جوهرة التوحيد لإبراهيم اللقاني، شرح الشيخ الباجوري، نشر مكتبة الإرشاد، إسطنبول، ط١، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

(٢) تفسير الرازي (٧٨٠/٣٠).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٦٣)، ومسلم في صفات المنافقين (٢٨١٦)، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

ابن رجب: «إنَّ عمل الإنسان لا يُنْجِيه من النَّار ولا يُدْخِله الجنَّة، وإنَّ ذلك كلَّه إنَّمَا يحصل بمغفرة الله ورحمته.

وقد دلَّ القرآن العزيز عَلَى هذا المعنى في مواضع كثيرة، كقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وقوله: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١]. وقوله: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۞ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الصف: ١١، ١٢].

فقَرَن بين دخول الجنَّة والنجاة من النَّار وبينَ المغفرة والرحمة، فدلَّ عَلَى أنَّه لا يُنال شيء من ذلك بدون مغفرة الله ورحمته».

ثم بيَّن معنى الباء في الآية والحديث، فقال: «فأمَّا قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، وقوله: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، فقد اختلف العُلَمَاء في معنى ذلك عَلَى قولين:

أحدهما: أنَّ دخول الجنَّة «برحمته»، ولكن انقسام المنازل بحسَب الأعمال.

قال ابن عُيَيْنة: كانوا يرون النجاة من النَّار بعفو الله ودخول الجنَّة بفضله واقتسام المنازل بالأعمال.

والثاني: أنَّ الباء المثبتة، في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ وقوله:

QaradawiBooks.com

﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾، باء السببيَّة، وقد جعل الله العمل سببًا لدخول الجنة.

والباء المنفيَّة في قوله ﷺ: «**لن يَدخلَ أحدٌ الجنَّة بعمله**». باء المقابلة والمعاوضة، والتقديرُ: لن يستحقَّ أحدُ دخول الجنَّة بعمل يعمله. فأزال بذلك توهم من يتوهم أنَّ الجنَّة ثمن الأعمال، وأنَّ صاحب العمل يستحق على الله دخول الجنَّة كما يستحق من دفع ثمن سلعة إلى صاحبها تسليم سلعته، فنفى بذلك هذا التوهم، وبيَّن أنَّ العمل وإن كان سببًا لدخول الجنة، فإنما هو من فضل الله ورحمته.

فصار الدخول مضافًا إلى فضل الله ورحمته ومغفرته؛ لأنَّه هو المتفضل بالسبب والمسبَّب المرتَّب عليه، ولم يبق الدخول مرتبًا على العمل نفسه.

في الصحيح عن النبيِّ ﷺ: «**إنَّ الله تعالى يقول للجنَّة: أنتِ رحمتي أرحمُ بكَ مَنْ أشاء مِنْ عبادي**»[1].

ما للعبادِ عليه حقٌّ واجبٌ … كلَّا وليس لديه سَعْيٌ ضائعُ

إن عُذِّبوا فبعدلِهِ أو نُعِّمُوا … فَبِفَضْلِه وهُوَ الكريمُ الواسعُ[2]»

ثم قال: «وعند تحقيق النظر فالجنَّة والعمل كلاهما من فضل الله ورحمته عَلَى عباده المؤمنين؛ ولهذا يقول أهل الجنَّة عند دخولها: ﴿**ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ**﴾ [الأعراف: ٤٣].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٨٥٠)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٦)، عن أبي هريرة.

(٢) والبيتان لابن قيم الجوزية كما في نونيته الشهيرة، انظر: متن القصيدة النونية صـ ٢٠٨، نشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط ٢، ١٤١٧هـ.

QaradawiBooks.com

فلما اعترفوا لله بنعمته عليهم بالجنَّة وبأسبابها من الهداية، وحمدوا الله عَلَى ذلك كله جُوزُوا بأَنْ نُودُوا: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] فأضيف العمل إليهم وشُكروا عليه»[(١)].

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: هكذا يُعلِم الله أهل الإحسان، أنَّهم كما أحسنوا يجزيهم الله بالإحسان إحسانًا، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

والإحسان نوعان: إحسان الشيء بمعنى إحكامه وإتقانه، وهو ما يحبه الله تعالى كما جاء في الحديث: «**إنَّ الله يحبُّ من أحدكم إذا عمل عملًا أنْ يُتْقِنه**»[(٢)].

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحسن عمله ويتقنه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]. وقال: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

ويدخل في هذا قول رسول الله ﷺ لجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ في حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما سأله عن الإحسان: «**أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإنْ لم تكنْ تراه فإنَّه يراك**»[(٣)].

وهو ما جاء في الحديث الَّذي رواه مسلم، وهو من أحاديث الأربعين

(١) مجموعة رسائل ابن رجب، رسالة المحجة في سير الدلجة (٣٩٨/٤)، تحقيق طلعت بن فؤاد الحلواني، نشر الفاروق الحديثة للطباعة والنشر.

(٢) رواه أبو يعلى (٤٣٨٦)، والطبراني في الأوسط (٨٩٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٣١٤)، وحسنه الألباني في الصحيحة (١١١٣)، عن عائشة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠)، مسلم (٨)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

النوويَّة: «**إنَّ اللهَ كتب الإحسانَ على كلِّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبْح**»(١).

والمعنى الثاني: الإحسان إلى الخلق، بأن ينزل الخير بهم، ويدفع الشر عنهم، ويعادي الظالمين لهم، ويعاون المحسنين إليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦]. وهي آية الحقوق العشرة الَّتي بدأت بحقِّ الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ ثمَّ عطفت عليه بقية الحقوق.

وكما في قوله تعالى على لسان الناصحين لقارون: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

وكما قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

والآية تحتمل المعنيين إتقان العمل وإحكامه، والإحسان إلى الخلق، وقد قال يوسف الصديق حين كشف لإخوته عن نفسه: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

النوع التاسع من أنواع تخويف الكفار:

﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

قال الرازي: «هذا هو النوع التاسع: من أنواع تخويف الكفار، كأنَّه تعالى يقول للكفار حال كونه في الدنيا: إنك إنَّما عرَّضت نفسك لهذه

---

(١) رواه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٥)، وأحمد (١٧١١٣)، عن شدَّاد بن أوس.

QaradawiBooks.com

الآفات الَّتي وصفناها، ولهـذه المحن الَّتي شـرحناها، لأجل حبِّك للدنيـا، ورغبتك في طيباتها وشـهواتها، إلَّا أن هـذه الطيِّبات قليلة بالنسبة إلى تلك الآفات العظيمة، والمشتغل بتحصيلها، يجري مجرى لقمة واحدة من الحلواء وفيها السم المهلِك، فإنه يقال لمن يريد أكلها ولا يتركها بسـبب نصيحة الناصحين، وتذكيـر المذكرين: كُلْ هذا، وَوَيْل لك منه بعد هذا، فإنك من الهالكين بسـببه. وهذا وإن كان في اللفظ أمرًا، إلَّا أنَّه في المعنى نهيٌ بليغ، وزجْر عظيم، ومنع في غاية المبالغة»[1].

وقال الآلوسـي: «﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ حال من المكذِّبين على ما ذهب إليه غير واحد من الأجلَّـة. أي: الويل ثابت لهم في حال ما يقالُ لهم ذلك، تذكيرًا لما كان يقال لهم في الدنيا، ولَمَّا كانوا أحقَّاء بأن يخاطبـوا به، حيث تركوا الحـظ الكثير إلى النـزر الحقير، فيفيد التَّحسير والتخسير وعلى طريقته قوله:

إخوتـي لا تَبْعَـدوا أبـدًا وبَلَـى ـ واللهِ ـ قـد بَعِدُوا[2]

فهو دعاء لإخوته بعدم الهلَكَة بعد هلاكهم، تقريرًا بأنَّهم كانوا أحقَّاء بذلك الدعاء في حياتهم، وأن هلاكهم لحَيْنُونة الأجل المسمَّى، لا لأنَّهم كانوا أحقَّاء بالدعاء عليهم.

وذهب أبو حيَّان إلى أنَّه كلام مسـتأنف خوطب بـه المكذِّبون في الدنيا، والأمر فيه أمر تحسـير وتهديد وتخسير، ولم يعتبر التهديد على الأول؛ لأنَّه غير مقصود في الآخرة.

---

(١) تفسير الرازي (٣٠/٧٨١).

(٢) من شعر فاطمة بنت الأحجم الخزاعية، كما في ديوان الحماسة (١/٤٤٦).

QaradawiBooks.com

والظاهر أنَّ قوله سبحانه: ﴿إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾ في موضع التعليل، وفيه دلالة على أن كل مجرم نهايته تمتُّع أيامٍ قليلة، ثمَّ يبقى في عذاب وهلاك أبدًا»(١).

النوع العاشر من أنواع التهديد والتخويف للكافرين:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ۝٤٨ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾

قال الرازي: «هذا هو النوع العاشر من أنواع تخويف الكفَّار، كأنَّه قيل لهم: هَبْ أنَّكم تحبُّون الدنيا ولذَّاتها، ولكن لا تُعرِضوا بالكلِّيَّة عن خدمة خالقكم، بل تواضعوا لـه، فإنكم إن آمنتم، ثمَّ ضممتم إليه طلب اللَّذات وأنواع المعاصي حصل لكم رجاء الخلاص عن عذاب جهنم، والفوز بالثواب، كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ثم إن هؤلاء الكفَّار لا يفعلون ذلك ولا ينقادون لطاعته، ويبقون مُصِرِّين على جهلهم وكفرهم، وتعريضهم أنفسهم للعقاب العظيم، فلهذا قال: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ أي: الويل لمن يكذب هؤلاء الأنبياء، الَّذين يرشدونهم إلى هذه المصالح الجامعة بين خيرات الدنيا والآخرة.

ثم أورد الإمام الفخر الرازي عدَّة مسائل حول تفسير الآية:

«المسألة الأولى:

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ المراد به الصلاة. وهذا ظاهر؛ لأنَّ الركوع من أركانها، فبيَّن تعالى أن هؤلاء الكفَّار

---

(١) روح المعاني للآلوسي (١٥/١٩٧).

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

من صفتهم أنَّهم إذا دُعوا إلى الصلاة لا يصلون، وهذا يدل على أنَّ الكفَّار **مخاطبون بفروع الشرائع**، وأنَّهم حال كفرهم كما يستحقون الذم والعقاب بترك الإيمان، فكذلك يستحقون الذم والعقاب بترك الصلاة؛ لأنَّ الله تعالى ذمَّهم حال كفرهم على ترك الصلاة.

وقال قوم آخرون: المراد بالركوع الخضوع والخشوع لله تعالى، وأن لا يُعبَد سواه.

المسألة الثانية:

القائلون بأنَّ **الأمر للوجوب** استدلوا بهذه الآية؛ لأنَّه تعالى ذمَّهم بمجرد ترك المأمور به، وهذا يدل على أن مجرد الأمر للوجوب.

فإن قيل: إنهم كفار، فلكفرهم ذمَّهم. قلنا: إنَّه تعالى ذمَّهم على كفرهم من وجوه كثيرة، إلَّا أنَّه تعالى إنَّما ذمَّهم في هذه الآية؛ لأنَّهم تركوا المأمور به، فعلمنا أن ترك المأمور به غير جائز»[1].

وقال الآلوسي: «﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ﴾ أي: قيل لهم: أطيعوا الله تعالى، واخشعوا وتواضعوا له عَزَّ وَجَلَّ، بقبول وحيه تعالى، واتِّباع دينه سبحانه، وارفضوا هذا الاستكبار والنخوة.

﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾: لا يخشعون، ولا يقبلون ذلك، ويُصرُّون على ما هم عليه من الاستكبار.

وقيل: أيْ: إذا أمروا بالصلاة ـ أو بالركوع فيها ـ لا يفعلون، إذ روي عن مقاتل أنَّ الآية نزلت في ثقيف، قالوا للرسول ﷺ: حُطَّ عنا الصلاة فإنَّا لا نُجبِّى (يعني: لا ننحني)؛ فإنَّها مَسبَّة علينا، فقال ﷺ:

(١) تفسير الرازي (٣٠/٧٨١).

QaradawiBooks.com

«**لا خيرَ في دِينٍ ليس فيه ركـوعٌ ولا سـجود**». ورواه أيضًا أبو داود والطبراني وغيرهما[(١)].

وأخرج ابن جرير عن ابن عبَّاس أنَّه قال: هـذا يوم القيامة، يدعون إلى السجود فلا يستطيعون السجود، من أجل أنَّهم لم يكونوا يسجدون في الدنيا[(٢)].

واتصال الآيـة ـ على ما نُقل عن الزمخشـري ـ بقوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ كأنَّه قيل: وَيْل يومئذ للذين كذّبوا، والذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون. وجوَّز أن يكون أيضًا بقوله سبحانه: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾ علـى طريقة الالتفات، كأنَّه قيل: هـم أحقَّاء بأن يقال لهم: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ﴾، ثمَّ علَّل ذلك بكونهم مجرميـن، وبكونهم إذا قيل لهم: صَلُّوا، لا يُصلُّون.

أي: إذا أُمِر هـؤلاء الجَهَلة من الكفَّار أن يكونـوا من المصلِّين مع الجماعة، امتنعوا من ذلك، واسـتكبروا عنه، وكثيرا ما يعبَّر عن الصلاة بالركوع، كمـا قال تعالـى: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقـرة: ٤٣]. وكما قال لمريم: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

واستدلَّ به (أي: القاضي البيضاوي)[(٣)] على أنَّ الأمر للوجوب، وأنَّ الكفَّار مخاطبون بالفروع»[(٤)].

---

(١) رواه أحمد (١٧٩١٣)، وقال مخرِّجوه: رجاله ثقات رجال الصحيح، غير أن في سماع الحسن من عثمان اختلاف. وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء (٣٠٢٦)، والطبراني (٩/٥٤)، عن عثمان بن أبي العاص.

(٢) رواه الطبري في التفسير (٢٤/١٤٤). وتقدم قول ابن جزي عن هذا القول بأنه غير ظاهر ولا مشهور.

(٣) انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي (٥/٢٧٧).

(٤) حاشية الطيبي على الكشاف (١٦/٢٣٨).

QaradawiBooks.com

تفسير قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾:

أي: فبأيِّ حديثٍ هادئ كثير التأثير في النفوس البشريَّة يؤمنون، بعد هذا الحديث البياني الإقناعي؟! إنَّ إصرارهم على التكذيب بعد هذا الحديث لا يكون إلَّا ناشئًا عن عنادٍ وإصرارٍ على الباطل، واتِّباعٍ للهوى والشهوات، وارتكاب الجرائم والآثام. وما أعظم هذه الخيبة! وما أشدَّ هذا الخسران!

قال الفخر الرازي: «اعلم أنَّه تعالى لمَّا بالغ في زجْر الكفَّار من أول هذه السورة إلى آخرها بالوجوه العشرة الَّتي شرحناها، وحثَّ على التمسك بالنظر والاستدلال والانقياد للدين الحق؛ ختم السورة بالتعجُّب من الكفار، وبيَّن أنَّهم إذا لم يؤمنوا بهذه الدلائل اللطيفة مع تجلِّيها ووضوحها فبأيِّ حديث بعده يؤمنون»(١).

وقال أبو حيَّان في «البحر المحيط» في آخر تفسير السورة: «الضمير في ﴿بَعْدَهُۥ﴾ عائد على القرآن، والمعنى: أنَّه قد تضمَّن من الإعجاز والبلاغة والأخبار المغيَّبات ـ وغير ذلك ممَّا احتوى عليه ـ ما لم يتضمنه كتاب إلٰهي، فإذا كانوا مكذِّبين به، فبأيِّ حديث بعده يصدقون به؟ أي: لا يمكن تصديقهم بحديث بعد أن كذبوا بهذا الحديث الَّذي هو القرآن»(٢).

وقال الآلوسي: «﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ﴾ أي: بعد القرآن الناطق بأحاديث الدارين، وأخبار النشأتين، على نمطٍ بديعٍ معجزٍ، مؤسَّسٍ على حججٍ قاطعة، وبراهين ساطعةٍ.

(١) تفسير الرازي (٣٠/٧٨١، ٧٨٢) بتصرُّف.
(٢) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (١٠/٣٧٩، ٣٨٠).

QaradawiBooks.com

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذ لم يؤمنوا بـه. كما قال تعالى في سـورة الجاثية: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

والتعبير بـ «بعـده» دون «غيره» للتنبيه على أنَّه لا حديث يسـاويه في الفضل، أو يدانيه فضلًا، أو يفوته ويعاليـه، فلا حديث أحقّ بالإيمان منه، فالبَعْدية للتفاوت في الرتبة، كما قالوا في ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣].

وكأنَّ الفاء في قوله: ﴿فَبِأَيِّ﴾ لما أنَّ المعنى: إذا كان الأمر كذلك، وقد اشـتمل القرآن على البيان الشـافي والحق الواضح، فما بالهم لا يبادرون الإيمان به قبل الفَوْت، وحلول الويل، وعدم الانتفاع بـ عسى ولعل وليت؟

هذا ولمَّا أوجز في سورة الإنسـان في ذكر أحوال الكفَّار في الآخرة (ذكرها في آية واحدة)، وأطنب في وصف أحوال المؤمنين فيها، عكس الأمر في هذه السورة، فوقع الاعتدال بذلك بين هاتين السورتين»[1].

وقال العلَّامة ابن عاشور: «﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ﴾ الفاء فصيحة تنبئ عن شـرط مقدر تقديره: إن لم يؤمنـوا بهذا القرآن فبـأي حديث بعده يؤمنون، وقد دل على تعيين هذا المقـدَّر ما تكرَّر في آيات ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾»[2].

وبهذا تمَّ تفسير سورة المرسلات، وبه تمَّ تفسير جزء تبارك، والحمد لله الَّذي بنعمته تتم الصالحات ﴿ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

* * *

(١) روح المعاني للآلوسي (١٥/١٩٧ ـ ١٩٨) بتصرُّف.
(٢) التحرير والتنوير (٢٩/٤٤٧).

QaradawiBooks.com

موسوعة الأعمال الكاملة
لسماحة الإمام
يوسف القرضاوي

الفهارس العامة

- فهرس الأحاديث النبوية الشـريفة.
- فهرس الموضوعات.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

الحديث	رقم الصفحة
أ	
آيةُ المنافقِ ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتُمن خان	٢٢١
ابعث بعْثَ النار. فيقول: مِن كم؟	٣٥١
اتّقِ اللهَ حيثما كنتَ، وأتْبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالقْ النّاس بخُلُق حَسَن	٨٧
أتلومني على أمرٍ قدَّره اللهُ عليَّ قبل أن أُخلَق. فحجَّ آدمُ موسى	٤٤٣
اجعلوها في ركوعِكم. أي: قولوا: سبحان ربِّي العظيم	١٧٢
أحبارنا أحدثوا تحميم الوجه	١٠٣
أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ	٢٠٩
أحيانًا يأتيني في مثلِ صَلْصَلة الجَرَس، وهو أشدُّه عَلَيَّ، فَيُفْصِمُ عنِّي	٣٣٠
أدِّ الأمانةَ إلى مَن ائتمنك، ولا تخُنْ من خانك	٨٣
أدَّبني ربِّي تأديبًا حسنًا	٨٧
إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتلُ والمقتولُ في النَّار	١٠٦
إذا حُشر النَّاس يوم القيامة، قاموا أربعين عامًا، على رؤوسهم الشمس	٥٥٨
إذا خلق الله النَّسَمة قال مَلَك الأرحام مُعْرِضًا: يا ربّ، أذَكَرٌ أم أُنثى؟	٤٥١
إذا دخل أهلُ الجنَّة الجنَّة قال: يقول الله تعالى: تريدون شيئًا أزيدُكم؟	٤٦٩

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
إذا سألتم اللهَ فاسألوه الفردوس، فإنَّه أوسطُ الجنَّة، وأعلى الجنَّة	٢٢٥
إذا مشت أُمَّتي المُطَيْطَى	٤٨٠
أربع من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خَصْلةٌ منهن كانت فيه خَصْلة	٢٢١
استعنْ بيمينِكَ	٥، ٧٢
استوصوا بالأسارى خيرًا	٥١٤
أسفروا بالفجرِ، فإنَّه أعظمُ للأجر	٤٠٨
أسمعُ صَلاصيل، ثمَّ أسكتُ عند ذلك	٣٣٠
أعاذك اللهُ من إمارةِ السفهاء	٥٠٤
أعددْتُ لعباديَ الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت	١٥٠
أعوذ بِوَجْهك	٤٨٩
أفضلُ الصدقة أن تَصدَّقَ وأنت صحيحٌ شحيح، تأمل الغِنَى، وتخشى الفقر	٥١٣
اقتَصُّوا ـ أو: اقتصِّي. شكَّ أسود ـ ظرفًا مكان ظَرْفِكِ	٨٠
اقتلوها. فابتدرناها، فذهبت، فقال النبيُّ ﷺ: وُقِيَتْ شرَّكم، كما وُقِيتُم شرَّها	٥٤٩
أَلَا أُخْبِرُكم بأهل الجنَّة؟ قالوا: بلى	٩٩
اللهمَّ اشدُدْ وطأتَكَ على مُضَرَ	٣٣٧
اللهمَّ ربَّنا لك الحمد، ملءَ السماوات، وملءَ الأرض	١٦٠
اللهمَّ عليك بأبي جهل بن هشام وعُتبة	٢٧٦، ٢٧٧
أليس الَّذي أمشاهم على أرجُلِهم قادرًا على أن يُمْشِيهم على وجوههم؟	٥٦
أمَّا أنا فلا آكُلُ متَّكئًا	٥٢٤
أمَّا الَّذي يُثْلَغ رأسُه بالحَجَر؛ فإنَّه يأخذ القرآنَ فيرفُضه، وينام عن الصلاة المكتوبة	٣٥٨

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
أمَّا هو فقد جاءه اليقين، والله إنِّي لأرجو له الخير، والله ما أدري	٤٢٣
أمراءُ يكونون من بعدي، لا يهتدون بهداي، ولا يَستنُّون بسُنَّتي	٥٠٤
الأمر أشدُّ من ذلك	١٩٤
إنَّ الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حَوْلًا	٣٣٩
إنَّ الله بعثني لأتمِّم مكارم الأخلاق	٨٦
إنَّ الله تعالى ليُملي للظالم، حتَّى إذا أخذه لم يُفْلِتْه	١٢٢، ٢٧٥
إنَّ الله تعالى يقول للجنَّة: أنتِ رحمتي أرحمُ بكِ مَنْ أشاء مِنْ عبادي	٥٩٦
إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمال	١٩٧
إنَّ اللهَ كتب الإحسانَ على كلِّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة	٥٩٨
إنَّ الله يتجلَّى للمؤمنين يضحكُ	٤٦٩
إنَّ الله يحبُّ من أحدكم إذا عمل عملًا أنْ يُتْقِنَه	٥٩٧
أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإنْ لم تكنْ تراه فإنَّه يراك	٥٩٧
إنَّ في الجنَّة مائة درجة، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض	١٥١
إن كان ليوحى إلى رسول الله ﷺ وهو على راحلته	٣٣٠، ٥٦٠
إنَّ من أحبِّكم إليَّ، وأقربِكم منِّي مجلسًا يوم القيامة: أحسنكم أخلاقًا	٨٨
أنَّ النبيَّ ﷺ جاءه الحقُّ وهو في غار حراء، فجاءه الملك	٣٦٩
أنا العاقب، والعاقبُ الَّذي ليس بعده نبيٌّ	٢٤٠
أنا النَّبيُّ لا كذِبْ أنا ابنُ عبدِ المطَّلِبْ	٨٣
أُنـزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي، فكادت تَرُضُّ فَخذي	٣٣٠
انصرفا، نَفِي لهم بعهدهم، ونستعينُ اللهَ عليهم	٨٤
انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عُكاظ	٢٧٨

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

الحديث	رقم الصفحة
إنَّكم تَرَوْن ربَّكم كما ترون هذا القمر	٤٦٨
إنَّكم سترَوْن ربَّكم عِيَانًا	٤٦٨
إنَّما بُعِثْتُ لأتمِّم صالحَ الأخلاق	٨٢، ٨٥
إنَّما بُعثتم مُيَسِّرينَ، ولم تُبْعثوا مُعَسِّرين	٣٥٥
إنَّما المسكينُ الَّذي يتعفَّف، اقرؤوا إن شئتم	٥١٤
إنَّه ليَأْتِي الرجلُ العظيمُ السمينُ يوم القيامة، لا يزِنُ عند الله جناحَ بعوضة	١٤٧
إنَّها لآخِر ما سمعتُ من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب	٥٤٩
إنَّهم ألفُ خادم	٥٤٩
إنَّها لآخِر ما سمعتُ من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب	٥٣١
إنِّي أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطَّت السماءُ وحُقَّ لها أن تئطَّ	٥٤٧
ت	
تشفع الملائكةُ، ثمَّ النبيُّون، ثمَّ العلماء، ثمَّ الشهداء، ثمَّ الصالحون	٤٢٣
تقوى الله، وحُسن الخُلُق	٨٨
ج	
جَنَّتان من ذهبٍ، آنيتُهما وما فيهما، وجنَّتان من فِضَّة، آنيتُهما وما فيهما	٤٦٨
خ	
خدمتُ رسولَ الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أفٍّ	٨٢
خَيْرُ الشهداءِ الَّذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألَها	٢٢٤
خيرُكم مَن تعلَّمَ القرآن وعلَّمه	٥، ٧٢
د	
دخل عليَّ رسول الله ﷺ مسرورًا تبرُق أسارير وجهه	٥١٧

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
الدعاء هو العبادة	٣٠٢
دعوة أخي ذي النون، ما دعا بها مسلم إلَّا استجاب الله له	١٢٦
ذ	
ذلكَ رجلٌ بالَ الشيطانُ في أُذُنَيْه	٣٥٨
ر	
رُدُّوا عبدي إلى الأرض، فإنِّي منها خلقتُهم، وفيها أعيدهم	٤٧٨
ز	
زَيِّنوا القرآنَ بأصواتكم	٣٢٩
س	
سُئل عن قراءة رسول الله ﷺ، فقال: كانت مَدًّا	٣٢٨
الساعي على الأرملةِ والمسكين كالمجاهدِ في سبيل الله	٣٥٦
سبحانَك اللهمَّ وبحمدك، وتبارك اسمُك، وتعالى جَدُّك، ولا إلهَ غيرُك	٢٨٥
سبعةٌ يُظِلُّهم الله تعالى في ظلِّ عَرْشِه يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظلُّه	٣٨
ش	
شرُّ ما في رَجُلٍ: شحٌّ هالِعٌ، وجبنٌ خالعٌ	٢٠٨
ص	
الصلاةَ، وما ملكت أَيْمانكم	٥١٤
صلةُ الرحم تَزيدُ في العُمر	٢٤٤
ع	
العجب إن ناسًا من أمتي يؤمون بالبيت برجل من قريش	٤٩٠

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
غ	
غريمُك أسيرُك، فأحسنْ إلى أسيرك	٥٢١
ف	
فإذا سألتم اللهَ فسلوه الفردوسَ؛ فإنَّه أوسطُ الجنَّة، وأعلى الجنَّة	٢٤
فاطمة بَضْعة مِنِّي	٢٠٢
فإنَّ الله تعالى قد حرم على النَّار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود	١٠٣
فبينا أنا أمشي سمعتُ صوتًا من السماء، فنُودِيتُ، فنظرتُ أمامي وخلفي	٣٧٠
فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح، إنَّك أنت أوَّل الرسل	٢٧٦
فيذهب ليسجد فيعود ظهره طَبَقًا واحدًا	١١٨
ق	
قمْ أبا تراب!	٣٢٤
قمْ يا نومان!	٣٢٤
ك	
كان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله ﷻ	٤٦٤
كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته، وضعت جِرَانَها	٣٣١
كان خُلُقه القرآن	٧٩، ٨٠
كان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه، حتَّى كأنَّه قطعةُ قمر	٥١٧
كان رسول الله ﷺ إذا عَمِلَ عملًا أثبته	٢٠٩
كان رسول الله ﷺ يعالج من التنـزيل شِدَّة، فكان يحرِّك شفتيه	٤٦٣
كان النبيُّ يُبعَث إلى قومه خاصَّة، وبُعثت إلى النَّاس كافَّة	٢٤٠

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
كان يقرأ السورة فيرتِّلُها، حتَّى تكون أطولَ من أطولَ منها	٣٢٨
كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة بـ﴿الٓمٓ ۞ تَنزِيلُ﴾	٤٩٤
كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن	١٧٢
كلُّ مولودٍ يُولَد على الفطرة، حتَّى يُعْرِب عنه لسانُه	٥٠٥
كل النَّاس يغدو، فبائعٌ نفسَه فمعتِقُها أو موبِقُها	٥٠٤
ل	
لا أُحْصِي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ على نَفْسِك	٥٦٨
لا إلٰه إلَّا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتِح اليومَ من ردْمِ يأجوجَ	١٠٠
لا تصحبْ إلَّا مؤمنًا، ولا يأكلْ طعامَك إلَّا تقيٌّ	٢٧٣
لا خيرَ في دِينٍ ليس فيه ركوعٌ ولا سجود	٦٠٢
لا، يا بنتَ أبي بكر ـ أو: يا بنتَ الصِّدِّيق ـ ولكنَّه الرجلُ يصوم ويتصدَّق	٢١٩
لا يدخل الجنَّةَ نمَّام	٩٧
لا ينبغي لأحدٍ أن يقول: أنا خيرٌ من يونسَ بنِ متَّى	١٢٦
لقد أُوتي هذا مزمارًا من مزامير آل داود	٣٢٩
لن يدخل أحدًا عملُه الجنَّة قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: لا، ولا أنا	١٥٢، ٥٩٤
لن يَدخلَ أحدٌ الجنَّة بعمله	٥٩٦
لن يهلِك الناسُ حتَّى يُعذِروا من أنفسهم	٣٧
لو أنَّكم تتوكَّلون على الله حقَّ توكُّله، لرزقكم كما يرزق الطيرَ	٤٦
ليس الخبرُ كالمعاينة	١٦٩
ليس المسكينُ الَّذي يطوف على النَّاس، تردُّه اللقمةُ واللقمتان	٥١٤
ليس منَّا من لم يَتَغَنَّ بالقرآنِ	٣٢٩

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
م	
ما داوم عليه صاحبُه	٢٠٩
ما زالتْ أكْلَةُ خيبرَ تُعَاوِدُني، فهذا أوان انقطاع أَبْهَرِي	١٦٦
ما شيءٌ أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُقٍ حَسَن	٨٧
ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادمًا له قطُّ	٨٢
ما كنتم تقولون في هذا؟ فقلنا: كُنَّا نقول: يولَد عظيم، يموت عظيم	٢٩٢
ما لي أراكم عِزِين؟!	٢٢٧
ما المسؤول عنها بأعلم من السائل	٣٠٥
ما من خارجٍ يخرج إلَّا ببابِه رايتان: رايةٌ بيد مَلَك، ورايةٌ بيدِ شيطان	٥٠٥
ما من شيءٍ يُوضعُ في الميزان أثقل من حُسْن الخُلُق	٨٧
ما من مولود إلَّا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه	٢٠٦
مُثِّل له يوم القيامة شُجاعًا أقرع، يأخذ بلَهْزَمَتَيْه يقول: أنا مالُك، أنا كنـزُك	٣٦٥
من أحبَّ أن يُبسَط له في رزقه	٢٤٤
من تعارَّ من الليل فقال: لا إلٰه إلَّا الله، وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمد	٣٦٧
مَنْ سنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة، فله أجرُها، وأجر من عمل بها	٧٨
مَن قال: سبحانَ الله العظيم وبحمده، غُرِست له نخلةٌ في الجنَّة	١٧٢
من نذر أن يُطيع الله فليطِعْه، ومن نذر أن يعصي اللهَ فلا يعصِه	٥١٢
ن	
نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم	١٦٩
نِعْمَ الرجلُ عبدُ الله لو كان يصلِّي من الليل	٣٥٩

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
نهى ﷺ عن الوحدة	٢٢٨
نهى عن التبتل	٣٤١
نهى عن الجَذَاذ باللَّيل، والحصادِ بالليل	١١٢
هـ	
هل تضارُّون في رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب؟ قالوا: لا	٤٦٨
هل لكم في كلمة تدين لكم بها العرب، وتؤدِّي العجم إليكم بها الجزية؟	٧٥
و	
والَّذي نفسي بيده، إنَّه ليخفَّفُ على المؤمن حتَّى يكون أخفَّ عليه من صلاةٍ	١٩٥
والشرُّ ليس إليك	٢٩٢
ولا تُوعي فيُوعي اللهُ عليكِ	٢٠٥
ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منكَ الجَدُّ	٢٨٦
ويْحَك، إنَّها كائنة، فما أعددتَ لها؟	٣٠٥
ي	
يا عبادي، إنَّكم تخطئون باللَّيل والنَّهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا	٣٦٧
يا عبادي، إنَّكم لن تبلغوا نفْعي فتنفعوني، ولن تَبْلغوا ضرِّي فتضرُّوني	٥٨٦
يا عبدَ الله، لا تكنْ مثلَ فلانٍ كان يقوم الليل، فترك قيام الليل	٥، ٣٥٨
يا يهوديُّ، من كلٍّ يُخلَق، من نطفةِ الرَّجُل، ومن نُطفة المرأة	٥٠١
يُعَذَّبان، وما يُعَذَّبان في كبير. ثمَّ قال: بلى، كان أحدُهما لا يستتر من بوله	٩٧
يَعقدُ الشيطانُ على قافيةِ رأسِ أحدِكم إذا هو نام ثلاثَ عُقَد	٣٥٧

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
يُقال لصاحبِ القرآن: اقرأْ، وارْقَ، ورَتِّلْ كما كنت تُرَتِّلُ في الدنيا	٥، ٣٢٨
يقول ربُّكم جَلَّت قدْرتُه وعظمته: أنا أهلٌ أن أُتَّقَى فلا يُجعَلَ معي إلٰه غيري	٤٢٧
ينـزل ربُّنا كلَّ ليلةٍ إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلثُ الليلِ الآخِرُ	٣٦٧
يُؤْتى بجهنَّمَ يومئذٍ لها سبعون ألفَ زمامٍ، مع كلِّ زمامٍ سبعون ألفَ مَلَك	٤٠٠

❊ ❊ ❊

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

فهرس الموضوعات

❖ **من الدستور الإلهي للبشرية** **٤**

❖ **من مشكاة النبوة الخاتمة** **٥**

• **مقدمــة** **٧**

❖ **تفسير سورة الملك** **١١**

بداية تفسير السورة **١٢**

السور الَّتي افتتحت بالثناء على الله ١٢

معنى ﴿تَبَٰرَكَ﴾ ١٥

إثبات قدرت الله التامَّة وتصرُّفه الكامل ١٦

خالق الموت والحياة ١٩

الحكمة من خلق الموت والحياة: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ ٢١

إظهار الفرق بين الحسن والأحسن ٢٢

معنى ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ ٢٤

خلق السماوات السبع الطباق ٢٤

نفي التباين والتناقض في خلق السماوات ٢٧

QaradawiBooks.com

الأمر بتقليب النظر في السماوات ٢٨
كمال خلق السماوات وتزيين السماء الدنيا بالكواكب ٣٠
السماء في علوم الفلك ٣٢
توبيخ خزنةِ جهنَّم للذين كفروا بربهم ٣٥
إقرارهم بعدم الانتفاع بما منحهم الله من وسائل العلم ٣٦
نهج القرآن في ذكر الوعد بعد الوعيد ٣٧
علمه سبحانه بالسر والجهر ٣٩
تفسير ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ ٤٢
تذليل الأرض وتسخيرها للإنسان ٤٣
الأمر بالمشي في الأرض والأكل من رزق الله ٤٤
ختام قصَّة الإنسان ٤٦
تهديد الكفَّار بعذاب الدنيا ٤٦
تخويفهم من عذاب الخسف ٤٧
هل الله سبحانه في السماء؟ ٤٨
تخويف الكفَّار بعذاب الريح ٥٠
بسط الطيور أجنحتها وقبضها في جو السماء ٥١
الفرق بين: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، و﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ٥٢
ليس للكافرين من دون الله من ولي ولا ناصر ولا رازق ٥٣

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

التباين الشديد بين الكافر والمؤمن ٥٥
إنشاء النَّاس في الأرض وإمدادهم بنعم السمع والأبصار والأفئدة ٥٧
استبعاد الكافرين للبعث ٥٩
حال الكافرين عند نـزول العذاب ٦١
❖ **تفسير سورة القلم** **٦٧**
ملامح حول السورة ٦٧
سورة تدافع عن محمَّد ﷺ ٦٨
بداية تفسير السورة **٦٩**
الراجح في الحروف المقطعة ٧٠
القسم بالقلم والكتابة ٧٠
اتّهامات المشركين للنبي ﷺ ٧٤
التهمة بالجنون تهمة قديمة ٧٤
دعوة القرآن إلى التفكر ٧٦
أجر النبي الكثير المستمر ٧٧
صاحب الخُلُق العظيم ٧٩
كلام الإمام القرطبي في معنى الخلق العظيم ٨٥
المسائل الثلاث للإمام الرازي في الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ٨٨
من المفتون الضالُّ؟ ٩٠

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

التحذير من طاعة المكذّبين ومصانعتهم ٩٢
عاقبة المكذبين ٩٤
النهي عن طاعة أصناف أخرى من الناس ٩٥
عاقبة الأشحَّاء والأنانيِّين الَّذين يعيشون لأنفسهم ١٠٤
الحق الَّذي منعه أصحاب الجنة ١١٢
عاقبة المؤمنين المتقين ١١٣
لا مساواة بين المسلمين والمجرمين ١١٣
أهوال يوم القيامة ١١٦
وعيد وتهديد للمكذبين ١١٩
تثبيت النَّبي ﷺ وتذكيره بقصة يونس ١٢٣
حال الكفَّار مع النبيِّ ﷺ عند سماع القرآن ١٢٧
رسالة القرآن العالميَّة منذ العهد المكي ١٢٨
❖ **تفسير سورة الحاقة ١٢٩**
أغراض السورة ١٢٩
بداية تفسير السورة ١٣٠
من أسماء يوم القيامة ١٣٠
عاقبة المكذبين بيوم القيامة ١٣٣
نتيجة تكذيب قبيلة ثمود وكيفية إهلاكهم وفظاعته ١٣٤

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

نتيجة تكذيب قبيلة عاد وكيفية إهلاكهم وفظاعته ١٣٥
المدة الَّتي سخِّرت فيها الريح عليهم ١٣٦
تشبيه الهلكى بأعجاز النخل الخاوية ١٣٧
قصَّة فرعونَ وقومَ لوط وما أصابهم من جرَّاء تكذيبهم بالرسل ١٣٩
أخذ الله الشديد لهم ١٤٠
قصة نوح مع قومه ١٤١
الحاقَّة ومظاهرها الرهيبة ١٤٣
وما المراد بالعرش حينئذٍ؟ ١٤٥
موقف العرض على الله عَزَّ وَجَلَّ ١٤٦
وماذا في هذا العرض؟ ١٤٦
أهل اليمين وأهل الشمال ١٤٧
القسم على حَقِيَّة القرآن ١٥٩
المقسم عليه القرآنُ قولُ رسولٍ كريم يبلِّغه عن المُرسِل، وهو الله ١٦٠
الرسول الكريم في سورة الحاقَّة والتكوير ١٦٢
القرآن كلام ربِّ العالمين ١٦٢
جزاء المفترين على الله عَزَّ وَجَلَّ ١٦٤
القرآن تذكرة ينتفع به أهل التقوى ١٦٦
التنديد بالمكذبين بالقرآن ١٦٧

QaradawiBooks.com

القرآن حسرة على الكافرين حين لا ينفعهم التَّحسُّر ١٦٨
مراتب اليقين في القرآن ١٦٨
الأمر بتسبيح الرب العظيم سبحانه ١٧٠
شهادته تعالى لنبيِّه محمَّد ﷺ ١٧٢
لو كان محمَّد كاذبًا، لقطع الله وتينه ١٧٤
مناظرة بين ابن القيِّم وأحد أحبار اليهود ١٧٧
ثقة رسول الله ﷺ بنصر الله ١٧٩
شهادة المنصفين من أهل الكتاب ١٨٣
من ثمارهم تعرفونهم ١٨٤
❖ **سورة المعارج ١٨٩**
أغراض السورة ١٨٩
بداية تفسير السورة ١٩٠
فما هو هذا اليوم الَّذي بلغ هذا المقدار الطويل فيما يرى الناس؟ ١٩٣
حال النَّاس في يوم القيامة ١٩٣
أمر الرسول ﷺ بالصبر ١٩٥
الصبر الجميل ١٩٦
ـ قُرب العذاب الَّذي أُنذِرَ به الكافرون ١٩٧
الصداقة والقرابة تتلاشى يوم القيامة ولا يهمُّ المرءُ إلَّا نفسَه ٢٠١

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

من أوصاف جهنَّم ٢٠٢
صفات أهل النار ٢٠٤
صفات الإنسان ٢٠٦
الطبائع الإنسانيَّة مُهلكة إذا تُركت بدون تزكية ٢٠٧
أهمية المحافظة على الصلاة ٢١٢
ملكيَّة المال الحقيقية لله تعالى ٢١٥
معنى ﴿حَقٌّ مَّعۡلُومٌ﴾ ٢١٦
معنى السائل والمحروم ٢١٧
التصديق بيوم الدين ٢١٨
الخوف من عذاب الله ٢١٨
لا يأمن أحدٌ عذاب الله ٢١٩
حفظ الفروج عن كل ما حرَّم الله ٢١٩
صيانة الأمانات ورعاية العهود ٢٢٠
أداء الشهادات المطلوبة ٢٢٢
سِرُّ تكرير ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ﴾ ٢٢٥
نفرة المشركين من الرسول ﷺ وتفرُّقهم جماعات ٢٢٦
لا جنَّة بلا إيمان، ولا إيمان إلَّا بعمل ٢٢٨
تهديد المشركين وبيان أنَّ قدرته تعالى لا يُعجزها شيء ٢٣٠

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

افتتاح السورة واختتامها بإثبات أن يوم القيامة حق ٢٣٢
وصف يوم البعث والجزاء الَّذي ينكرونه ويستهزئون به ٢٣٣
❖ تفسير سورة نوح ٢٣٥
مقدمة وبيان قصد السورة ٢٣٥
بداية تفسير السورة ٢٣٨
لماذا أرسل الله تعالى نوحًا إلى قومه؟ ٢٤٠
بِمَ أنذر نوح قومه؟ ٢٤٢
ما الفائدة من قوله: ﴿لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾؟ ٢٤٤
مناجاة نوح ربه وذكره ما لَقِيَ من قومه وطريقة دعوته لهم ٢٤٤
تفسير الآيات ٢٤٥
تأسُّف نوح وتحزُّنه من قومه وشكواه إلى الله ٢٤٥
استمرار نوح في دعوة قومه رغم إصرارهم على الكفر ٢٤٧
الإيمان سبيل إلى الحياة الطيبة ٢٤٨
الاشتغال باستغفار الله تعالى وطاعته سبب لإدرار الخيرات كلها ٢٤٨
من بركات الاستغفار ٢٥١
الدليل من الأنفس على التوحيد ٢٥٣
الدليل من الآفاق على التوحيد ٢٥٤
رأي البحوث العلمية في لفظ (أطوار) ٢٥٥

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

رأي العلم الحديث في السماوات السبع الطباق ٢٥٧
مصير قوم نوح وعاقبة مكرهم ٢٦٧
إثبات عذاب القبر ٢٦٨
ليس للكفار أنصار وشفعاء ٢٦٩
دعاء نوح على الكافرين المعاندين ٢٧٠
مسألتان ذكرهما ابن العربي ٢٧٥
❖ **تفسير سورة الجن ٢٧٨**
السورة مكية ٢٧٨
متى نـزلت؟ ٢٧٨
ترتيبها في النـزول ٢٧٩
أغراض السورة ٢٧٩
وجه مناسبتها لما قبلها ٢٨٠
بداية تفسير السورة ٢٨١
تَكرار كلمة: «قل» في القرآن ٢٨١
القرآن يهدي إلى الرشد ٢٨٣
تفسير ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ ٢٨٤
تنـزيهه سبحانه عن الصاحبة والولد ٢٨٥
معنى ﴿تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ ٢٨٦

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

من اعترافات مؤمني الجن قولُ سفيههم الشَّطط على الله ٢٨٨
ظنُّ الجن عدم كذب الإنس والجن على الله ٢٨٩
ـ عَوْذُ رجال من الإنس برجال من الجن ٢٨٩
ظنُّ الجنِّ كما ظنَّ الإنس بعدم البعث ٢٩٠
صيانة السماء من استراق السمع من الجنِّ ٢٩١
عدم دراية الجنِّ عمَّا يحدث من حراسة السماء من استراق السمع:
أهو خيرٌ أم شرٌّ؟ ٢٩٢
طبيعة الجن واختلافهم في الإيمان والكفر واختلافهم في الجزاء
على عقائدهم وأعمالهم ٢٩٤
الجن منهم المسلمون ومنهم القاسطون ٢٩٦
الماديُّون من بني الإنسان ينكرون وجود الجنِّ ٢٩٧
ما جاء في سورة الأحقاف ٢٩٨
الرسول لا يعلم من الغيب إلَّا ما أعلمه الله ٣٠٤
كلام العلَّامة أبي السعود في تفسير آية: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ ٣٠٧
ما قاله الإمام القرطبي ٣٠٨
كَذَب المنجِّمون في دعاويهم ٣٠٩
التفاضل بين الجنِّ والإنس ٣١٢
ما نقوله عمَّا بين الجنِّ والإنس من أمور ٣١٣

غير مخصصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

❖ **تفسير سورة المُزَّمِّل ٣١٧**

مكيَّة السورة ٣١٧

ترتيب السورة في التنـزل ٣١٧

أغراض السورة ٣٢٠

الخطاب المباشر للرسول ٣٢١

بداية تفسير السورة ٣٢٢

أنواع النداءات الإلهيَّة في القرآن ٣٢٢

النداء بـ «يا أيُّها المزمل» ٣٢٣

مواجهة المجتمع الوثني ٣٢٤

تأمُّل في الآيات الأولى من سورة «المُزمِّل» ٣٢٦

مقدار قيام الليل ٣٢٧

قراءة القرآن بترسُّل وتمهُّل وتبيينٍ ٣٢٨

معنى «القول الثقيل» المُلقى على الرسول ٣٣١

كلام الفخر الرازي في معنى «القول الثقيل» ٣٣٣

معنى ناشئة الليل ٣٣٤

تفسير الفخر الرازي لناشئة الليل ٣٣٥

تفسير الفخر الرازي لقوله تعالى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ ٣٣٧

قوله تعالى: ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ ٣٣٨

QaradawiBooks.com

تفسير الإمام الفخر الرازي لهذه الآية: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ ٣٤٢
كلام الفخر الرازي حول هذه الآية: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ ٣٤٥
التعامل مع المشركين ٣٤٧
التهديد بأهوال يوم القيامة ٣٤٨
التهديد بعذاب الدنيا، كما جرى على أمثالهم من الأُمم ٣٤٩
العودة إلى تخويفهم بأهوال القيامة ٣٥٠
تفسير الآية الأخيرة من سورة المزمل ٣٥٣
تفسير: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾ ٣٥٥
أمر الله تعالى بقراءة ما تيسَّر من القرآن ٣٥٧
القدر اللازم للقراءة في الصلاة ٣٥٩
معنى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ٣٦١
معنى: ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ ٣٦٢
تقديم الخير للأنفس وثوابه عند الله ٣٦٤
تفسير: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ ٣٦٦
❖ **تفسير سورة المدَّثِّر** ٣٦٩

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

مقدِّمة حول السورة ٣٦٩

أغراض السورة ٣٧١

بداية تفسير السورة **٣٧٢**

الخطاب الثاني الموجّه للنبي ﷺ ٣٧٢

المبدأ الأول: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ ٣٧٢

المبدأ الثاني: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ ٣٧٤

المبدأ الثالث: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ ٣٧٥

المبدأ الرابع: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ ٣٧٧

المبدأ الخامس: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ ٣٧٨

المبدأ السادس: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ ٣٨٠

من أهوال يوم القيامة ٣٨٢

عسر يوم القيامة على الكافرين ٣٨٢

التصدِّي لموقف الوليد بن المغيرة مع القرآن ٣٨٣

ذكر الإمام الرازي في تفسير المال الممدود وجوهًا ٣٨٦

معنى الشهود أو الشهادة في بنيه ٣٨٨

مصير الوليد بن المغيرة وأمثاله من الكفَّار المعاندين ٣٩٨

معنى ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ ٣٩٨

لا يعلم قوّة جنود الله تعالى غير الله ٤٠٤

QaradawiBooks.com

قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ ٤٠٧
قسمه سبحانه على إنجاز ما ذكره من الوعيد بسَقَر ٤٠٨
وقفات في معاني هذه الآيات مع ابن القيِّم ٤٠٩
وقفة مع سيِّد قطب ٤١٧
الجزاء بالخير والشر مُرتَّبٌ على ما يعمله الإنسان من أسبابهما باختياره ومَحْض إرادته ٤١٩
إعراض المشركين وفرارهم عن وسائل النجاة المعروضة عليهم ٤٢٤
الكِبْر والحسد من أسباب الجحود ٤٢٥
علَّة الكفَّار النفسيَّة أنَّهم لا يخافون عذاب الآخرة ٤٢٦
القرآن تذكرة لمن أراد أن يذَّكَّر ٤٢٦
الله سبحانه حقيقٌ بأن يتقيَهُ عباده، وهو حقيقٌ بأن يغفر لهم ٤٢٧
كلام قَيِّم لابن القيم ٤٢٨
❖ **تفسير سورة القيامة** **٤٣١**
ملامح حول السورة ٤٣١
بداية تفسير السورة **٤٣٢**
القسم المنفي في القرآن ٤٣٢
النفس اللوامة ٤٣٣
أسماء يوم القيامة في القرآن ٤٣٤

غير مرخصة للطباعة
نسخة أسبابية
QaradawiBooks.com

معنى النفس اللوامة ٤٣٨
كلام الإمام ابن القيم ٤٤١
رأي ابن القيِّم في المراد بالنفس اللوامة ٤٤٢
مراحل النفس الإنسانيَّة في الترقي ٤٤٤
المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه ٤٤٥
كلام ابن القيِّم في تفسير هذه الآية: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ ٤٤٦
التفسير العلمي لتسوية البنان ٤٤٨
بصمة البنان خاتَم مميِّز لكل إنسان: ٤٥٢
تلقي النبي ﷺ الوحي وطمأنته بحفظه وبيانه ٤٦٣
صفة النبي ﷺ في تلقيه الوحي ٤٦٣
معنى آخر في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ ٤٦٥
حب الدنيا العاجلة ونسيان الآخرة الباقية ٤٦٦
وجوه أهل السعادة ووجوه أهل الشقاوة ٤٦٧
رؤية الله تعالى يوم القيامة ٤٦٨
بعض التأويلات المردودة ٤٦٩
قوله سبحانه: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ﴾ ٤٧٠
مشهد الاحتضار ٤٧١
ترجيح ابن القيِّم للمراد بقول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ﴾ ٤٧٣

QaradawiBooks.com

صفات الكافر الَّتي استَحَقَّ بها عذابَ الآخرة ٤٧٨

تفسير الرازي لهذه الآيات: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ..﴾ ٤٧٩

وعيد الكافر المكذِّب المتولي المتكبر المختال ٤٨١

إثبات البعث وتقريره ٤٨٣

تفسير الرازي لهذه الآيات: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى..﴾ ٤٨٥

كلام قيم لابن القيِّم في تناسب آيات السورة بعضها ببعض، وفي بعض أسرارها ... ٤٨٦

اشتمال السورة على معاني الجمع والضم ٤٨٧

الجمع بين جمال الظاهر وجمال الباطن ٤٨٨

قدرة الرب سبحانه على ما عُلم أنَّه لا يكون ولا يفعله ٤٨٩

التأني والتثبت في تلقي العلم ٤٩٠

ذمّ الاستعجال وإيثار العاجلة على الآجلة ٤٩١

إثبات النبوة والمعاد بطريق العقل ٤٩٢

❖ **تفسير سورة الإنسان** **٤٩٤**

ملامح حول السورة ٤٩٤

أغراض السورة ٤٩٥

بداية تفسير السورة **٤٩٦**

كلام صاحب الظلال عن النطفة الأمشاج ٤٩٩

كلام الدكتور زغلول النجار حول نطفة الرجل والمرأة في تكوّن الأجنّة ٥٠١

QaradawiBooks.com

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ٥٠٢

بيان سوء حال الكافرين وحُسن حال الأبرار الشاكرين ٥٠٥

شراب الأبرار في الجنة ٥٠٦

معنى البر وحقيقته ٥٠٨

هل حسنات الأبرار سيئات المقربين كما قيل؟ ٥٠٩

وصف شراب الأبرار ٥١٠

صفات هؤلاء الأبرار وأحوالهم الَّتي استحقُّوا بها هذا النعيم ٥١١

مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ ٥١٣

مناسبة هذه الآيات لما قبلها ٥١٧

تفسير: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ ٥٢٣

مجالس الأبرار في الجنَّة وشرابهم ٥٢٤

آنية الأبرار وأكوابهم ٥٢٦

شراب الأبرار والمقربين ٥٢٨

خدم أهل الجنة ٥٣١

ثياب أهل الجنة ٥٣٢

حلي أهل الجنَّة ٥٣٣

الشراب الطهور ٥٣٤

دعوة النبي ﷺ إلى الصبر والذكر وقيام الليل ٥٣٧

QaradawiBooks.com

من هو الآثم والكفور؟ ٥٣٧
ذكر الله تعالى وقيام الليل والسجود والتسبيح ٥٣٨
محبة العاجلة ونسيان اليوم الثقيل ٥٤٠
الافتراق بين منهج الإسلام ومنهج الجاهليَّة ٥٤١
قدرة الله سبحانه على النشأة الأخرى ٥٤٢
رسالة القرآن رسالة هداية وإرشاد وتذكير وليست رسالة إكراه وإلزام ٥٤٣
تفسير سيِّد قطب لختام السورة ٥٤٥
سَعَة رحمة الله وعظيم جلاله ٥٤٧
❖ **سورة المرسلات** **٥٤٨**
كلمات حول السورة ٥٤٨
أغراض السورة ٥٤٩
بداية تفسير السورة **٥٥١**
مشاهد الانقلاب الكوني قبل يوم القيامة وأحداثه ٥٥٤
تكرار: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ ٥٥٩
معنى الويل، وما قيل من أن «ويلًا» واد في جهنَّم ٥٦٠
المكذِّبون الَّذين توعدتهم الآيات ٥٦١
سؤالان للإمام الفخر الرازي ٥٦١
إهلاك الكفرة المتقدّمين وسنَّة الله في المجرمين ٥٦٢

QaradawiBooks.com

المراد بالإهلاك في الآية ٥٦٤
نوع ثالث من تخويف الكفار ٥٦٥
ثناء الله تعالى على ذاته ٥٦٨
النوع الرابع من تخويف الكفار ٥٦٩
أول نعمة من نعم الآفاق هي الأرض ٥٦٩
ثم في معنى الآية وجوه ٥٧٠
إثبات إمكان البعث وأدلَّة ترجيحه ٥٧١
النوع الثاني من نعم الآفاق: الرواسي الشامخات ٥٧١
النعمة الثالثة من نعم الآفاق: الماء الفرات ٥٧٢
الوجه الخامس من وجوه تخويف المشركين ٥٧٣
صفات نار جهنَّم ٥٧٤
الصفة الثانية للنار: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ ٥٧٥
الصفة الثالثة للنار: ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ ٥٧٥
الصفة الرابعة للنار الَّتي يخوِّف الله بها الكفار ٥٧٦
تفسير الآلوسي لهذه الآيات: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ...﴾ ٥٧٧
النوع السادس من أنواع التخويف للكفار ٥٨١
وفي الآية ثلاثة أسئلة ٥٨٢
والجواب عنه من وجوه ٥٨٢

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

النوع السابع من أنواع التخويف للكفار ٥٨٥

النوع الثامن من أنواع التخويف للكفّار ٥٨٧

جزاء المؤمنين في مقابل جزاء الكافرين ٥٨٧

من هم المتّقون المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾؟ ... ٥٨٩

ظلال الجنّة وعيونها ٥٩١

العيون الّتي وعد الله المتقين ٥٩١

ومن ذلك أيضًا الفاكهة الّتي يشتهونها: ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ ٥٩٢

المتقون في ثلاثة أنواع من النعم ٥٩٢

هل يصح الاستدلال بقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على وجوب الثواب على الله؟ ٥٩٣

تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ٥٩٧

النوع التاسع من أنواع تخويف الكفار ٥٩٨

النوع العاشر من أنواع التهديد والتخويف للكافرين ٦٠٠

ثم أورد الإمام الفخر الرازي عدّة مسائل حول تفسير الآية ٦٠٠

تفسير قوله تعالى: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ ٦٠٣

- **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة** ٦٠٧

- **فهرس الموضوعات** ٦١٧

* * *

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية